يصدرها
حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

عدد مزدوج
٤٠٠
صفحة كبرى

Б. ПАСТЕРНАК
"ДОКТОР
ЖИВАГО"



دكتور چيڤاجو

بوريس پاسترناك



جائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩٥٨

النص الحرفى الكامل لملحمة العصر

دكتور ﭼيڤاجو

للأديب الروسى المعاصر: "بوريس باسترناك"
الفائز بجائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩٥٨

Б. Пастернак „Доктор Живаго“



كتب مقدمتها : **الدكتور طه حسين**

اشترك فى ترجمتها ، بتكليف من « مطبوعات كتابى » :

يحيى حقى – سامى داود – ثابت أمين – بهجت عبد الفتاح
محمد بدر الدين خليل – حلمى مراد

راجعها وحققها ، على النصين الانجليزى والفرنسى ، وكتب البحث المزود بالوثائق والتفصيلات الكاملة لقضية « باسترناك » : حلمى مراد

٤٠٠ صفحة – ٣٠ قرشا

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة الامينة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

مدير التحرير : محمد بدر الدين خليل

الادارة : عمارة الجندول – ١٤ شارع ٢٦ يوليو – بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

هذا الصرح الادبى الخالد ..

عزيزى القارىء ..

• فى رسالتى اليك من (ستوكهولم) فى نوفمبر الماضى — فى بداية الضجة الكبرى التى أثارها فوز « باسترناك » بجائزة نوبل فى الادب — لخصت لك سيرة حياة هذا الاديب الروسى المعاصر ، وقدمت لك نماذج ومقتطفات من أدبه ، الشعرى والنثرى على السواء .. ثم حدثتك حديثا عابرا عن هذه الرواية الضخمة ، فقلت اننى :

« قد أقدمها لك فى عدد قادم ، لأننى لم أقرأها بعد ، فهى تقع فى نحو أربعمائة وسبعين صفحة من القطع الكبير ، والحروف الصغيرة ، (أى أكثر من ثمانمائة صفحة من حجم كتابى) .. وأحداثها تدور فى نطاق واسع — من حيث الزمان والمكان — بحيث تشغل مساحات شاسعة من روسيا ، وتستغرق حقبة طويلة من الزمان ، تبلغ نحو خمسين عاما .. ويشبهها النقاد من هذه الناحية ، ومن حيث تعدد شخصياتها وكثرة أبطالها ، بقصة تولستوى الخالدة : « الحرب والسلام » .

ثم قلت فى موضع آخر من نفس الرسالة :

« والقصة لم تنشر بالروسية حتى اليوم ، بسبب انتقادها لبعض أحداث الثورة البلشفية ، ولكنها ترجمت الى الانجليزية فى الصيف الماضى ، كما تحتل طبعاتها السويدية والنرويجية واجهات المكتبات هنا فى كل مكان . وهم ينطقون اسمها هنا « دكتور شيفاجو » (١) ، ولو انها تكتب بالحروف اللاتينية كما لو كانت تنطق « زيفاجو » ، ولا أدرى كيف تنطق بالروسية . وبطلها طبيب وشاعر ، كانت أحلام اصلاح المجتمع الروسى تضطرم فى نفسه قبل نشوب ثورة سنة ١٩١٧ .. الخ »

والواقع اننى حين أشرت الى اننى « قد » أقدم لك هذه القصة الطويلة — أو بالاحرى « الرواية » — فى عدد تال من (كتابى) ، انما كنت أعنى احتمال تقديمها اليك « ملخصة » ، بعد أن أفرغ اولا من قراءتها . **أما أن أقدمها لك بنصها الحرفى ، فى ترجمة كاملة ، فشىء أعترف انه لم يدر يومئذ بخاطرى ، لسببين : أولهما سبب « شكلى » ، هو ان طولها وضخامتها تجعلان ترجمتها الكاملة « مشروعا » كبيرا ، يحتاج الى تردد ، وتفكير !**

---

(١) وقد رجح الآن انها تنطق بالروسية « جيفاجو » ، أى بتقريب الشين الى الجيم .

والسبب الثانى « الموضوعى » ، هو اننى رجحت يومئذ — نظرا للضجة الكبرى التى أثيرت حول الرواية من جانب دول الغرب — ان يكون منح مؤلفها جائزة نوبل ، والشهرة التى نالتها القصة ، قائمين على اعتبارات « سياسية » محضة ، لا عن جدارة أدبية ، وذلك ما لا يدخل فى نطاق رسالة « مطبوعات كتابى » .

كانت هذه شكوكى التى جعلتنى أرجىء الحكم للقصة ، أو عليها . حتى أفرغ من قراءتها واحكم بنفسى ، غير متأثر بدعاية ما ..

فلما تقدمت فى القراءة ، ذهلت ! .. وجدتنى أمام عمل « أدبى » رائع ، تنطق كل صفحة فيه ، بل كل عبارة ، بموهبة نادرة لا تتوافر الا فى أديب متمكن ، فحل ! .. واقتنعت عن يقين بأن كل ما ذكر فى امتداح القصة والاشادة بها ، الى حد تشبيهها بقصة تولستوى (الحرب والسلام) ، بل الى حد منح مؤلفها جائزة نوبل فى الادب .. **انما كان تقديرا موضوعيا خالصا ، لوجه الادب وحده ، وليس لوجه السياسة ، او الدعاية ، او الحرب الباردة .. بحال من الاحوال !**

ويطول بى السرد لو أردت ان أنتقى لك أمثلة على هذه الفحولة التى تميز بها « باسترناك » فى هذه الرواية ، لاسيما من حيث فلسفته فى تمجيد الانسان من حيث هو « فرد » ، له قيمة ذاتية سامية ، وشخصية مستقلة ، وروح عظيمة — فان كل صفحة من صفحات الكتاب تكاد تنطوى على عبارة أو « لفتة » توحى بهذا المعنى — ولكنى سأحاول أن أقتصر هنا على بعض أمثلة تعطيك فكرة عن حاسة المؤلف الادبية ، وأسلوبه البليغ ، ومدى تعمقه فى التحليل والوصف .. كقوله حين يبرر اتجاه بطل الرواية الى دراسة الطب ، رغم ميله الى الادب والفن (ص ١٣٧) :

« كان يعتبر أن الفن لا يمكن أن يكون مهنة ، اللهم الا اذا كان من الممكن للفرح أو الحزن أن يكون مهنة ! »

أو قوله على لسان البطل ، وهو يحاول اقناع امرأة تحتضر بأن لا تجزع من الموت (ص ١٤١) :

« انك تتسائلين عما اذا كنت ستشعرين بألم ، ولكن : هل تشعر الأنسجة بتحللها ؟ .. وبمعنى آخر ، ما الذى سيجرى لوعيك ؟ .. ولكن ، ما هو الوعى أولا ؟ .. ان محاولتك النوم — ووعيك يحس بهذه المحاولة — لهى الطريقة المؤكدة للأرق والسهاد .. كما ان محاولتك الوعى بعملية الهضم وهى تجرى ، لهى الطريقة المثلى لاشاعة الاضطراب فى المعدة .. فالوعى سم حين نحاول أن نطبقه على أنفسنا ! .. أو هو شعاع



باسترناك فى سن الثامنة ، بريشة أبيه الرسام !

من نور ينبعث من أعماقنا الى الخارج ، فيضيء الطريق امامنا حتى لا نتعثر .. انه أشبه بالمصباح الكشاف المثبت فى صدر القاطرة ، فاذا أنت حولت شعاعه الى الداخل، كان وقوع الكارثة محققا !

بل انظر اليه حين يحلل أسى زوجة صمم زوجها على هجرها ، حين أدرك انها لم تكن تحبه الا بمشاعر الام ، لا الزوجة ! (ص ١٩٨) :

« وعضت على شفتها ، وأجفلت كمن أصابته ضربة .. ثم ابتلعت دموعها ، واقبلت فى صمت تحزم له أشياءه ..

« وأحست بعد رحيله كأن المدينة كلها قد خيم عليها الصمت .. حتى الغربان التى كانت تطير فى الجو ، قد قل عددها . وعبثا حاولت « مارفوتكا » ـ الطاهية ـ أن تردها الى نفسها ، منادية اياها : « سيدتى .. سيدتى » .. وعبثا راحت طفلتها تجذبها من كمها صائحة : « ماما .. ماما » .. فلقد أحست أنها تلقت أكبر هزيمة فى حياتها . لقد تحطمت أجمل آمالها وأبهرها ! »

.. أو حين يصور كيف يفرق الموت بين الجنود فى الميدان ، فيصاب البعض .. وينجو البعض الآخر ! (ص ٢٠٢) :

« .. وكانوا بين لحظة وأخرى ينبطحون أرضا ، ثم يهبون مندفعين الى الأمام وقد علا صياحهم .. وفى كل مرة كان يسقط بينهم مصاب او اثنان ، وكان سقوط هؤلاء يختلف فى طريقته عن انبطاح الآخرين ، فقد كانوا ينكفئون على وجوههم ، وكأنهم جذوع أشجار اجتثت من الغابة .. ثم لا ينهضون ثانية ! »

.. أو وهو « يرسم » هذه اللوحة الساخرة الرائعة لاحد أشخاص الرواية (ص ١٢٧) :

« .. ودلف الحوذى المقرور الى الداخل ، ومعطفه المنتفخ يبديه أشبه بفطيرة مرسومة على لافتة مخبز ، وقد ضاعف من الشبه ذلك البخار الذى كان ينبعث من طاقتى انفه وفمه ! »

.. او قوله وهو يصاحب بقلمه فتى خرج ساعة الفجر الى حديقة ضارية تحيط بمنزل من منازل الريف (ص ٦٩) :

« .. وما لبثت الشمس أن أشرقت ، فألقت ظلال الأشجار الطويلة الندية على الأرض . ولم تكن الظلال سوداء ، وانما كانت كالحة ، أشبه بلباد مبلل بالماء ..ولاح كأنما كان عبق الصباح ـ الذى يهفو بالرؤوس ـ يتصاعد من تلك الظلال الندية

المستلقية على الأرض ، تتخللها خطوط من النور ، أشبه بأصابع فتاة (١) . وفجأة ، لمع خيط فى لون الزئبق ، وفى لمعان الندى على العشب ، فزحف على قيد خطوات قلائل منه .. وظل يزحف ، ويزحف ، دون أن تمتصه الأرض أو تبتلعه . ثم التوى جانبا واختفى ، بحركة حادة ، سريعة ، غير مرتقبة .. وكان الخيط ثعبانا من ثعابين الأعشاب .. فارتجف (نيكى) ! »

بل أقرأ معى وصفه الرائع لجو «مشرحة» كلية الطب (ص١٣٧) :

« وكانت قاعة التشريح فى الطابق الأرضى من مبنى الجامعة ، غائرة تحت مستوى الأرض ، تهبط اليها بسلم حلزونى . وكانت تزخر دائما بالطلبة المشعثى الهيئة : بعضهم عاكفون على الدراسة ـ وأمامهم كتبهم تحيط بها العظام ـ أو منصرفون الى التشريح فى هدوء ، كل فى ركنه المختار .. وبعضهم يتسكعون فى القاعة ، يطلقون النكات ، ويطاردون الفئران التى كانت تجرى فى أسراب على الأرض الحجرية !.. وكانت الجثث العارية ـ جثث الغريقات والمنتحرات المجهولات الهوية ـ تومض كالفسفور فى عتمة المشرحة .وكانت حقن أملاح الشب تجددها ، وتبعث فيها استدارة خداعة .. فكانت الجثث تشق ، وتقطع أوصالها ، ومع ذلك فان الجسم الانسانى كان يظل محتفظا بجماله فى أدق أجزائه .. ومن ثم فان « يورا » كان يشعر اذ يحدق فى ذراع أو كف مبتورة من جسم فتاة ، بعين ما كان يشعر به حين يتأمل هذا الجسم وهو ملقى بوحشية على احدى الموائد الحديدية . وكان جو المكان ممتلئا بروائح حامض الفنيك و « الفورمالين » ، مشحونا بالأسرار الغامضة .. أسرار الحياة المجهولة لتلك الأجسام العارية الميتة .. أسرار الحياة والموت ذاتهما !.. كان الموت مألوفا فى تلك القاعة الغائرة تحت الأرض ، حتى لكأنها كانت بيته او مقر عمله ! ! »

أو تعال نستمتع بهذه الفلسفة والبساطة ـ معا ! ـ فى وصفه لمشاعر أسرة ظفرت بوجبة شهية، بينما كانت المدينة كلها تعانى «المجاعة» ! (ص ٢٨٨) :

« ان السعادة اذا لم تكن مقتسمة مع الغير ، فليست هى عين السعادة .. وكذلك تفقد « البطة » و « الفودكا » عندك معناها ، حينما تخال أن ليس فى المدينة كلها « بطة » أو « فودكا » سواها ! »

.. بل اقرأ ، وتذوق ، هذه الامثلة من بلاغته فى وصف الطبيعة ، وخياله الخصب فى التشبيه (صفحات ٢١٣ ، ٢٤١ ،

---

(١) ولا تنس انه يتحدث هنا بخيال فتى « مراهق » ، يربط كل شىء يراه بدنيا « المرأة » !

٣٤٧ ، ٣٦٨) :

« .. كانت تحيط بالوادى جبال تكسوها أشجار خشب الموسكى ، وتنسدل على قممها خصلات من الضباب .. وخلال الغابات كانت تبدو أجراف من الحجر الرمادى والجرانيت ، وكأنها رقع صلعاء فى فراء سميك ! » .

وفى موضع آخر : « .. وكنت ترى النور ينبعث من شق واحد من كل نافذة ، فكأنه العين المبصرة فى وجه فقدت عينه الثانية ابصارها ! »

وفى موضع ثالث : « .. وكانت الأشجار تلوح للقطار فى حفاوة ، بمناديل من الثلج الأبيض ! »

وفى موضع رابع : « .. واشرأبت أشجار الصنوبر العتيقة ، متطاولة الى ارتفاعات بدور الرأس اذا حاول الوصول الى قممها ، حتى كانت تكاد تشرب القطر من السحب .. بينما كانت تنفث عند جذورها زبدا أبيض تشوبه دكنة أشبه بلون الصدأ ، أو كأنه زبد البيرة على شارب رجل منهوم ظامىء ! »

وهكذا .. وهكذا .. فى كل صفحة من الكتاب تجد رأيا رصينا ، أو قولا بليغا ، أو فكرة لامعة ، أو تشبيها خلابا ، أو خيالا خصبا .. الخ .. فضلا عما تخرج به بعد قراءته ، من المام كامل بأحداث الثورة الروسية التى طوحت بالحكم القيصرى ، والحرب الاهلية التى أعقبتها . (وان كانت القصة لا تبلغ هذه الاحداث الا قرب منتصفها تقريبا .. أما ما قبل ذلك ، فوصف وتأريخ للمجتمع الروسى قبل نشوب تلك الثورة .)

* * *

• وحين انتهيت الى هذا الرأى « الشخصى » فى الكتاب ، عدت الى ما كتبه عنه النقاد الغربيون — ومالم ألق بالا اليه فى حينه ، اعتمادا على انه من قبيل « الدعاية » ! — فاذا بالآراء تكاد تجمع على الاشادة بالكتاب ، بما فى ذلك الآراء التى نشرت قبل منح باسترناك جائزة نوبل :

ففى عدد ٤ سبتمبر ١٩٥٨ ، نشرت صحيفة (لندن تايمز) الانجليزية تقريظا للرواية ، قالت فيه : « هل هى (حرب وسلام) جديدة ؟.. ان الجمال ، والقوة ، والانفعالات ، التى تفيض من بين سطور ملحمة « باسترناك » الجليلة ، توحى بوضعها فى مرتبة ملحمة تولستوى المشهورة . »

وفى عدد ٦ سبتمبر من صحيفة (ساترداى ريفيو) ، كتب المعلق الامريكى المشهور « هاريسون سالسبرى » يصف (دكتور جيفاجو) بانها : « قصة عظيمة للعصر الذى

نعيش فيه . »

وفى عدد ٤ أكتوبر من صحيفة (فرانكفورتر ألجماين تسايتونج) الألمانية ، كتب الناقد « فردريش زيبورج » يقول : « ان التاريخ يروى فى هذه الرواية بروعة لا مثيل لها فى الأدب المعاصر ! »

وناقد آخر ، هو « ألكسندر كيمبف » ، نشر عرضا للرواية فى عدد ١٧ أكتوبر



والد باسترناك ، الرسام .. ووالدته ، عازفة البيانو

عن صحيفة « سويددويتش تسايتونج » . التى تصدر فى ميونيخ بالمانيا ، استهله بقوله : « ان بوريس باسترناك هو فى رأيى أجدر من يستحق الفوز بجائزة نوبل للأدب ، لهذا العام ! » - (وكان ذلك قبل منح باسترناك الجائزة بنحو اسبوع .)

بل ان صحيفة (نوفوى روسكوى سلوفو) التى تصدر فى نيويورك نشرت فى عدد ٩ اكتوبر الرأى التالى للكاتب الروسى «ر. بليتنيف » ، تحت عنوان : « الطبيب العظيم ، بطل رواية باسترناك » ، وقد جاء فيه : « ان قصة باسترناك هذه تجعلنا نشعر كأنها لصيقة بتاريخ البشرية ، وتاريخ النزعة الانسانية .. لصيقة بعنصر «الطيبة» فى الانسان ، وفى الانسان الأسمى ، الشبيه بالاله . »

وثمة حقيقة أخرى وثبت الى خاطرى وانا أقف عند احصائية وردت فى الصفحة الاخيرة من احد اعداد مجلة (تايم) الواسعة الانتشار : لو كان القارىء العالمى - فى شتى البلاد - تبين ان الشهرة التى أضفيت على الكتاب لا تقوم على جدارة حقيقية ، من الناحية الادبية ، **لما أقبل عليه هذا الاقبال الذى جعله يفوز بالمرتبة « الاولى » فى الرواج فى العالم - دون جميع الكتب الروائية الاخرى - طوال أكثر من ٢٥ أسبوعا متوالية** ، حسب الاحصاء الذى تنشره المجلة المذكورة فى ذيل كل عدد !

.. واذ تجمعت لدى كل هذه المبررات لاقناعى بجدارة الكتاب بأن يقدم ، بنصه الكامل ، الى قارىء العربية .. **نبذت التردد جانبا ، و « أسلمت أمرى الى الله » ، فألقيت بنفسى - وبكل امكانياتى - فى معمعة هذا المشروع ..** وكان أن دفعت بأجزاء الكتاب الضخم الى عدد من أقدر الزملاء المترجمين .. ولم أعف نفسى فساهمت معهم بنصيب متواضع من عبء الترجمة ، الى جانب العبء الكامل للتحقيق والمراجعة المقارنة ، عن النسختين الانجليزية والفرنسية مجتمعتين .. والى جانب مهمة البحث و « التنقيب » عن الصور والوثائق التى رأيت تزويده بها - من كل مصدر - والتى تراها فى الصفحات التالية ، حتى تجىء هذه الطبعة مستكملة لاسباب الاتقان والامتاع ..

* * *

وكان من شأن التفرغ لانجاز هذا العمل الضخم ، أن يعوقنى وأسرة كتابى عن انجاز الاعداد العادية من (كتابى) و (مطبوعاته) فى مواعيدها .. **لكنى لم أسمح لهذا الاعتبار بأن يثبط همتنا عن**



بوريس باسترناك فى سن الثانية والثلاثين ،

السير قدما فى هذا المشروع الى غايته ، فى أقصر وقت ، دون ادنى تفريط فى مقتضيات الاتقان الكامل له ـ بكل طاقتنا ـ لاخراجه فى الصورة التى تراها الآن بين يديك .

ولما كانت تجزئة الكتاب الى نحو خمسة اجزاء ، لابد أن تفقده

بعض قدره ، وتفقدك بعض متعته ، فقد رأيت أن أقوم فى هذا الكتاب الضخم بتجربة جديدة ، هى اخراجه فى هذا القطع الاكبر من المعتاد ، وفى جزءين اثنين فقط .. جزءين ضخمين ، كلاهما من اربعمائة صفحة كاملة من هذا القطع .. حتى ليعتبر كل جزء منهما عددا « مزدوجا » من مطبوعات كتابى ، بل عددا « ثلاثيا » فى الواقع !

وثمة ناحية أخرى يهمنى التنويه عنها ، هى أن هذه الطبعة — فيما أعلم — **هى الطبعة الوحيدة « المصورة » من قصة « دكتور جيفاجو » فى العالم ، بين جميع الترجمات التى طبعت منه ، بشتى اللغات ، حتى الآن** .. ويزيد من قيمة الرسوم التى حليت بها فصول الرواية ، انها من ريشة فنان « روسى » عاش فى روسيا الى حين نشوب ثورة اكتوبر عام ١٩١٧ ، وعاصر أحداث تلك الثورة ، فهو اليوم أقدر من يصور الجو الذى تدور فيه حوادث الرواية ، وأقدر من يسبغ على رسومها اللمسات ، والمناظر ، والازياء الحقيقية لذلك العصر وتلك الامكنة ، والبقاع ، والاجواء ..!

أما الصور « الفوتوغرافية » لباسترناك — فى مختلف مراحل حياته — ولاسرته ، وداره ، ومكتبته ، والجو الذى يعيش ويتحرك فيه .. **فهى مجموعة نادرة حقا ، تعتبر فى ذاتها كسبا ضخما لهذه الطبعة** التى بذلت لك فيها كل ما فى الطوق من وسائل — يمكنك تصورها — كى تلقاك فى هذه الحلة القشيبة ..

وأخيرا — وليس آخرا — ولما كانت القصة « الحقيقية » لهذا الكتاب ماتزال أكثر تفصيلاتها مجهولة .. وأعنى بها القصة الحقيقية لتاريخ تأليفه ، وظروف منع نشره فى داخل الاتحاد السوفييتى ، وكيفية تسربه الى خارجه ، وبالتالى الى العالم كله .. ثم الملابسات الصحيحة لمنح باسترناك جائزة نوبل فى الادب ، وأسباب رفضه اياها ، والضجة التى قامت على اثر ذلك فى أربعة اركان الارض ، بسبب الحملة الشعواء التى تعرض لها هذا المفكر الحر من جانب سلطات بلاده .. الخ

أقول : لما كانت التفصيلات الحقيقية لكل هذا الذى اصطلح العالم على تسميته « قضية باسترناك » ، ماتزال محل أخذ و رد ، وتكهنات ، وتخمينات ، وشائعات ، تختلط فيها الحقائق بالاقاويل .. **فقد رأيت أن أجمع واستخلص لك — من شتى المراجع الاوربية**



بوريس باسترناك .. فى شبابه

ــ النصوص الكاملة لهذه القضية منذ بدايتها ، من واقع الوثائق الدامغة والمستندات الرسمية ، بعد تنقيتها من شوائب الشائعات التى لم يقم عليها دليل ثابت .. كيما تكون مرجعا تاريخيا لك فى صدر الكتاب ..

وفيما يلى هذه النصوص ، التى ستجد فيها الجواب القاطع على كثير من الأسئلة التى لا بد قد راودتك :

قضية باسترناك

— ١ —

• **فى ابريل سنة ١٩٥٤** ، نشرت المجلة الادبية الروسية (زناميا) أشعارا للأديب « بوريس باسترناك » تحت عنوان : (قصائد من الرواية النثرية « دكتور جيفاجو ») ، بعد ان مهدت لها بمقدمة كتبها الشاعر ، قال فيها :

« ان الرواية سوف تتم كتابة فصولها الاخيرة خلال هذا الصيف .. ووقائعها تجرى فى المدة بين عامى ١٩٠٣ و ١٩٢٩ ، وخاتمتها تصور الحرب الاهلية الكبرى فى روسيا . وبطل الرواية — الدكتور « يورى اندرييوفتش جيفاجو » — رجل حالم ، ذو نزعة فنية خلاقة ، يموت فى عام ١٩٢٩ تاركا وراءه الكثير من آثاره الادبية ، من بينها بعض القصائد الشعرية التى نظمها فى سنى شبابه ، وفيما يلى بعض منها — (اما القصائد بأكملها فسوف تنشر فى الفصل الختامى من الروايه) . »

— ٢ —

• **وفى شتاء عام ١٩٥٦** ، أعلنت مجلة (الانباء) ، التى تصدر فى موسكو ، ان رواية « دكتور جيفاجو » يجرى العمل فى كتابتها دون توقف ، ولن تلبث أن تتم فصولا .

وخلال صيف نفس العام ، أرسل « باسترناك » مخطوط روايته الى مجلة (نوفى مير) ، لتتولى نشرها ، لكنها أعادت اليه المخطوط فى شهر سبتمبر ، وقد ارفقت به خطابا — لم ينشر الا بعد عامين من ذلك التاريخ — جاء فيه :

« تتفشى فى أبطال هذه الرواية روح « الفردية » التى تكاد تبلغ حد النزعة « المرضية » ! .. فهم لا يعرفون — ولا يريدون — ان يروا شيئا مما حولهم .. وهم يسبغون على أنفسهم اهمية مبالغا فيها ، الى درجة مضحكة ! .. انك فى الواقع قد كتبت رواية « سياسية » ، وكتبتها « بأفق ضيق » ! .. **ورغم انها رواية ذات موضوع ، فانك شيدتها كعمل يخدم — بصراحة — آراء سياسية معينة . ان روايتك « ظالمة » ، بأعمق معانى هذه الكلمة !** .. وهى من الوجهة التاريخية ليست « موضوعية » ، سواء فى تصويرها



باسترناك .. جالسا الى مكتبه

للثورة ، أو للحرب الاهلية ، أو لسنوات ما بعد الثورة .. »

وفى خريف ذلك العام - ١٩٥٦ - تلقى الناشر الايطالى « فيلترينيللى » ، من وكيله الادبى فى موسكو ، مخطوط رواية «دكتور جيفاجو» .. فعهد بها فورا الى المترجمين ، بموافقة مؤلفها .

— ٣ —

• ولكن ، حوالى منتصف عام ١٩٥٧ ، أرسل باسترناك الى السنيور « فيلترينيللى » رسالة يطلب فيها رد المخطوط اليه ! .. ثم تدخل بعض الشيوعيين الايطاليين لدى الناشر الايطالى ، محاولين عدم نشر الكتاب .. كما تدخل لنفس الغرض سكرتير اتحاد الكتاب السوفييت ، المدعو « سوركوف » .

ولكن ، فى ١٥ نوفمبر عام ١٩٥٧ ظهرت الرواية بالايطالية ، تحت عنوان (*Il Dottor Zivago*) ، وصدرها الناشر بمقدمة كشف فيها النقاب عن القصة الكاملة للعراقيل التى اعترضت نشر

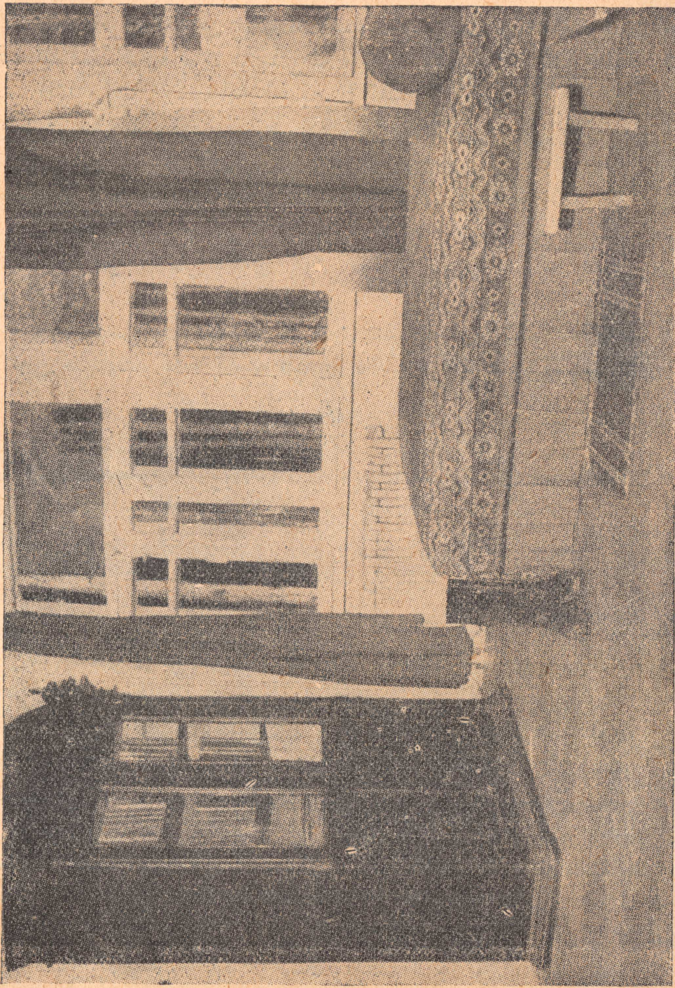
الكتاب ، فقال :

« لقد أتم بوريس باسترناك هذا الكتاب منذ أكثر من ثلاث سنوات . وفى غضون عامى ١٩٥٦و١٩٥٧ أذاع الراديو السوفييتى، وصحيفة (زناميا) — فى عددها الرابع من اعداد سنة ١٩٥٧ — نبأ قرب نشر الكتاب فى الاتحاد السوفييتى ، **بل ووقع بالفعل عقد بين المؤلف وبين دار النشر المعروفة (جوسليتيزدات) ، للشروع فى نشره بمعرفتها** . وازاء ذلك ، ونظرا لمكانة المؤلف ، فقد حصلت دارنا منه على حق نشر الكتاب بالايطالية — (بالرغم من ان المؤلفين الروس لا تتمتع مؤلفاتهم بحقوق الحماية فى الخارج ، وفقا للاتفاقات الدولية الخاصة بحماية حق المؤلف) .

وبمجرد حصولنا — من المؤلف مباشرة — على نسخة من مخطوطه، عرضناها على لجنة القراءة لدينا ، فأقرتها . وعلى أثر ذلك جرت مراسلات بين المؤلف وبين دار النشر السوفييتية حول موعد نشر الكتاب فى كل من طبعتيه الروسية والايطالية ، **وبمقتضى هذه المراسلات اتفق على ان لا تصدر الطبعة الايطالية قبل شهر سبتمبر**



باسترناك وزوجته فى بيتهما ، يتناولان الطعام



حجرة نوم الأديب الكبير ، وعند زاوية الفراش اليسرى حذاءاه الطويلان

سنة ١٩٥٧ .

فلما حلت نهاية الصيف ، واقترب موعد نشر هـذه الطبعة ـ ولم يكن هناك ادنى مبرر لافتراض قيام اية صعوبات فى سبيـل

نشر الطبعة الروسية فى الاتحاد السوفيتى - **فوجئنا برسالة من المؤلف يطالبنا فيها برد المخطوط اليه ، لاعتزامه أعادة النظر فيه !**
غير اننا رأينا استحالة اجابة المؤلف الى طلبه ، اذ كان الكتاب قد بلغ مرحلة متقدمة فى طريقه الى الصدور ، بل كان قد أعد للنشر فى بلاد أخرى ايضا .. فضلا عن ان الوقت لم يكن يتسع لادخال التعديلات التى اراد المؤلف ادخالها عليه !
وهكذا نقدم اليوم لقراء الايطالية هذه الطبعة من الكتاب بنصها الاصلى ، وهو النص الذى كان المؤلف نفسه قد أعده وارتضى نشره .. »

.. وفى خلال الاسبوعين الاولين بعد ظهور النسخة الايطالية من « دكتور جيفاجو » ، أعيد طبعها ثلاث مرات على التوالى !

— ٤ —

• **وفى غضون عام ١٩٥٨** ، نشر الكتاب فى انجلترا (طبعة كولينز) .. وفى الولايات المتحدة الامريكية (طبعة بانثيون) .. وفى ألمانيا (طبعة فيشر) .. وفى فرنسا (طبعة جاليمار) .. كما ظهرت منه فى هولندا طبعة باللغة الروسية !

وفى ٢٣ أكتوبر ١٩٥٨ منحت « أكاديمية السويد الملكية » للمؤلف « بوريس ليونيدوفيتش باسترناك » جائزة نوبل فى الأدب . وفى الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر اليوم نفسه ، أبرق السكرتير الدائم للأكاديمية الى باسترناك ، يخطره بنبأ الشرف العالمى الذى أسبغته الاكاديمية عليه ، ثم يدعوه باسمها للحضور الى (ستوكهولم)، وبصحبته زوجته ، لاستلام الجائزة يوم ١٠ ديسمبر التالى .
وحوالى الساعة الخامسة من نفس اليوم ، سعت وكالة الأنباء الصحفية السويدية الى الاتصال تليفونيا بقرية (بيريديلكينو) - حيث يعيش باسترناك - للتحدث الى المؤلف الكبير .. **فأجابها « سنترال » القرية بأن منزل باسترناك ليس فيه جهاز تليفون .**
وفى نفس اليوم ، أعلن « ميخائيلوف » وزير الثقافة السوفيتى: « أن باسترناك مترجم بارع ، وشاعر مجيد ، ولكنه - كناثر - ليس موهوبا بصفة خاصة . »
وحين حاول مراسل الصحيفة الفنلندية اليومية (يوسى سيومى) مقابلة باسترناك ، أجابه ممثل « لجنة العلاقات الثقافية بين الاتحاد

السوفيتي والدول الاجنبية » بالقول ان باسترناك « **مريض** » ، وانه « **لا يرغب فى مقابلة أحد من الصحفيين** » !

— ٥ —

• وفى **٢٥ أكتوبر ١٩٥٨** ، بعد ٤٨ ساعة كاملة من منح باسترناك جائزة نوبل ، أذاع راديو موسكو النبأ — لاول مرة — مصحوبا بالتعليق التالى :

« ان قرار محلفى جائزة نوبل ، الحافل بعوامل الاثارة ، قد استقبل بحماس صاخب من جانب الصحافة البورجوازية . وان منح جائزة نوبل لمؤلف ، من أجل عمل أدبى واحد متوسط الجودة — مثل « دكتور جيفاجو » — **انما هو اجراء سياسى موجه ضد الاتحاد السوفييتى !** »

وفى نفس الوقت ، هاجمت صحيفة (ليتيراتورنيا جازيتا) من جهتها « باسترناك » ، بعنف شديد ، قائلة :

« انه قد قبض الثلاثين دينارا من الفضة ، أجر الخيانة (١) .. واختار طريق الخزى والعار ! »

وفى ٢٦ اكتوبر ، تلقى مستر « أندرس اوسترلنج » — السكرتير الدائم للأكاديمية السويدية — البرقية التالية من باسترناك ، باللغة الانجليزية :

« **أعرب لكم عن شكرى غير المحدود .. وتأثرى .. وفخرى .. ودهشتى .. وبلبلتى .** »

وفى نفس اليوم ، طلع نقيب الصحفيين السوفييت « دافيد زالافسكى » على قراء صحيفة (برافدا) الرسمية بمقال شديد اللهجة ، هاجم فيه باسترناك على النحو التالى :

« لقد تكشف باسترناك عن شخص عديم النفع تماما ، ذى نزعة فردية ، وأفق فكرى ضيق ليست له أى دلالة ، وروح بورجوازية بكل معنى الكلمة .. فلقد كتب باسترناك رواية طويلة بعنوان « دكتور جيفاجو » ، هى فى الحقيقة نشرة خبيثة عن الثورة السوفييتية ، والشعب السوفييتى ، والمفكرين السوفييت .. نشرة أطلق فيها البورجوازى الصغير — الموتور — العنان لروح الغيظ والانتقام التى تملأ نفسه ! وبقدر ما كان فى الماضى يحرص

---

(١) اشارة الى خيانة يهوذا للمسيح بتسليمه لليهود ، مقابل ثلاثين دينارا !

على بناء مجده على أشعاره الغنائية الرفيعة ، هبط فى هذه الرواية الى درك السوقية البدائية .. حتى لكأنه فرع من الاعشاب الضارة نبت وسط البستان السوفييتى ! .. وقد خلع عليه عبيد البورجوازية الكبرى جائزة نوبل ، **ولو كان باسترناك لايزال يحتفظ بشرارة واحدة من الضمير السوفييتى ، لرفض هذه المكافأة المنطوية على الخزى والاذلال .. لكنه يؤثر فيما يبدو ان يثبت للملأ انه ليس سوى فرع من الاعشاب الضارة ! »**

— ٦ —

• **وفى ٢٨ أكتوبر** ، اصدرت اللجنة العليا لاتحاد الكتاب السوفييت ، البيان التالى :

« قرار اجماعى من اللجنة العليا لاتحاد الكتاب السوفييت ، ومن مكاتب الاتحاد الروسى ومكتب الاتحاد بمدينة موسكو ، بصدد أوجه نشاط « بوريس باسترناك » عضو هذا الاتحاد ، وهى اوجه النشاط المنافية لصفة الكاتب السوفييتى :

« نظرا للانحدار السياسى والخلقى لباسترناك ، والخيانة التى اقترفها فى حق الشعب السوفييتى ، وفى حق مبادىء الاشتراكية والسلام .. وهى الخيانة التى تقاضى — ثمنا لها — جائزة نوبل !

.. فان اللجنة العليا ، ومكاتب الاتحاد الروسى ، ومكتب اتحاد الكتاب السوفييت بمدينة موسكو ، **رأوا حرمان باسترناك من لقب « كاتب سوفييتى » ، وطرده من عضوية الاتحاد . »**

.. وكان معنى هذا القرار حرمان الاديب الكبير من سائر المزايا التى يخولها اللقب والاتحاد لاعضائه ، ومنها : حق العمل ، والسكنى .. الخ

— ٧ —

• **وفى ٢٩ أكتوبر**، تلقى مستر « اندرس اوسترلنج » ، السكرتير الدائم للأكاديمية السويدية ، من « باسترناك » هذه البرقية :

« نظرا للدلالة والتفسير اللذين اقترن بهما منحى الجائزة ، فى المجتمع الذى أعيش فيه ، أرانى مضطرا لان اعتذر — شاكرا — من عدم قبول الجائزة التى منحتها دون استحقاق .. وكل رجائى ان لا تحملوا رفضى — الاختيارى — للجائزة ، على اى محمل سىء . »

ومن جهة أخرى ، أعلن مكتب وكالة (ا.ف.ب) — نقلا عن

موسكو ـ النبأ التالى ، فى برقية لاحقة : « ان بوريس باسترناك سيستمر فى الاستمتاع بحقوقه كمؤلف ، **ولكنه لن يحصل بعد الآن على المكافأة الشهرية التى يمنحها اتحاد الكتاب السوفييت لاعضائه .. كما لن يدفع له أى مبلغ نظير بدل الانتقال والتمثيل** ـ وان كان سيحتفظ بالدار التى يقطنها الآن فى ضواحى موسكو ـ على ان فى وسع باسترناك ان يرد له اعتباره فى اتحاد الكتاب ، اذا قدم طلبا بذلك بعد ان يكون قد أدى عملا يبرر اعادة النظر فى أمره . (وهناك سابقة لذلك فى حالة « نيكولاس فيرتا » الذى طرد



مدخل الدار التى يقيم فيها باسترناك ، فى قرية (بيريد يلكينو)

من الاتحاد فى عام ١٩٥٤ ، ثم رد اليه اعتباره فيما بعد) .

— ٨ —

• **وفى اليوم التالى ، ٣٠ اكتوبر** ، أدلى من يدعى «سيمتشاستنى»، سكرتير منظمة (كومسومول) ، عقب اجتماع عقد لمناسبة الذكرى الاربعين لانشاء المنظمة ، بتصريح جاء فيه :

« ان هذا الرجل — بوريس باسترناك — عاش فى وطننا ، وفى مستوى أفضل من مستوى الشخص المتوسط الكادح الذى ساهم بنصيب فى الكفاح .. وها هو الآن يبصق فى وجوهنا ! .. كيف يمكن وصف هذا التصرف ؟ اننا أحيانا نسىء القول فى حق الخنازير فنظلمها ، افتراء وبهتانا .. **فالذين يعملون مع الحيوانات يعلمون ان الخنازير ذاتها لا تلوث المكان الذى تأكل فيه وتنام .. فاذا قارن المرء « باسترناك » بخنزير ، خرج من المقارنة بأن الخنزير لا يفعل هذا الذى فعله باسترناك .. فلقد لوث الوطن الذى أكل فيه ، ولوث أولئك الذين عاش بين ظهرانيهم ، وتنفس من عرق جبينهم !»**

.. ثم تمنى « سيمتشاستنى » فى ختام مقاله لو هاجر باسترناك الى « جنة الرأسماليين » .. وأضاف : « وأنا واثق ان احدا — سواء فى ذلك الرأى العام ، او حكومتنا — لن يقيم عقبة فى طريق هجرته ! »

— ٩ —

• **وفى ٣١ اكتوبر** ، وجه باسترناك الى رئيس الحكومة « خروشوف » ، الرسالة التالية :

« المبجل نيكيتا سيرجيفتش ..

« اتوجه برسالتى اليك شخصيا ، والى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، والى الحكومة السوفييتية .. فقد علمت من تقرير الرفيق « سيمتشاستنى » ان الحكومة لن تعرقل هجرتى من الاتحاد السوفييتى ، الامر الذى هو بالنسبة لى فى حكم المستحيل .. **فأنا ارتبط بروسيا بحكم مولدى ، وحياتى ، وعملى .. ولست اتصور ان أنفصل عنها يوما أو اعيش خارج ارضها !**

« وايا كانت اخطائى وضلالى ، فلست املك ان احتمل موقفى الراهن فى وسط الحملة السياسية التى أثارها الغرب حول اسمى .. ومن ثم فقد أخطرت اكاديمية السويد الملكية اننى أرفض ،



الشاعر الكبير فى حديقة داره الريفية

بمحض اختيارى ورغبتى ، جائزة نوبل التى منحتنى اياها .
« ان الرحيل خارج حدود وطنى يعادل الموت ، بالنسبة لى ! .. ولهذا أناشدك ان لا تتخذ نحوى هذا الاجراء المتطرف .. وانى ؛ وانا اضع يدى على قلبى ، أستطيع القول اننى فعلت شيئا من

أجل الادب السوفييتي ، وان فى وسعى ان اكون نافعا له فى المستقبل ..

امضاء
بوريس باسترناك

— ١٠ —

• **و حل يوم اول نوفمبر** ، فعقد فى موسكو اجتماع نقابى حضره ثمانمائة من الكتاب الروس ، وتمخض عن اصدار القرار التالى :

« يطالب المجتمعون الحكومة السوفييتية بتجريد « بوريس باسترناك » من جنسيته السوفييتية ، بعد ان سلك مسلكا منافيا لصفته ككاتب وكمواطن سوفييتى .. »

ونشرت صحيفة (ليتيراتورنايا جازيتا) تحت عنوان : « غضب وسخط » ، آراء الكتاب السوفييت وتعليقاتهم التى تدين باسترناك ، من شتى أنحاء الاتحاد السوفييتى .. كما نشرت مقتطفات من رسائل القراء التى تهاجم الكاتب وترجمه بالاحجار .. ومنها هذه الرسالة التى كتبها « فيليب فاسيلتزوف » ، الميكانيكى القائم على تشغيل بعض آلات الحفر والتنقيب :

«ما هذه القضية ؟ ان الصحف تحدثنا عمن يدعى « باسترناك » .. وانا لم أسمع باسمه قط من قبل ، ولا قرأت كتبه .. ولكن يبدو انه لا يؤمن بثورة اكتوبر ، واذن فهو ليس كاتبا ! .. انى أعمل فى انشاء قناطر على نهر الفولجا ، وهى مهمة عسيرة ــ بسبب هبوب العواصف ــ ولكننا نصلح كل التلف والاضرار التى تنجم عن هبوبها .. فأى عواصف تهب على « مستنقع » باسترناك ؟ انها قضية « ضفادع » ، **ويبدو ان الضفدع ليس قانعا ، ومن ثم فهو يرسل نقيقه .. وانا لا وقت عندى لسماع هذا النقيق ، فانى أعمل فى أشياء جدية .. كلا ، انى لم اقرأ باسترناك ، ولكنى واثق انه يحسن بنا أن نطهر الادب من الضفادع ! »**

— ١١ —

• **وفى يوم ٢ نوفمبر** ، نشرت صحيفة (برافدا) رسالة باسترناك الآنف ذكرها الى خروشوف ، مصحوبة بهذا التعليق من وكالة (تاس) الرسمية للأنباء :

« على اثر الخطاب الذى وجهه بوريس باسترناك الى الرفيق

نيكيتا خروشوف ، فى وسع وكالة (تاس) أن تعلن : انه اذا أعرب باسترناك عن رغبته فى السفر الى الخارج لاستلام الجائزة التى منحها ، فان سلطات الدولة السوفييتية لن تقيم فى وجهه أى عقبة . أما الشائعات التى نشرتها الصحافة البورجوازية ، والتى مؤداها ان حق السفر الى الخارج سوف يضن به على باسترناك ،



الشاعر فى حجرة مكتبه ، يرنو ببصره الى الخلاء ..

فليست سوى فرية كبرى ! »

ثم اضافت الوكالة : « ولكن ، حتى الآن ، لم يتقدم باسترناك الى السلطات بأى طلب للحصول على تأشيرة خروج . ومن جانب هذه السلطات ، لم يكن لديها — ولن يكون لديها فى المستقبل — اى اعتراض من هذا القبيل ، فيما لو قدم اليها مثل هذا الطلب .

« بل اذا ود باسترناك أن يهاجر نهائيا من الاتحاد السوفييتى ، الذى افترى على نظامه الاجتماعى ، وشعبه ، وطعن فيهما فى مؤلفه العدائى للسوفييت — « دكتور جيفاجو » — فان الجهات الرسمية لن تقيم فى وجهه أية عقبات ، **وانما سيمنح الفرصة كى يعبر حدود الاتحاد السوفييتى ويجرب بنفسه « جميع متع الجنة الرأسمالية » ولذاتها و ترفها ! »**

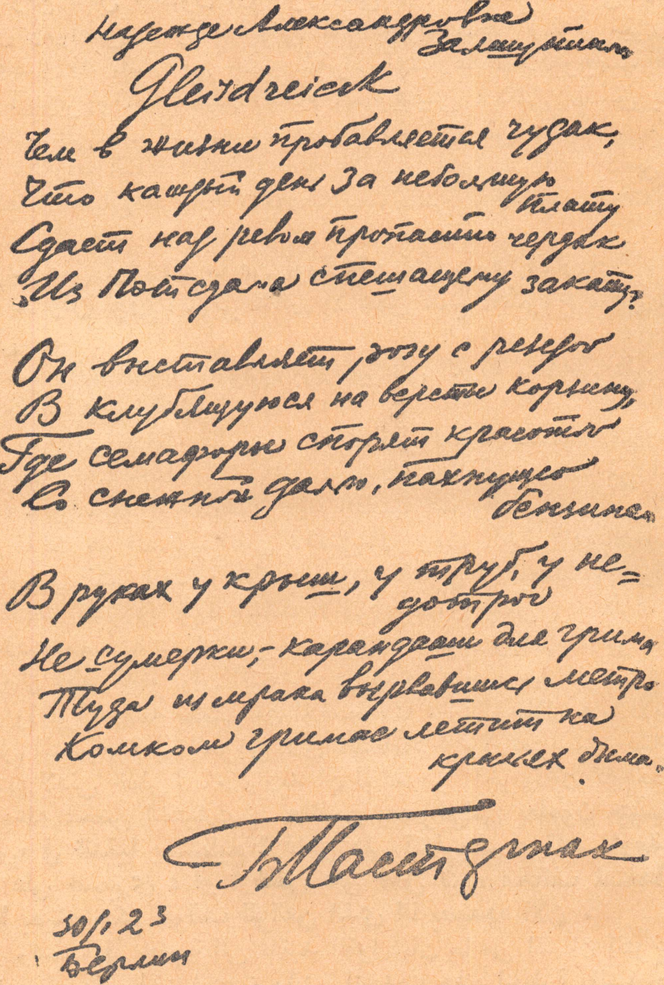
— ١٢ —

• **وأخيرا ، نحن الآن فى يوم ٦ نوفمبر** ، نطالع فى صحيفة (برافدا) هذا الخطاب الذى بعث به باسترناك اليها :

« لقد فسرت منحى جائزة نوبل على انه شرف أدبى ، ففرحت به ، وأعربت عن فرحتى بالبرقية التى ارسلتها الى سكرتير الاكاديمية السويدية « أندرس اوسترلنج » .. لكنى كنت مخطئا ، **وهذا الخطأ له ما يبرره ، لانهم كانوا قد رشحونى لهذه الجائزة من قبل ، منذ خمس سنوات مثلا ، حين لم يكن لقصتى هذه — بعد — أى وجود !**

« لكنى حين لمست — بعد مضى اسبوع واحد — أى جنوح اتخذته الحملة السياسية التى أثيرت حول قصتى .. وحين اقتنعت بأن منحى الجائزة انما كان عملا سياسيا ، افضى الآن الى ملابسات بشعة ، ارسلت — من تلقاء نفسى وبمحض اختيارى ، دون أى ضغط أو خوف — برقيتى التى اعلنت فيها رفض الجائزة !

« ولقد أعلنت — فى خطابى الى نيكيتا سيرجيفتش خروشوف — اننى مرتبط بروسيا بحكم مولدى ، وحياتى ، وعملى .. وانه بالنسبة لى امر غير ممكن تصوره ان اتركها او ارحل عنها منفيا الى الخارج ! .. وانا حين أشرت الى هذا الارتباط ، لم يكن الذى حدا بى الى ذلك تعلقى بأرض وطنى وطبيعته ، فحسب .. وانما كان الدافع لى هو تفكيرى بطبيعة الحال فى شعبى ، وماضيه المجيد ، وحاضره ومستقبله ..



Надежде Александровне Залшупиной

Gleisdreieck

Чем в жизни пробавляется чудак,
Что каждый день за небольшую плату
Сдает над ревом пропасти чердак
Из Потсдама спешащему закату?

Он выставляет розу с резедой
В клубящуюся на версте корзину,
Где семафоры спорят красотой
Со снежной далью, пахнущей бензином.

В руках у крыш, у труб, у недотрог
Не сумерки, — карандаши для грима.
Туда из мрака вырвавшись, метро
Комком гримас летит на крыльях дыма.

Пастернак

30/I.23
Берлин

نموذج من خط يد « باسترناك » ، وهو مخطوط قصيدة له عنوانها « جلايسد رايك » ، (باسم احدى محطات المترو فى مدينة برلين) ، وقد كتب القصيدة فى العاصمة الألمانية ، فى يوم ٣٠ يناير سنة ١٩٢٣

« ومن نافل القول ان اكرر اننى لم اقصد قط الى الاضرار ببلدى ومواطنى . ولقد نبهنى قلم تحرير مجلة (نوفى مير) الى ان القصة قد تفسر من جانب القراء باعتبارها عملا موجها ضد ثورة اكتوبر وضد اسس النظام السوفييتى ، لكننى لم الق بالا ـ وقتئذ ـ الى هذا التنبيه .. وانى لنادم الآن على ذلك !

« فالواقع اننا اذا أخذنا بعين الاعتبار الخواتيم التى يفضى اليها ألنقد التحليلى للرواية ، فقد يبدو اننى أؤكد فيها النظريات الخاطئة التالية :

١ ـ اننى ارى انه ما من ثورة يمكن أن يبررها التاريخ !

٢ ـ وان ثورة أكتوبر ماهى الا عمل غير مشروع ، من هذا القبيل ..

٣ ـ وانها كانت ستودى بروسيا الى كارثة ، تقضى على طبقة المثقفين النابهين القديمة !

« ومن الواضح ، بالنسبة لى ، اننى لست مسئولا عن هذه التخريجات السخيفة ! .. أما كون كتابى الذى منحت من أجله جائزة نوبل ، قد أوجد مجالا لهذه التفسيرات والتأويلات التى يؤسف لها ، فذلك هو السبب الذى دفعنى الى رفض الجائزة فى النهاية .. ولو أرجىء نشر الكتاب ، كما رجوت ناشرى فى ايطاليا ، (والواقع ان الكتاب نشر فى جميع البلاد الاخرى بدون علمى) ، فلربما كنت استطعت معالجته ، ولو جزئيا .. ولكنه طبع وانتهى الامر ، وعلى أى حال فقد فات اوان التحدث فى هذه الناحية من الموضوع .

« واخيرا ، فانه يهمنى ان اوضح هنا ، اننى خلال هذا الاسبوع الحافل المنصرم ، لم أتعرض لاى اضطهاد ، ولا تعرضت حياتى أو حريتى لادنى خطر ! .. واريد ان أؤكد مرة اخرى ان كل ماأفعله، انما افعله بمحض اختيارى . **والذين يعرفوننى يعلمون جيدا ان لا شىء فى الدنيا يستطيع ارغامى على التفريط أو المساومة فيما يمليه على ضميرى ، أو ارغامى على فعل شىء مخالف لمعتقداتى . وهذا بعينه حكم الموقف الراهن الذى انا بصدده الآن .**

« ولست فى حاجة الى تأكيد القول بأن ما من انسان انتزع منى أى تصريح بغير اختيارى ، واننى اتخذت هذه الخطوة بقلب حر ، عامر بالايمان المضىء بمستقبل البشرية قاطبة ، وبمستقبلى الخاص .. اتخذتها وانا فخور بالعصر الذى أعيش فيه ، وبالناس الذين يحيطون بى ..

« وأعتقد ان فى وسعى ان أجد القوة الكافية لاعادة بناء سمعتى الطيبة ، واسترداد ثقة مواطنى . »

٥ نوفمبر ١٩٥٨ بوريس باسترناك

* * *

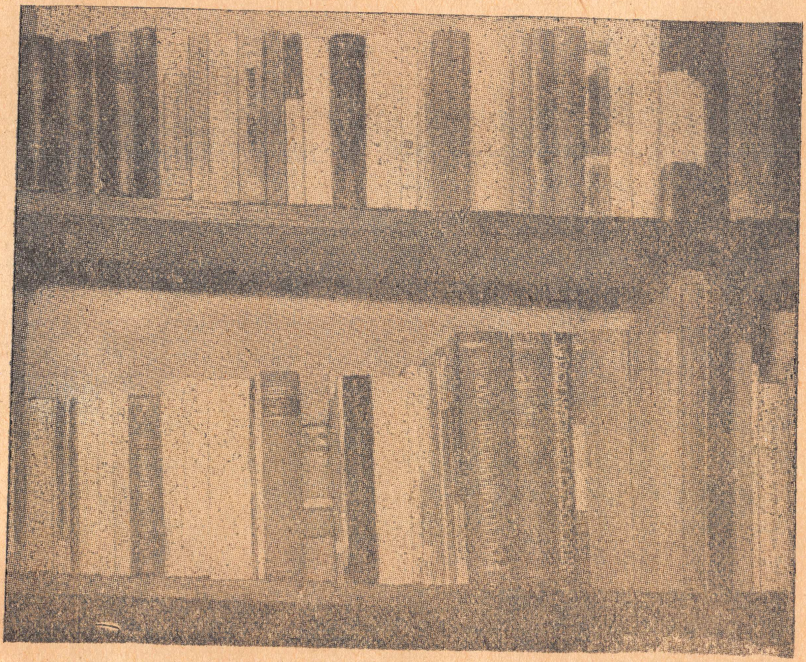
عزيزى القارىء ..

هذه هى قضية باسترناك – أو قضية الفكر الحر فى القرن العشرين ! – رويتها لك من واقع الوثائق والمستندات الدامغة ، بعد تنقيتها من شوائب الشائعات « الصحفية » ، والتأويلات والدعايات المغرضة ، والتيارات السياسية المتعارضة « للحرب الباردة » ، سواء من ناحية الشرق أو الغرب .. والنتيجة الواضحة التى يخرج بها « المؤرخ » المنصف ، أو « القاضى » المحايد ، من هذه المحنه الفكرية التى امتحن بها « سقراط » العصر الحديث .. هى انه **اذا كانت دواعى الحكمة ، كما تمليها عقلية هذا العصر ، قد جعلت « باسترناك » يؤثر ان يحنى رأسه للعاصفة – كى يتجنب مصير سقراط !** – فالحقيقة الراسخة الباقية بعد هذا للأجيال القادمة – وحسبه هذا فخرا ! – انه قد حقق ، بدهاء يحسده عليه « مكيافيللى » نفسه ، الغرض الذى لست أشك فى أنه قصد اليه حين فجر قنبلته هذه « الذرية » التى ستطالعها فى الصفحات التالية .. **واعنى بهذا الغرض ، كشف النقاب عن جوهر الروح الخالدة للانسان الفرد .. الروح التى لم تفلح أربعون عاما من التوجيه « الآلى » فى ان تقضى عليها أو تطمس معالمها .. !**

وكأنى بباسترناك – كما أتصور دوافعه من بين سطور هذه المجموعة من الوثائق النادرة – عندما استوثق من ان السلطات الحاكمة فى بلده قد أصدرت حكمها « بالاعدام » على عمله الادبى ، أو صرخته اليائسة التى نفس بها عن آرائه المكبوتة فى صدره منذ اكثر من ثلث قرن .. لم يجد وسيلة ينقذ بها هذه الصرخة من الاحتباس فى حلقه ، أو الاختناق فى مهدها ، الا بأن يطلقها عبر الحدود والقيود الى .. موطن عصر النهضة .. الى ايطاليا ، فسربها الى ذلك الناشر الماكر « فيلترينيللى » – كى « يفجرها » نيابة عنه ، وبيده .. لا بيد عمرو ! – متعللا فى ذلك ، أمام السلطات، بأن عقده مع الناشر الروسى كان يجعله فى حل من نشرها فى الخارج بعد تاريخ نشرها فى داخل بلاده .. وكأنه لم يكن يعلم أو يتوقع أن

تمنع السلطات نشرها فى الاتحاد السوفييتى ! .. فى حين تدل الدلائل كلها ، بنص الوثائق ، على ان أغلبية الناشرين فى وطنه نبهوه الى ما تنطوى عليه من مهاجمة صريحة لفلسفة « النظام السوفييتى » ، والاسس التى يقوم عليها !

.. فلما اعلن المسئولون ما كان من قبيل « تحصيل الحاصل » ، وجاهروا بمنع القصة ، كانت قد تخطت الحدود والسدود ! .. وهنا ، تظاهر « سقراط » الحديث برغبته فى استردادها من الناشر الايطالى .. تظاهر بذلك وهو موقن من « استحالته » ! .. وكان من الطبيعى أن يرفض « فيلترينيللى » التفريط فى « كنزه »



مكتبة باسترناك الخاصة ، وعلى رفوفها مؤلفات لأدباء عالميين من مختلف البلاد ، منهم : شيللر ، جوته ، هنرى جيمس ، سانت اجزوبيرى ، هرمان ملفيل ، ت. س. اليوت ، ألدوس هكسلى ، بول كلوديل .. الخ .. الى جانب ترجمات بمختلف اللغات لقصة « دكتور جيفاجو » .

ـ أو « لغمه » ! ـ فيقع الانفجار المنتظر .. ويتردد صداه ، ويتكرر « تفجيره » فى كل بلد ، وبكل لغة !

.. كل ذلك و « سقراط الجديد » الداهية واقف يفرك يديه ويبتسم ، فرحا بانتصاره المدوى على أصحاب السطوة والسلطان، والهيل والهيلمان ، **الذين وضعهم بخطته الحكيمة أمام « الامر الواقع » ، بعد أن اشهد العالم والبشرية قاطبة على أدق دقائق القضية وتفصيلات الصراع بينهم وبينه ، فأعجزهم عن أضطهاده والاقتصاص منه ! ـ وهم الذين يستجدون التأييد من الشعوب والافراد فى حرب الدعاية ، أو الحرب الباردة ـ فكان شأنه فى هذا الموقف شأن الخصم البارع الذى يبلغ « البوليس » عن مكانه قبل أن يدخل بقدميه الى وكر اعدائه !**

وما التضحية بالجائزة الفانية فى سبيل هذا المجد الخالد الا أرخص ثمن يشترى به المفكر « الحر » حق التعبير عن نفسه .. والتنفيس عن صدره !

قد تقول : وكيف يكون باسترناك مفكرا « حرا » ، وهو قد خدم معسكر الغرب بهذا اللغم الذى انتقص به من قدر معسكر مواطنيه ؟ !

ورأيى انه مفكر « حر » ـ ما فى ذلك شك ـ **لانه لم يفجر لغمه حبا فى الغرب ، أو لاستعداء الغرب على وطنه .. وانما فجره بدافع من حبه للحقيقة .. وحبه للانسانية .. وايمانه بقيمة الفرد فى ذاته ، ككائن له شخصية وارادة مستقلة ، وليس كآلة تسير فى ركاب المجموع !**

.. بل لقد فجر لغمه بدافع من حبه لوطنه ، ولخير مواطنيه أنفسهم ، الذين حز فى نفسه ان يراهم يقترفون فى ثورتهم الكبرى ما ينكره ضمير الفرد ، وينفر منه .. الانسان !

وحسبى الآن هذا القدر من الحديث عن باسترناك .. فلو انزلقت من التحدث عن الكاتب ، الى التحدث عن الكتاب ، لطال الحديث وطال .. ولتعذرت على العودة الى الشاطىء ، من هذا الخضم !

فدعنى أخلى بينك وبين النزول بنفسك الى الخضم ، كى تغترف منه ما شئت من متعة .. وثقافة .. وتاريخ .. وفلسفة .. ووطنية .. وايمان.. و .. ودراسة شائقة للنفس البشرية !

وقبل ذلك ، **أحب لك ان تجتاز - الى غايتك - هذا المعبر السلس من العرض الممتع للقصة ، والتعليق الجميل عليها ، من قلم أديبنا الكبير الدكتور طه حسين ..** وهو ما تطالعه فى الصفحات السبع التالية .

والله ولى التوفيق **حلمى مراد**



يدا باستر ناك .. ومخطوطاته .. ونظارته

هذه القصة..

عرض وتعليق بقلم : الدكتور طه حسين



أما ان القصة رائعة فائقة الروعة ، فشيء لا يشك فيه الا الذين لم يقرأوها ولم يتعمقوها ، أو الذين تقصر أذواقهم عن اساغة الادب الرفيع !

ولكنها تحتاج فى قراءتها وتعمقها الى صبر ، أى صبر ، والى الاناة كل الاناة .. وربما احتاجت الى أن تقرأ مرتين أو اكثر من ذلك .. وربما احتاجت الى أن يعيد القارىء قراءة بعض فصولها غير مرة !

ومصدر ذلك أولا انها طويلة شديدة الطول ، تتجاوز صفحاتها المئات الست . وان أشخاصها من الكثرة والاختلاف ، وتباين الاهواء والامزجة ، بحيث يصعب على القارىء استحضارهم فى ذهنه منذ يبدأ القصة الى أن يتمها .. ولان أماكنها متباعدة أشد التباعد، بمقدار ما يكون من التباعد فى بلاد متنائية الاطراف كالبلاد الروسية ، التى تختلف أقطارها فى طبيعة الجو ، والاقليم ، واللغة ، والذوق ، وغير ذلك من العادات والتقاليد ..

ولانها آخر الامر لاتقع فى عام أو عامين ، او اعوام قليلة .. وانما تبدأ فى اوائل هذا القرن وتنتهى عند ثلثه الاول ، او قبله او بعده بقليل ،

فكل هذا يفرق نفس القارىء ويجعل جمع أحداثها فى ذهنه عسيرا أشد العسر .. وأعترف بأنى قرأتها للمرة الاولى ، ثم اضطررت الى أن أعود الى قراءة فصول مختلفة منها . وأنا بعد هذا كله عاجز عن تلخيصها !

وما احسب أن غيرى من النقاد يبلغ من هذا التلخيص ما قصرت عنه ، لكل هذه الاسباب التى ذكرتها آنفا .. فحسبى اذن أن أصور الخصائص التى تمتاز بها هذه القصة من القصص الروسى المعاصر الذى أتيح لى أن أقرأه .

* * *

فالقصة تبدأ ــ كما قلت ــ فى أوائل هذا القرن ، قبيل الثورة التى شبت نارها فى روسيا سنة ١٩٠٥ . وهى تحدثنا عن صبية يختلفون الى المدارس ، وعن أسر هؤلاء الصبية . وهى تصف لنا أدق الوصف وأقواه ما يضطرب فى نفوس هؤلاء الصبية من الخواطر التى تثيرها الاحداث من حولهم ، ولا سيما حين تمس أسرهم من قريب أو بعيد .. وما تثيره فى نفوسهم من الخواطر تلك الحركات الاجتماعية .. حركات العمال حين يضربون عن أعمالهم ، فيملأون شوارع موسكو ضجيجا وعجيجا واضطرابا .. وحركات الشرطة حين تفرق مظاهرات العمال ومظاهرات الطلاب أيضا .. وتأثير هذا كله فى نفوس هؤلاء الصبية الذين لم يبلغوا الثالثة عشرة بعد . وهى حين تتعرض لاسر هؤلاء الصبية لا تقف عند تأثر هذه الاسر بالاحداث ، وانما تضطر الى وصف حياة الآباء والامهات ، وتصوير سيرهم وأحاديثهم وحكمهم على الاشياء .

.. وتتردد أصداء هذا كله فى نفوس هؤلاء الصبية فتصوغها وتطورها ، وتحدث فيها ألوانا مختلفة من التأثر .. واذا هم يفكرون فى أشياء لم يتعود الصبية أن يفكروا فيها ، فيألمون ويحزنون بما لا يؤلم الصبية ولا يحزنهم عادة .

والقصة على هذا كله تصاحب هؤلاء الصبية فى مدارسهم الاولى ،

والثانوية ، وفى الجامعة على اختلاف كلياتها . فهى تصحبهم من الصبا الى أول الشباب ، حين تدهمهم الحرب العالمية الاولى فيدفعون اليها دفعا .. منهم من تفرضها عليهم سنهم ، ومنهم من يتطوعون لحرب العدو حبا لوطنهم ودفاعا عنه .

وتصور القصة أثر الحرب فى حياة المدنيين المادية والمعنوية جميعا .. كما تصور عمل هؤلاء الفتيان فى الميدان وبلاءهم فى الحرب ، حين تتقدم الجيوش الروسية وحين تضطر الى التقهقر .. وفى أثناء ذلك تحدث الثورة الكبرى سنة ١٩١٧ ، فتصف القصة صدى هذه الثورة فى الجيش ، واضطراب الجند وضباطهم بين مصمم على القتال ومؤثر للسلم والعافية .. حتى اذا وصلت أوامر الثورة الى الجيش زاد اختلافهم وتفرقهم .

* * *

ثم يكون الصلح الذى انفردت به روسيا من دون حلفائها .. ولكن الثورة قد أثرت فى كل شىء : فى حياة الجنود المحاربين ، وفى حياة المدنيين القلقين .. واذا الامور كلها تختلط أشد الاختلاط .. واذا الناس بين مؤمن بالثورة ، مخلص لها ، مندفع معها حتى تبلغ ما رسمت لنفسها من غاية .. ومنكر للثورة ، جرىء على الانكار ، ومشفق من الثورة يخشى عواقبها ، ويخشى مقاومتها أيضا ! .. وقد أخذت الحياة تشق على الناس وتضيق بهم : طبيعة قاسية من جهة ، وتعرض للجوع والبؤس من جهة أخرى .. وفرار من المدينة الى حيث يمكن ان تلين الحياة ويكفل الامن .

وتتبع القصة بعض هؤلاء الفتية الذين عرفناهم فى طور الصبا ، فلا تفارقهم حتى تنتهى حياتهم أو تنتهى القصة عنهم وهم أحياء .. منهم من هاجر الى البلاد الاجنبية ، ومنهم من أقام فى وطنه واحتمل فيه من ألوان البؤس وفنون الشقاء والجهد ما لا سبيل الى وصفه .

هذه هى الصورة المجملة أشد الاجمال لموضوع القصة ، فهى

اجتماعية بأدق معانى هذه الكلمة من جهة ، لانها تصف حركات الجماعات المؤيدة للثورة ، والمقاومة لها أبرع الوصف واشده تفصيلا .. وهى مع ذلك فردية بأدق معانى هذه الكلمة أيضا ، لانها تتتبع هؤلاء الافراد من الفتية الذين رأيناهم صبية ، لا تفارقهم ولا تدع شيئا مما يجرى عليهم من الاحداث أو يضطرب فى نفوسهم من الخواطر أو يعرض لهم حين يخلون الى أنفسهم الا صورته أبرع التصوير وأدقه .

* * *

وهى تتبع من بينهم شخصا بعينه هو الدكتور جيفاجو ، لا تفارقه منذ ماتت أمه وهو صبى لم يجاوز العاشرة الى أن مات هو فى نضرة شبابه وقد بلغ الاربعين أو كاد يبلغها .. تتبعه هادئا ومضطربا ، وتتبعه خائفا ــ وما أكثر ما كان يخاف ــ وآمنا ، وما أقل ما كان يأمن .. وتتبعه محاربا لخصوم الثورة على رغمه ، وهاربا من الحرب يترقب القبض عليه بين لحظة وأخرى .

وتتبعه مع أهله وقد تزوج فتاة عرفها صبيا واقترن بها فى أول شبابه .. ثم تتبعه هاربا معها .. ثم تتبعه وقد أخذ للحرب على غير علمها .. ثم تتبعه وقد هرب من الحرب وعاد الى بيته فلم يجد أهله .. فرت زوجه بابنها .. ثم تتبعه آخر الامر وهو ينعم على الخوف أشد الخوف بشيئين متناقضين أشد التناقض : **ينعم بحياة الحب القوى الى أقصى غايات القوة ، مع صديقة له عرفها أيام الصبا .. وينعم اذا كان الليل بالفراغ الى القلم والقرطاس يلقى اليهما ما يملأ نفسه من الشعر والنثر .. فهو طبيب بارع ، ولكنه اديب ممتاز فى الوقت نفسه .**

وتتبعه آخر الامر وقد عاد الى موسكو بعد أهوال أى أهوال ، فجعل يصدر فيها رسائل يقرأها الناس ويتحدثون عنها ، ثم يعيش بعد ذلك عيشة فارغة لا معنى لها ولا غاية !

ثم يهبط من الترام ذات يوم ، ليسقط ميتا قد وقف قلبه عن

الحركة فجأة ، وقد تجمع الناس حوله .. ومرت سيدة فوقفت ونظرت ثم مضت لشأنها . ولكنها لا تلبث أن تعلم شخص هذا الصريع ، واذا هي صديقته تلك التي عاش معها في اقصى الشرق ناعما بالحب والادب معا .. فتعود اليه بعد ان نقل الى داره ، وتخلو الى جثمانه فتحدثه بما اختلف عليها من الاهوال منذ فارقته في أقصى الشرق ، ثم لا تدعه حتى يوارى في قبره .

واذا انتهت القصة على هذا النحو الرائع المروع معا ، ألحق الكاتب بها شيئا من شعر الدكتور الفقيد .. ولست اتحدث عن هذا الشعر لاني قرأته مترجما الى الفرنسية . وما أكثر ما تضيع الترجمة روعة الشعر .. ولا سيما حين يترجم الى شعر مقيد بالوزن والقافية أو محرر منهما .

* * *

ولاعد الى القصة نفسها بعد أن عرضت ما استطعت أن أعرضه عليك من موضوعها . وأعود اليها لاقف وقفات قصار عند بعض خصائصها التي تفيض عليها جمالها الرائع وقوتها المروعة :

فهي تتحدث عن جيل من الروسيين نشأوا قبل الثورة، وأدركتهم الثورة في أول شبابهم .. ثم عاشوا معها حتى استقر منها ما كان مضطربا ، وحتى أمنت أعداءها واستطاعت أن تنتصر عليهم .. وحتى فرغت لحياة روسيا الداخلية والخارجية ، تقيم بناءها على نظمها الجديدة بعد أن ملأت قلوب الناس روعا، وعرضتهم وتعرضت معهم لمشكلات شداد الى أقصى غايات الشدة . **وصاحب القصة لا يصور « حقائق » الثورة ، وانما يعني قبل كل شيء « بآثارها » في نفوس الناس ، وفي نفوس الذين لم يؤمنوا بها خاصة وانما اضطروا الى الاذعان لها كارهين ، ولقوا من اهوالها شيئا كثيرا .**

* * *

ولست أعرف كاتبا روسيا صور الهلع والفزع والجزع الذي يملأ قلوب الناس ونفوسهم وعقولهم ، ويملك عليهم أمرهم كله ، كما

صور ذلك صاحب هـذه القصة .. **فالذين احتملوا أهوال هـذه الثورة أبطال حقا ، لانهم شقوا كما لا يشقى النـاس ، وذاقوا من البؤس والجوع ، ومن قسوة الطبيعة أهوالا نقرؤها فلا نكاد نحققها ، ولا نكاد نصدقها ، لانها بلغت من القسوة والشدة وامتحان النفوس مالا يصدق الا بعد جهد أى جهد .**

* * *

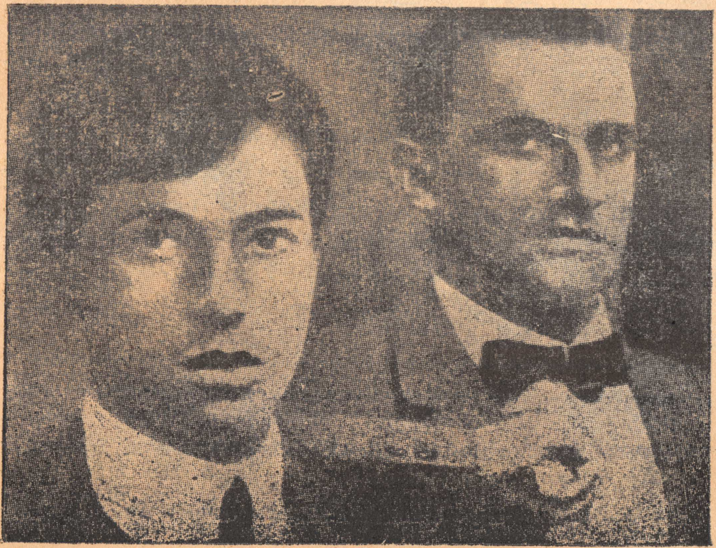
ولست أعرف كاتبا روسيا معاصرا صور قسـوة الطبيعة حين يشتد الشتاء وينهمر الثلج وتجمد الانهار وتنقطع حركة المواصلات ويهلك الزرع قبل أن يؤتى ثمره ، ويشقى الناس بهذا كله لا يجدون ما يأكلون ولا ما يلبسون ولا ما يدفعون به عن أنفسهم هذا البرد القارس .. وهم مع ذلك خائفون قـد ملأ الهول قلوبهم واستأثر اليأس من الحياة بنفوسهم ، فهم ينتظرون أن يؤخذوا فى كل لحظة ليقدموا الى الموت او ليقدم اليهم الموت .. وهم لا يسمعون نأمة ولا يحسون حركة الا ظنوا ان قد أقبل الذين سيأخذونهم ويمضون بهم الى حيث لا يعـودون ! وليس منهم الا من يفـكر فى صبى سيتعرض بعده للهول ، أو فى زوج ستشقى بعده الوان الشقاء .

لا أعرف كاتبا روسيا معاصرا صور هذا كله كما صوره باسترناك فى هذه القصة .. ولا أعرف كاتبا آخر صـور جمال الطبيعة حين يقبل الربيع وتشرق الشمس وتعود الحيـاة الى كل شىء الا الى هذه النفوس الوجلة التى لا تفكر أو لاتكاد تفكـر الا فى مصـاعب الحياة ومشكلاتها وفى هـذا الموت الذى يوشـك أن ينقض عليهم فيختطف منهم عائلا أو حبيبا .

ولا أذكر أنى قرأت تصويرا لحركة الجماعات فى الخوف والامن وفى السخط والرضى كما قرأته فى هذه القصة . ولا أعرف أحـدا وصف حياة الهاربين فى القطارات التى تمضى بهم لتقف حتى ييأسوا أو يوشكوا أن ييأسوا من حركتها وهم مع ذلك يهربون من المـوت أو مما يشبه الموت .

كل هذا تجده فى هذه القصة . بل انت واجد فيها أكثر جدا من كل هذا ، بشرط ان تقرأها صابرا نفسك على قراءتها وفارضا على نفسك ألا تتحول عنها اثناء القراءة قيد اصبع لخاطر يعرض لك أو شيء يجرى من حولك .. بل انت ملزم ان شئت قراءتها والاستمتاع الصحيح بها ان تقصر عليها اثناء القراءة عقلك وقلبك وذوقك جميعا . وسترى ان فعلت ذلك انك ستربح متعة قلما تربح مثلها من قراءة كتاب !

طه حسين



« باسترناك » الفتى اليافع ، مع الشاعر « مایاکوفسکی »

شخصيات القصة

(مرتبة حسب الحروف الابجدية)

• نظرا لكثرة أسماء ابطال هذه القصة الضخمة ، وتعدد شخصياتها ، وتشابه الكثير من هذه الاسماء وتعقدها .. وتيسيرا على القارىء فى تذكر الشخصية التى يرمز اليها كل اسم يجىء فى سياق القصة ، ومعرفة دوره فى احداثها .. فقد رايت ان أعد لك فيما يلى فهرسا « أبجديا » لهذه الاسماء ومدلولاتها ، ليعينك على تفهم القصة على الوجه الاكمل . (وسوف تلاحظ ان الروس يغالون عادة فى اطلاق ثلاثة وأربعة أسماء على كل شخص ، فى مختلف مراحل حياته .. كما يجعلون له فى المناسبات الرسمية اسما ، وفى المناسبات العائلية اسما ، بل اسماء اخرى !) .. وعلاوة على كل هذا التعقيد ، تتميز اسماؤهم بطولها العجيب ، حتى ليتألف بعضها من نحو عشرة حروف أو أكثر ! .. وفيما يلى قائمة الاسماء :

أنتيبوف : انظر « باشا » و « بافيل » و « ستريلنيكوف » .

أنتيبوفا : انظر « لارا » و « لاريسا » .

أوسيب : انظر « جاليولين » و « يوسوبكا »

الكسندر الكسندروفيتش : انظر « جروميكو » .

آنا ايفانوفنا كروجر : زوجةالكسندر الكسندروفيتش جروميكو . ووالدة « تونيا » ، وحماة دكتور جيفاجو . وهى ابنة أحد ملوك الحديد فى الاورال ، المدعو « ايفان أرنستوفيتش كروجر »

أنتونينا : انظر « تونيا » .

ايفجراف جيفاجو : اخ غير شقيق للدكتور جيفاجو

أوليا ديمينا : فتاة نشطة من عاملات مصنع مدام جيشار ، وصديقة لابنتها « لارا » ، وقد صار لها شأن بعد الثورة .

ايفان ايفانوفيتش فوسكوبوينيكوف : انظر فوسكوبوينيكوف .

باشا : (أو « باشكا » ، أو « باشنكا ») ـ واسمه الكامل « **بافيل بافلوفيتش أنتيبوف** » ـ ابن عامل السكة الحديد « بافيل فيرابونتوفيتش أنتيبوف » وزوجته « داريا فيليمونوفنا » .. كان مدرسا ، ثم صار قائدا فى جيش الثورة أطلق عليه لقب « ستريلنيكوف » .

بريكين : انظر « فاسيا » .

بافيل «فيرابونتوفيتش» أنتيبوف : هو زوج «داريا فيليمونوفنا» ووالد « بافيل بافلوفيتش انتيبوف » المعروف باسم « باشا » .. وقد صار الوالد زميلا لـ « تيفرزين » فى محكمة الثورة .

تيفرزين (أو « كوبريان » ، « كوبرينكا » ، سافيليفتش) : ابن « سافيلى نيكيتيش تيفرزين » من زوجته « مارفا جافريلوفنا » . وكان من عمال السكك الحديدية ، (مثل ابيه) ، ثم صار عضوا فى احدى محاكم الثورة مع صديقه بافيل « فيرابونتوفيتش » أنتيبوف ، (والد بافيل « بافلوفيتش » أنتيبوف ، المعروف باسم «باشا») .

تيفرزينا (أو « مارفا جافريلوفنا ») : زوجة « سافيلى » ووالدة « تيفرزين » .

تشكيفيتش : عازف موسيقى كان جارا فى الفندق لاسرة « جيشار » .

تونيا (أو « أنتونينا ») : ابنة الكسندر الكسندروفيتش من زوجته « آنا » . وزوجة دكتور جيفاجو .

جاليولين (او « اوسيب » ، أو «ايوسوب» ، أو «يوسوبكا») : ابن « جيمازيدين » من زوجته « فاتيما » . كان ميكانيكيا ثم صار قائدا لجيش البيض خلال الثورة البلشفية .

جيمازيدين : والد « جاليولين » . (انظر : جاليولين) .

جاليولينا (أو « فاتيما ») : والدة جاليولين .

جوردون (أو « ميشا » أو « ميخائيل ») : ابن المحامى « جريجورى أوسيبوفيتش جوردون » ، وصديق يورا (أو الدكتور جيفاجو) .

جروميكو (الكسندر الكسندروفيتش) : شقيق نيكولاى الكسندروفيتش ، وزوج « آنا ايفانوفنا كروجر » ، ووالد «تونيا» زوجة الدكتور جيفاجو . (وكان يورا جيفاجو قد قضى صباه فى منزل آل جروميكو)

جيشار (أماليا كارلوفنا) : والدة الفتاة (لارا — لاريسا — انتيبوفا) والفتى (روديا — روديون) . وهى أرملة مهندس بلجيكى كان يعمل فى الاورال ، وكانت فرنسية ثم اكتسبت الجنسية الروسية .

جيفاجو (أو « يورا » ، أو « يورى » ، أو « يوروتشكا ») اندريفيتش : هو الدكتور جيفاجو بطل القصة ، ابن ثرى من رجال الصناعة فى سيبريا ، مات منتحرا .. وامه « ماريا نيكولايفنا (المولودة بلقب « فيدينيابين ») . تزوج من تونيا جروميكو (او انتونينا) وانجب منها ابنا وابنة (« ساشا » ، و «ماشا») . وكان له أخ غير شقيق يدعى « ايفجراف جيفاجو » ، او « جرانيا » .

دودوروف : انظر : « نيكى » .

داريا فيليمونوفنا : زوجة بافيل « فيرابونتوفيتش » ووالدة بافيل « بافلوفيتش » (باشا) .

روديون (أو « روديا ») : ابن مدام جيشار وشقيق (لارا ـ لاريسا ـ انتيبوفا) ، وقد التحق بالكلية الحربية .

روديا : انظر « روديون » .

ستريلنيكوف : أنظر « باشا » و « بافيل » .

ساشا (أو « ساشنكا » ، « سانتشكا » ، « شورا » ، « شوروتشكا » .. وكلها تصغير لاسم « الكسندر ») : ابن دكتور جيفاجو من زوجته « تونيا » .

سافيلى : والد « تيفرزين » وزوج « مارفا » .

شتشابوف : (انظر « مارينكا »)

شليزنجر (شورا) : صديقة « آنا ايفانوفنا » زوجة الكسندر الكسندروفيتش جروميكو .

شورا : (انظر : « شليزنجر ») .

فاسيا : (أو « بريكين ») ، هارب من جيش العمال المجندين ، كان زميلا للدكتور جيفاجو فى رحلته الى الاورال ، وبات تحت حمايته .

فاتيما (أو جاليولينا) : والدة جاليولين .

فيكتور ايبوليتوفيتش : انظر « كوماروفسكى » .

فوسكوبوينيكوف (ايفان ايفانوفيتش) : أديب ومؤلف كان يقطن فى ضيافة كولوجريفوف فى ضيعة (دوبليانكا) ، وكانت له مناقشات فلسفية مع الخال كوليا .

كروجر : لقب أسرة « آنا » زوجة الكسندر الكسندروفيتش .

كاتيا (أو « كاتنكا » ـ تصغير « ايكاتيرينا ») : ابنة (لارا ـ لاريسا ـ انتيبوفا) من زوجها (باشا ـ بافيل ـ انتيبوف ـ ستريلنيكوف) .

كولوجريفوف (لافرينتى ميخائيلوفيتش) : ثرى من رجال الصناعه يملك ضيعة (دوبليانكا) ، وهو شغوف برعاية الادب والفنون . له ابنتان هما « ناديا » و « ليبا » ، صديقتا « لارا » فى سنوات المراهقة .

كوماروفسكى (فيكتور ايبوليتوفيتش) : محام (ثم صار فى عهد الثورة من رجال السياسة) ، وكان صديقا للمهندس البلجيكى

وراعيا لارملته مدام جيشار ، ثم عشيقا لابنتها « لارا » .

كوليا : انظر « نيكولاى نيكولاييفتش » .

كوبريان : (انظر : تيفرزين)

كوبرينكا : (انظر : تيفرزين)

ليبا كولوجريفوف : ابنة صاحب ضيعة (دوبليانكا) ، وتلميذة « لارا » .

مارينكا : (أو « مارينا ماركيلوفنا » ، أو « شتشابوف ») ، ابنة حارس الباب أو النجار « ماركل شتشابوف » من زوجته « أجافيا تيخونوفنا » . ستصير لها علاقة هامة مع شخصية كبيرة من شخصيات الرواية وتنجب منه ابنتين : كابيتولينا (كابا) ، و كلافديا (كلافا) .

ماركل : والد الفتاة « مارينكا » . (انظر « مارينكا » .)

ميشا : انظر « جوردون »

ماريا نيكولاييفنا : والدة يورا (الدكتور جيفاجو) .

مارينا : انظر « مارينكا » .

مارفا جافريلوفنا (أو « تيفرزينا ») : والدة « تيفرزين » وزوجة « سافيلى » .

ماشا (تصغير ماريا) : ابنة دكتور جيفاجو من زوجته «تونيا» .

نيكى ديمنتى دودوروف (أو « اينوكنتى » ، أو « اينوتشيك » ، أو « نوتشينكا ») : ابن الفوضوى « ديمنتى دودوروف » والاميرة جيورجيين نينا جالاكتيونوفنا . نشأ فى منزل المؤنف « فوسكوبوينيكوف » وكان صديقا ليورا (يورى ــ جيفاجو)

نيكولاى نيكولاييفيتش (أو « الخال كوليا » ، أو «فيدينيابين») : كان من رجال الكنيسة ثم هجر الدين ليصبح كاتبا وفيلسوفا .

ناديا كولوجريفوف : ابنة صاحب ضيعة (دوبليانكا) وصديقة « لارا »

لارا : (أو لاريسا ، أو انتيبوفا) ، ابنة مدام « جيشار » وشقيقة « روديا » أو « روديون » ، تزوجت من « باشا » ، أو « أنتيبوف » أو « ستريلنيكوف » ، وانجبت منه ابنتهما «كاتيا» .

لاريسا : انظر « لارا » ، و « انتيبوفا » .

يوسوبكا : انظر « جاليولين » و « اوسيب » .

يورا : انظر « جيفاجو » .

يورى : انظر « جيفاجو » .

الفصل الأول

قطار الساعة الخامسة السريع



« .. وبحكم التخدر وجمود القلب اللذين يستوليان على الناس عادة فى نهاية جنازة حارة ، ظن بعض المشيعين ان الصبي يرغب فى القاء مرثيه على قبر أمه .. »

الفصل الاول

قطار الساعة الخامسة السريع

— ١ —

• كان المشيعون يسيرون بلا توقف ، وهم يرددون الانشودة الجنائزية « الذكرى الابدية » .. وحين يتوقفون عن الانشاد ، كان وقع أقدامهم ، وحوافر الجياد ، وصفير الرياح ، تبدو كأنها تواصل ترديد الانشودة .

وكان المارة يفسحون الطريق للموكب ، وهم يحصون أكاليل الزهور ، ويرسمون على صدورهم علامة الصليب . وانضم بعض منهم الى الموكب ، بدافع الفضول ، وهم يتساءلون : « من الميت ؟ » .. فقيل لهم : « جيفاجو » !

ـ أوه ، هذا يوضح الامر .

ـ كلا ، انه ليس الزوج ، بل زوجته ..

ـ سيان ، فليتغمدها الله برحمته ، انها جنازة رائعة ..

وانقضت سريعا اللحظات الاخيرة لمراسم الدفن .. انقضت الى غير رجعة .. « للرب الارض وملؤها . المسكونة وكل الساكنين فيها » .. ونثر الكاهن حفنة من التراب على جثة « ماريا نيكولاييفنا » ، راسما بها علامة الصليب ، وأنشد المشيعون أنشودة : « أرواح الابرار » .. ثم بدأ على الاثر لغط شديد . وأغلق النعش ، ودقت فيه المسامير ، ودلى فى باطن الارض . وانهمر وابل من التربة فوق غطاء النعش . تساقط عليه كقطرات المطر المنهمر ، وهم يهيلون التراب ليغطوه ويملأوا القبر فى عجلة ، مستخدمين أربع مجارف فى وقت واحد .. حتى تراكمت فوقه رابية ، تسلق الى قمتها صبى فى العاشرة من عمره .

وبحكم التخدر وجمود القلب اللذين يستوليان على الناس عادة فى نهاية جنازة حارة ، ظن بعض المشيعين أن الصبى يرغب فى القاء مرثية على قبر أمه .

لكنه رفع رأسه ، ومن موقعه المرتفع الم بصره فى شرود بمنظر

البقاع الجرداء المحيطة ، التى عراها الخريف ، وبقباب الدير القريب . وتجهم وجه ذو الانف الافطس ، ومد رقبته كما يفعل شبل الذئب حين يتأهب للعواء ، ثم غطى وجهه براحتيه وأجهش بالبكاء .. بينما راح الهواء الذى يهب عليه يلطم يديه ووجهه بقطرات باردة من المطر . واقترب من القبر رجل يرتدى السواد ، ذو أكمام ضيقة ولاصقة بذراعيه . كان هذا الرجل هو « نيكولاى نيكولاييفيتش فيدينيابين » شقيق المتوفاة وخال الصبى المنتحب ، وكان كاهنا جرد من وظيفته الكنسية بناء على طلبه .

واتجه الكاهن الى الصبى فقاده الى خارج فناء المقبرة .

— ٢ —

• وقضى الاثنان الليلة فى الدير ، حيث كان الخال « كوليا » قد أعطى حجرة ، مراعاة لمركزه القديم . وكانت الليلة ليلة عيد شفاعة العذراء المقدسة . وكان مفروضا أن يسافرا فى اليوم التالى جنوبا الى مدينة من مدن الاقاليم تقع على ضفاف نهر الفولجا ، كان الخال « كوليا » يعمل فيها لدى ناشر يصدر الجريدة المحلية التقدمية . وكانا قد ابتاعا تذكرتيهما بالفعل وأتما حزم أمتعتهما ووضعها فى الحجرة الصغيرة على أهبة الاستعداد للسفر .. وكانت الرياح تحمل الى الآذان — من اتجاه الخط الحديدى القريب — نعيق القاطرات النائحة من بعيد ، وهى تقوم بمناوراتها أثناء ادخالها الى مخازنها ..

وتفاقم البرد فى المساء . وكانت نافذتا الحجرة توازيان مستوى سطح الارض ، وتطلان على ركن من حديقة المطبخ المهملة ، وعلى شطر من الطريق الرئيسى ، بمستنقعاته المتجمدة ، وعلى الجزء من فناء الكنيسة الذى دفنت فيه « ماريا نيكولاييفنا » فى ساعة مبكرة من ذلك النهار . ولم يكن فى حديقة المطبخ سوى بضعة أدغال من نبات (الاكاسيا) بالقرب من الجدار ، وعدد من « تعريشات » الكرنب كان الصقيع قد غضنها وبث الزرقة فى عروقها . ومع كل

هبة من الرياح كانت اغصان (الاكاسيا) العارية من الاوراق ترقص كما لو كان قد أصابها مس من الشياطين .. ثم تستلقى منبسطة على أرض الممر .

وأثناء الليل ، استيقظ الصبى « يورا » من نومه على صوت طرقات على النافذة . وكان يشيع فى الحجرة المعتمة ضياء غامض، أبيض متراقص ، فهرع الصبى الى النافذة وليس على جسده من الملابس غير قميصه .. وضغط وجهه على زجاجها البارد .

وفى الخارج لم يكن ثمة أثر للطريق ، أو لفناء المقبرة ، او حديقة المطبخ .. لا شىء سوى العاصفة، والهواء المحمل بالثلج . وبدا كأن العاصفة الثلجية قد وقع بصرها على « يورا » ، وبدافع من شعورها بقوتها وقدرتها على اثارة الرعب ، زأرت ونبحت ، وفعلت كل ما من شأنه أن يجذب انتباه الصبى ، نشوانة طروبا بالتأثير الذى أحدثته فى نفسه . ومن السماء ، هبطت على الارض ملاءة بعد ملاءة من الثلج الابيض الذى كان الهواء يلفه فى الجو على شكل دوائر ودوائر، لا تلبث أن تتساقط فى حلقات متصلة لا نهاية لها ، فتغمر الارض وتغلفها بأكفانها . كانت العاصفة قد انفردت بالارض ، ولم يكن لها منافس أو غريم !

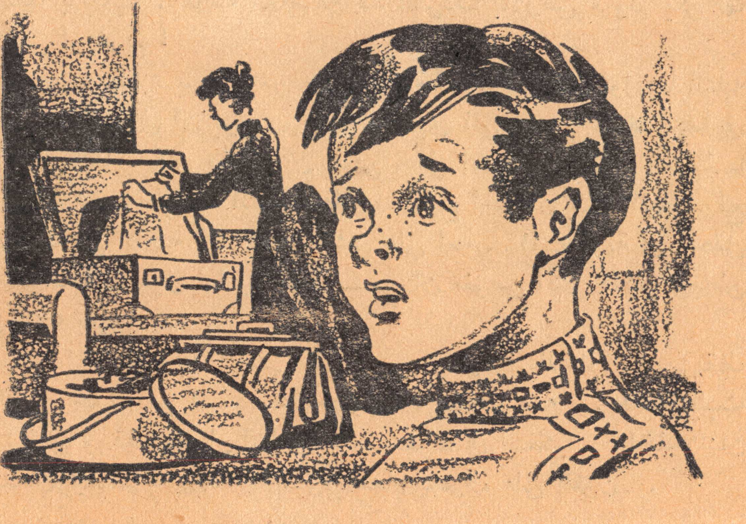
وحين هبط « يورا » من فوق حافة النافذة ، كان أول ما انتابه شعور بالرغبة فى أن يرتدى ثيابه ويجرى الى الخارج ، ثم يبدأ فى عمل شىء ما . كان يخشى أن يدفن حقل الكرنب الصغير ، شيئا فشيئا ، تحت طبقات الثلج ، فلا يستطيع أحد أن ينفذ اليه ليرفع الجليد عن كاهله .. كما خشى على أمه ــ المدفونة فى الحقل المكشوف ، لا حول لها ولا طول ــ من أن تغوص اكثر فأكثر فى باطن الارض ، بعيدا عنه .

ومرة أخرى، وجد الصبى مخرجا من أفكاره فى البكاء. . فاستيقظ خاله ، وحدثه عن المسيح ، وحاول أن يخفف عنه .. لكنه لم يلبث أن تثاءب ووقف بجوار النافذة ، مستغرقا فى التفكير . وأخذ الاثنان يرتديان ثيابهما ، وقد بدأ ضوء النهار يشرق على الكون .

— ٣ —

• لم يكن « يورا » يعلم — أثناء حياة أمه — أن أباه كان قد هجرهما منذ زمن بعيد، وانفق أيامه يسكر ويعربدويتخذ المحظيات، متنقلا بين سيبريا والخارج .. ولا أنه قد بدد ثروة الاسرة وذراها مع الرياح الاربع !.. فان النغمة التى كانت تردد على سمعه دائما ان أباه متغيب فى مدينة (بطرسبورج) ، لمهام تتعلق بأعماله ، أو انه يزور أحد المعارض أو الاسواق التجارية الكبرى التى كانت تعقد عادة فى (اربت) .

وعندما أصيبت أمه — التى كانت ضعيفة البنية — بمرض السل، صارت تسافر كثيرا الى جنوب فرنسا وشمال ايطاليا، للعلاج . وقد صحبها « يورا » فى اثنتين من هذه الرحلات . وكان الصبى كثيرا مايترك مع أحد الغرباء ، ولكن هذا الغريب كان يتغير فى كل



مرة ! .. ومن ثم فقد ألف الصبى كل هذه التغييرات والالغاز ! .. وبحكم هذا الجو الذى ينقصه النظام ، ويكتنفه الغموض على الدوام، لم يحس الصبى بشىء من الدهشة لطول غياب أبيه . وكان فى استطاعته أن يتذكر فترة من صباه الباكر كان فيها لقب أسرته يطلق على أشياء كثيرة منوعة ، لا حصر لها : كانت هناك مصانع «جيفاجو» .. وبنك جيفاجو .. وعمارات جيفاجو .. و « دبابيس » لرباط الرقبة معروفة باسم « جيفاجو » ! .. بل كانت هناك كعكة من نوع «البابا» الممزوجة بالروم ، يطلق عليها « فطيرة جيفاجو » ! .. وجاء وقت كان يكفى أن تقول فيه لقائد زحافتك فى موسكو : « الى دار آل جيفاجو » ، كى ينطلق بك الى مملكة مسحورة فى أقصى الارض ، وكأنك قلت له : « خذنى الى مدينة (تمبكتو) (١) ! .. واذا أنت فى حديقة ساكنة موحشة ، وحشة الريف .. والغربان فيها تنثر الثلج الابيض من مستقرها فوق الاغصان الثقيلة لاشجار (الشربين) .. ونعيقها يتردد صداه مثل طقطقة الاخشاب فى المدفأة .. والكلاب تعدو عبر الطريق قادمة من جهة أوجرتها الجديدة القائمة فى الطرف الآخر من الدغل الموحش ، حيث أضيئت الاضواء حين زحفت عتمة الغسق وهبط الظلام .

وفجأة .. تبخر كل ذلك وزال .. لقد أصبحوا فقراء !

— ٤ —

• **وذات** يوم من صيف عام ١٩٠٣ ، بعد وفاة أمه بنحو عامين، كان « يورا » يخترق الحقول فى عربة مكشوفة من ذات الجوادين ، ومعه خاله « كوليا » . كانا فى طريقهما لزيارة « ايفان ايفانوفتش فوسكوبوينيكوف » ، وهو معلم ومؤلف لكثير من كتب النصوص الرائجة ، كان يقطن فى (دوبليانكا) ، الضيعة المملوكة لصاحب مصانع الحرير وراعى الادب والفنون العظيم « كولوجريفوف » .

(١) مدينة (تمبكتو) هى أكبر مدن السودان الفرنسى ، وتقع بالقرب من حدود الصحراء . وهى ذات أهمية تجارية كبرى منذ القدم، ولا سيما بالنسبة لتجارة القوافل.

وكان اليوم يوم عيد « عذراء قازان » .. والمحصول المحصود مكدس على جانبى الطريق ، وقد خلت الحقول من أى انسان ، اما بسبب العيد أو لان الوقت كان وقت الراحة فى ساعة الظهيرة . ولفحت الشمس الحقول نصف المحصودة ، التى بدت أشبه بالاقفية او الرؤوس نصف المحلوقة لنزلاء الليمان ! .. وحلقت الطيور فى شبه دوائر فوق الرؤوس .. وانتصبت عيدان الحنطة الناضجة ، ساكنة لاتهزها ادنى حركة .. وعلى مسافة من الطريق، بدت الحزم المربوطة قائمة فوق الهشيم ، فاذا امعنت النظر فيها طويلا خيل اليك انها اشباح تتحرك ، وكأنها مساحو الاراضى يسيرون عند الافق ليقيسوا المساحات .

وسأل « نيكولاى نيكولاييفتش » المدعو « بافيل » ، حارس دار النشر والرجل الذى يصلح لتأدية اية مهمة توكل اليه ـ وكان يجلس الآن فى مقعد الحوذى وقد أحنى ظهره وعقد ساقيه ، ليظهر ان قيادة العربة ليست مهنته الاصلية ـ سأله بقوله : « هل هذه الحقول مملوكة لاصحاب الاراضى أم للفلاحين ؟ »

فأجاب « بافيل » : « الحقول التى فى هذا الجانب مملوكة للأسياد » . ثم أشعل غليونه وجذب منه نفسا ، وبعد فترة صمت أشار بطرف سوطه الى اتجاه آخر وأردف : « اما هذه فحقولنا نحن ! » . ثم صاح يستحث الجياد على الاسراع ، وكان وهو يتكلم يرقب أردافها وذيولها بطرف عينه ، كما يرقب سائق القاطرة مقياس ضغط الغازات والابخرة (المانومتر) ! .. لكن الجياد كانت تسير على هواها ، مثل كل جياد العالم ، فكان أحد الجوادين يجر حمله بالامانة الغريزية المأثورة فى الحيوان ذى النفس البسيطة ، بينما كان الحصان الآخر يلوى عنقه كالبجعة فيوحى بانه كسول بطبعه ، لا هم له غير أن يرقص على رنين الاجراس المعلقة برقبته !

وكان « نيكولاى نيكولاييفتش » يحمل معه التجارب الاولى ـ « البروفات » ـ لكتاب « فوسكوبوينيكوف » عن مشكلة الاراضى ، وكان الناشر قد طلب الى المؤلف ان يراجعها، بسبب الرقابة الصارمة

المتزايدة .

وقال « نيكولاى » يحدث « بافيل » : « ان القوم هنا قد صاروا بالغى القسوة .. ففى مقاطعة (بانكوفو) ذبحوا تاجرا ذبح الشاة، واحرقوا حظيرة جياد قوميسار (١) المنطقة عن آخرها ! .. فما رأيك فى هذه الاحوال ؟ وما رأى الاهالى فى قريتك ؟ »

غير أن « بافيل » كان ينظر الى هذه الامور نظرة أشد تشاؤما وسوادا من نظرة الرقيب الذى طالب « فوسكوبوينيكوف » بأن يخفف من عنف آرائه فى مشكلة الاراضى .. ومن ثم فقد أجاب قائلا : « وماذا تتوقع ان يكون رأيهم ؟ لقد أفلت زمام هؤلاء الفلاحين .. أتلفهم التدليل ، والمغالاة فى المعاملة الطيبة ، وهو أمر شديد الخطورة على أمثالنا . فانك اذا أعطيت الفلاحين حبلا ، فالله يعلم اننا لن نلبث أن نعلق جميعنا به ! »

وعاد يستحث الجياد على الاسراع ..

* * *

• كانت هذه هى الرحلة الثانية التى يقوم بها « يورا » ـ بصحبة خاله ـ الى (دوبليانكا) . وكان يحسب انه يتذكر الطريق جيدا ، ففى كل مرة كان ينفسح فيها السهل والحقول على الجانبين ـ يحف بها خط نحيل من الغابات من أمام ومن خلف ـ كان «يورا» يتوقع ان ينعطف الطريق الى اليمين وتنكشف امامه على مرمى البصر ضيعة (كولوجريفوف) التى تمتد فى السهل المكشوف مسافة عشرة أميال ، والنهر يلمع على حدودها عن بعد ، وشريط السكة الحديدية يمتد على الضفة الاخرى وراء النهر .. ولكن فى كل مرة كان «يورا» يتبين أنه مخطىء فى ظنه ، فكانت الحقول تتتابع ، حقل فى أثر حقل ، ثم لا تلبث الغابات أن تبتلعها !.. وأثار توالى المساحات

---

(١) يطلق على القوميسار فى ريف روسيا لفظ « زمسكى » ، وهو يختار من اعيان المنطقة ويمنح سلطات ادارية وقضائية واسعة .

الشاسعة ، فى نفوس المسافرين ، شعورا بالرحابة والاتساع ،وجعلهم يفكرون فى المستقبل .. ويحلمون به !

ولم تكن الكتب التى جلبت الشهرة لنيكولاى نيكولاييفتش ، فيما بعد ، قد كتبت وقتئذ .. لكن آراءه كانت قد تبلورت فى نفسه وأخذت شكلا واضحا ، وان لم يدر بخلده ان ساعته قد دنت ، وانه لن يلبث أن يحتل مكانة مرموقة بين كبار كتاب عصره (من اساتذة الجامعة وفلاسفة الحركة الثورية) ، باعتبار انه يشاطرهم شواغلهم الذهنية ، ولو لم يجمع بينه وبينهم اى اتفاق فى طريقة التفكير ، الا من ناحية مصطلحاتهم اللغوية. كانوا جميعا ـ بلا استثناء ـ يتعلقون بهذا المذهب أو ذاك ، ويقنعون بالالفاظ والمظاهر الخارجية .. اما هو ـ « الاب نيكولاى » رجل الدين ـ فكان من اتباع «تولستوى» ، ومن الثوريين المثاليين فىوقتواحد .. وكان يذهب فى تفكيره الى بعيد ، اكثر فأكثر كل يوم . **كان يتحرق شوقا الى فكرة يعتنقها . فكرة محددة ثابتة ، وملهمة .. فكرة تفتح امام البصائر طريقا واضحا مستقيما الى عالم أفضل . فكرة لا تستعصى حتى على ادراك الطفل او الابله الجاهل ، وانما تنفذ الى وعيه كما ينفذ البرق والرعد !**

كان يتحرق شوقا الى .. شىء جديد .

وكان يورا يحب صحبة خاله ، فقد كان يذكره بأمه . كان مثلها متفتح العقل للحرية ، ميالا الى كل مايخرج على المألوف . وكانت له ـ مثلها ـ نفس الحاسة الارستقراطية بالمساواة مع كل الكائنات الحية .. ونفس الموهبة التى تمكنه من ادراك كل شىء من أول وهلة ، والتعبير عن أفكاره بمجرد أن تخطر له ، وقبل أن تفقد معناها وحيويتها .

وكان يورا سعيدا بالذهاب فى صحبة خاله الى (دوبليانكا) ، فقد كانت مكانا جميلا ، وكان ذلك ايضا يذكره بأمه التى كانت شغوفة بالطبيعة ، والتى كثيرا ما اصطحبته الى نزهات خلوية .

.. ثم انه كان يتطلع الى لقاء « نيكى دودوروف » مرة أخرى ،

رعم ان نيكى — الذى كان يكبره بعامين — قد ينظر اليه باحتقار . وكان نيكى تلميذا بالمدرسة الابتدائية يقطن عند أسرة (فوسكوبوينيكوف) ، وكان حين يصافح يورا يجذب ذراعه الى أسفل بكل قوته ، وينحنى رأسه حتى يسقط شعره على جبينه فيغطى نصف وجهه !

— ٥ —

« ان العصب الحيوى لمشكلة الفقر .. » — أخذ « نيكولاى نيكولاييفتش » يقرأ فى المخطوط الذى تجرى مراجعته ..

فقال ايفان ايفانوفتش **فوسكوبوينيكوف** : « من رأيى أن كلمة « جوهر » أفضل ، وأبلغ تأدية للمعنى فى هذا الموضع » .. وخط التصحيح على « البروفة » التى يراجعانها .

وكانا يعملان فى الشرفة المسقوفة ، نصف المعتمة .. وكانت حولهما رشاشات لسقيا الحديقة ، وادوات للفلاحة ، ومعطف للمطر ملقى على ظهر مقعد مكسور .. وفى ركن من المكان أحذية طويلة الرقبة — للخوض فى الطمى والماء — مكسوة بالوحل ، وقد تدلت رقابها الى الارض ..

وراح « نيكولاى نيكولاييفتش » يملى صاحبه : « ومن الجهة الاخرى ، فان احصائيات المواليد والوفيات تظهر بجلاء أن .. »

فقال ايفان ايفانوفتش : « أضف هنا عبارة : « بالنسبة للسنة التى نحن بصددها » ، (وأضاف العبارة فى « البروفة ») .. وهب على الشرفة تيار خفيف من الهواء ، وكانت اوراق المخطوط مثقلة بأثقال من الجرانيت تحميها من أن يحملها الهواء معه كلما هب ..

وحين فرغ الرجلان من مهمتهما ، اعرب «نيكولاى نيكولاييفتش» عن رغبته فى الانصراف فورا . قال :

— هناك عاصفة على وشك الهبوب . يجب أن نسرع بالذهاب ..

— لست أتوقع شيئا من ذلك . لن ادعك تذهب . سنتناول الشاى الآن .

ـ لكنى مرتبط بموعد فى المدينة هذا المساء .

ـ لاجدوى من الجدل . لن أصغى الى مزيد فى هذا الصدد .

وكان الشاى يعد فى الحديقة ، اذ هبت نسمة محملة بدخان الفحم ، من حيث كان القدر يغلى على النار ، فأخمدت رائحة التبغ وعباد الشمس . واقبلت خادم تحمل صينية عليها لبن مخثر ، وكعكة بالجبن ، وفراولة . وعرف أن « بافيل » قد ذهب ليستحم فى النهر ، وانه أخذ الجياد معه .. فلم يبق امام « نيكولاى نيكولاييفتش » أى خيار سوى الخضوع والبقاء .

واقترح عليه ايفان ايفانوفتش : « فلنهبط الى ضفة النهر ريثما يفرغون من اعداد الشاى . »

بحكم صداقته مع « كولوجريفوف » ـ رب الضيعة ـ كان ايفان ايفانوفتش يشغل غرفتين فى دار ناظر الضيعة . وكانت الدار ، بحديقتها الصغيرة الخاصة بها ، تقوم فى ركن مهمل من الحديقة ، بقرب الممر القديم الذى زحفت عليه الآن الحشائش الغزيرة ولم يعد يستعمل الا لكى تنقل عن طريقه انقاض مواد البناء الى « الخور » الذى كان يستخدم كمصرف أو « مقلب » للفضلات . وكان « كولوجريفوف » ـ وهو رجل ذو آراء تقدمية ، و «مليونير» يعطف على الثورة ! ـ متغيبا فى الخارج مع زوجته ، **فلم يكن يقطن الضيعة فى تلك الآونة غير ابنتيه « ناديا » و « ليبا » ومربيتهما ، وعدد قليل من الخدم .**

وكان سياج كثيف من «السيسبان» يفصل دار الناظر وحديقتها الصغيرة عن البستان الكبير ، بمروجه وبحيراته الصناعية التى تحيط بالقصر . وفيما كان ايفان ايفانوفتش ونيكولاى نيكولاييفتش يسيران بمحاذاة السياج ، كانت العصافير الدورية تنطلق منه كل حين ـ بعد فترات منتظمة ـ فى جماعات صغيرة متماثلة الحجم ، تحلق امامهما وتسبقهما .. وكان السيسبان يعج بأسراب من هذه العصافير ، تملأه بوشوشة شبيهة بصوت جريان الماء داخل المواسير ..

وجاوز الرجلان اكشاك استنبات النباتات ، وكوخ البستانى ،

وبعض الاطلال الحجرية المجهولة الاصل . وكانا يتحدثان عن موهبة جديدة فى عالم الادب والدراسات العليا ، فقال نيكولاى نيكولايفتش: « مما لاشك فيه أن المرء يصادف اناسا موهوبين ، ولكنهم معزولون . . فان « موضة » هذه الايام هى التكتلات والجماعات ، من كل نوع . **والروح الجماعية هى دائما ملجأ المحرومين من المواهب ، سواء فى ذلك من تدين جماعتهم بالولاء لـ « سولوفييف » أو « كانت » أو « ماركس » . فالافراد وحدهم هم الذين ينشدون الحقيقة ، وهم يثورون ويقطعون صلتهم بالذين لايحبونها حبا كافيا . كم من الاشياء فى الدنيا جدير باخلاصنا وولائنا ؟ نزر يسير .** وفى رأيى ان المرء ينبغى ان يكون مخلصا للخلود ، الذى هو لفظ آخر مرادف للحياة، لفظ اقوى تعبيرا عنها . نعم ، ينبغى أن يدين المرء بالولاء للخلود . . بالولاء للمسيح ! . . لكنك تقطب جبينك ياصديقى المسكين . انك ـ كالعادة ـ لم تفهم حرفا ! »

ـ « آه » . غمغم ايفان ايفانوفتش . وكان رجلا نحيلا اشقر الشعر ، لا يستقر له قرار فى مكان ـ مثل ثعبان الماء ! ـ وله لحية صغيرة مدببة جعلته يبدو مثل أمريكى من عصر « لنكولن » . (وكان دائما يأخذ لحيته فى راحة يده ويحاول أن يجذب طرفها بشفتيه) . ثم أردف : « انى ألزم الصمت فلا أقول شيئا بالطبع ، فأنا ـ كما تعلم ـ أنظر الى هذه الاشياء نظرة مختلفة . ولكن ، مادمنا بصدد هذا الموضوع ، هلا رويت لى كيف خلعوا عنك رداء الكهنوت ؟ أحسبك قد أصبت بالذعر . أو لم يوقعوا عليك عقوبة الحرمان من رحمة الكنيسة ، أو عقوبة اللعنة ؟ »

ـ انك تحاول ان تغير موضوع الحديث . ومع ذلك ، فلم لا . . ؟ كلا ، لم أكن من الملعونين ، فان اللعنة لا تحيق فى هذه الايام . . ولقد كان ثمة قدر من المنغصات ، كما ان هناك قدرا من العواقب والنتائج . . مثال ذلك اننى محروم ـ منذ أمد طويل ـ من الخدمة المدنية ، فى الوظائف العامة ، كما اننى محروم من الذهاب الى (موسكو) أو الى (بطرسبورج) . على ان هذه سفاسف ! . . لابد للمرء من أن يكون

مسيحيا صادقا ، كما سبق أن قلت . ولسوف أشرح لك ذلك . ان الذى لاتفهمه هو أن من الممكن ان يكون المرء كافرا .. **ان من الممكن ان لايعرف ما اذا كان الله موجودا ، او لماذا ينبغى أن يكون موجودا ، وأن يؤمن – فى الوقت ذاته – بأن الانسان لايعيش على الفطرة، وانما هو يعيش فى التاريخ. وان هذا التاريخ ، كما نعرفه ، يبدأ بمولد المسيح.** فهو الذى أوجده ، فى الاناجيل . فما هو التاريخ اذن ؟ .. ان بدايته هى بداية قرون العمل المنظم الموجه الى حل لغز الموت ، حتى يتسنى التغلب يوما على الموت ذاته . وهذا هو السبب فى أن الناس يكتبون «السيمفونيات» ، وهو السبب فى أنهم يكتشفون المعادلات الرياضية اللا نهائية ، وأمواج المغناطيسية الكهربائية !

« وبعد ، ليس بوسعك أن تتقدم فى هذا الاتجاه ، دون ما شىء من تطور الروح . ليس بوسعك أن تحقق مثل هذه الاكتشافات دون عدة روحية ، وقد اوتينا فى الانجيل كل مايتيح لنا هذه العدة الروحية . فما هذا الذى اوتيناه ؟ .. **أولا : أن يحب المرء قريبه..** وهذا الحب أسمى أشكال الطاقة الحيوية، فما هو أن يعمر به قلب المرء، حتى يفيض وينتشر . **وثانيا : المبدآن اللذان يؤلفان الجزء الرئيسى فى تكوين الانسان الحديث ، واللذان لاتقوم له قائمة بدونهما .. مبدأ الشخصية الحرة، ومبدأ النظر الى الحياة كأنها تضحية !** .. ولاحظ ان هذا كله ، لايزال حديث العهد ، لم يكن معروفا فى العالم القديم .. ففى ذلك العالم القديم ، كان ثمة دم ، وحيوانية ، وقسوة ، وأفراد مشوهو الوجوه من أثر الجدرى – من أمثال « كاليجولا » (١) – لم يدركوا أو يتصوروا أن الطاغية الذى يستعبد سواه ، هو – دون محيص – عاجز ضعيف ! .. وفى ذلك العالم القديم كنت تجد الابدية الميتة التى تزهو بها النصب البرونزية والاعمدة المرمرية .. فلم يقدر للزمن

---

(١) اسم يرمز به الى كل جبار طاغية ، تشبها بثالث الأباطرة الرومان « كايوس قيصر كاليجولا » ، الذى بدا حكمها يسوده السلام – فى سنة ٣٧ ميلادية – ثم انتهى الى طغيان دموى غاشم ، أدى الى اغتياله فى سنة ٤١ .

وللانسان أن يتنفسا بحرية الا بعد مجيء المسيح .. لم يقدر للبشر ـ الا بعده ـ ان يعيشوا فى ذرياتهم وسلالتهم، ولا يموتون فى الخنادق كالكلاب ! .. بل انهم اصبحوا يموتون فى الوطن ـ وفى التاريخ ـ فى أوج العمل الذى كرسوه للتغلب على الموت ، وهم أنفسهم مكرسون لهذا الهدف ! .. اف ! اننى اتفصد عرقا كالخنزير .. لكأننى اتحدث الى جدار أصم ! »

ـ هذه فلسفة عقلية ياصديقى العزيز ، وهى محرمة على بأمر من اطبائى ، لان معدتى لا تقوى على هضمها !

ـ آه ، لا بأس .. لا أمل يرتجى منك ! .. فلننصرف ! .. يالله، ماأجمله من منظر هذا الذى تطل عليه أيها الشيطان المحظوظ ، وان كنت اعتقد انك لا تفطن اليه ، لانك تراه كجزء من حياتك اليومية !

كان النهر يتألق تحت اشعة الشمس الحامية ، فيعكس وهجا يؤذى الابصار .. وكان يتمايل ، فينطوى وينبسط ، وكأنه صحفة كبيرة من معدن رقيق . وفجأة ، تجعد سطح النهر اذ تحركت مركب من مراكب العبور (معدية) ، تنشد الشاطىء الآخر ، وهى محملة بالعربات ، والجياد ، والفلاحين ونسائهم .. وقال ايفان ايفانو فيتش: **« تصور أن الساعة لم تتجاوز الخامسة ! .. ها هو ذا القطار السريع القادم من (سيزران) . انه يمر بهذه البقعة فى الخامسة وخمس دقائق » .**

وفى أقصى السهل ، ظهر قطار أنيق ، ذو لونين ـ أصفر وأزرق ـ يعبر السهل من اليمين الى اليسار ، وقد بدا دقيق الحجم لبعده. وفجأة ، لاحظا انه وقف. وتتابعت سحب من البخار فوق القاطرة. وبعد لحظة ، سمعا صفيره مدويا . فقال فوسكوبوينيكوف : «هذا غريب ! .. ان فى الامر شيئا ، فليس للقطار أن يقف فى وسط الحمأة التى هناك .لابد أن شيئا جرى ! لنذهب فنتناول الشاى ! »

ـ ٦ ـ

• لم يتسن العثور على « نيكى » فى داخل البيت ، ولا فى الحديقة .. وخرج « يورا » ليحوم ـ دون مقصد ـ حول الدار ،

بينما كان خاله و « ايفان ايفانوفيتش » يعملان فى الشرفة ، فحدس أن « نيكى » لابد قد اختبأ لانه ضاق بالضيوف ، ولم يكن ينظرالى « يورا » على انه ند وقرين له .

كان المكان بديعا .. وكان ثمة طائر أصفر من طيور « الدح » يرسل صياحه المثلث النبرات ، ثم يصمت دقيقة ليدع النغم الصافى ، الندى ، المتموج ، يتهادى ويتغلغل فى الريف .. ويعود فيصيح ، ثم يصمت ، وهكذا تباعا . وكانت روائح الزهور تقف معلقة فوق الاحواض التى جثمت عليها الشمس ، وقد أمسك بها الهواء الراكد وبث فيها سحرا خدرها ! .. لكم كانت تذكره بجزر (الانتيب) و (بورديغيرا) !

وظل يتلفت يمنة ويسرة .. كان صوت أمه يتردد فى المروج ، وكأنه مس غازى من جنون .. كان فى طنين النحل ، وفى أغاريد الطيور .. وكان يبعث فى جسد « يورا » قشعريرة ، اذ يداخله الوهم فى أن أمه كانت ترتقب منه جوابا ، وكأنها كانت تدعوه اليها ! .. وسار نحو التل ، فتسلقه ، ماضيا خلال الاجمة النظيفة التى كانت حافتها تطل على دغل أشجار الحور ، فى أسفل . وكانت الظلمة والرطوبة تخيمان على هذا الدغل ، وعلى الاغصان الميتة .. ولم تكن ثمة زهور كثيرة ، ولاح ليورا أن فروع نبات « ذيل المهر » ، المتضافرة ، كانت أشبه بالصولجانات المصرية التى كان يراها فى نسخته المصورة من « التوراة » !

وشعر « يورا » بأن الهم يثقله ويزداد جثوما عليه ، فهفت نفسه الى البكاء ، ومن ثم فقد جثا على ركبتيه ، وأطلق لدموعه العنان .. وراح يهتف بالادعيات : « ياحارسى القدسى ، ياملاك الرب ، طمئننى عن حق ، وقل لى ان ماما بخير ، وانها لن تلقى عناء ! .. اذا كانت ثمة حياة بعد الموت ، فتقبلها أيها الرب فى ربوعك السماوية ، حيث تضىء وجوه القديسين والاتقياء كأنها المصابيح . لقد كانت أمى امرأة خير ، ولم تكن تقوى على ارتكاب ذنب ، فارحمها يا الهى ،

ولا تعذبها ! .. اماه ! » . وانبعث النداء من أعماق قلبه الذى كان الحزن يعتصره ، يدعوها الى أن تهبط اليه من السماء ، وكأنها قديسة حديثة عهد بالتطويب . وفجأة ، لم يعد يحتمل مزيدا ، فخر مغشيا عليه !

ولم يظل طويلا فى اغماءته . فلما عاد الى رشده ، سمع خاله يناديه من فوق ، فأجاب النداء ، وراح يسعى مغادرا الاجمة .. وفجأة ، تذكر انه لم يكن قد صلى من أجل أبيه الغائب المفقود ،كما كانت أمه قد علمته .. ولكن الاغماءة التى انتابته ، كانت قد خلفت فيه شعورا بالتخفف وبالارتياح لم يشأ أن يفقده . وخطر له انه لن يحدث كثير من الضير لو انه ارجأ الصلاة من أجل ابيه الى وقت آخر . وخيل اليه أنه يوشك أن يقول لنفسه : « بوسعه أن ينتظر ! » . فان يورا لم يكن يتذكر أباه اطلاقا !

— ٧ —

• فى مقصورة من مقصورات الدرجة الثانية ، فى القطار الذى وقف فى الحقل ـ الذى كان النهر يتخلله ـ جلس « ميشا جوردون » (١) ، فى رفقة أبيه الذى كان محاميا من (اورنبورج) . وكان « ميشا » صبيا فى الحادية عشرة من عمره ، ذا وجه يشى بفكر متوثب نشيط ، وعينين سوداوين كبيرتين .. وكان فى الصف الثانى فى المدرسة . **أما أبوه « جريجورى اوزيبوفيتش جوردون » ، فكان فى طريقه الى تولى منصب جديد فى (موسكو) ، وكانت أم « ميشا » واخواته فى موسكو يهيئن المسكن الجديد !**

وكان ميشا وأبوه قد قضيا ثلاثة أيام فى السفر ، وقد مرت بهما روسيا بحقولها ، ومراعيها ، وقراها ، ومدنها التى قرحتها أشعة الشمس الحامية ، ولفتها غلائل حارة من الغبار . وكانت صفوف العربات تمتد على طول الطرق ، وتجنح جانبا ـ عند « المزلقانات »

---

(١) كان اسم « جوردون » يقتصر على اليهود فى روسيا .

ـ فتبدو للذين فى داخل القطار وكأنها تقف جامدة .. وكأن خيوطها معالم تدل على الزمن ! .. وكان الركاب يقفزون من القطار ـ فى المحطات الكبرى ـ ويهرعون فى صخب نحو المقصف ، والشمس الجانحة الى الغروب ـ خلف حديقة المحطة ـ تضىء أقدامهم .. وعجلات القطار !

وكل الحركات ـ فى الدنيا ـ تبدو رزينة ، ذات هدف معقول ، اذا ما تأملتها حركة فحركة ، كلا على حدة . أما اذا تأملتها جماعة، فانها تبدو سعيدة ، سكرى من تيار الحياة الدافق ، الذى يربط بينها ، والذى يحملها على صفحته !.. والناس يعملون، ويكافحون، ويتصارعون، مدفوعين الى ذلك بهواجس وهموم فردية، ولكن هذه الموارد التى تنبع منها التصرفات والاعمال ، خليقة بأن تنضب وان تعرقل آلية الحياة والسعى ، لولا انها مكبوحة دائما بشعور شامل، عميق ، من عدم المبالاة ! .. وقد انبعث هذا الشعور من ادراك بترابط النفوس البشرية وتشابكها ـ ترابط الخيوط وتشابكها فى النسيج ـ ومن شعور بتدفقها بعضها نحو بعض ، ومن اطمئنانها الهانىء بأن كل ما يجرى فى الدنيا ، لايقع على الارض ـ التى تغيب الموتى فى أحشائها ـ فحسب ، وانما يقع كذلك فى عالم ذى مستوى آخر ، يسميه البعض «مملكة الرب» ، ويسميه آخرون «التاريخ»، ويسميه غيرهم بأسماء أخرى !

وكان ميشا يشعر ـ فى حسرة ـ بأنه استثناء تعس لهذه القاعدة العامة . كان منبع تصرفاته هو القلق ، وليس الشعور باللامبالاة الذى تتقاسمه بقية الدنيا ، والذى كان حقيقا بأن يخفف عن نفسه، وأن يسمو به ويرفعه .. وكان يلمس هذه الصفة الوراثية فى نفسه (١) ، ويترصد أعراضها فى يقظة وحذر . كانت تذله ، وتبعث الهم فى أعماقه . ذلك لانه ـ منذ زمن يتجاوز كل ماتعيه الذاكرة ـ لم يكف عن مساءلة نفسه : كيف تسنى لانسان ذى ذراعين ، وذى

---

(١) الصفة الوراثية المقصودة هنا ـ والتى ستتضح فيما بعد ـ هى انه كان يهوديا.

ساقين ـ كأى انسان آخر ـ وذى لغة ، وذى مسلك فى الحياة عادى بالنسبة للباقين .. **كيف تسنى لانسان كهذا أن يكون مختلفا عن الباقين ، وأن لايستريح اليه الا القليلون ، ولا يحبه أحد البتة ! ..** ولم يكن بوسعه أن يفقه كيف أن المرء لا يملك ان يحسن نفسه ـ عن طريق المحاولة ـ اذا كان أسوأ من غيره من الناس .. ماذا يعنى أن يكون المرء يهوديا ؟ .. وما الغاية من أن يكون يهوديا ؟.. وما الجزاء ، أو ما المبرر لهذا التحدى الاعزل الذى لايعود على صاحبه بغير الاسى والحزن ؟

وعندما حمل مشكلته هذه الى أبيه ، قيل له أن منطقه كان غثا، وانه يجب الا يناقش المسألة على هذا النحو . ولكنه لم يحظ بحل له من العمق ما يكفى لارضائه واقناعه ، ولان يحنى رأسه للواقع المحتوم . **وأخذ يزدرى ـ تدريجا ـ جميع الكبار الذين زجوا به فى هذا الحرج ، دون أن يستطيعوا أن يعينوه بشىء من الايضاح. ولم يستثن من هذا الازدراء سوى والديه . وتملكه يقين من أنه سيصلح الامر كله ، اذا ماكبر .**

ذلك لان أحدا لم يملك أن يقول ـ على سبيل المثال ـ انه لم يكن ينبغى لابيه أن يجرى وراء ذلك المعتوه عندما جرى فى ردهة القطار .. ولا انه لم يكن ينبغى له أن يوقف القطار عندما دفعه الرجل جانبا ، وفتح الباب والقى بنفسه منه ، غائصا برأسه نحو الارض ـ والقطار السريع ماض فى طريقه ـ وكأنه غواص يقفز من منصة الغوص الى حوض للسباحة !

ومع ذلك ، فان طول وقوف القطار بعد الحادث ، وواقع الامر الذى يقطع بأن « جريجورى اوزيبوفيتش جوردون » ـ وليس « بطرس » ، أو « بولس » ـ هو الذى جذب حبل الاتصال فأوقف القطار .. **هذا وذاك جعلا المسألة تبدو وكأن كل ما نجم عن اعاقة القطار من ضرر انما جاء عن طريق آل « جوردون » !** .. ولم يعرف أحد عن يقين سر طول وقوف القطار . فقال البعض ان ايقافه فجأة قد اتلف جهاز الايقاف (الفرامل) .. وقال آخرون ان القطار وقف

عند مطلع منحدر ، ولم يكن فى وسع القاطرة أن تجتازه مالم تكن قد اكتسبت – مع الجرى – قوة دفع وسرعة .. وكان ثمة رأى ثالث، هو انه لما كان المنتحر شخصا معروفا ذا شهرة ، فان محاميه – الذى كان يرافقه فى القطار – قد أصر على استدعاء موظفين مسئولين من أقرب المحطات ، وهى (كولوجريفوفكا) ، حتى يسجل محضر رسمى مدعم بشهادات الشهود . وهذا هو السر فى أن مساعد سائق القاطرة تسلق أحد أعمدة البرق (التلغراف) .. ومن ثم أصبح من المرتقب أن يصل « ترولى » التفتيش مقلا الموظفين ، بين وقت وآخر .

وانبعثت من دورات المياه رائحة عفنة خفيفة – لم يقو على اخفائها عبير ماء « الكولونيا » – ورائحة دجاج مشوى ، لف فى ورق قذر ملطخ بالدهن .. وكانت ثمة سيدات من (بطرسبورج) ، ينبعث مع أنفاسهن صفير ، وتتصاعد أصواتهن من الصدور ، وقد دب الشيب فى شعورهن .. **هؤلاء تحولن الى غجريات ، اذ اختلط السناج (الهباب) بالمساحيق والمعاجين التى كن يستعملنها فى زينتهن ، فتحولن ينثرن « البودرة » على وجوههن ، ويمسحن أصابعهن فى مناديلهن ، وكأنما لم يحدث شىء ما !** .. وعندما مررن بمقصورة « جوردون » وابنه ، وقد لوين أكتافهن بحركة خليعة مهد لها ضيق الردهة حجة معقولة ، خيل لميشا أنهن كن يتهامسن، برغم أن شفاههن ظلت مطبقة : « رحماك يا الله ! .. أى مخلوقين مرهفى الحس ! .. كأنما يحسبان نفسيهما خلقا آخر ! كأنهما من الطبقة المثقفة ، وكل هذا الذى يجرى أكثر مما تحتمل مشاعرهما المرهفة ! »

* * *

وكانت جثة المنتحر ملقاة على العشب ، على مقربة من الخط الحديدى .. وكان الدم قد انساب من الجبهة خلال علامة سوداء، وكأنه كان ينزف من كل جسمه خلال وجهه . ولم يكن الدم الجاف

يبدو انه من دم المنتحر ، بل لاح كأنه شيء منفصل عنه . . كلطخ من مادة لاصقة ، أو خيط من وحل ، أو ورقة من شجر «التامول» .

واحاطت به جماعات أثر جماعات من المتفرجين والمشفقين ، بينما وقف الى جواره – بوجه مربد جامد الملامح – صديقه وزميله فى السفر . . محام متعجرف ، ربعة فى القوام ، كان يبدو كحيوان « معلوف » ، وعليه قميص نضحه العرق . . كان يوشك أن يموت من الحر ، وقد راح يستجدى النسمات محركا قبعته أمام وجهه . وأخذ يهز كتفيه – أثر كل سؤال – ويقول فى ازورار ، دون أن يجشم نفسه عناء النظر الى السائل : « كان سكيرا . فماذا كنتم تتوقعون ؟ »

ودنت من الجثة – مرة أو اثنتين – امرأة عجوز فى ثوب من الصوف ، ممسكة بمنديل من « الدانتيلا » . . تلك كانت الارملة « تيفرزينا » ، التى كان لها ابنان من سائقى القطارات ، والتى كانت تسافر فى الدرجة الثالثة بالمجان ، مع زوجتى ابنيها . وكانت الشابتان الوادعتان تتبعانها فى صمت – كراهبتين تسيران فى أعقاب رئيستهما – وقد شدتا وشاحيهما على رأسيهما حتى غطيا جبينيهما . وكان الجميع يفسحون لهما فى كل مرة .

كان زوج تيفرزينا قد احترق حيا ، فى حادث بالسكة الحديدية . . ووقفت هى على مسافة بسيطة من الجثة ، بحيث تراها خلال المتجمعين ، ثم تنهدت وكأنها كانت تقارن بين هذا الحادث وما جرى لزوجها . . ولعلها كانت تقول : « لكل أجل كتاب . . تعددت الاسباب والموت واحد ! . . فالبعض يموت ميتة من عند الله ، والبعض تودى به نزوة تمر برأسه . . أما أن يموت شخص لفرط الغنى واختلال الذهن ، فهو العجب ذاته ! »

وأقبل جميع المسافرين ليلقوا على الجثة نظرة ، ولم يعودوا الى مقصوراتهم الا خوفا من أن تسرق أمتعتهم ! . . وكانوا – وهم يثبون من القطار الى الارض – يلتقطون بعض الزهور ، أو يتمشون قليلا ليبسطوا عضلات سيقانهم ، وهم يشعرون بأن المكان بأسره لم

يبرز الى الوجود الا نتيجة وقوف القطار ، فما كان للحمأة ، ولا للنهر العريض ، ولا للبيت الانيق والكنيسة ـ القائمة على الضفة المنحدرة المقابلة ـ أى وجود الا من جراء الحادث !.. **حتى الشمس وهى ترسل أشعة المساء على موقع حادث الانتحار ، بدت خجلى وكأنها بقرة من قطيع قريب اقبلت تلقى نظرة على الحشد .. أو كأنها شمس مصطنعة فى منظر مسرحى .. أى أنها ظاهرة مرتبطة بالمكان والزمان فحسب !**

ولقد تأثر « ميشا » أعمق التأثر بالحادث ، حتى لقد بكى ـ فى بادىء الامر ـ لشدة المفاجأة ، وبدافع من الإشفاق . كان المنتحر ـ الذى أصبح فى عداد الاموات ـ قد أقبل على مقصورتهما بضع مرات خلال الرحلة،وتحدث الى والد ميشا ساعات طويلة. وكان مما قاله انه وجد راحة فى التواضع والدعة والفهم التى وجدها لدى محدثه ، ووجه اليه أسئلة لا نهاية لها عن نقاط دقيقة من القانون تتعلق بالكمبيالات ، وبعقود ملكية العقار ، وبالافلاس والتدليس . وكان يهتف تعقيبا على اجابات جوردون : **« ما خطر لى هذا ! .. أحقا أن القانون رحيم بهذا الشكل ! .. أن محامى ينظر الى الامر نظرة أشد قتامة من ذلك ! »**

وفى كل مرة كانت مخاوف هذا الحطام البشرى تهدأ ، ثم لايلبث أن يأتى زميله فى السفر ـ من عربة الدرجة الاولى ـ فيصطحبه ، ويجره الى عربة الاكل ، ليشربا « الشمبانيا » . وكان هذا الزميل هو عين المحامى الربعة القوام ، المتعجرف ، الحليق الذقن ، الانيق الملبس ، الذى وقف الى جانب جثته يتأملها وكأنما الامر لايدعو الى شىء من الدهشة ! .. وكان من العسير ان يغفل المرء أن الانفعال الدائب الذى انتاب عميله ، كان من الامور التى تروق له !

ولقد ذكر والد ميشا للصبى أن المنتحر كان مليونيرا معروفا يدعى « جيفاجو » .. وكان رجلا طيب النفس ، ولكنه نزق ، فقد نصف قواه العقلية . والحق أن الرجل لم يحسب حسابا لوجود صبى مثل ميشا فتحدث عن زوجته التى توفيت ، وعن ابنه ـ الذى كان



فى سن ميشا ـ ثم عن أسرته الثانية التى هجرها كما هجر الاولى .. وعند هذا الحد، تذكر أمرا ، فاذا وجهه يشتد شحوبا، ويتجلى عليه الفزع .. وبدأ يهذى ، وشرد ذهنه ، فلم يعد يتحدث عن قصته !

ولقد أبدى لميشا عطفا لا حد له، لعله كان انعكاسا لشعوره نحو شخص آخر ، فأغدق عليه الهدايا، وكان يقفز من القطار فى المحطات الكبيرة التى تقوم بها مكتبات فى استراحات الدرجة الأولى، فيبتاع له اللعب والتحف المحلية . وكان ثملا باستمرار ، وقد راح يشكو من أنه لم ينم طيلة أشهر ثلاثة ، ومن ثم فانه كان كلما أفاق من مفعول الخمر ـ ولو لفترة قصيرة ـ يعانى ألوانا من العذاب لا يتصورها اى انسان عادى .

وفى آخر مرة ، اندفع الى مقصورتهما ، فأمسك بجوردون ، وحاول أن ينبئه بأمر ما ، ولكنه وجد عناء فى الحديث ، فاندفع الى الردهة ، وألقى بنفسه من القطار !

* * *

وجلس ميشا يتأمل الصندوق الخشبى الصغير ، الذى احتوى عينات من معادن جبال (اورال) ، والذى كان آخر هدية من الميت . وفجأة ، حدث هرج ، واذا بعربة من عربات « التروللى » قد أقبلت على خط حديدى مواز . وقفز منها طبيب ، وشرطيان ، وضابط يحمل شعارا فوق قلنسوته . ووجهت اسئلة فى لهجة عملية باردة ، وسجلت اجابات . ثم جر الشرطيان وحارسا القطار الجثة الى جانب ضفة النهر وهم ينزلقون ويغوصون فى الرمال . وشرعت امرأة من الريفيات فى العويل . وصدرت الاوامر الى الركاب كى يعودوا الى مقاعدهم .. ونفخ الموكل بالقطار (الكومسارى) فى صافرته ، فلم يلبث القطار أن تحرك مستأنفا رحلته !

— ٨ —

• **قال** « نيكى » فى نفسه ، فى سخط ضار ، وهو يتلفت حوله فى الحجرة، بحثا عن سبيل الى الهروب منها: «هاهوذا مأزق حرج!» .. وكانت أصوات الضيوف تسمع خارج الباب ، وتوحى بأن سبيل الانسحاب قد قطعت عليه . وكان فى الحجرة سريران : سريره ، وسرير فوسكوبوينيكوف . **ولم يكد يتردد لحظة واحدة ، قبل أن يندس زاحفا تحت أولهما !**

ومن مخبأه ، سمعهم وهم ينادونه من الخارج ويفتشون عنه،وقد أدهشهم غيابه .. ثم أقبلوا أخيرا الى غرفة النوم . وما لبث ان سمع نيكولاى نيكولاييفيتش يقول : « لا حيلة فى الامر ! .. اجر يا يورا ، فلعل صديقك يظهر عما قليل ، فتستطيع ان تلعب معه ! » .. ولكنهما مكثا قليلا ، اذ جلسا يتحدثان عن هياج الطلبة فى (بطرسبورج) و (موسكو) ، مضطرين « نيكى » الى أن يبقى فى سجنه السخيف، المهين ، زهاء نصف ساعة . ثم دلفا — أخيرا — الى الشرفة . واذذاك، تسلل « نيكى » فى خفة ، ففتح النافذة ، وقفز منها ، ويمم شطر المتنزه .

ولم يكن قد ظفر بقسط من النوم فى الليلة السالفة ، فبات منحرف المزاج . كان فى الرابعة عشرة من عمره ، وقد استولى عليه السأم والضجر من أن يظل طفلا . ولقد ظل مسهدا الليل طوله ، ثم غادر البيت مع الفجر . وما لبثت الشمس المشرقة أن القت ظلال الاشجار الطويلة الندية ، فى جماعات ، على أرض المتنزه . ولم تكن الظلال سوداء ، وانما كانت كالحة ، أشبه بلباد مبلل بالماء .. ولاح كأنما كان عبق الصباح — الذى يهفو بالرؤوس — يتصاعد من تلك الظلال الندية المستلقية على الارض ، تتخللها خطوط من النور ، أشبه بأصابع فتاة . وفجأة ، لمع خيط فى لون الزئبق ، وفى لمعان الندى على العشب ، فزحف على قيد خطوات قلائل منه .. وظل يزحف ، ويزحف ، دون أن تمتصه الارض أو تبتلعه . ثم ، التوى جانبا واختفى ، بحركة حادة ، سريعة ، غير مرتقبة .. وكان الخيط ثعبانا من ثعابين الاعشاب ، فارتجف « نيكى » .

وكانت شخصيته تنطوى على بعض عادات غريبة ، فكان — اذا ما انفعل — يتكلم بصوت عال مخاطبا نفسه ، مقلدا أمه فى ايثارها الموضوعات الخطابية ، ومقتديا بها فى ميلها الى التناقض .. فراح الآن يقول فى نفسه : « **ما أبدع ان يكون المرء على قيد الحياة ! .. ولكن ، لماذا يتحتم أن تكون الحياة أليمة الى هذا الحد ؟ .. ان الله موجود ، لا ريب فى ذلك . ولكن ، اذا كان الله موجودا ، فأنا اذن اياه ! » .**

ونظر الى احدى نبتات الخور الرجراج ، وهى تهتز من اعلاها الى أسفلها ، وأوراقها المخضلة تبدو كرقائق من الصفيح ، ثم عاد يقول : « سآمرها أن تسكن ! » . وفى تركيز مخبول لكل جهوده ، راح يطلق ارادته فى صمت ، بجماع جسمه وكيانه ، وبكل أوقية فيه من لحم ودم ، وهو يهتف فى نفسه : « اسكنى ! » . واطاعت الشجرة لفورها ، فأخلدت الى جمود مطلق ! .. واذ ذاك ، ضحك « نيكى » طربا ، وجرى نحو النهر — وهو سعيد — ليستحم فى مائه !

* * *

كان أبوه هو الارهابى « ديمنتى دودوروف » ، الذى قضى عليه

بالموت شنقا ، ثم عفا عنه القيصر واكتفى بتسخيره فى الاشغال الشاقة . أما أمه ، فكانت اميرة من (جورجيا) ، انتمت الى أسرة « أريستوف » .. **كانت امرأة جميلة ، مدللة ، لاتزال فى شرخ الشباب ، ولاتنى تندفع فى نوبات من التحمس لاى شىء أو شخص.. من انتفاضات ، الى متمردين وثورات ، الى نظريات متطرفة ، الى ممثلين مشهورين ، الى فاشلين تعساء !**

وكانت تعبد « نيكى » وتحور اسمه — « اينوكنيتى » — الى ألف لقب سخيف للتدليل لايخطر على بال — (مثل لقب « اينوتشيك » ، و « نوتشينكا ») — ولا تفتأ تأخذه الى (تفليس) لزيارة أسرتها . وكان أعظم ما استهواه هناك شجرة عربيدة فى ساحة دارهم .. شجرة استوائية ضخمة ، عملاقة ، ذات أوراق كآذان الفيلة تقى الساحة شواظ شمس الجنوب . وقد عجز « نيكى » عن أن يروض نفسه على اعتبارها نباتا وليست حيوانا !

وكان من الخطر على « نيكى » أن يحمل اسم ابيه الرهيب ، فرغب اليه « ايفان ايفانوفيتش » فى أن يتخذ لقب اسرة امه ، واعتزم — بقبول من الام — ان يلتمس من القيصر الاذن بهذا التبديل . ولقد فكر « نيكى » وهو مستلق تحت السرير ، ساخطا على الدنيا بأسرها ، فى هذا الامر .. ترى من كان فوسكوبوينيكوف يظن نفسه حتى يتدخل فى حياته على هذا النحو المثير للغضب ؟ .. لسوف يلقنه درسا !

وتلك الفتاة التى تدعى « ناديا » ؟ ! .. لقد كانت فى الخامسة عشرة ، لا اكثر ، فهل كان هذا وحده كفيلا بأن يبيح لها ان تلوى أنفها عنه ، وان تتكلم اليه من عل ، وفى ترفع ، وكأنه طفل صغير ؟... لسوف يلقنها هى الأخرى درسا ! .. وراح يردد فى نفسه مرات ومرات : « اننى اكرهها .. لسوف اقتلها ! .. سآخذها فى القارب الى عرض النهر ثم اغرقها ! »

وكانت أمه هى الاخرى أخبث مما ينبغى ! لقد كذبت فى الواقع عليه ، وعلى فوسكوبوينيكوف ، حين رحلت . فهى لم تذهب كما زعمت

الى أى مكان على مقربة من (القوقاز) ، وكل ما هنالك أنها نكصت على عقبيها عند أول محطة تلتقى فيها الخطوط الحديدية ، واتجهت شمالا الى (بطرسبورج) .. **ولابد انها – فى هذه الآونة – تنعم بفترة بديعة ، اذ تشارك الطلبة اطلاق النار على البوليس ، بينما كان هو – نيكى – يتعفن حيا فى هذا الجحر البغيض !** .. ولكنه لم يكن غبيا بالدرجة التى تصوروها . لسوف يقتل « ناديا » ، ويفر من المدرسة ، ويهرب الى أبيه فى (سيبريا) ، حيث يبدأ حركة تمرد !

- ٩ -

• **كانت** زنابق الماء تنمو حول حافة البحيرة من كل جانب ، فراح الزورق يشق طريقه بينها فى حفيف خشن ، محدثا شقا مثلثا كان الماء يبدو خلاله كالعصير فى بطيخة اقتد منها قطاع !

وراح « نيكى » و « ناديا » يقتطفان الزنابق . وامسك كل منهما بعين الساق المطاطة المرنة ، المتينة ، فجذبتهما معا ، حتى ارتطم رأس كل منهما برأس الآخر ، بينما شد الزورق الى الشاطىء ، وكأنما كان ثمة « خطاف » يجذبه .. وهناك – عند الشاطىء – كانت السيقان أكثر قصرا ، وأشد تعانقا .. **وراحت الزهور البيضاء – ذات القلوب الصفراء التى تعادل مح البيضة حجما ، والتى تتخللها خيوط بلون الدم – تغوص وتطفو ، والماء ينبثق منها .**

ومضى الصغيران يقتطفانها ، وقد مالا على جانب من الزورق ، فزادا من ميله نحو سطح الماء .. وقال نيكى : « اننى سئمت المدرسة وقد حان الوقت كى أبدا حياتى .. حان الوقت كى انطلق فى الدنيا ، واكسب قوتى بنفسى ! »

– اهذه حالك وقد كنت أرجو أن أسألك عن معادلات الجذر التربيعى ؟ .. اننى ضعيفة فى الجبر ، وقد كدت اتخلف فصلا دراسيا آخر بسببها !

وجزم « نيكى » فى نفسه بأنها كانت تخزه .. كانت – فى

الواقع ـ ترده الى مكانه ، وتقول له انه كان طفلا .. **والا ، فكيف تتحدث اليه عن معادلات الجذر التربيعى ، وهو لم يصل بعد الى شىء فى مادة « الجبر » ؟!** .. غير انه لم يبد ماينم عن انها أصابت منه مطعنا ، بل سألها فى عدم اكتراث مصطنع ، وهو يتبين ـ فى اللحظة ذاتها ـ سخف سؤاله : « من الذى ستتزوجينه حين تكبرين ؟ »

ـ هذا سؤال سابق لاوانه بزمن طويل .. لا أحد ، فيما اعتقد . اننى لم أفكر فى هذا الامر .

ـ لاتظنى اننى مهتم به .

ـ اذن ، ففيم كان سؤالك ؟

ـ انك غبية !

وشرعا يتشاجران .. وتذكر « نيكى » ما خالجه فى الصباح الباكر من كراهية نحوها ، فهددها بأنه لن يتردد فى أن يغرقها اذا لم تكف عن منابذته بالالقاب . فقالت ناديا : « اذن ، حاول ! » . **وامسك بها محيطا خصرها بذراعه . وراحا يتصارعان ، حتى فقدا توازنهما ، وسقطا فى الماء .** وكان كل منهما يحسن السباحة ، ولكن الزنابق راحت تحيط بأذرعهما وسيقانهما، وتشدهما الى الاعماق . على انهما شعرا ـ فى النهاية ـ بالوحل تحت أقدامهما ، وصعدا الى البر والماء يقطر من احذيتهما وجيوبهما .. وكان « نيكى » أشد الاثنين اعياء !

ولو ان هذا حدث قبل اليوم ـ فى الربيع الماضى مثلا ـ لراحا بعد الانفعال يتصايحان ، ويتشاتمان ، ويضحكان ، وهما يخوضان الماء جنبا الى جنب ، وقد نفذ البلل الى جسميهما . ولكنهما ـ اذ ذاك ـ جلسا دون أن ينبسا بنت شفة ، وانفاسهما المتهدجة تتتابع فى عناء ، وقد غلبهما الشعور بسخافة كل ماحدث ، وكانت « ناديا » تتلظى استنكارا وغضبا لكرامتها ، بينما كان نيكى يشعر بالالام فى كل جسمه ، وكأنه أصيب برضوض وكدمات فى ذراعيه وساقيه ، وتمزقت ضلوعه فى صدره !

وفى النهاية ، خففت ناديا من غلوائها ، وقالت بهدوء ، فى لهجة الكبار : « انك لمجنون حقا ! » . فقال نيكى فى لهجة الكبار ، هو الآخر : « آسف ! » .

وسارا الى البيت ، مخلفين وراءهما خطين من الماء ، وكأنهما عربتان من عربات « الرش » ! . وقادتهما طريقهما الى المنحدر المترب المعمور بالثعابين ، على مقربة من المكان الذى رأى عنده « نيكى » ثعبان الحشائش ، فى ذلك الصباح .. وتذكر الانفعال الذى كان يملأ جوانحه فى الليلة السابقة ، ومقدرته — عند الفجر — حينما فرض ارادته على الطبيعة .. وساءل نفسه : أى أمر ينبغى أن يصدره الآن ؟ .. **وخطر له ان ماكان يهفو اليه دون سواه ، هو أن يقع فى البحيرة مع «ناديا» مرة أخرى .. وما كان ليضن بشىء فى سبيل أن يعرف ما اذا كان ذلك سيتاح له ثانية !**

الفصل الثانى

فتاة من عالم آخر!



« لقد أصبحت .. ما الاسم الذى يطلقونه ؟.. أصبحت امرأة ساقطة ! .. امرأة من نساء الروايات الفرنسية .. وان كانت ستذهب فى الغد الى المدرسة ، وتجلس الى جانب الفتيات الاخريات اللواتى يعتبرن - بالنسبة اليها - فى براءة الاطفال !.. أواه ، يا الهى ، يارب .. كيف قدر لهذا أن يحدث ؟! »

الفصل الثانى

فتاة من عالم آخر

— ١ —

• لم تكن الحرب مع اليابان قد انتهت ، ولكنها — على غير توقع — توارت خلف أحداث أخرى . فلقد اجتاحت روسيا موجات من الثورة ، كل موجة اكبر من سابقتها واكثر بعدا عن المألوف .. وفى تلك الفترة ، وصلت الى (موسكو) — قادمة من جبال (الاورال) — أرملة مهندس بلجيكى تدعى « أماليا كارلوفنا جيشار » ، وكانت فرنسية اكتسبت الجنسية الروسية ، تصطحب معها ولديها : ابنها « روديون » ، وابنتها « لاريسا » . وكانت قد ألحقت الولد بالاكاديمية العسكرية ، وألحقت الابنة باحدى المدارس العليا للبنات .. وقدر للاريسا أن تكون فى ذات المدرسة ، وذات الفصل، اللذين كانت « ناديا كولوجريفوف » فيهما .

وكان زوج السيدة « جيشار » قد خلف لها مدخراته ، وأوراقه المالية (الاسهم والسندات) التى كانت قيمتها فى ارتفاع ثم بدأت تنخفض . ولكى توقف تسرب مواردها ، وتجد ما يشغلها ، ابتاعت الارملة لنفسها مؤسسة صغيرة هى مؤسسة « ليفيتسكايا » لصنع الثياب ، القريبة من « قوس النصر » (١) . وقد اشترتها من ورثة « ليفيتسكايا » ، واشترت معها اسمها التجارى ، وعميلاتها ، وحائكاتها ، ومساعداتهن . وقد فعلت ذلك بنصيحة من « كوماروفسكى » ، وهو محام كان صديقا لزوجها ، وأصبح عونها وسندها . وكان رجل أعمال صلب الاعصاب ، يعرف دنيا الاعمال فى روسيا كما يعرف ظهر يده . وهو الذى دبرت معه — بالمراسلة — أمر انتقالها الى (موسكو) ، وقد استقبلها وابنيها فى المحطة ،

(١) حى من أحياء (موسكو) الفقيرة

وأقلهم الى الجانب الآخر من (موسكو) حيث كان قد احتجز لهم غرفة فى فندق (مونتنجرو) بشارع « أوروجينى » (١) . وكان هو الذى أشار عليها بالحاق ابنها « روديا » — أو « روديون » — بالاكاديمية العسكرية ، وابنتها « لارا » — « لاريسا » — بالمدرسة التى اختارها لها . وراح الرجل يمزح مع الفتى — فى غير كلفة — ويحملق فى الفتاة ، حتى جعل حمرة الخجل تصبغ محياها !

— ٢ —

• **ولقد** مكثوا حوالى الشهر فى « مونتنجرو » قبل أن ينتقلوا الى مسكن صغير — من ثلاث حجرات — ملاصق لمصنع الثياب . وكان ذلك فى أحقر أرجاء (موسكو) ، حيث الحارات الشعبية ، والاوكار المظلمة ، ومباءات « الليخاشى » (٢) ، وشوارع بأسرها غارقة فى الرذيلة !

ولم يستأ الولدان لقذارة المسكن ، ولا لحشرات « البق » التى كانت تحتل المخادع ، ولا لحقارة الاثاث ، فلقد كانت أمهما — منذ موت أبيهما — تعيش فى خوف دائم من الفاقة ، فاعتاد « روديا » و « لارا » أن يسمعا أنهم جميعا على شفا الافلاس ، وأدركا أنهما ليسا كغيرهما من أطفال الشارع ، وانما هما أشبه بالاطفال الذين ينشأون فى « الملاجىء » ، حتى لقد تولاهما خوف متغلغل من الغنى والثراء ! .. وكانت أمهما تضرب لهما المثل الحى لذلك الخوف .. كانت السيدة « جيشار » سيدة قصيرة ، ممتلئة الجسم ملتفة ، شقراء ، فى حوالى الخامسة والاربعين ، تتناوبها علة القلب ونوبات الغباء .. كانت مفرطة الجبن ، وفى ذعر دائم من الرجال . وبسبب هذا ، ولمجرد الفزع والارتباك ، راحت تتنقل من أحضان

---

(١) معناه شارع المدفعية ، أو شارع مصنع السلاح .

(٢) سائقو مركبات الطبقة الراقية ، وكانت لهم سمعة سيئة ، لما عرف عن علاقاتهم بالبغايا .

عشيق ، الى أحضان آخر !

وفى فندق « مونتنجرو » كانت الاسرة تقيم فى الحجرة رقم ٢٣ . بينما كان يقيم فى الحجرة رقم ٢٤ ـ منذ أنشىء الفندق ـ العازف « تشكيفيتش » . وكان رجلا أصلع ، كثير العرق ، يستخدم قلنسوة من الشعر المستعار ، ويضم يديه ويضغطهما الى صدره فى توسل كلما أراد أن يقنع أحدا بشىء ما . وكان يعزف فى حفلات الطبقة الراقية ، وفى قاعات الموسيقى ، فيطوح رأسه الى الخلف ، ويجيل انسانى عينيه فى محجريهما ، فى غيبوبة نشوانة . ونادرا ما كان يعود الى غرفته ، اذ كان يقضى أياما بأكملها فى مسرح « البولشوى » وفى معهد الموسيقى . وقد أدى جواره للاسرة الى احتكاك قرب بينهما . ولما كان وجود الولدين مبعث احراج للسيدة جيشار ، أثناء زيارات المحامى « كوماروفسكى » لها ـ فى بعض الاحيان ـ فقد أخذ « تشكيفيتش » يترك لها مفتاح حجرته ، حتى يتسنى لها أن تستعملها . وسرعان ما تقبلت هذه التضحية منه كأمر مسلم به ، حتى أنها ـ فى كثير من المناسبات ـ كانت تطرق بابه ، وتسأله باكية أن يحميها من نصيرها وراعيها .. المحامى !

— ٣ —

• **وكان** مصنع الثياب فى منزل من طابق واحد ، على مقربة من ناصية شارع (تفيرسكايا) ، فى حى تحتله سكك حديد (بريست) ، بمخازن قاطراتها ، ومخازن البضائع ، ومساكن موظفيها . وفى أحد هذه المساكن كانت تقيم « أوليا دمينا » ، وهى فتاة نشيطة كانت تعمل فى مصنع السيدة جيشار ، كما كان عمها مستخدما فى مخازن البضائع . وكانت ماهرة ، سريعة ، قربتها صاحبة المصنع السابقة اليها ، وبدأت تكسب عطف صاحبته الجديدة . وقدشعرت « أوليا » بميل شديد نحو « لارا جيشار» .

ولم يكن أى شىء فى المصنع قد تغير عما كان أيام « ليفاتسكايا » ،

فكانت آلات الخياطة ترسل صريرها وأزيزها تحت ضغط أقدام الحائكات ، أو لمسات أيديهن السريعة الحركة .. وهنا وهناك كانت ثمة امرأة تجلس الى منضدة ، تخيط بالابرة فى هدوء ، وذراعها ترتفع فى الهـواء وهى تجـذب الابرة والخيـط .. وفى الارض قصاصات مبعثرة .. وكنت مضطرا لان ترفع صوتك كى يسمع كلامك وسط جلبة الآلات وتغريد العصفور « الكناريا » (كيريل موديستوفيتش) الذى كان يحتل قفصا معلقا فى النافذة ، والذى حملت صاحبة المصنع السابقة سر تسميته الغريبة هذه معها الى القبر !

وفى قاعة الاستقبال ، كانت السيدات يجتمعن فى خليط عجيب حول مائدة مستديرة مثقلة بمجلات الازياء . وكن يجلسن ، أو يقفن ، أو يتكئن فى الاوضاع التى يرينها فى صور الازياء ، ويتناقشن فى نماذج الثياب وأطرزة « التفصيل » .. وفى مقعد المديرة ـ بجوار منضدة أخرى ـ كانت تجلس « فائينا سيلانتيفانا فتيسوفا » ، وهى امرأة بارزة العظام ، تناثرت البثور فى ثنايا خديها المتهدلين . وقد كانت رئيسة عاملات « القص والتفصيل » ، ومساعدة السيدة جيشار . وكانت تخط ـ فى دفتر المقاسات ـ تعليمات وعناوين العميلات ، وقد عضت أسنانها الصفراء على مبسم من العظم استقرت فيه سيجارة ، بينما تتبعت بمقلتيها الصفراوين الدخان الاصفر المنساب من فمها وأنفها .

ولم تكن للسيدة جيشار خبرة بادارة مصنع كهذا ، فشعرت بأنها فى غير المكان الذى تستطيع أن تفرض سلطانها عليه . ولكن العاملات كن أمينات ، كما ان « فتيسوفا » كانت أهلا لان تعتمد عليها .. ومع ذلك فقد كانت تلك أيام اضطرابات وضيق ، فكان التفكير فى المستقبل يبعث فى نفسها الخوف، وكانت تمر بها لحظات من القنوط الذى يجمد له كيانها .

وكثيرا ما كان « كوماروفسكى » يفد لزيارتها ، فيتخذ طريقه

الى المسكن عبر المصنع، مثيرا جزع العميلات من السيدات الراقيات حين يفاجئهن فى ثيابهن الداخلية ـ أثناء تجربة أو قياس أثوابهن الجديدة ـ فيهرعن متواريات خلف الستائر فى خجل ، وهو يطاردهن بنكاته .. فتتمتم الحائكات الجالسات الى آلات الخياطة ـ فى استنكار ودهشة ـ بمثل هذه العبارات : « ها قد أتى صاحب السيادة » ! .. « حبيب قلب أماليا » ! .. « الجدى العجوز » .. « عشيق السيدة » !

وكان كلبه الضخم « جاك » أكثر منه تعرضا للكراهية ، فقد كان يحضره معه أحيانا ، ممسكا اياه بمقود كان الكلب يشده فى عنف حتى لقد كان « كوماروفسكى » يضطر الى أن يتبعه متعثرا، مندفعا وهو مبسوط الذراعين ، كأعمى يسير وراء دليله . وقد غرس « جاك » أسنانه ـ ذات ربيع ـ فى ساق « لارا » ، فمزق جوربها . واذ ذاك همست « اوليا » فى أذنها بصوت أجش : « سأقضى عليه ، هذا الوحش ! »

ـ حقا ، انه لكلب فظيع!..ولكن، كيف ستقضين عليه أيتها الغبية؟

ـ صه ، لاترفعى صوتك .. سأذكر لك الطريقة . انك تعرفين ذلك البيض الحجرى الملون ، الذى فى صوان ثياب ماما ..

ـ أجل ، انه مصنوع من البلور والرخام .

ـ هو ذاك ! .. انحنى لاهمس لك : خذى البيض ، واغمسيه فى دهن الخنزير ، واذ ذاك سيزدرده الوحش القذر .. ويموت اللعين .. هذا كل ما هنالك !

وضحكت « لارا » .. لقد كانت تحسد « اوليا » فى سريرتها . فمع انها كانت عاملة ، تعيش فى فقر ، بعيدة عن التدليل ، الا انها كانت صنفا نادرا من الفتيات . فما أكثر سذاجتها ! .. جاك ، والبيض .. ترى من أين كانت تجىء بهذه الافكار ؟ .. وراحت لارا تقول فى نفسها : « ولماذا قدر لى أن أرى كل شىء ، وأتألم ؟! »

— ٤ —

• « ان ماما . ماهى الكلمة ؟ انه بالنسبة لماما . يالهما من كلمتين بذيئتين ، لن أنطق بهما . فلماذا إذن يتأملنى بهذه النظرات ؟ .. اننى فى مكانة الابنة منه ! »

كانت « لارا » قد تجاوزت السادسة عشرة بقليل، ولكن جسمها كان قد استكمل تشكيله ، حتى لقد كان الناس يحسبونها فى الثامنة عشرة او تزيد . وكان لها عقل صاف ، وفطرة لينة ، وكانت مليحة المنظر الى حد بعيد . ولقد أدركت وأخوها «روديا» انهما لن ينالا من الحياة شيئا بسهولة ، فكانا — على عكس المتعطلين ، ممن يعيشون ميسورى الحال — لا يجدان فراغا للافكار التى تراود من لم يستكملوا نضوجهم .. أفكار المراهقة .. ولا وقتا للتطفل على الامور التى لم يكن لهما بها بعد شأن عملى . وما من تفكير دنىء ، فى رؤوس الناس ، مثل التفكير الذى لا لزوم له ، ومن ثم فقد كانت « لارا » أنقى وأطهر مخلوق فى الدنيا ! .. وكان الشقيقان يشعران بالحمد على ما يحصلان عليه من مظاهر الحنان ، اذ كانا يعرفان مايتطلبه كل شىء من نفقات أو عناء ، فكانا يقدران ما استطاعا الحصول عليه حق قدره !.. **والناس عادة مسوقون الى أن يحسنوا الظن بك اذا كنت موفقا فى عملك ، ومن ثم فقد كانت « لارا » مجتهدة فى المدرسة ، لا لانها أوتيت حبا مبهما للعلم ، وانما لانها أدركت ان التلميذات المجدات وحدهن ، هن اللائى يعفين من بعض نفقات الدراسة ..** ولاسباب مشابهة كانت تغسل الصحاف لامها ، وتؤدى لها بعض المهام . وكانت تتحرك فى بهاء صامت ، وكل كيانها — من صوت ، وشكل ، وحركات ، وعينين رماديتى اللون ، وشعر لامع — تتسق فى انسجام !

وكان اليوم من أيام الاحد ، فى أواسط شهر يوليو .. وفى أيام العطلات يكون بوسعك أن تمكث فى فراشك وقتا أطول من المعتاد . ومن ثم فقد رقدت « لارا » على ظهرها ، وعقدت يديها خلف

رأسها . وكان المصنع ساكنا، والنافذة المطلة على الشارع مفتوحة، فسمعت قرقعة عجلات مركبة تتحول الى انزلاق خافت ، حين غادرت العربة بلاط الشارع وسارت على قضبان الترام .. فقالت الفتاة لنفسها : « لاعاود النوم فترة أخرى ! » . وكانت جلبة المدينة تتناهى اليها كغمغمة ناعمة منغومة ، جلبت النعاس الى عينيها . ولكنها ظلت تشعر بملمس غطاء السرير ، عند التقائه بكتفها اليسرى ، وبالاصبع الكبرى لقدمها اليمنى .. هاتان النقطتان كانتا تحددان الفراغ الذى شغلته من السرير .. وبادراك غير واضح ، أحست بأن كل كيانها لايتجاوز الحيز المحصور بين كتفها وقدمها . وكانت نفسها ، أو روحها ، تتقمص هيكل جسدها فى تلاؤم ، وتتطلع بصبر نافد الى المستقبل !

وقالت لارا لنفسها : « يجب أن أستسلم للنعاس ! » . ثم راحت تتمثل فى خيالها الجانب المشمس من شارع (كارتينى رياد) — مقر صناعة المركبات — كما كان ينبغى أن يبدو فى تلك الساعة : المركبات الفخمة معروضة على الارض النظيفة فى ساحات صناع المركبات ، ومصابيحها من الزجاج المنحوت (المشطوف) .. والدمى المحشوة على شكل دببة .. والحياة البذخة . وعلى مسافة قصيرة — فى الشارع ذاته — يتدرب الفرسان فى ساحة ثكنات (زنامنسكى) .. والمهاجمون منهم يلتحمون فى دائرة ، ثم يثب الرجال الى صهوات الجياد ، وينطلقون وئيدا ، ثم خببا ، ثم عدوا .. بينما تتصاعد شهقات الاطفال المصطفين خارج الاسوار الحديدية مع مربياتهم ومرضعاتهم ..

وعلى مسافة أخرى ، تمثلت « لارا » شارع (بيتروفكا) .. « رحماك ياسماء ! .. ماالذى يخامرك يالارا ؟ .. كل ما هنالك اننى أردت أن أريك مسكنى ، مادمنا على مقربة منه ! » .. هكذا قال لها «كوماروفسكى» ، فى يوم الاحتفال بعيد تسمية «أولجا» ، ابنة أصدقاء له كانوا يقيمون فى (كارتينى رياد) . فقد أقيمت للكبار حفلة رقص وشراب ، بهذه المناسبة . وقد دعا «كوماروفسكى»

ماما ، ولكن ماما لم تستطع الذهاب ، اذ كانت متوعكة المزاج ، فقالت له : « خذ لارا ، فانك لاتفتأ تحثنى على العناية بها . فتول أنت العناية بها اليوم ! » . ولقد اعتنى بها حقا .. ياللسخرية !

كانت تلك الالحان الراقصة ، الحان « الفالس » ، هى التى جلبت البداية .. يالها من رقصة رعناء ، مجنونة ! .. انك لتدور ، وتدور ، دون أن تفكر فى شىء . وبينما تعزف الموسيقى ، تشعر انك تعيش فى عالم سرمدى ، حياة كتلك التى تصفها الروايات . ولكن ما ان تكف الموسيقى حتى تشعر برعشة ، كأن دلوا من الماء البارد قد سكب فوقك ، أو كأن شخصا ما قد فاجأك عاريا ! .. ان مجرد الرغبة فى الظهور .. فى أن تظهرى الى أى مدى كبرت ، من الاسباب التى دعتك الى أن تسمحى لاى امرىء ان يعاملك بمثل هذه الالفة، طبعا !

ماكانت « لارا » لتتصور قط ان بوسعها ان ترقص بمثل هذه البراعة . وما كان أمهر يديه ، وأشد اطمئنانه وهو يطوق خصرها ! .. **ولكنها لن تدع قط أى امرىء يقبلها مثل ماقبلها .. أبدا ماكانت لتحلم بأن مثل هذه القحة يمكن أن تجتمع فى شفتى أى انسان كما اجتمعت فى شفتيه وهو يلصقهما بشفتيها لفترة طويلة** .. يجب أن تضع حدا لكل هذا العبث .. حدا حاسما ، قاطعا ! .. يجب أن تكف عن الخجل ، والارتباك ، وتنكيس العينين ، والا انتهى بها الامر الى نكبة محققة ! .. هذا هو الوقت الذى يجب أن تضع فيه حدا ، والا .. فخطوة واحدة، ثم تتردى فى هوة سحيقة ! .. يجب أن تكف عن التفكير فى الرقص ، فقد كان هذا منبت الشر ! .. يجب أن ترفض فى شجاعة ، وان تدعى انها لم تتعلم الرقص قط ، أو أن ساقها مهيضة !

— ٥ —

• **وكانت** ثمة قلاقل بين العمال فى شبكة السكك الحديدية بموسكو ، فى الخريف . فقد أضرب الموكلون منهم بخط (موسكو ـ

قازان)، وكان من المتوقع أن ينضم اليهم أولئك الموكلون بخط (موسكو ـ بريست) ، فقد اتفق الرأى على الاضراب ، ولكن لجنة تنظيمه كانت فى جدل حول موعده . وأدرك كل امرىء ممن يعملون فى السكك الحديدية أن الاضراب كان مقبلا لاريب فيه ، فلم تكن ترجئه سوى الحاجة الى حجة أو علة ..

وحان موعد دفع الاجور ، فى يوم بارد مكفهر من أيام أوائل أكتوبر .. وانقضى وقت طويل دون أن تصدر التعليمات من قسم « الحسابات » . ثم أقبل على المكتب ساع يحمل قائمة الاجور وكومة من دفاتر العمال (السراكى) كانت محجوزة لحساب الغرامات الموقعة على أصحابها . وشرع الصراف فى تسليم الاجور. وكان السائقون ، وعمال التحويلة، والنجارون، ومساعدو السائقين (العطشجية) ، والعاملات فى مخازن الفحم ، قد انتظموا فى صف لا نهاية له ، امتد من المخازن ، وراح يسعى عبر الارض الفضاءالتى تفصل بين بنايات الادارة الخشبية والمحطة، بما يتبعها من «ورش»



ومخازن للبضائع ، وحظائر للقاطرات ، وقضبان .. وكان الجو ينذر بشتاء مبكر . جو مشبع برائحة أوراق الشجر المتساقطة ، والثلج المذاب ، وصناج القاطرات التى لاتزال ساخنة ، وعبير خبز الشوفان وقد غادر الفرن لتوه ، اذ كان يصنع فى أسفل مقصف المحطة .. وكانت القطارات تأتى وتروح ، وتساق من خط الى خط ، وتلحق بها عربات ، أو تفصل عنها عربات ، وفقا لرفرفة رايات الاشارة أو عدم رفرفتها . وكانت صافرات القاطرات تنطلق فى زئير عميق ، وأبواق وصافرات الحراس وعمال المناورات تدوى وتجلجل .. والدخان يرقى سلالم لا نهاية لها ، الى كبد السماء .. ومراجل القاطرات تضيف الى سحب الشتاء الباردة سحبا ساخنة ! .. وكان « فوفليجين » ــ المدير الفرعى ــ و « بافل فيرابونتوفيتش انتيبوف » ــ مراقب الخطوط فى منطقة المحطة ــ يخطران جيئة وذهابا ، على حافة الخط الحديدى الرئيسى . كان « انتيبوف » قد أقام الدنيا وأقعدها ، فى مخازن ورش الاصلاح ، بشأن نوع قطع الغيار اللازمة لاصلاح الخطوط ، فان الصلب لم يؤت قابلية كافية للامتداد ، فأخفقت القضبان فى تحمل اختبارات الضغط ، ورأى « انتيبوف » انها لن تلبث أن تتصدع فى الجو الجليدى . **ولكن الادارة لم تحفل بشكاواه .. وكان من الواضح أن ثمة من كان يكسب من وراء عقود شراء هذا النوع من الصلب !**

وكان « فوفليجين » يرتدى معطفا غاليا مبطنا بالفراء ، طرزت عليه علامة الزى الرسمى للسكك الحديدية ، وقد انفرج طرفاه فكشفا عن بزة مدنية جديدة من الصوف الخشن . وكان يخطو بحذر ، على حافة الطريق ، وهو يتأمل بسرور أطراف سترته ، واستقامة خطى ساقى بنطلونه ، وحذاءيه الانيقين . أما ما كان « انتيبوف » يقوله له ، فكان يدخل من اذن ليخرج من الاخرى ، اذ كانت تشغله أفكار خاصة ، فطفق يخرج ساعته ويلقى نظرات عليها ، وهو يتعجل موعد الانصراف . وما لبث ان قال بصبر نافد : « صحيح ، صحيح ياصديقى العزيز ، ولكن هذا لايكون خطرا الا

على الخطوط الرئيسية ، أو على بعض الطرق الفرعية التى تجرى عليها حركة كبيرة . ولكن ، تأمل مالديك .. مجرد خطوط ثانوية، وخطوط للمخازن .. وما الحركة التى عندك ؟ ! .. قاطرة عتيقة من قاطرات المناورة ، لاقصاء العربات الفارغة عن الخطوط . فماذا ترجو أكثر من هذا ؟ .. لابد انك قد فقدت عقلك ، حتى تتحدث عن الصلب ! .. لو انك أوتيت قضبانا من خشب لادت المهمة ! »

وتأمل « فوفليجين » ساعته ، ثم أطبق عليها غطاءها المعدنى ، وسرح بصره فى الفضاء ، نحو طريق بعيدة كانت تمتد نحو السكة الحديدية .. وقد ظهرت — عند منعرج الطريق — مركبة . وكان هذا ايذانا بانتهاء عمل « فوفليجين » ، فها هى ذى زوجته قد جاءته . وجذب الحوذى اعنة الجوادين عند حافة الخط الحديدى الرئيسى تماما ، وهو يتحدث اليهما بصوت رفيع عال ، يشبه صوت النساء ، وكأنه مربية تؤنب طفلين هيابين متململين ، فقد كانا خائفين من القطارات . وفى ركن من المركبة جلست امرأة رشيقة ، مضطجعة على الوسائد ، ينم مظهرها عن شرود بالها . فقال المدير الفرعى : « لابأس يا صديقى الطيب، دعها لوقت آخر » . ولوح بيده كما لو كان يقول : « لدى ماهو أهم من القضبان ، لاشغل به » .. وانطلقت المركبة بالزوجين .

— ٦ —

• **بعد** ثلاث أو أربع ساعات — وقد غابت الشمس تقريبا — نهض من الارض شخصان، فى حقل على مسافة من الخط الحديدى، لم يكن يبدو فيه أحد قبل نهوضهما . وتلفتا خلفهما ، ثم أسرعا بالمسير . وقال « تيفرزين » : « مزيدا من السرعة !.. لست أخاف أن يفاجئنا البوليس ، ولكن ما ان يفرغ أولئك الهيابون من عملهم فى الارض حتى يلحقوا بنا ، ولست أطيق منظرهم .. **ما الغاية من عقد لجنة اذا كنتم تسيرون فى الامور على هذا النحو ؟ .. انكم تعبثون بالنار ، ثم تأوون الى المخابىء .. انك — بالذات — رائع ،**

اذ تستطيع أن تساير تلك الجماعة ! »

ــ لقد أصيبت زوجتى «داريا» بالتيفوس (١) ، وعلى أن أنقلها الى المستشفى . وليس بوسعى أن أقبل شيئا ريثما أفعل ذلك .

ــ يقولون ان الاجور تدفع اليوم ، وسأذهب الى المكتب . فاذا لم يدفعوا اليوم ، فلن أحفل بكم جميعا .. قسما بالله لن أحفل ، بل سأضع نهاية لكل هذا ، وفقا لما أراه ، ولن أتريث دقيقة واحدة .

ــ وهل لى أن أسألك : كيف ستفعل ذلك ؟

ــ ليس فى الامر سر .. سأذهب الى غرفة الغلاية ، واطلق الصافرة .. وهذا كل شىء !

وودع كل منهما الآخر ، ثم انطلقا فى اتجاهين مختلفين . فسار « تيفرزين » على طول الخط الحديدى نحو المدينة ، واذا به يصادف القوم قادمين من المكتب ، وقد تقاضوا أجورهم . وكانوا كثيرين ، فأدرك ــ من المنظر ــ أن كل عمال المحطة تقريبا قد تلقوا نقودهم .. وكان الظلام يزداد ، وقد أضيئت المصابيح فى المكتب ، بينما تجمع العمال المتسكعون فى الساحة . وعند مدخل الساحة كانت مركبة « فوفليجين » واقفة ، وقد جلست فيها زوجته ، فى عين الوضع السابق ، وكأنها لم تتحرك منذ الصباح .. وكانت فى انتظار زوجها ريثما يتسلم مرتبه .

وبدأ البرد (٢) يتساقط ، فهبط الحوذى عن مجلسه ليرفع الغطاء الجلدى . وبينما كان يعالج الاذرع المعدنية المتيبسة ، وقد اتكأ بقدمه على ظهر العربة ، كانت مدام فوفليجين فى جلستها تعجب بمنظر قطرات البرد الفضية وهى تلمع تحت الضوء المنساب من مصابيح المكتب . وكانت نظراتها الثابتة الحالمة تتجاوز رؤوس العمال ، بشكل يوحى بأنها كانت كفيلة بأن تخترقهم ــ لو أن الامر استدعى ذلك ــ وكأنهم مجرد برد أو ضباب . ولمح « تيفرزين » منظرها فأشاح بوجهه ، ومر دون أن يحييها ، واعتزم ان يرجىء

(١) الترجمة الفرنسية تنص على أن المرض « تيفويد » !

(٢) الثلج الرفيع (بفتح الباء والراء)

الذهاب لاستلام أجره ، حتى لا يصادف زوجها فى المكتب . واجتاز الساحة الى ركن معتم منها ، فى ناحية « الورش » ، حيث كانت المنصة الدوارة (١) تبدو كشبح مظلم ، والخطوط الحديدية تتفرع منها ـ فى اتجاه المخازن ـ على شكل مروحة .

وارتفعت عدة أصـوات فى الظـلام ، تنادى : « تيفرزين ! كوبريك ! » . وكانت ثمـة ثلة من الناس أمام « الورش » . **وفى الداخل ، كان ثمة شخص يصيح ، وصبى يبكى . وصاحت امرأة فى الجمع : « ادخلوا فانقـذوا الصبى ! » .. كان رئيس العمال الكهل «بيوتر خودولييف» يضرب مساعده يوسوبكا (٢) ، كالمعتاد.**
وما كان « خودولييف » طيلة عمره بالقاسى على مساعديه ، ولا بالسكير السريع الانفعال . بل لقد مرت به فترة من الزمن ـ عندما كان عاملا شابا نشيطا ـ كان يجتذب فيها نظرات الاعجاب اجتذابا من عيون بنات التجار والقساوسة فى الضواحى الصناعية بموسكو . ولكن « مارفا » ، التى تخرجت فى مدرسة الراهبات بالابرشية ـ فى ذلك العام ـ رفضـته لتتزوج زميـلا له ، هو « سافيليى نكيتيش » ، والد « تيفرزين » . وبعد خمس سنوات من النهاية الاليمة التى لقيها سافيليى ـ اذ احترق تماما فى حادث السكة الحديدية المروع الذى وقع فى سنة ١٨٨٣ ـ عاد « خودولييف » يجـدد خطبتـه ، ولـكن « مارفا » رفضـــته . ومن ثم عكف « خودولييف » على الشراب ، وتعود الشراسة ، محاولا أن يعبر عن نقمته على دنيا كانت تحمل وزر كل ما حاق به من نحس ، فى رأيه .

أما « يوسوبكا » فكان ابن « جيمازيتدين » (٣) حارس مجموعة المساكن التى كان « تيفرزين » يقيم فى أحدها . وكان « تيفرزين »

---

(١) « الصينية » . وهى جهاز تقف عليه القاطرة فيدور بها لتغيير اتجاهها .
(٢) تدليل اسم « يوسف » بلغة التتار .
(٣) اسم تتارى ، هو تحريف لاسم جمال الدين المسلم .

قد وضع الصبى تحت رعايته ، مما زاد من حقد « خودولييف » عليه ! .. وراح خودولييف يزأر ، وهو يجر يوسوبكا من شعره ، ويدق قفاه : « أهكذا يمسك المبرد ، أيها المدلل الاحول ؟ .. أهذه هى الطريقة التى تبرد بها قطعة من الزهر ، أيها التترى الدنىء المنحرف العينين ؟ »

ــ أووو .. لن أفعل ذلك مرة أخرى يا سيد ! .. أووو ، لن أفعل ذلك ثانية ! .. أووو ، انك توشك أن تقتلنى !

ــ كأنما قلت له مرة ، وليس ألف مرة .. أولا ، اضبط « ملزمة المخرطة » ، ثم أدر المخرطة ، ولكن ، أتحسبه يسمع الكلام ؟ .. كلا ، وانما يمضى فى العمــل بطريقته الجميلة .. لقد كاد يكسر المحور .. من حقه أن يحمد حظه لانه لا يزال على قيد الحياة ، هذا الشيطان المنحرف العينين .. كل ما فعلته هو أن قرصت أذنيه وجذبت شعره قليلا !

وهنا تدخــل تيفــرزين ، قائلا : « اذن ، فأنت ترى أن من الواجب أن يقطع رأسه جزاء على هذا ؟ .. خليق بك أن تخجــل من نفسك يا خودولييف .. حقا ، خليق بشيخ ورئيس عمال قديم مثلك أن يستحيى ! .. لقد شاب شعرك ، ولكنك لم تتعلم شيئا من حسن الادراك بعد ! »

ــ ابتعد .. ابتعد وأنت لا تزال سليما ، فلسوف أدق عظامك .. أتعظنى يا ذيل الكلب ؟ .. لقد وضعوا نطفتك على أخشاب السكة الحديدية (الفلنكات) ، تحت بصر أبيك ، أيها الرخو ! .. اننى اعرف امك المومس ، القطة الجربة !

والذى وقع بعد ذلك ، حدث فى ثانية واحدة ، فقد أمسك كل من الرجلين أول شىء وصلت اليه يده على أرفف المخارط ــ حيث كانت الادوات الثقيلة وكتل الحديد متناثرة ــ وأوشك أن يقتل الآخر ، لو لم يندفع الجمع ليفصل بينهما . ووقف خودولييف وتيفرزين ، ورأساهما منحنيان ، وجبهتاهما تكادان تتماسان ، وقد شحب لوناهما ، واحتقنت عيونهما . وكان الغضب قد ذهب بهما مذهبا

جعلهما لا يقويان على الكلام . وكان القوم قد أمسكوهما بأيد حازمة ، وعقدوا أذرعهما خلفهما . وحاول الرجلان – مرة أو اثنتين – أن يفلتا ، وراحا يلويان جسديهما ويجران زملاءهما الذين كانوا يمسكونهما .. وتطايرت مشابك ثيابهما وأزرارها ، وانزلقت ستراتاهما وقميصاهما عن أكتافهما .. وأحاطت بهما جلبة لا تنقطع : « الازميل ! .. خذوا الازميل منه ، والا هشم رأسه ! .. كفى ، اهدأ أيها الشيخ بيوتر ، والا كسرنا ذراعك ! .. لماذا تبقونهما وتتفرجون عليهما ! .. جروهما ، وابعدوا كلا عن الآخر ، واحبسوا كلا فى مكان ، حتى ينتهى كل شىء ! »

وبمجهود خارق ، استطاع تيفرزين – فجأة – أن يدفع عنه الرجال الذين كانوا يمسكونه ، وانطلق متحررا ، فاندفع نحو الباب . وهموا بأن يجروا وراءه لولا أن رأوه قد عدل عن الشجار ، فتركوه وشأنه . وخرج جاذبا الباب خلفه بقوة ، وسار دون أن يتلفت وراءه . واطبق عليه ليل الخريف المظلم الرطب ، وراح يتمتم لنفسه وهو يسير دون أن يفطن الى وجهته : « كلما تحاول أن تساعدهم ، ينقضوا عليك بسكين ! » .. **لقد أصبحت هذه الدنيا الدنيئة ، الحافلة بالاكاذيب والغش ، والتى ترسل فيها سيدة متخمة بصرها عبر حشد من العمال فى قحة وازدراء ، والتى يجد فيها سكير – من ضحايا مثل هذه المعاملة – لذة فى أن يثأر لنفسه ممن هم على شاكلته .. هذه الدنيا أصبحت بغيضة فى نظره أكثر مما كانت فى أى يوم آخر !** .. وراح يغذ السير وكأن خطواته كانت قادرة على أن تسبق الزمن الى اليوم الذى يصبح فيه كل ما على الارض معقولا ، متسقا فى انسجام ، كما كان يتمثل له فى مخه المحموم ! .. وكان يعرف أن كل جهوده فى الايام القلائل الاخيرة : كل المتاعب ، وكل الخطب والاجتماعات ، وقرار الاضراب الذى لم ينفذ بعد – ولكنه لم يلغ على أية حال – كل هذه كانت « محطات » صغيرة منفصلة ، على الطريق العظيمة التى تمتد أمامهم !

ولكنه كان – اذ ذاك – مرهقا ، ضيق الصدر ، حتى لقد ود

أن يجرى طيلة الطريق ، دون أن يقف ليلتقط أنفاسه . ولم يكن قد فكر فى المكان الذى يسعى اليه بخطواته الواسعة ، ولكن قدميه كانتا تعرفان تمام المعرفة الى أين تحملانه : الى الصافرة !

ولم يقدر له ــ الا بعد ذلك بكثير ــ أن يعرف القرار الذى اتخذته لجنة الاضراب بعد أن غادر مع « أنتيبوف » المخبأ الارضى .. القرار بأن يبدأ الاضراب فى تلك الليلة بالذات . ولقد قرروا ــ لتوهم ولحظتهم ــ المكان الذى يذهب اليه كل رجل منهم ، وأى الرجال يستدعون .. وكان ثمة جمع قد بدأ يزحف فعلا من المخازن ومن ساحة البضائع ، عندما أطلق « تيفرزين » صافرة « ورشة » اصلاح القاطرات ، فانطلق صفيرها الاجش وكأنه يتصاعد من أعماق قلبه ، ليسترسل بعد ذلك فى طبقة متوسطة من طبقات الصوت . وسرعان ما انضم الى ذلك الجمع رجال من قسم « الغلايات » ، القوا بادواتهم عندما سمعوا اشارة تيفرزين . ولقد ظل تيفرزين لسنوات عديدة يظن أنه الوحيد الذى أوقف العمل والحركة على الخط الحديدى فى ذلك المساء . ولم يعلم الحقيقة الا بعد ذلك بكثير ، أثناء المحاكمة ، عندما اتهم بالاشتراك فى الاضراب ، وليس بالتحريض عليه !

وجرى الناس خارجين ، وهم يتساءلون : « الى أين يذهب القوم ؟ .. لماذا تنطلق الصافرة ؟ » . فانبعث صوت من جوف الظلام : « انك لست أصم .. هناك حريق ، وهم يطلقون الصافرة للانذار ، ويريدون منا أن نطفئه ! » .. « وأين الحريق ؟ » .. « لا بد أن ثمة حريقا ، والا ما أطلقوا الصافرة ! » .. وصفقت أبواب ، وأقبل مزيد من الناس ، وسمعت أصوات أخرى : « حريق ؟ ! .. اسمعوا الى هذا الجاهل ! .. انه اضراب ، هل فهمت ؟ .. ألقوا بأدواتكم يا رفاق ، ودعوهم يأتوا بحمقى غيرنا يؤدون هذا العمل القذر . اخرجوا الى دوركم أيها الفتيان ! »

وأخذ عدد المنضمين الى الجمع يتزايد باطراد .. وأعلن عمال السكة الحديدية الاضراب !

— ٧ —

• **عاد** « تيفرزين » الى داره بعد يومين ، مسوقا بالحاجة الى النوم ، وقد راح البرد ينخر عظامه ، فان الصقيع — الذى لم يسمع من قبل عن سقوطه فى مثل هذا الوقت من العام — أخذ يتساقط فى الليلة السابقة ، ولم يكن « تيفرزين » يرتدى ثيابا شتوية . واستقبله لدى الباب الخارجى « جيمازتدين » ، حارس الباب ، فبادره قائلا فى لغة روسية مهشمة : « شكرا لك يا سيد تيفرزين .. انك لم تترك يوسوبكا حتى يصاب بضر .. لسوف أدعو لك فى صلاتى دائما »

— انك معتوه يا جيمازتدين .. من الذى تدعوه سيدا ؟ .. دعك من هذا بالله وعجل بما لديك من قول ، فأنت تدرك قسوة البرد !

— ولماذا تتعرض للبرد ؟ .. لسوف تدفأ سريعا يا « كوبريان سافيليتش » . لقد أحضرت وأمك « مارفا جافريلوفنا » من مخازن المحطة بالامس ملء حظيرة من الخشب .. وكان كله من خشب التامول الجاف ، الصالح للوقود ..

— شكرا يا جيمازتدين . اذا كان لديك ما تريد أن تنبئنى به — فوق هذا — فعجل به ، اذ أن جسدى يكاد يتجمد .

— أردت أن أنبئك بأن لا تقضى ليلتك فى البيت يا سافيليتش .. يجب أن تختبىء ، فقد كان البوليس هنا ، يسأل عمن يفد على البيت . وقد قلت أن ليس هناك من يفدون على البيت . أسعفتنى قريحتى ، فقلت ان الذين يزورونك كلهم من السكك الحديدية ، ولا أغراب هناك .. تالله ، لقد قلت هذا !

ولم يكن تيفرزين متزوجا ، بل كان يقيم مع أمه وأخيه الاصغر المتزوج . وكانت المساكن ملكا لكنيسة «الثالوث المقدس» المجاورة ، فكان بين السكان بعض رجال الدين ، واثنان من الباعة المتجولين — أحدهما قصاب ، والآخر بدال — ولكن القسم الاكبر من السكان

كانوا من صغار الكتبة المستخدمين فى سكة (موسكو - بريست) الحديدية .. أما البيت فكان مشيدا بالحجر ، حول فناء قذر غير مرصوف . وكان ثمة سلم - ذو درجات مكسوة بالخشب - مثبت الى الواجهة الخارجية المطلة على الفناء ، تفوح من درجاته القذرة النحيلة رائحة القطط والكرنب المخمر .. وقد ألحقت بطبقات الدار دورات المياه وحجرات محكمة الرتاج لتخزين الاطعمة .

وكان شقيق « تيفرزين » قد خاض غمار الحرب مع اليابان ، متطوعا ، وجرح . وكان - فى تلك الآونة - يقضى فترة النقاهة فى المستشفى العسكرى فى (كراسنويارسك) ، فذهبت زوجته وابنتاه الى هناك ليرينه ويعدن به . فقد كان آل تيفرزين يعملون دائما فى السكك الحديدية - جيلا بعد جيل - فكانوا محبين بطبيعتهم للاسفار ، وكانوا يسافرون فى طول روسيا وعرضها بموجب اذون مجانية .. ومن ثم فقد كان المسكن هادئا وخاليا اللهم الا من « تيفرزين » وأمه . وكان المسكن فى الطابق الثانى ، وقد أقيم خارج مساكن الطابق برميل كبير كان السقاء يملأه يوميا بالماء . ولاحظ « تيفرزين » - حين بلغ الطابق الثانى - ان وعاء البرميل كان قد دفع جانبا ، واستقر على سطح الماء المتجمد قدح من الصفيح ، فابتسم قائلا لنفسه : « لا بد أن « بروف » كان هنا . ان طريقة هذا الرجل فى الشرب تجعله يلوح وكأن امعاءه تضطرم ! » .. وكان يعنى «بروف أفاناسييفيتش سوكولوف» مرتل الاناشيد فى الكنيسة .. وكان من أقارب أم « تيفرزين » .

وانتزع « تيفرزين » القدح من الثلج ، وجذب يد جرس باب مسكنه. **وهبت ريح دافئة ، منزلية ، محملة ببخار الطهو، تحييه . فصاح : «هالو يا اماه ، ان لديك نارا مستعرة طيبة ، ما ابدع الدفء هنا ! » . فارتمت أمه على صدره ، مطوقة عنقه ، وانخرطت فى البكاء .** فمسح على رأسها ، ولم يلبث - بعد برهة - أن نحاها عنه فى رفق ، وقال بصوت لطيف : « لا مكسب بلا اقدام ومغامرة يا أماه .. ان الخط الحديدى قد توقف من موسكو الى وارسو » .

ــ أعرف .. وهذا سر بكائى . لسوف يسعون للقبض عليك يا كوبرينكا (١) . فيجب أن تهرب !

ــ ان صديقك اللطيف « بيوتر » يا أماه أوشك أن يحطم رأسى !

قال هذا محاولا أن يضحكها ، ولكنها قالت بلهجة جادة : « من الاثم أن تضحك منه يا كوبرينكا .. يجب أن تحزن عليه ، فهو نفس مسكينة ضالة ! »

ــ لقد قبضوا على « أنتيبوف » .. جاءوا بالليل ففتشوا مسكنه ، وقلبوا كل شىء رأسا على عقب ، ثم أخذوه فى هذا الصباح . فى حين أن زوجته « داريا » فى المستشفى مريضة بالتيفوس ، وابنهما « باشا » ــ التلميذ فى المدرسة الثانوية ــ وحيد فى البيت مع عمته الصماء .. ولسوف يطردونهما من المسكن . أعتقد أن من واجبنا أن نأخذ الصبى ليقيم معنا .. وما الذى كان « بروف » يبتغيه ؟

ــ وكيف عرفت انه جاء ؟

ــ رأيت برميل الماء غير مغطى ، والقدح على الثلج .. فقلت فى نفسى ان بروف كان ولا بد يعب الماء عبا !

ــ ما أذكاك يا كوبرينكا !.. أجل، لقد كان بروف هنا ، «بروف أفانا سييفيتش » ، جاء ليستعير بعض كتل الخشب ، فأعطيته بعضا . ولكن ، ماأحمقنى اذ أتكلم عن هذا ! .. لقد انمحت من ذهنى الانباء التى جاء بها بروف . فكر معى يا كوبرينكا ! .. لقد وقع القيصر بيانا ، ولن يلبث كل شىء أن ينقلب رأسا على عقب . سيلقى كل امرىء المعاملة الصحيحة ، فيحصل الفلاحون على الارض ، ونحظى نحن بالمساواة مع علية القوم ! .. لقد وقع البيان فعلا ، كما يقول ، ولم يبق الا اعلانه . وارسل المجمع المقدس تعليمات باجراء يتخذ فى القداس .. صلاة شكر لله ، أو صلاة من أجل القيصر .. لقد ذكر لى الامر ، ولكننى نسيت !

---

(١) « كوبرينكا » ، أو « كوبريان سافيليتش » ، أو « تيفرزين » ، كلها أسماء لرجل واحد .

— ٨ —

• **وجاء** « باشا أنتيبوف » ـ الذى كان أبوه قد اعتقل كواحد ممن نظموا الاضراب ـ ليعيش مع آل تيفرزين . وكان صبيا نظيفا ، حسن الهندام ، ذا قسمات متسقة وشعر أحمر مفروق عند منتصف رأسه . وكان لا يفتأ يمر عليه بالفرشاة ، ويسوى من أطراف زيه المدرسى ، أو قفل حزامه الذى كان يحمل شعار المدرسة . وكان على حظ كبير من روح الفكاهة ، وقد أوتى قوة ملاحظة نادرة ، واعتاد أن يغرق نفسه وكل من معه فى الضحك بمهارته فى تقليد كل ما كان يسمعه أو يراه .

وما أن أعلن البيان ـ فى ١٧ أكتوبر ـ حتى انتظمت مظاهرة كبيرة ، بدأت من (بوابة تفير) ، وكان مقدرا أن تسير الى (بوابة كالوجا) فى الطرف الآخر من موسكو . ولكن من المحتمل أنها كانت مصداقا للمثل القائل : كثرة الطهاة تفسد المأدبة ! .. اذ كانت عدة هيئات ثورية قد رسمت خطتها مشتركة ، ولكنها لم تلبث ان اختلفت فيمابينها ، فتخلت عنها ، حتى اذا سمعت أن الناس قد خرجوا فى اليوم المعين ـ رغم ذلك ـ بادرت الى ارسال مندوبيها ليقودوا المتظاهرين . وبالرغم من كل ما بذله « تيفرزين » كى يثنى أمه عن الاشتراك فيها ، فانها انضمت الى المتظاهرين ، كما ذهب معها « باشا » فى مرح وود ، كعادته .

وكان يوما باردا ، من أيام نوفمبر ، مشوبا بالصقيع ، وقد خيمت على المدينة سحابة غائمة، وأخذت كسف الجليد تتساقط ـ واحدة بعد أخرى ـ فتدور فى بطء وتردد ، قبل أن تستقر على الرصيف كتراب أسمر متفتت . **وأقبل الناس فى الشارع مندفقين كسيل عرم .. وجوه ، ووجوه ، ووجوه .. ومعاطف شتوية مبطنة ، وقبعات من فراء الغنم .. طلبة وطالبات ، شيوخ وأطفال ،** عمال السكك الحديدية فى زيهم الرسمى ، عمال من مخزن « الترام » ومن مركز « التليفونات » فى أحذية ذات رقاب تصل الى الركب ،

وتلميذات وتلاميذ من المدارس .. وظلوا وقتا ينشدون « المارسيلييز » و « وارسو » و « سقطوا ضحايا » ، ثم اعتدل رجل كان يسير بظهره - عند رأس الموكب - منشدا وملوحا بقلنسوته ، وقد راح يستخدمها كعصا رئيس الفرقة الموسيقية ليضبط الانغام .. اعتدل موليا وجهه فى اتجاه الموكب ، وأعاد قلنسوته الى رأسه ، وراح يصغى لما كان غيره من القادة المحيطين به يقولون . واذا الانشاد يضطرب فى فوضى ، ويخفت .. وارتفع صوت الاقدام التى لا حصر لها ، وهى تسحق الجليد على أرض الطريق .

وكان القادة قد تلقوا رسالة من الذين كانوا يعطفون عليهم : **ان فرسان القوزاق (١) كانوا يتربصون فى كمين للموكب قرب نهاية الشارع ، وقد أبلغ النبأ تليفونيا الى صيدلى قريب** . فقال القادة : « وماذا فى ذلك ؟ .. يجب أن نلزم الهدوء ، ولا نتسرع ، فهذاهو أهم الامور . يجب أن نحتل أول مبنى من المرافق العامة نصادفه ، ثم نحذر القوم ، ونتفرق ! » . ودار الجدل حول خير بناية يقصدونها . واقترح بعضهم مبنى جمعية مستخدمى المتاجر ، واقترح آخرون مبنى المدرسة الفنية .. وكان ثمة فريق ثالث اقترح مبنى مدرسة المراسلات التجارية الاجنبية . وفى جدلهم هذا ، بلغوا طرف مبنى لاحدى المدارس العليا ، يتيح حمى ومأوى لا يقل عما تتيحه تلك البنايات التى سلف ذكرها . فلما حاذوا مدخل المدرسة ، عرج عليها قادة المظاهرة ، وصعدوا درجات مدخلها شبه الدائرى ، وأشاروا لمقدمة الموكب بالتوقف ، ولكن القوم اساءوا فهم اشارتهم ، ففتحت الابواب العديدة ، وزحف القوم - معطفا الى جانب معطف ، وقلنسوة الى جانب قلنسوة - الى البهو الذى كان يلى المدخل ، وراحوا يصعدون سلم المبنى .

---

(١) كان الجنود الذين استخدموا من فرق الفرسان العادية ، ولكن العامة ظنوهم من « القوزاق »

وصاحت بضعة أصوات فى المؤخرة : « الى قاعة المحاضرات .. قاعة المحاضرات ! » . ولكن الباقين ظلوا مندفعين الى الامام ، متفرقين فى الردهات ، منتشرين فى الفصول . على أن القادة أفلحوا — فى النهاية — فى سوقهم الى قاعة المحاضرات ، وحاولوا بضع مرات أن ينبهوهم الى الكمين ، ولكن أحدا لم يصغ اليهم .. بل ان ماحدث من توقف ، ومن دخول الى المبنى ، أخذ مأخذ الدعوة الى اجتماع تقرر ارتجاليا ، وهو مابدأ فى الحال ، فى الواقع . واغتبط القوم بالجلوس هادئين برهة ، بعد كل ماسبق من مشى وانشاد ، فتركوا غيرهم يقومون بما كان عليهم أن يقوموا هم به من هتاف ، حتى بحت أصوات هؤلاء . ولاح أن الخطباء — الذين اتفقت كلماتهم على جميع النقاط — كانوا يكررون جميعا أقوالا واحدة . واذا كانت ثمة فوارق بينهم ، فقد تركت تمر فى سبيل الاستمتاع بالجلوس والراحة . وانتهى الامر الى أن أسوأ الخطباء جميعا هو الذى تلقى أكبر قسط من الحفاوة والتحمس . ولم يبد القوم أى محاولة لان يتتبعوا حديثه ، بل راحوا يضجون بالتحبيذ والاطراء اثر كل كلمة ، دون أن يحفل أحد بهذه المقاطعات ، ومع موافقة كل امرىء على كل ماكان يقال ، بدافع من مجرد السأم ونفاد الصبر . وكانت ثمة صرخات « ياللخزى ! » ، وكتبت مسودة برقية للاحتجاج ، ثم ضاق الحشد بصوت الخطيب الاجش البطىء ، فوقفوا دفعة واحدة ، وكأنهم شخص واحد ، وتدفقوا الى الخارج كتلة واحدة ، متناسين ذلك الخطيب تماما .. وراحوا يهبطون السلم ، وينسابون الى الشارع ، معطفا الى جانب معطف ، وقلنسوة الى جانب قلنسوة .. واستأنف الموكب سيره .

وكان الثلج قد بدأ يتراكم أثناء الاجتماع الذى عقد داخل المبنى ، فاذا الشارع أبيض .. وأخذ الجليد يتساقط بغزارة مطردة . وعندما انقض الفرسان ، لم يدرك السائرون فى المؤخرة شيئا مما جرى بادىء ذى بدء ، فقد انحدرت اليهم جلبة متضخمة ، كأنها صادرة عن جموع تهتف : « هوراه ! » ، وضاعت وسط الضجيج

الصرخات الفردية التى كانت تنادى : « النجدة ! » و « يالك من قاتل ! » . وفى نفس اللحظة تقريبا ظهرت خلال الدرب الذى حدث حين انقسم الجمع ، رؤوس الفرسان ورؤوس جيادهم وعفراتها ، والسيوف الملوحة ، تنطلق — فى صمت وخفة — وسط الجمع ، وكأنها محمولة على موجات الجلبة والضوضاء ..

واندفعت نصف فصيلة من الفرسان خلال الحشد ، تصول وتجول ، وتنقض على ذيل الموكب .. وبدأ التقتيل ! .. وان هى الا بضع دقائق ، حتى كان الشارع خاليا بمعنى الكلمة ، اذ تناثر الناس فى الشوارع الجانبية ، حيث كان الجليد اخف انهمارا .

وكانت بوادر المساء أشبه بخطوط مهوشة من عبث قلم من أقلام الفحم . ثم مدت الشمس الجانحة للمغيب أصبعا من وراء المنازل ، صوب ناصية الطريق ، فصبغت كل مافى الشارع باللون الاحمر .. فاذا قمم خوذات الفرسان حمراء ، واذا العلم المجرور على الارض أحمر ، واذا لطخ الدم وخيوطه على الجليد حمراء . وكان ثمة رجل يزحف على حافة الطريق وهو يئن ، وقد شق رأسه. وكانت ثمة ثلة من الفرسان عائدة على مهل ، من الشارع الذى كانت المطاردة قد حملتهم اليه ، واذا « تيفرزينا » العجوز (١) تجرى من جانب الى آخر — تحت أقدام الخيل تقريبا — وقد تهدل وشاحها عن رأسها ، وراحت تصرخ عاليا فى جزع : « باشا ! .. باشا ! » .

كان « باشا » الى جانبها طيلة الوقت ، يضحكها بتقليد آخر خطيب فى الاجتماع . ولكنه اختفى فجأة ، فى غمرة الارتباك والفوضى ، عندما انقض الفرسان .. وهوى على ظهرها أحد سياط هؤلاء . ومع انها لم تكد تشعر به خلال معطفها ذى الحشو السميك ، فانها راحت تسب وتلوح بقبضتها مهددة الفرسان المتراجعين ، وهى تستنكر جرأتهم على أن يضربوا عجوزا مثلها ، ويضربوها علانية بهذا الشكل .. وراحت تتلفت حولها من جانب الى آخر — فى قلق — حتى قدر لها أن تلمح الصبى ، أخيرا ، فى

(١) هى والدة « تيفرزين » ، واسمها الرسمى الكامل هو « مارفا جافريلوفنا ».

الجانب الآخر من الشارع . وكان يقف فى فجوة بين حانوت بدال ومدخل دار مشيدة بالاحجار ، لجأ اليها فريق من المارة مصادفة، اذ ساقهم اليها فارس كان فوق الرصيف ، حتى لايمسهم الاذى الذى كان منصبا على المتظاهرين .. وراق للفارس ذعرهم ، فراح يعرض عليهم سلطانه مزهوا ، دافعا جواده الى التراجع بمؤخرته نحو الحشد ، وهو يرفع مقدمتيه فى الهواء ، وكأنه فى « سيرك » ! ثم لمح رفاقه يعودون فجأة ، فاستدار بسرعة ، وبقفزتين ، اتخذ لنفسه مكانا فى صفوفهم !

وتفرق الحشد ، فاندفع « باشا » الى العجوز ، وقد ذهب به الخوف الى حد أعجزه عن أن يصدر أى صوت . وراحت «تيفرزينا» تزمجر وتدمدم ، طيلة طريقهما الى البيت : « ياللقتلة السفلة ! .. ان الشعب مغتبط بأن القيصر قد منحهم الحرية ، ولكن هؤلاء السفاكين الملاعين لايطيقون ذلك .. كل مايبغون هو أن يفسدوا كل شىء ، وأن يقلبوا معنى كل كلمة ! » .. كانت ناقمة على الفرسان ، ناقمة على الدنيا بأسرها .. بل انها كانت ناقمة ـ فى تلك اللحظة ـ على ابنها ذاته . فقد كانت ـ اذا ما ثارت نفسها ـ ترى كل المتاعب الراهنة من ذنب « رفاق كوبرينكا المتبطلين ، المتسكعين » ، كما كانت تدعوهم !

وراحت تغمغم ساخطة : « ما الذى يبتغونه ، هؤلاء الاغبياء ؟.. انهم هم أنفسهم لايعرفون، طالما كان بوسعهم أن يرتكبوا الشرور.. يالهم من أفاع ! .. انهم على شاكلة ذلك الثرثار الذى لم يكن يعى ما يقول .. أرنى يا « باشا » ، ياحبيبى ، كيف كان يتكلم .. أرنى أيها العزيز !..أواه ، أكاد أنفجر من الضحك ، اكاد انفجر!.. انك لتقلده حتى لتكاد تبدو فى صورته ! » .

وفى البيت ، راحت تنحى باللائمة والتقريع على ابنها .. **أفكانت فى سن يليق معها لجلف مجعد الشعر ، يمتطى جوادا ، ان يضربها بسوط على ظهرها ؟ ! .. ولم يزد ابنها على القول : « وما**

ذنبى يا أماه ؟ .. من تظنيننى ؟ .. كأنى بك تحسبيننى قائد القوزاق ، أو مدير الشرطة ! »

— ٩ —

• **كان** « نيكولاى نيكولاييفيتش » يشهد فرار المتظاهرين من النافذة ، فتبين شخصياتهم ، وراح يبحث عما اذا كان « يورا » بينهم . ولكن أحدا من أصدقائه لم يكن هناك — على مالاح له — وان خيل اليه انه لمح ابن « دودوروف » ، ذلك المتهور الذى لم يكن يتذكر اسمه ، والذى استخرجت رصاصة من كتفه ، منذ عهد غير بعيد .. وها هو ذا قد عاد ثانية — فيما بدا — وراح يتسكع فى أماكن لم تكن له بها أية علاقة .

وكان « نيكولاى نيكولاييفيتش » قد عاد من (بطرسبورج) منذ عهد قريب . ولم يكن له فى (موسكو) مسكن ، كما انه لم يكن راغبا فى أن ينزل بأحد الفنادق . ومن ثم فقد نزل فى دار



أقارب له تربطهم به علاقة نسب بعيد ، هم أسرة «سفينتيتسكى»، فأفردوا له ركنا من حجـرة فى الطابق الاول . ذلك انهم لم يؤتوا أطفـالا ، وكان البيت الذى اسـتأجره أهلهم من أسرة الامير « دولجوروكى » ـ منذ زمن سحيق ـ كبيرا جدا ، فقد كان من تلك المجموعة من البنايات التى أقيمت فى غير تناسق ، وعلى أنماط متباينة ـ تتوسطها ثلاثة أفنية وحديقة ـ على أرض (ولجوروسكى) .. وهى أرض مؤلفة من ثلاث قطع تربط بينها حوارى ضيقة ، وتعرف بالاسم القديم (موشنوى جورودوك) .. أى بلدة الدقيق !

وكانت حجرة المكتبة معتمة قليلا ، بالرغم من نوافذها الاربع . وكانت مزدحمة بالكتب ، والصحف ، والسجاجيد ، والستائر .. ولها شرفة على شكل نصف دائرة حول أحد أركان المبنى ، وقد أحكم سد الابواب الزجاجية لهذه الشرفة، اتقاء لبرد الشتاء . وكانت هذه الابواب ـ ونافذتان من الاربع ـ تطل على حارة تمتد الى مسافة غير قصيرة ، وتبدو فيها دروب الزحافات ، وصفوف متعرجة من الدور والاسوار . ومن الحديقة ، كانت الظلال القرمزية تتصاعد الى الحجرة ، وكأن الاشجار المثقلة بالصقيع الابيض ، وفروعها ـ التى كانت تبدو كقضبان من الشمع المغبر ـ تتوق الى أن تلقى بأثقالها على أرض حجرة المكتبة .

ووقف « نيكولاى نيكولاييفيتش » يسرح بصره فى الفضاء ، وهو يفكر فى آخر شتاء قضاه فى (بطرسبورج) .. يفكر فى «جابون» (١)، و « جوركى » ، وفى لقـائه مع « ويت » (٢) ، وكلهم من أحـدث الكتاب الذين ذاع صيتهم .. انه قـد فر من المدينـة المتهوسة الى هدوء العاصمة القديمة وسكينتهـا ، لينصرف الى تأليف كتـاب

---

(١) قس كان من زعماء الثورة ، وعلى رأس المظاهرة التى أقيمت فى ساحة القصر الشتوى فى سنة ١٩٠٥ ، فى يوم عرف باسم « يوم الأحـد الدامى » . ثم اشتبه الثوار فى أنه من الجواسيس الموفدين لاثارة الفتن ، فقتلوه !

(٢) تولى رئاسة الوزارة الروسية فى سنة ١٩٠٥

إختمر فى ذهنه . ولكنه لم يجد نفسه أسعد حالا .. فمن محاضرات فى كل يوم ، الى برامج دراسية عليا للنساء ، الى الجمعية الفلسفية الدينية ، الى الصليب الاحمر ، الى صندوق الاكتتابات للاضراب .. **لم تكن تتاح له لحظة واحدة كى يستجمع أفكاره . لقد استجار من الرمضاء بالنار . ولعل ماكان بحاجة اليه هو أن يرحل الى سويسرا .. الى احدى مقاطعاتها النائية ، الى البحيرات الوادعة ، والسماء ، والهواء الصافى .**

وتحول « نيكولاى نيكولاييفيتش » عن النافذة . وأحس برغبة فى أن يصيح مناديا أى مخلوق ، أو فى أن ينطلق هائما فى الطرقات، ولكنه تذكر ان « فيفولوشنوف » ـ تلميذ تولستوى ـ كان قادما لمقابلته من أجل مهمة ما . فراح يذرع الحجرة ، وأفكاره تجنح نحو ابن اخته .. فعندما انطلق ـ خلال نهر (الفولجا) ـ الى (بطرسبورج) ، ترك « يورا » فى (موسكو) ، حيث كان له كثير من الاقارب : آل فيدينيابين ، وآل اوستروميسلينسكى ، وآل سيليافين ، وآل ميخايليس ، وآل سفينتيتسكى ، وآل جروميكو . ولقد مكث ـ فى البداية ـ مع ذلك الكهل الثرثار الخامل « اوستروميسلنسكى » ، الذى كان معروفا بين أهله باسم « فريدى » . وكان فريدى يعيش فى الاثم مع « موتيا » ، التى كانت تحت وصايته . ومن ثم فقد كان ينظر الى نفسه كخارج على النظام القائم ، وبطل للفكر التقدمى . وكان قليلا ما يحقق ثقة أقاربه فيه ، حتى انه استولى على النقود التى قدمت اليه ـ للانفاق على « يورا » ـ وراح ينفقها على نفسه . فلم يلبث « يورا » ان نقل الى رعاية آل جروميكو ـ أسرة العلماء ـ وظل مقيما معهم .

وقال نيكولاى نيكولاييفيتش فى نفسه ان الوسط لدى آل جروميكو كان ملائما كل الملاءمة ليورا . فقد كانت ابنتهم « تونيا » فى سن « يورا » . كما كان « ميشا جوردون » ـ صديق يورا وزميله فى الدراسة ـ يقضى معظم وقته معهما .. وقال نيكولاى

نيكولاييفيتش فى نفسه : « يالهم من ثلاثى مضحك ! » . وكان الثلاثة قد استغرقوا فى قصص « معنى الحب » ، و « أنشودة كرويتزر » ، وتولتهم نزعة الى التبشير بالعفة . وكان من الخير للمراهقين أن يتجهوا الى التحمس للطهر ، طبعا .. ولكنهم كانوا يسرفون فى ذلك ، حتى فقدوا كل ادراك للحد المعقول ! .. ماكان أغرب أفكارهم ، ويالسذاجتهم الصبيانية ! .. **كانوا ــ وقد أزعجهم « الجنس » ــ يدمغون كل ماله علاقة به بأنه « مبتذل » ، ويستخدمون التعبير اللاتينى « يدعو الى الاشمئزاز » ، ووجوههم تشحب أو تتضرج اذ ينطقون به .. كان « الابتذال » تعبيراً يطبق على الغريزة ، والفعل الفاضح ، والدعارة ، و .. كل دنيا الجسد تقريبا !**

وقال نيكولاى نيكولاييفتش لنفسه : « لو اننى كنت فى موسكو ، ما سمحت لهذا بأن يستفحل . ان الحياء ضرورى ، ولكن فى نطاق محدود .. آه ، ها هو ذا نيل فيوكتيسوفيتش قد أقبل ! »

وقطع عليه أفكاره مقدم الضيف .

— ١٠ —

• **أقبل** رجل بدين ، يرتدى قميصا رماديا ــ من طراز « تولستوى » ــ وحزاما عريضا من الجلد ، وحذاءين من اللباد ، و « بنطلون » منتفخا عند الركبتين . وكان يبدو سمحا ، محلقا فى أجواء الخيال ، بينما كانت ثمة نظارة انفية (بدون اطار ، ولكنها ذات مشبك يضغط على جانبى الانف) ترتعش فى غضب على طرف أنفه ، وقد علقت بشريط أسود عريض . وكان قد خلع معطفه فى البهو ، ولكنه لم يتخل عن ملفحته ، فدخل الغرفة وهو يجرجرها على الارض ، وقبعته اللبادية المكورة فى يده . وكانت هذه العوائق كفيلة بأن تمنعه من أن يصافح صاحبه ، بل ومن أن يحييه ، فاكتفى بأن زمجر وهو يجيل بصره فى الحجرة : « أم .. مم .. م ! » . واذ ذاك قال نيكولاى نيكولا ييفيتش : « ضعهافى

أي مكان ! » . وبذلك رد اليه جأشه ومقدرته على الكلام !

كان الضيف من تلاميذ تولستوى .. أولئك الذين كانت تعاليم الاستاذ القلقة تفقد معهم عمقها ، وتتجاوز كل اصلاح ، وتنتهى أخيرا الى استقرار وخمول طويلين لا يعكر صفوهما شيء . وكان قد جاء يدعو نيكولاى نيكولاييفيتش الى أن يخطب فى إجتماع لمعونة المسجونين السياسيين كان من المقرر عقده فى مدرسة من المدارس .. فقال نيكولاى : « لقد ألقيت خطابا فى تلك المدرسة فعلا ! »

ــ لمساعدة المسجونين السياسيين ؟

ــ أجل

ــ اذن ، فعليك أن تعيد الكرة !

وتردد نيكولاى نيكولاييفيتش قليلا ، ثم لم يلبث ان قبل . واذ انتهى الامر ، لم يحاول ان يستبقى ضيفه ، وكان بوسع هذا أن ينصرف لفوره، لولا ان شعر ــ فيمايبدو ــ بأن التعجيل بالانصراف أمر غير لائق ، فراح يفكر فى شيء يقوله .. شيء فيه حيوية ، وفيه انطلاق طبيعى . واشتد التوتر ، وبات الحديث ممجوجا ! .

ــ اذن فأنت تتقاعد فى هذه الايام .. هل ستتجه الى التصوف؟

ــ ما الذى تعنيه ؟

ــ انه مضيعة ، كما تعرف ! .. هل تذكر مجلسنا القروى ؟

ــ طبعا .. ألم نجاهد فيه معا ؟ !

ــ ولقد أبلينا فيه بلاء حسنا ، اذ كافحنا من أجل المدارس ، وكليات المعلمين .. أتذكر ؟

ــ طبعا .. كانت معركة بديعة !

ــ ثم ، ألم تقم بعد ذلك بجهد من أجل الصحة العامة ؟

ــ بلى .. لبعض الوقت .

ــ هم ــ م ــ م ! .. أما الآن ، فهناك مدعو العلم ، أولئك المتألهون ، المترهفون ، المترفعون ، و : « لنكن مثل الشمس » ! (١)

---

(١) عنوان ديوان للشاعر « ك . د . بالمونت »

.. اننى لا أصدق هذا .. رحماك اللهم ! رجل ذكى مثلك ، اوتى مالديك من روح طيبة ، ومن دراية بالناس .. اعترف ! أم ترانى اتطفل على قدس الاقداس ؟

— لماذا تتكلم لمجرد الكلام ؟ .. فيم تجادل ؟ .. انك لا تعرف آرائى .

— ان روسيا بحاجة الى مستشفيات ومدارس ، لا الى متألهين ومترقفين !

— ليس هناك من ينكر هذا .

— ان الفلاحين فى أسمال بالية ، يتضورون جوعا ..

وهكذا راح الحديث يسير متخبطا . ومع أن نيكولاى نيكولايفيتش كان يدرك أن لا جدوى من ورائه ، الا أنه حاول أن يشرح ما اجتذبه الى بعض كتاب المدرسة المثالية . ثم عرج على آراء تولستوى ، فقال : ((**اننى أقرك الى حد ما ، ولكن تولستوى يقول ان المرء كلما أوغل فى التعلق بالجمال ، بعد عن الخير ..**))

— اذن فأنت ترى العكس .. ان الدنيا ستجد الخلاص عن طريق الجمال ، أليس كذلك ؟ .. دوستويفسكى ، وروزانوف (١) ، والمسرحيات الغامضة ، وما الى ذلك ؟ !

— مهلا ، دعنى احدثك عما أرى .. **اننى أرى ان الوحش الكامن فى الانسان اذا تسنى اخضاعه بالتهديدات .. أى نوع من التهديدات ، سواء السجن أو العقاب بعد الموت .. فان المثل الأعلى للانسانية يصبح ((مروض الاسود)) فى ((السيرك)) بسوطه ، وليس الداعية الذى يضحى بنفسه !** .. ولكن ، الا ترى أن الامر على هذا النحو : ان الذى ظل يرفع الانسان فوق مستوى الوحش ليس الارهاب ، وانما هى الموسيقى التى فى أعماقه .. قوة الحقيقة العزلاء التى لا سبيل الى مقاومتها ،

---

(١) ف . روزانوف (١٨٥٦ - ١٩١٩) .. كانت أفكاره التصوفية ذات أثر على بعض المثقفين فى (سانت بطرسبورج) و (موسكو) ، ولكن اتباع تولستوى لم يكونوا يقرونها .

وجاذبية أمثلتها .. لقد كان من الامور التى أخذت على علاتها دائما ، ان أهم ما فى الاناجيل هى التعاليم الخلقية والوصايا . أما فى رأيى ، فان أهم شيء هو ما حدث من أن المسيح استمد حكمه وعظاته من الحياة اليومية .. هو أنه شرح الحقيقة على ضـوء الواقع الملموس فى كل يوم .. والفكرة الكامنـة وراء ذلك هى أن المعاشرة بين المخلوقات الفانية أمر سرمدى ، وان الحياة كلها مجرد معنى رمزى ، لان لها كلها معنى !

ــ لم أفهم كلمة واحدة .. جدير بك أن تؤلف كتابا فى ذلك !

وانصرف فيفولوشنوف أخيرا ، فشعر نيكولاى نيكولاييفيتش بحيرة بالغة .. وحنق على نفسه لانه أفضى ببعض الآراء التى يحرص على كتمانها ، الى مثل ذلك الغبى الجامد العقل ، فلم يكن لها أى أثر عليه . ثم تحول سخطه الى هدف آخر ، كما يحدث فى بعض الاوقات ، فتذكر سببا آخر يدعوه للاستياء ، وبذلك نسى « فيفولوشنوف » وكل شيء عنه ! .. ولم يكن يحتفظ بمفكرة يومية ، ولكنه اعتاد أن يسجل ــ مرة أو اثنتين فى العام ــ فى دفتر سميك ، بعض الآراء التى تخطر له وتبرز بين أفكاره . ومن ثم فقد أخرج الدفتر ، وشرع يكتب بخط كبير مقروء . وهذا ما كتبه :

« قلبت مزاجى ــ طيلةاليوم ــ تلك المرأة السخيفة «شليزنجر»، اذ جاءت فى الصباح ، وظلت حتى موعد الغداء ، وضايقتنى ساعتين كاملتين بقراءة ذلك الهراء .. اوبرا شعرية من نظم الشاعر الرمزى « س » ، وفقا لانغام « السيمفونية » التى أبدعها الملحن « ص » مستمدا وحيه من نظرية خلق الكون .. أرواح الكواكب ، واصوات العناصر ، الخ . الخ .

« وأدركت فجأة السر فى أن هـذا اللغو مميت ، لا يطاق ، ومصطنع ، زائف .. حتى حين يصادفه المرء فى « فاوست » .. ان الامر كله اصطناع ، لا يهتم به أحد اهتماما صادقا ، فليس الانسان الحديث بحاجة اليه . واذا حيرته غوامض الكون ، تحول الى الطبيعيات ، وليس الى سداسيات الشاعر « هسيود » ..

وليس الامر مجرد شكليات تنطوى على خطأ تاريخى ، أو أن أرواح الارض والهواء تلك انما تضل العقل عما أوضحه العلم .. وانما لان النوع كله لا يتمشى اطلاقا مع روح الفن – فى الايام الحاضرة – ولا مع القوة الباعثة عليه .

« ان النظريات المتعلقة بخلق الكون تمت الى الدنيا القديمة .. **وهى دنيا كانت قليلة الناس الى درجة أن الطبيعة لم تكن ذلولا للانسان ، فكانت الهوام الضخمة لاتزال تدب على الارض ، وكان التنين والدينوصاور لايزالان ماثلين فى ذاكرة الناس .. كانت الطبيعة تصدم عينيك بوضوح ، وتمسك بخناقك بعنف ملموس ، حتى لكأنها كانت فعلا مليئة بالآلهة والارباب** .. تلك كانت الصفحات الاولى فى سجل الجنس البشرى .. مجرد البداية فحسب . وقد انتهت تلك الدنيا بانهيار سلطان (روما) ، اذ قضى تزايد الانسان المطرد عليها ! .. كانت روما سوقا ضئيلة للآلهة المستعارة والشعوب المغلوبة .. ساحة للمساومة ذات طابقين : الارض والسماء .. العبيد فى طابق ، والآلهة فى الآخر .. داسيون ، وهيروليون ، وسيثيون ، وسارماتيون ، وهايبربوريون .. عجلات ثقيلة ، خرساء ، وعيون مغرقة فى السمنة ، وبهيمية ، واذقان متهدلة لفرط البدانة ، وأباطرة أميون ، وأسماك تتغذى على أجساد العبيد العلماء .. حيوانية ملفوفة فى ثلاث طيات كالامعاء ! .. لقد كان فى الدنيا يومئذ من الناس أكثر مما كان بها فى أى يوم – منذ ذلك الحين – وكانوا جميعا محشورين فى ردهات « الكوليزيوم » ، وكانوا جميعا بؤساء أشقياء !

« ثم ، ووسط الذهب والمرمر المتراكمين فى غير تناسق مستساغ ، اقبل « هو » – المسيح – بخطى خفيفة ، وقد تدثر بالنور .. أقبل بانسانيته الواضحة ، وطباعه المستمدة بجلاء من أرض الجليل . ومنذ تلك اللحظة ، لم يعد ثمة آلهة ولا شعوب .. لم يعد ثمة غير الانسان وحده .. الانسان النجار ، والانسان زارع الارض ، والانسان الراعى يسوق قطيعه عند مغرب الشمس .. الانسان

الذى لا يبدو وقع اسمه محفوفا بأقل فخر (١) ، ومع ذلك فهو محور كل أغنية ، وشخصية كل صورة فى معارض الصور ، فى كافة أرجاء الدنيا » !

— ١١ —

• **كان** شارع (بيتروفكا) أشبه بركن من (بطرسبورج) وضع فى (موسكو) عن خطأ . فان البيوت المتناسقة على جانبى الطريق ، والزينات غير الصارخة على واجهاتها ، والمكتبة ، وحانوت بيع الكتب ، ورسام الخرائط ، وبائع التبغ الطيب ، والمطعم البديع ببابه الامامى الذى قام على جانبيه مصباحان يشعلان بغاز الاستصباح — على عمودين هائلين — وقد كساهما الجليد .. كل هذه كانت توحى بذلك الشبه . وكان الشارع يتألق فى الشتاء تألقا يجعل أى دخيل يحجم عن ارتياده ، وكأنه منطقة محرمة .. فقد كان سكانه من أصحاب المهن الحرة الراسخى الاقدام ، المحترمين ، ذوى الدخول الطيبة .

وهنا استأجر « فيكتور ايبوليتوفيتش **كوماروفسكى** » مسكنه الفخم القائم فى الطابق الثالث من احدى البنايات ، يفضى اليه سلم واسع ذو سياج من خشب البلوط المتين . وكانت مدبرة منزله — أو بالاحرى « محافظة » معقله الهادىء — « ايما أرنستوفنا » ، تدبر شؤونه دون أن يسمعها أحد أو يراها ، فى كفاءة تفوق التصور ، وفى حرص على أن لا تتطفل على تفصيلات حياته الخاصة . **وكان يجازيها عن ذلك بتلطف كريم ليس بالغريب على سيد فى مثل كماله ، فلا يستقبل أحدا فى مسكنه — رجلا كان أو امرأة — اذا لم يكن وجوده مما يروق لوقار دنيا شيخوختها !** وكان يسود المسكن سلام وادع .. فالمصاريع الخشبية للنوافذ مسدلة ، وليس ثمة ذرة من غبار ، وكأن المرء على منصة مسرح معد !

---

(١) اشارة الى قول جوركى : « الانسان الذى لاسمه وقع مفعم بالفخر »

وكان كوماروفسكى يتريض - فى صباح كل يوم أحد - على قدميه ، مصطحبا كلبه « البولدوج » ، فيسيران الهوينى الى نهاية شارع (بيتروفكا) ، ثم يعرجان على شارع (كوزنتسكى موست) ، ثم لا يلبث أن ينضم اليهما - عند أحد مفترقات الطرق - الممثل والمقامر «كونستانتين ايللاريونوفتيش ساتانيدى» . فيسيرون معا على مهل ، ويتبادل الرجلان بعض أنباء موجزة ، وبعض ملحوظات مقتضية ، تافهة وموشاة بالازدراء بكل شىء فى الدنيا ، الى درجة انه كان من الممكن الاستغناء عنها بأى ضوضاء أجشة ، على شريطة أن تملأ الشارع من أحد جانبيه الى الجانب الآخر بصوت فى ارتفاع صوتيهما ، وعمق نبراتهما ، ولهثاتهما المفضوحة ، وكأن ذبذبات صوتيهما كانت تخنقهما خنقا !

— ١٢ —

• **لم يكن** الطقس مما يناسب ذلك الفصل من السنة .. كانت قطرات الماء تتساقط على معدن أنابيب التصريف والميازيب ، محدثة هذه الاصوات : « تب .. تب .. تب » .. وكل سقف يدق رسالة للسقف الآخر ، كأن الربيع قد أقبل .. لقد أخذ الجليد فى الذوبان!

وكانت « لارا » تسير - طيلة الطريق - شبه مذهولة ، فلم تتحقق مما جرى لها الا عندما بلغت دارها ! .. كان كل امرىء قد نام . وارتدت الى ذهولها وشرود ذهنها ،وجلست - وهى شبه غائبة عن العالم - الى منضدة زينة أمها ، وهى لا تزال فى ثوبها ذى اللون الاصفر الخفيف - حتى ليكاد يبدو أبيض - وقد وشيت أطرافه بتطريز رقيق ، وخمارها الطويل الذى استعارته من مصنع امها لتقضى به السهرة ، فبدت فيه كما لو كانت فى ثوب تنكرى طريف .. وتعانقت راحتاها على منضدة الزينة ، وقد جلست أمام صورتها المنعكسة على المرآة ، وان لم تكن تراها .. وما لبثت بعد برهة ان نكست رأسها فوق يديها .

لو قدر لماما ان تسمع بما جرى ، لقتلتها ! .. أجل ، لقتلتها ،

وقتلت نفسها بعد ذلك !

كيف تسنى أن يحدث ذلك ؟ .. بل كيف أمكن أن يحدث ؟ .. لقد فات الآن أوان التساؤل ، وكان خليقا بها أن تفكر قبل ذلك بوقت طويل !

لقد أصبحت .. ما الاسم الذى يطلقونه ؟ .. أصبحت امرأة ساقطة !.. أصبحت امرأة من نساء الروايات الفرنسية ، وان كانت ستذهب فى الغد الى المدرسة ، وتجلس الى جانب الفتيات الاخريات اللائى يعتبرن فى براءة الاطفال بالنسبة اليها ! .. أواه ، يا الهى ، يا رب .. كيف قدر لهذا أن يحدث ؟ !

لسوف تخبر « أوليا ديمينا » بالامر يوما ما ، عندما يتسنى ذلك ، بعد سنوات عديدة ، طويلة .. ولسوف تضمها « أوليا » الى صدرها ، وتنخرط فى البكاء .

وفى الخارج ، كانت قطرات الماء تتتابع فى وسوسة .. كان الثلج الذائب يهمس بتعويذته السحرية . وفى الطريق ، كان شخص ما يدق باب أحد البيوت المجاورة ..

وجلست « لارا » تبكى ، وقد نكست رأسها ، وأخذت كتفاها تهتزان !

— ١٣ —

• « **كل هذه** أقذار يا عزيزتى « ايما ارنستوفنا » .. لقد سئمتها وأصبحت اشمئز منها.! » . وظل يفتح الادراج ويغلقها ، ويقلب الاشياء خارجها ، ويقذف بأساور الاكمام وياقات الاقمصة على البساط والاريكة ، وهو لا يدرى ما الذى يريده فى الواقع !

كان الذى يريده ، ويتوق اليه فعلا ، هى « لارا » .. ولم تكن ثمة فرصة ميسورة لرؤيتها فى ذلك اليوم من أيام الاحد . فراح يذرع الحجرة فى هياج ، كحيوان حبيس ! .. كان لها عليه ما للاشياء المعنوية ، غير الملموسة ، من سحر ! .. كانت يداها تبهرانه كما تبهره الفكرة السامية ! .. ولقد لاح له خيالها على جدار تلك

الغرفة – فى الفندق – كما لو كان طيف البراءة ذاتها ! .. وكانت صدريتها مشدودة على صدرها ، كما تشد قطعة القماش على أطار التطريز .

وراحت أصابعه تطرق زجاج النافذة، مع وقع حوافر الجياد التى كانت تسير فى غير عجلة على ارض الطريق المكسوة بالاسفلت .. وهمس وهو يغمض عينيه : « لارا ! » .. وتمثل له طيفها ، ورأسها مسند الى ذراعه ، وعيناها مغمضتان .. كانت نائمة ، غير واعية أنه كان يرقبها مسهدا لساعات طويلة . وكان شعرها القاتم متناثرا ، وجمالها يلهب عينيه – كما يفعل الدخان اذ يتسرب الى المآقى – ويفرى قلبه !

ولم يستمرىء رياضته التى ألفها فى صباح كل يوم من أيام الاحد .. فخطر بضع خطوات مع كلبه « جاك » ، ثم توقف وراح يفكر فى (كوزنتسكى موست) وفكاهات « ساتانيدى » ، وسيل معارفه .. لا ، لقد كان هذا فوق ما يطيق . لذلك نكص على عقبيه ، عائدا . وبهت الكلب وتطلع اليه فى استنكار، ثم دلف خلفه وهو يبصبص بذنبه فى استهجان !

وقال كوماروفسكى فى نفسه : « **ما معنى كل هذا ، بحق الشيطان ؟ .. أى نوع من ألاعيب الشيطان هذا ؟** » .. **ترى أكان هذا من فعل ضميره ، أم شفقة ، أم ندما ؟ .. والا فما الذى كان يقلقه بشأنها ؟ .. لا ، لقد كان يدرك انها بسلام فى دارها . اذن، فلماذا لم يكن يقوى على أن يقصيها عن باله ؟**

وسار الى داره .. وصعد السلم .. وتجاوز الطابق الاول ، حيث كانت الرسوم الزخرفية على زجاج النافذة تلقى كسفا من ضوء ملون على قدميه .. وفى منتصف الدرجات المفضية الى الطابق الثانى ، وقف .. يجب أن لا يستسلم لذلك المزاج المضنى ، المشاكس ، القلق ، فهو لم يكن تلميذا صغيرا بعد كل هذا العمر . يجب أن يعرف ما الذى قد يحدث اذا قدر لهذه الفتاة – التى لم تكن سوى مجرد طفلة ، وابنة صديقه المتوفى – أن تصبح شخصا

مفروضا عليه ، لا غنى له عنه ، بدلا من أن تكون مجرد العوبة يلهو بها ! .. يجب أن يتمالك نفسه .. يجب أن يرجع الى نفسه وعاداته ، والا فسيذهب كل شيء بددا !

وشد كوماروفسكي قبضته على سياج السلم المصنوع من خشب البلوط ، حتى آلمته يده . واغمض عينيه لحظة ، ثم استدار في عزم ، وهبط الدرجات .. وعند زاوية السلم الموشاة ببقع الضوء الملونة ، كان كلبه في انتظاره ، فرفع رأسه كقزم كهل متهدل الصدغين ، وراح يحملق فيه باعجاب . لقد كان الكلب يكره الفتاة ، ويزمجر لرؤيتها .. ولقد أنشب أسنانه في ساقها ، ومزق جوربها . كان يغار منها وكأنه كان يخشى أن تنقل الى مولاه عدوى شيء غير انساني !

— اذن فأنت تظن أن كل شيء سيظل على ما كان عليه من قبل : ساتانيدى ، والقصص المضحكة ، والحيل القذرة ، وكل شيء ؟ .. حسنا اذن ، اليك هذه ، وهذه ، وهذه ! » . وراح يضرب الكلب بعصاه ، ثم ركله .. وصرخ جاك ، وراح يعوى ، وقفز صاعدا الدرجات وهو يهز مؤخرته ، واحتك بالباب ليشكو أمره الى « ايما ارنستوفنا » .

وأخذت الايام والاسابيع تمضى ..

— ١٤ —

• **يا لها** من حلقة مسحورة ! .. لو أن اقتحام كوماروفسكي حياة « لارا » ملأ انفسها اشمئزازا فحسب، لتمردت ، ولنأت عنه . ولكن الامر لم يكن بمثل هذه البساطة ! .. لقد استهواها أن رجلا انيقا ، مليحا ، دب الشيب الى شعره — فهو في سن تؤهله لان يكون والدا لها ! — رجلا كانوا يصفقون له في الاجتماعات ، ويذكرونه في الصحف .. **استهواها أن ينفق رجل كهذا وقته وماله عليها ، وأن يصطحبها الى قاعات الموسيقى والمسارح ، وأن يقول لها انها كانت تبدو ذات « قداسة ربانية » ، وانها خليقة بأن تصقل ذهنها وتغير**

أفكارها .. كما يقولون !

انها ـ على أية حال ـ لم تكن سوى تلميذة فى زى مدرسى بنى اللون ، تستمرىء المؤامرات البريئة التى تحاك فى المدرسة . وكان كومار وفسكى يروق لها فى غزله من وراء ظهر الحوذى ـ وهما فى العربة ـ أو فى غزله العلنى وهما فى مقصورة الاوبرا ، على مرأى من الحضور جميعا .. وكان يذهلها بذلك المزيج من التكتم والجرأة !

ولكن المغامرات الصبيانية كانت قصيرة العمر !

.. وأخذ يتغلغل فى أعماقها ويستبد بها استنكار ممض ، صادر عن روح محطمة .. وأرهقها الصراع مع الدروس ، والسهد الذى طال ليالى عديدة ، والدموع ، وصداع دائم مستمر .. فنامت النهار طوله !

— ١٥ —

• **وكرهته** .. لقد كان اللعنة التى حاقت بحياتها . وراحت فى كل يوم تستعيد ذلك فى ذهنها .. لقد باتت سجينته مدى العمر . كيف قدر له أن يستعبدها ؟ .. وما الذى جعلها تخضع لرغباته ، وترضى حاجته الى أن يجعلها تحس بالخجل والعار ؟ .. **وما سلطانه عليها ؟ .. أهو عمره ؟ .. أم هو احتياج أمها الى ماله ؟ .. وهل أثر فيها هذا أو أخافها الى هذه الدرجة ؟**

كلا ، وألف مرة كلا .. لقد كان هذا جميعه هراء !

لقد كانت هى التى أوتيت سلطانا عليه .. أو لم تكن تعرف مدى حاجته اليها ؟ .. لم يكن ثمة مايخيف ، فقد كان ضميرها خلوا من أى ذنب . انما كان هو الذى ينبغى أن يخاف ، وأن يخجل ، وأن يجزع من أنها قد تتخلى عنه وتصده . ولكن هذا كان عين المسلك الذى لن تتخذه . فلقد كان ينقصها غدره .. هذا الغدر الذى كان عماده الاوحد فى تعامله مع الضعيف والمحتاج !

وكان هذا عين الفارق بينهما .. وكان هذا هو الذى جعل الحياة بأسرها رهيبة الى هذا الحد . فأنت لا تذعر من الرعد والبرق ،

وانما من النظرات المستترة ، والوشايات الهامسة ! .. لقد كانت الحياة كلها غادرة ، وغامضة ! .. ان أى خيط بمفرده يكون واهيا كخيط العنكبوت ، ولكن .. حاول أن تنتزع نفسك من الشبكة المؤلفة من خيوط كثيرة ! .. انك كلما حاولت ذلك ، لم تزد هى الا اطباقا عليك !

حتى الاقوياء يتعرضون لسلطان الضعيف والغادر !

— ١٦ —

• **وحاولت** أن تخدع نفسها . وتساءلت : ماذا لو أنها كانت متزوجة ؟ .. أى فارق كان يحدثه الزواج ؟ .. ولكنها كانت أحيانا تقع تحت سلطان هم يائس .

كيف لم يكن يستحيى من أن يتمرغ عند قدميها ، وأن يضرع اليها ؟ .. كيف لم يستحيى من أن يقول لها : « لن نستطيع أن نمضى هكذا . فكرى فيما فعلته من أجلك . انك تسيرين الى حتفك . يجب أن نصارح أمك ، وأن أتزوجك ! » . وكان يبكى ، ويلح ، ويلحف ، وكأنها كانت تجادله وتعارضه . ولكنها كانت تعرف أنه لا يعنى شيئا من كل هذا ، فكانت لا تكاد تصغى اليه !

وظل يصطحبها — وهى تسدل خمارا على وجهها — ليتناولا العشاء فى حجرات خاصة فى ذلك المطعم البغيض ، الذى كان سقاته وخدمه ورواده يجردونها — بنظراتهم — من كل ثيابها ، كلما دخلته ..
وكان كل ما فعلته هو انها ساءلت نفسها : « أفكان يعرضنى لكل هذا الهوان ، لو أنه كان يحبنى حقا ؟ »

ولقد حلمت مرة .. رأت فى المنام أنها دفنت تحت الارض ، ولم يبق منها سوى جنبها الايسر ، وقدمها اليمنى . ونبت من حلمة ثديها اليسرى عود من العشب .. وفوق سطح الارض كان ثمة قوم يغنون : « عينان سوداوان وثدى أبيض » .. و « يجب أن لا تعبر ماشا النهر » !

— ١٧ —

• **ولم تكن** « لارا » متدينة ، ولا كانت تؤمن بالطقوس . ولكنها كانت تحتاج أحيانا الى أن تأنس الى موسيقى — تنبعث من أعماقها — لتمكنها من أن تحتمل حياتها .. ولم يكن بوسعها أن تنظم الحان تلك الموسيقى لنفسها دائما . تلك الموسيقى كانت كلمة الله فى الحياة ، فكانت تذهب الى الكنيسة لتبكى على وقعها !

وحدث مرة — فى أوائل ديسمبر — عندما كانت تشعر بما كانت تشعر به « كاترينا » فى مسرحية « العاصفة » ، أن **ذهبت لتصلى بقلب كان مثقلا الى درجة أنها راحت تخال أن الارض قد تنشق تحت قدميها — فى أية لحظة — وان سقوف الكنيسة المحدودبة قد تطبق عليها** . وكان هذا عين ما يلائمها ، اذ أنه كان كفيلا بأن يضع نهاية للامر كله .. ولم تكن تأسف على شىء ، اللهم الا أنها اصطحبت الى الكنيسة تلك الثرثارة « أوليا ديمينا » .

وهمست لها أوليا : « ها هو ذا بروف أفانا سيفيتش . »

— صه . دعينى وشأنى ! .. أى بروف أفانا سيفيتش هذا ؟

— بروف أفاناسييفيتش سوكولوف . ذلك الذى يقرأ .. انه من الدرجة الثانية من أبناء خؤولتنا فى القربى !

— آه ، المرتل .. قريب تيفرزين ؟ ! .. الا أسكتى !

وكانتا قد جاءتا فى بداية القداس . وكان المزمور : « باركى يانفسى الرب وكل ما فى باطنى ليبارك اسمه القدوس » . ووقف المصلون جميعا فى حشد عند الطرف الذى يقوم فيه المذبح ، فى الكنيسة التى كانت الاصداء تتردد فى جنباتها ، وهى شبه خاوية .. وكانت حديثة البناء ، وزجاج نافذتها الخالى من الرسوم والالوان لا يضفى أية زينة على منظر الشارع الحافل بالحركة ، الرازح تحت الجليد ، فى الخارج . وأمام الكنيسة ، كان حارسها يقف غير حافل بالقداس ، وقد راح يوبخ متسولة صماء ، نصف معتوهة ، بصوت خال من كل رواء ، خلو النافذة ، والشارع ، من الرواء ..



وفى الوقت الذى استغرقته « لارا » فى استخراج قطع النقود الصغيرة ، وأطباق راحتها عليها ، والسعى خلال المصلين دون أن تزعجهم ، وشراء شمعتين لنفسها ولاوليا من لدن الباب ، ثم العودة ثانية .. فى ذلك الوقت ، كان « بروف افاناسييفيتش » قد رتل تسعا من دعوات التطويب ، بسرعة توحى بأن الجميع كانوا يعرفونها دون حاجة الى ترتيله !

« طوبى للمساكين بالروح .. طوبى للحزانى .. طوبى للجياع والعطاش الى البر .. طوبى للمطرودين .. »

وارتجفت لارا ، وجمدت فى مكانها .. كانت تلك الموعظة موجهة اليها .. هى بالذات . واستمر المرتل يتلو :

« طوبى لكم اذا طردوكم وعيروكم ، وقالوا فيكم كل كلمة شريرة كاذبين ، من أجلى .. افرحوا وتهللوا لان أجركم عظيم فى السموات »

كان هذا رأيه « هو » ! .. رأى المسيح !

— ١٨ —

• **وحان** وقت قيام ثورة (بريسنيا) . وكان مسكن آل « جيشار » يقع فى منطقة التمرد ، فكان العمل قائما على قدم وساق فى بناء استحكامات فى شارع (تفير) على بعد بضع ياردات من منزلهم . وراح الناس ينقلون دلاء الماء من فناء دارهم ، ليعجنوا الاسمنت مع الاحجار وقطع الحديد والجليد . واستخدم المحرضون فناء الدار المجاورة ليكون مقرا للجنة ، وليكون أحيانا أشبه بمركز للصليب الاحمر ومطبخ لاعداد الحساء للثوار .

وكانت « لارا » تعرف اثنين من الفتيان الذين راحوا يترددون على المركز ، كان أحدهما « نيكى دودوروف » صديق زميلتها فى المدرسة « ناديا » . وكان ذا كبرياء ، وصراحة ، كما كان قليل الكلام .. كان من شدة الشبه بلارا بحيث أنه لم يثر اهتمامها .. أما الآخر ، فكان « باشا أنتيبوف » الذى كان فى المدرسة العليا ، والذى كان يقيم مع « تيفرزينا » العجوز ، جدة « أوليا » . ولم تكن « لارا » تملك سوى أن تلاحظ الاثر الذى كانت تحدثه فى نفس الفتى عندما تلتقى به فى مسكن آل « تيفرزين » .. كان صبيانيا فى سذاجته حتى أنه لم يكن يفكر قط فى أن يخفى اغتباطه برؤيتها ، وكأنها واحة من أشجار وعشب وسحب ، يأوى اليها فى أحد أيام العطلة ، فيمرح دون أن يتعرض لسخرية من أحد !

وما أن تبينت أنها ذات تأثير عليه ، حتى بدأت تستغل هذا التأثير دون أن تعى أو تتعمد ، وان لم يكن مقدرا لها أن تسيطر بيد حازمة على شخصيته المطواعة السهلة الا بعد عدة سنوات ، عندما تطورت علاقتهما الى مرحلة أوثق .. وكان « باشا » قد أيقن — اذ ذاك — انه غريق حتى أذنيه فى حبها ، وانه مشدود اليها ما قدر له أن يعيش ..

وكان الشابان يلعبان اخطر العاب الكبار .. الحرب ! وكانا — فى هذه الحرب بالذات — غير معرضين للاخطار المألوفة فى الحرب

فحسب ، بل كان هناك خطر النفى والشنق كذلك ! .. ومع ذلك ، فان الطريقة التى كانت تنحسر بها قلنسوتاهما ــ المصنوعتان من الصوف ــ عن رأسيهما ، كانت تنم عن أنهما لا يزالان صغيرين يحتاجان ــ أو يجب أن يحتاجا ــ الى اهل يرعونهما .. وما فكرت « لارا » فيهما الا على أنهما صغيران ! .. كان للهوهما الخطر طابع البراءة والسذاجة . وكانا يعكسان هذا الطابع على كل شىء .. على المساء المثقل بندف الصقيع الاسمر ، حتى لتبدو سوداء أكثر منها بيضاء .. وعلى الظلال القاتمة الزرقة ، التى كانت تترامى فى فناء الدار .. وعلى الدار القائمة فى الجانب الآخر من الطريق ، حيث كان الشابان يختبئان .. بل ــ وأكثر من ذلك كله ــ على طلقات المسدس التى كانت تنبعث من تلك الدار ! .. وكانت « لارا » تقول فى نفسها : « ها هما ذا الشابان يطلقان الرصاص ! » .

هكذا كانت ترى « نيكى » و « باشا » .. بل وكل اولئك الذين كانوا يطلقون الرصاص ، فى طول (موسكو) وعرضها . فكانت تحدث نفسها عنهم قائلة : « انهم فتية بواسل ، طيبون .. وما يطلقون الرصاص الا لطيبتهم ! »

— ١٩ —

● **وسمعوا** أن من المحتمل أن تنسف الاستحكامات ، وتغدو دارهم فى خطر . وكانت فرصة التفكير فى الانتقال للاقامة مع أى أصدقاء فى شطر آخر من (موسكو) قد فاتت ، اذ أن المنطقة باتت مطوقة ، وأصبح عليهم أن يبحثوا عن مأوى فى نطاق المنطقة ذاتها ، ففكروا فى فندق « مونتنجرو » . وظهر أن كثيرين ممن كانوا فى عين الموقف قد فكروا فى ذلك المكان كذلك .

وكان الفندق مزدحما ، ولكن آل « جيشار » تلقوا وعدا بأن يفرد لهم ركن فى حجرة الغسيل « والبياضات » ، اكراما لعلاقتهم القديمة بالفندق . ولكى لا يستلفتوا الانظار اذا هم حملوا ثيابهم فى حقائب ، فانهم حزموا أهم ما تمس اليه الحاجة ، فى ثلاث حزم ، ثم راحوا

يرجئون الانتقال الى الفندق يوما بعد يوم .. وكذلك فعلت أسرات عملائهم المترددين على مصنع الثياب ، فبقى المصنع مفتوحا فترة طويلة بعد بدء الاضراب العام . ولكن جرس باب المصنع رن فى أصيل يوم بارد ، كئيب . واذا بشخص قد اقبل يشكو ويجادل ، ويطلب ان يرى المديرة . وأسرعت «فيتيسوفا» اليه لتهدىء من هياجه . وان هى الا بضع لحظات حتى طلبت العاملات الجالسات الى آلات الحياكة ، وقدمتهن الى الرجل ، فصافحهن جميعا فى ارتباك وتأثر ، وغادر المصنع بعد أن اتفق مع « فيتيسوفا » على أمر .. وعادت العاملات الى حجرة العمل ، ورحن يحكمن أوشحتهن حول رؤوسهن ، ويرتدين معاطفهن الشتوية العتيقة .

وأسرعت اليهن السيدة جيشار متسائلة : « ما الذى جرى ؟ »

— لقد قرروا أن يخرجونا يا سيدتى .. اننا مضربات !

فانبثقت الدموع من عينى السيدة جيشار ، وقالت : « ولكنى لا ارى .. لا أحسب .. اى ضرر الحقته بكن ؟ »

— لا تحملى الامر هذا المحمل يا أماليا كارلوفنا ، فلسنا نضمر لك أية موجدة ، بل اننا جد عارفات بفضلك .. ان الامر لايتعلق بك وبنا فحسب ، ولكن كل امرىء مسوق الى الاضراب .. الدنيا كلها . وليس بوسعك أن تخرجى على ارادة الجميع .. أليس كذلك ؟

وانصرفن جميعا .. حتى أوليا ديمينا .. وحتى فيتيسوفا التى همست فى أذن السيدة جيشار — وهى تودعها — بأنها انما تساير الاضراب من أجل مصلحة المؤسسة وصاحبتها . ولكن همسها لم يسر عن السيدة جيشار أساها ، فراحت تقول بعد انصرافهن : «ياله من عرفان اسود ! .. **تصورى كيف كنت مغترة بهؤلاء القوم ! ؟ .. يا للكرم الذى أغدقته على تلك الصبية الضئيلة (١) .. ومع ذلك فهى ليست سوى طفلة ، ولها بعض العذر ، ولكن .. اى عذر للعاهرة الكبيرة (٢) ؟ »**

---

(١) تقصد « أوليا ديمينا »

(٢) فيتيسوفا

فقالت لارا تحاول أن تخفف عنها : « ليس بوسعهن أن يخرجن على المجموع من أجلك يا أماه . ألا ترين حقيقة الموقف ؟ .. ان أحدا لايكن لك ضغينة ما ، بل العكس اصح . ان كل ما يجرى الآن انما يجرى باسم الانسانية ، للدفاع عن المستضعفين ، لخير النسوة والاطفال . أجل ، هذه هى الحقيقة، فلا تهزى رأسك !.. لسوف تتبينين يوما ما انك واياى فى حال أفضل ، نتيجة ذلك ! »

.. ولكن أمها لم تستطع ان تفهمها ، فقالت وهى تنهنه بالبكاء : « هكذا شأنك دائما ! .. فى الوقت الذى يرتبك فيه عقلى ، تطلعين على بأمور لا أفقهها ، بل انها تزيد من حيرتى . ان الناس يقدمون على لعبة قذرة ازائى ، فتقولين ان هذا لصالحى ! .. لا ، لابد اننى قد فقدت عقلى ! »

وكان «روديا» فى المدرسة ، فراحت اخته وأمه تهيمان فى البيت الخالى وحيدتين . وكان الشارع المعتم يطل بنظرات جوفاء على الحجرات ، فترد الحجرات اليه نظراته بمثلها . وقالت لارا فى رجاء: « لنذهب الى الفندق ياماما ، قبل أن يشتدالظلام . هيا ياماما !.. لاترجئى الامر ، فلننتقل الآن ! » . ونادتا حارس الدار، وقالتا له : « فيلات ! .. رافقنا الى فندق مونتنيجرو ، أيها العزيز فيلات !». فقال : « حسنا ياسيدتى » .

ـ احمل الحزم الى هناك ، ثم احرس الدار بانتباه يا فيلات ، الى ان تنجلى الامور . ولا تنس من فضلك الحبوب لتغذية العصفور « كيريل موديستوفيتش » ، واحرص على أن تغير له الماء . هاك المفتاح . هذا كل مالدى ، فيما أعتقد ، فكن يقظا فى الحراسة !

ـ اطمئنى تماما ياسيدتى .

ـ شكرا يا فيلات ، وليحفظك الله ! .. لنجلس أولا (١) ، ثم ننطلق !

---

(١) كان من عادة الروس اذا تهيأوا للسفر أن يجلسوا بضع لحظات ، قبل شروعهم فى الرحيل ، اجتلابا للحظ .

وعندما خرجوا ، بدا لهم الهواء العليل شيئا غير مألوف ، كما يحدث للمرء عندما يبرح داره بعد أسابيع من المرض . وكانت الضوضاء تلف حولهم ، مرددة صدى خفيفا فى الفضاء البارد ، الجليدى ، الشديد الصفاء . وكانت الطلقات والصفعات تمرق وترتطم ، فيتردد صداها وكأنها كانت تقرب المسافة . وبالرغم من الجهود التى بذلها « فيلات » ، فقد أصرت « لارا » و « أماليا » على أن الطلقات كانت تطلق جزافا للارهاب . وراح يجادلهما ليقنعهما بالعكس ، ولكنهما راحتا تقولان : « لاتكن غبيا يافيلات ! .. فكر قليلا فيما بينك وبين نفسك، كيف تكون الطلقات مقصودة وأنت لاترى أحدا يطلقها ؟ .. من الذى تراه يطلقها : الروح القدس ، أو ماذا ؟ »

وعند احد مفترقات الطرق ، استوقفتهم ثلة من « القوزاق » . وراحوا يبتسمون فى خبث وهم يفتشونهم ، ويتحسسون بأيديهم كل جزء من جسمى لارا وأمها ، من رأسيهما حتى قدميهما . وكانت قلنسواتهم التى لاحواف لها ، منحرفة — فى تأنق مقصود — الى جانب ، مما كان يبديهم وكأن كلا منهم لم يؤت سوى عين واحدة ! .. وقالت لارا فى نفسها ، وهى تستأنف السير . « بديع ! » .. انها لن تعود ترى « كوماروفسكى » طالما ظلت المنطقة محاصرة ، مفصولة عن بقية المدينة . ذلك لان أمها لم تكن تمكنها من أن تقاطعه وتكف عن رؤيته . فما كان بوسعها أن تقول لها : « أرجو أن تكفى عن استقباله ياأماه ! » .. فلو انها قالت ذلك ، لافتضح كل شىء ، ولا ريب !

ولكن ، ماذا لو حدث ذلك ؟ .. لماذا ترهبه وتفزع منه ؟ .. أواه ، يا الله ! ليحدث أى شىء ، على شريطة أن تكون فيه نهاية هذا الامر !

يالله ! الله ! .. لقد كادت أن تهوى فاقدة الرشد ، تحت وطأة التقزز ! .. ترى ماهذا الذى تذكرته لتوها ؟ .. ماكان اسم تلك الصورة الفظيعة ؟ .. كان فيها رجل رومانى بدين . وكانت معلقة

فى اول حجرة اختلت فيها مع كوماروفسكى .. الحجرة التى بدأ فيها كل شىء ! .. آه ، كان اسمها : « حاملة اناء الزهور ! ».. أجل ، هو ذا ! .. كانت صورة مشهورة ، طبعا . وكان الرومانى البدين يبدو وكأنه يفكر فى أيهما يختار : المرأة أم اناء الزهر . ولم تكن قد أصبحت « امرأة » عندما رأت الصورة لاول مرة ، فلم يكن ثمة وجه للمقارنة بينها وبين عمل فنى ثمين كهذا ، بعد .. لقد حدث ذلك فيما بعد ! .. وكانت المائدة معدة أجمل اعداد لمأدبة فخمة !

وقالت السيدة جيشار ، وهى تلهث متقطعة الانفاس : « الى اين تراك ذاهبة حتى تهرعى بمثل هذه السرعة ؟ .. اننى لاأستطيع أن ألحق بك ! » .. كانت لارا تسير بخطى خفيفة،وقد اجتاحتها قوة خفية ، مجهولة ، وكأنها كانت تخطو فى الهواء ، تحملها تلك القوة المسرعة ، المعتدة . وقالت فى نفسها وهى تنصت الى طلقات البنادق : « ما أبدعها ! .. طوبى للمطرودين ، طوبى للمخدوعين .. أللهم اكلأ الرصاصات برعايتك ، فهى واياى متفقات فى الفكر والغاية ! »

— ٢٠ —

• كان للشقيقين «جروميكو» بيت عند التقاء شارع (سيفتسيف فراجيك) بشارع آخر صغير . وكان كل من « الكسندر الكسندروفيتش جروميكو » و « نيكولاى الكسندروفيتش جروميكو » أستاذا فى الكيمياء ، أحدهما فى أكاديمية « بتروف » والآخر فى الجامعة . وكان نيكولاى أعزب ، أما الكسندر فكان متزوجا من « آنا كروجر » ، ابنة أحد أقطاب الحديد . وكان أبوها يمتلك ضيعة هائلة فى جبال (اورال) — قرب (يورياتين) — فيها عدة مناجم مهجورة ، لم تعد تدر نفعا . أما دار أسرة « جروميكو » فكانت من طابقين ، شغل الاعلى منهما بحجرات النوم، وبحجرة الدرس، وحجرة مكتب الكسندر الكسندروفيتش

ومكتبته ، وحجرة جلوس « آنا » ، وحجرتي « تونيا » و « يورا » .. وكانت هذه هي الاجزاء المأهولة من البيت . أما الطابق الارضي فكان مخصصا لاستقبال الضيوف . وكانت ستائره الفستقية اللون ، وقمة المعزف البراقة ، وحوض تربية الاسماك ، وكساء الاثاث المصنوع من قماش أخضر اللون ، والنباتات النامية في الاصص وفي الآنية كأنها أعشاب بحرية .. كل هذه كانت تجعل الطابق أخضر ، أشبه بقاع بحر ساكن ، ناعس !

وكان آل جروميكو أهل ثقافة وحفاوة وكرم ، كما كانوا من عشاق الموسيقى والخبراء بها ، وكثيرا ماكانوا يعقدون ندوات وسهرات موسيقية ، تعزف فيها الرباعيات الوترية والثلاثيات البيانية . وقدر لاحدى هذه السهرات أن تعقد في يناير سنة ١٩٠٦ . وكان المقرر ان تبدأ بعزف لحن على الكمان لمؤلف شاب من تلاميذ « تانييف » ، ثم أداء ثلاثي لاحد ألحان تشايكوفسكي . وقد بدىء في اتخاذ الاهبة لذلك في اليوم السابق ، فنقل الاثاث اللازم الى قاعة الجلوس . وفي أحد الاركان ، كان المكلف بضبط أوتار البيانو يدق على كل وتر عشرات المرات ، وينثر النغمات حوله جزافا كأنها حبات مسبحة .. وفي المطبخ ، كان الدجاج الذبيح يجرد من ريشه ، والخضر تنظف ، والخردل يمزج بزيت الزيتون لعمل السلاطات .

وأقبلت « شورا شليزنجر » - صديقة آنا الحميمة ومستودع سرها - مع أول بواكير النهار ، لتجعل من نفسها مصدر ازعاج لكل امرىء .. وكانت « شورا » طويلة ، نحيلة ، ذات قسمات منتظمة ، ووجه أقرب الى وجوه الذكور ، ويبعث في ذاكرة الرائي صورة وجه الامبراطور ، لاسيما حين تكون مرتدية قلنسوتها المصنوعة من الفراء « الاستراخان » ، وقد أمالتها على حافة وجهها بزاوية معينة . وكانت تستبقيها على رأسها في البيت ، ولا تفعل أكثر من أن تزيح الخمار المثبت اليها قليلا . وكانت كل من الصديقتين تخفف عن صاحبتها في أوقات الاسى أو القلق ، بأن

تشرع كل منهما فى اثارة الاخرى ، فلا يلبث حديثهما أن يحتد حتى تنفجر العاصفة العاطفية فى النهاية ، وتنبثق الدموع ، ثم يكون الصلح ! .. وكان لهذه المواقف أثر مهدىء على كل منهما ، أشبه بأثر الديدان ماصة الدماء حين تستخدم لتخفيف ارتفاع ضغط الدم !

وكانت « شورا شليزنجر » قد تزوجت عدة مرات ، ولكنها كانت تنسى أزواجها بمجرد ان تطلق منهم ، ولا تحفل بزيجاتها ، حتى أصبحت أخلاقها تحتفظ دائما بذلك الفتور وعدم الاستقرار اللذين تتسم بهما المرأة غير المتزوجة .. وكانت من انصار « الثيوصوفية » (فلسفة التصوف لله ، دون تقيد بطقوس دين معين) ، ولكنها كانت خبيرة كذلك بطقوس الكنيسة الارثوذكسية .. بل انها كانت — اذا استخفتها النشوة فى احدى نوبات استغراقها التصوفى — لاتحجم عن أن تقاطع رجل الدين الذى يؤدى القداس ، صائحة : « أسمع أيها الرب ! » .. وتتمتم دون انقطاع ، بصوت أجش ، ممتلىء بالنبرات : « المجد لله فى الاعالى .. الآن ، والى الابد » !

كذلك كانت شورا على المام بالعلوم الرياضية وبطقوس العبادات الباطنية الهندية ، وكانت تعرف عناوين أشهر المدرسين فى معهد موسكو الموسيقى ، ومع من كان كل منهم يعيش ، وما لايدريه احد من شؤون أخرى ! .. ومن أجل ذلك كانت تدعى كحكم ومنظم فى كل مناسبات الحياة الهامة .

* * *

وفى الموعد المحدد ، بدأ الضيوف يفدون . وكان الثلج يتساقط من السماء ، وكلما فتح الباب كنت ترى الهواء يندفع مارا به ، وكأنه مسوق بسوط ذى ألف عقدة ، يلهبه به الصقيع المنهمر . وكان الرجال يندفعون الى الداخل ، هاربين من البرد ، منتعلين أحذية ضخمة طويلة ، وكل واحد منهم — بلا استثناء — يبذل كل

ما فى وسعه ليبدو فى مظهر الجلف الريفى المتغطرس . أما زوجاتهم فكن على العكس . . كانت وجوههن تلمع من تأثير الصقيع ، ومعاطفهن غير محكمة الالتفاف ، وأوشحتهن منحسرة عن شعورهن الموشاة بقطع الجليد الدقيقة ، مقلدات أبرع الغوانى المحنكات . . بل مقلدات الفتنة الفتاكة الاغواء ، ذاتها ! . . وسرى الهمس بين الحضور عندما اقبل الموسيقى الشاب الحديث العهد : « انه ابن أخ كوى » (١) .

وخلف أبواب قاعة الرقص ــ التى فتحت على مصراعيها ــ كانت مائدة العشاء تبدو طويلة ، بيضاء ، أشبه بطريق فى الشتاء . . وكان انعكاس الضوء على زجاجات « الفودكا » الحمراء المثلوجة ، يبهر الانظار . . والكؤوس البلورية القائمة على قواعد من الفضة ، والنظام البديع الذى نسقت عليه الطيور وأنواع المشهيات (الاورديفر) تستهوى الخيال . . حتى المناشف المطوية على أشكال هرمية ، وسلال زهور « السينيراريا » النادرة ، ذات الصفرة الشاحبة ، وقد تصاعد منها عبير اللوز . . حتى هذه بدت كما لو كانت تذكى شهية القوم الى الاكل وتزيدها حدة !

ولكى لايطيلوا من أمد انتظار لذة الاكل الدنيوية ، أسرع القوم الى التهام غذائهم الروحى ، فجلسوا فى صفوف ، وعادوا يتهامسون عندما اتخذ الموسيقى مجلسه الى البيانو : « انه ابن أخ كوى » . . ثم بدأ الحفل الموسيقى . وكانوا يتوقعون أن يكون لحن الشاب جافا ، ثقيل الوطأة ، مملا . . وقد حقق حدسهم ، فكان طويلا ، بطيئا فى بلوغ نهايته ! . . وفى فترة الاستراحة التى أعقبته ، راح الناقد كريمبيكوف والكسندر جروميكو يتناقشان بشأنه ، فاذا كريمبيكوف يهوى به الى الحضيض ، وانبرى جروميكو يدافع عنه ، فى حين كان القوم حولهما يدخنون ، ويتكلمون ، ويزحزحون مقاعدهم فى ضوضاء ، حتى استرعى انتباههم ــ مرة أخرى ــ وميض غطاء المائدة فى الحجرة المجاورة ، فقرروا أن يستأنفوا الحفل الموسيقى .

---

(١) موسيقى روسى مشهور (١٨٣٥ ــ ١٩١٨)

وأومأ عازف البيانو برأسه لزميليه ، فرفع عازف الكمان وزميله تشكيفيتش قوسيهما ، وارتفعت النغمات فى شكوى وانين .. وكان « يورا » و « تونيا » و « ميشا جوردون » — الذى كان يقضى نصف وقته فى دار آل جروميكو — يجلسون فى الصف الثالث ، فهمس يورا لالكسندر الكسندروفيتش ، الذى كان يجلس أمامه مباشرة : « ان يجوروفنا تشير اليك تستدعيك ! » . وكانت «يجوروفنا» — خادم آل جروميكو العجوز ، ذات الشعر الابيض — تقف عند الباب ، وهى تنظر الى يورا فى يأس ، وتشير بحماس نحو الكسندر الكسندروفيتش ، محاولة الايحاء الى يورا بأنها بحاجة ماسة عاجلة الى مولاها .

والتفت اليها الكسندر الكسندروفيتش ، فرمقها بنظرة عاتبة وهز كتفيه . ولكنها صمدت فى موقفها ، وسرعان ما أخذا يتبادلان الحديث بالاشارات ، عبر الحجرة ، وكأنهما أصمان أبكمان . وبدا القوم ينظرون اليهما . وراحت «آنا» ترمى زوجها بنظرات غاضبة ، فنهض — وقد تضرج وجهه — وسار على أطراف قدميه ، متسللا بجوار جدران الحجرة ، حتى بلغ الباب ، فهتف : « خليق بك أن تخجلى من تصرفك يا يجوروفنا ! .. فيم كل هذه العجلة ؟ ماذا وراءك ؟ » . فتمتمت يجوروفنا بكلمات فى أذنه ، قال على أثرها : « أى مونتنجرو ؟ » .. فأجابت : « الفندق »

— حسنا ، وما شأنه هو ؟

— انهم يسألون عنه ، ويطلبون عودته فورا ، لان ثمة قريبا له يحتضر .

— وهل حلا للناس الموت الآن ؟ .. اننى لاتصور .. ولكن هذا غير ممكن يا يجوروفنا . سأخبره بعد انتهاء هذه القطعة . أما قبل ذلك ، فلست أستطيع ..

— لقد أرسلوا خادم الفندق بمركبة ليقله . هناك من يحتضر .. قلت لك يحتضر ، أفلا تفهم ؟ .. انها سيدة تحتضر .. سيدة من علية القوم !

— وأنا أقول لك أن هذا مستحيل . كأنما بضع دقائق كفيلة بأن تغير من الامر !

وسار على أطراف قدميه عائدا الى مكانه ، وقد عبس وبدا كالمكروب ، وراح يحك قنطرة أنفه .. وقبل أن يخفت التصفيق — بعد المقطع الاول — سعى الى الموسيقيين ، وقال لتشكيفيتش انه مطلوب فى مسكنه ، وان ثمة طارئا يستوجب التوقف عن العزف . ثم التفت الى الحضور ، ورفع يديه ايذانا بالصمت ، ثم قال :

« سيداتى وسادتى .. أخشى أن نضطر الى بتر العزف الثلاثى ، فقد تلقى السيد تشكيفيتش نبأ سيئا ، وأنا لنعرب له عن عطفنا البالغ . وهو مضطر الى الانصراف ، وما كنت لادعه ينصرف وحده فى لحظة كهذه ، ومن ثم فسوف أذهب معه ، اذ أنه قد يحتاج الى معونة ما .. اذهب يا يورا فاطلب الى سيمون أن يحضر المركبة لدى الباب يا بنى .. لقد أعدها منذ برهة . ولن أقول وداعا ، سيداتى وسادتى ، بل أرجوكم أن تمكثوا جميعا ، فلن أغيب طويلا » .

وألح الشابان « يورا » و « ميشا » فى أن يرافقاه ، طمعا فى الاستمتاع بالانطلاق فى المركبة خلال الليل الجليدى !

— ٢١ —

• **بالرغم** من أن الحياة كانت قد عادت الى مجراها العادى — منذ شهر ديسمبر — فقد ظلت الطلقات تنبعث هنا وهناك ، وبعض الحرائق تندلع من آن الى آخر ، كما هى العادة دائما عندما تعود الاحوال الى أوضاعها ، وكأنما كانت بقايا حرائق ديسمبر تأتى على ذاتها .

ولم يكن الشابان قد نعما بمثل هذه النزهة الطويلة — فى المركبة — من قبل . وكان فندق «مونتنجرو» غير بعيد — فى الواقع — اذ كان فى نهاية طريق (سمولنسكى) ، لا يفصله عن دار آل جروميكو سوى شارع (نوفينسكى) ، ثم تعرج المركبة اليه عند منتصف شارع (سادوفايا) . ولكن الصقيع العاتى ، والضباب الطاغى ، غيرا

المسافات وباعدا بينها ، وكأنما لم يعد الفراغ كما كان العهد به فى الدنيا بأسرها . وكان دخان حرائق الشارع (١) القذر المتسخ ، ووقع الاقدام وهى تسحق الجليد ، وصهيل خيل الزحافات .. كل ذلك كان يساعد على الايحاء للشابين بأنهما كانا فى رحلة لا يعلم سوى الله مداها ، وبأنهما كانا فى طريقهما الى مكان سحيق، رهيب !

وأمام مدخل الفندق ، وقفت زحافة غير عريضة ، أنيقة المظهر، وقد اكتسى جوادها بغطاء سابغ ، وأحيطت ركبه بضمادات واقية ، وجلس الحوذى منحنيا على نفســه فى المقعد المخصص للراكب ، يحاول أن يبعث الدفء فى جسمه المقرور ، وقد دفن رأسه بين قفازيه الكبيرين .

وكان الدفء يشيع فى بهو الفندق ، حيث جلس الحارس يغفو وراء حاجز غرفة المعاطف .. وكان أزيز جهاز التهوية ، وزمجرة اللهب فى المدفأة ، وفوران الماء فى الآنية « السماور » ، قد خدرت أعصابه ، فلم يكن يوقظه من نعاسه سوى صوت غطيطه ، عندما كان يرتفع من آن الى آخر ! .. والى جوار المرآة القائمة الى يسار المدخل ، وقفت امرأة عريضة المنكبين ، ذات وجه أشبه بلقمة القاضى . وكان معطفها الفرائى أخف من أن يقيها وطأة الطقس . كانت فى انتظار شخص تتوقع أن يهبط بين آن وآخر ، وقد أولت المرآة ظهرها ، وراحت تنظر من فوق كتفيها لتتحقق من منظرها الخلفى .

ودلف الحوذى المقرور الى الداخل ، ومعطفه المنتفخ يبديه أشبه بفطيرة مرسومة على لافتة مخبز ، وقد ضاعف من الشبه ذلك البخار الذى كان ينبعث من طاقتى أنفه وفمه . وسأل المرأة الواقفة لدى المرآة : « **الى متى تستبقينني يا آنسة ؟ .. لست أدرى ما الذى جعلنى أعامل واحدة على شاكلتك .. اننى لا أحب أن يتجمد حصانى ويموت بردا ! »**

---

(١) كانت العادة أن توقد النيران على ناصيات الطرق فى الشتاء .

وكان الجزع قد ذهب بأهل الفندق كل مذهب ، فان الحادث الذى وقع فى الغرفة رقم (٢٣) كان ازعاجا جديدا زاد من متاعبهم(١) .. كانت الاجراس ترن فى كل دقيقة ، والارقام تقفز خلف زجاج اللوحة الطويلة المثبتة الى الجدار ، لتبين أى الغرف تلك التى كان نزيلها يقض راحة الخادم أو الوصيفة ..

وفى تلك اللحظة ، كان الطبيب يعطى مقيئا لتلك العجوز الحمقاء « جيشاروفا » (٢) ، ويغسل أمعاءها . وكانت ساقا « جلاشا » ـ الخادم ـ قد انهكهما طول الجرى ، ومسح أرض الغرفة ، ونقل دلاء مليئة بالاوساخ ، واحضار دلاء نظيفة .. ولكن العاصفة التى احتدمت فى غرفة الخدم ـ فى الوقت ذاته ـ كانت قد بدأت فى الواقع قبل هذه الجلبة بكثير .. قبل أن يوفد « تيراشكا » فى مركبة ليستدعى الطبيب وعازف الكمان التعس ، وقبل أن يصل كوماروفسكى ، وتزخر الردهة الممتدة أمام باب الحجرة رقم (٢٣) بكل هذا العدد من الناس .

لقد بدأت المتاعب بعد ظهر ذلك اليوم ، عندما اندفع شخص فى الردهة الضيقة المفضية من حجرة اعداد أدوات المائدة ، فاصطدم عفوا بالساقى « سيسوى » وهو مار وقد انحنت قامته تحت ثقل صحفة توازنت على يده اليمنى ، وهى مثقلة .. فهوت الصحفة الى الارض ، وأريق الحساء ، وتهشم طبقان للحساء وطبق للحم . وأصر « سيسوى » على أن العاملة الموكلة بغسل الاطباق هى التى كانت مسئولة عن الحادث ، ولا بد من أن تدفع التعويض . ومع أن الساعة كانت قد شارفت الحادية عشرة ، وآن لنصف مستخدمى الفندق أن ينصرفوا ـ اذ انتهت نوباتهم ـ الا أن الشجار ظل

---

(١) من العجيب أن الترجمة الفرنسية تذكر رقم الغرفة على انه (٢٤) .. فاذا رجعنا الى ما ورد فى صفحة ٧٧ من هذه الترجمة العربية من ان الغرفة رقم ٢٤ كان يشغلها العازف « تشكيفيتش » بصفة دائمة ، فمعنى هذا أن السيدة جيشار قد حاولت الانتحار فى غرفة العازف ، وليس فى غرفتها !

(٢) صيغة روسية ابتكرها خدم الفندق لاسم السيدة جيشار .

دائر الرحى :

ــ لقد أصبح مصابا بالرجفة ، لا يستطيع أن يستبقى يديه وقدميه دون ارتعاش .. كل همه أن يجلس الى زجاجة الشراب ، حتى لتحسبها زوجته .. انه يجف ويتيبس كالسمك المدخن ، ثم يتهم الناس بأنهم دفعوه وأراقوا الحساء وحطموا الاطباق ! .. فمن تراه قد دفعك أيها الشيطان .. أيها الحيوان الاستراخانى .. أيها المخلوق المجرد من الحياء ؟ !

ــ لقد انذرتك مرارا يا ماتريونا ستيبانوفنا بأن تتكلمى بأسلوب مهذب !

ــ ومن الذى أثار كل هذا الضجيج ؟ .. خبرنى ! ان المرء ليحسب أن صاحب هذا الضجيج يستحق أن تهشم الاطباق بسببه ! .. **ثم هناك تلك العاهر ، جوابة الطرق ، مدعية العظمة .. التى كانت تبيع نفسها بالبخس ، ثم قدر لها أن تتقاعد .. لقد أحسنت صنعا بنفسها ، اذ تجرعت الزرنيخ !** .. حقا ان السيدة التى تقيم فى «مونتنجرو» مرفهة ، لاتحتمل قطة تتلصص فى الردهة!

وكان « ميشا » و « يورا » يذرعان الردهة خارج غرفة السيدة جيشار .. كان كل شىء قد انجلى عن عكس ما كان « الكسندر الكسندروفيتش » يتوقع . فلقد حدس أن ثمة مأساة نظيفة ، كريمة ، قد حاقت بحياة الموسيقى عازف الكمان . أما الذى وقع فكان من أبشع الحوادث .. حادث قذر ، معيب ، فاضح ، لا يليق بالصغار أن يقفوا على أمره . ومن ثم فقد بقى الشابان فى الردهة ، ولكن الخادم جاءهما محاولا ــ للمرة الثانية ــ بصوته المتباطىء ، المعسول ، أن يغريهما بالجلاء عن الردهة : « ادخلا أيها السيدان الشابان ، فقد تحسنت حال السيدة .. أدخلا ولا تخشيا شيئا ، فالسيدة بخير ، ولا حاجة بكما الى أن تخافا .. لقد شفيت السيدة تماما . ثم انه ينبغى أن لا تقفا هنا ، فلقد وقع حادث فى الردهة ــ بعد ظهر اليوم ــ وتهشمت آنية من الخزف الثمين . اننا مضطرون الى الجرى من أول الردهة الى آخرها لنقدم الاطعمة ،

وهى ردهة ضيقة كما تريان .. أدخلا ! »

وانصاع الشابان .. وفى الحجرة ، كان المصباح البترولى الموقد ـ الذى كان يقام عادة فوق المنضدة ـ قد رفع عن مكانه ووضع خلف حاجز خشبى ، كان المخدع وراءه . وكان هذا المخدع مزركشا بالبق ، وتسدل عليه ستار مغبرة تخفيه عن الحجرة الرئيسية والردهة . على أن الستار كانت مزاحة اذ ذاك ، ولم يفكر أحد ـ فى غمرة الفوضى ـ فى أن يردها الى وضعها الصحيح . وكان المصباح موضوعا على مقعد منخفض ، وقد أرسل فى المخدع ضوءا باهرا انبعث من أسفل الى أعلى ، أشبه بضوء منصة المسرح .

وكانت السيدة جيشار قد حاولت أن تسم نفسها باليود ، وليس بالزرنيخ كما ظنت الخادم الموكلة بغسل الاطباق . فكانت تشيع فى الحجرة رائحة حادة نفاذة ، كعبير ثمار الجوز الخضراء عندما تكون قشرتها الخارجية لا تزال طرية يسود لونها للمسات الاصابع . وكانت الخادم تمسح الارض خلف الحاجز الخشبى ، أما على السرير فقد رقدت امرأة نصف عارية ، ابتل وجهها بالدموع ، والماء ، والعرق ، ولصق شعرها بجبينها .. وكانت تنحنى على دلو ، وهى ممسكة برأسها بين راحتيها ، وقد راحت تصرخ بصوت عال .

وأعرض الشابان عن المنظر لفورهما ، اذ شعرا بأن من المخجل والمعيب أن ينظرا الى السيدة ، ولكن « يورا » كان قد رأى ما يكفى لان يتبين أن المرأة فى بعض الاوضاع ـ التى تتخذها دون فطنة أو حذر ، وفى أوقات الاعياء والارهاق ـ لا تظل كما تصورها التماثيل وفن النحت ، بل تغدو أشبه بالمصارع ذى العضلات البارزة المنتفخة ، وقد تعرى اللهم الا من سرواله ، وتأهب للنزال !

* * *

وأخيرا ، فطن أحد الواقفين خلف الحاجز ، فأسدل الستار ، بينما راحت السيدة تقول :



– أين يدك ياعزيزى السيد تشكيفيتش ؟ .. هات يدك !

وكانت العبرات والغشيان تخنق صوتها . ومع ذلك فقد مضت تقول : « آه ، يا لها من أهوال تلك التى مررت بها ! .. وما أفظع الهواجس والشكوك التى انتابتنى .. يا سيد تشكيفيتش ! .. لقد خيل الى .. ولكن ، لحسن الحظ اتضح أنه كان مجرد وهم فارغ ، مجرد خيال مضطرب .. تصور مدى ارتياحى .. وتصور ما انتهى اليه الامر كله .. ها أنذى .. ها أنذى على قيد الحياة .. » .

– هدئى من روعك يا أماليا كارلوفنا .. أرجوك .. ياله من أمر محرج .. كل هذا .. انه لمحرج جدا والله !

وقال الكسندر الكسندروفيتش للشابين ، بصوت أجش : « لقد آن أن ننصرف! » . وكانا يقفان فى المدخل المفضى الى الردهة ، وقد اشتد بهما الارتباك ، فلم يعرفا الى أين يوجهان نظراتهما ، ومن ثم راحا يحملقان بنظرات ثابتة فيما أمامهما .. فى الحجرة الرئيسية ، التى رانت عليها ظلال عميقة .. وكانت ثمة صور معلقة الى الحائط ،

ورف للكتب زخر بـ « النوتات » الموسيقية ، ومكتب تراكمت عليه الصحف ومجلات الازياء . وخلف المائدة المستديرة - التى كسيت بغطاء مطرز بـ « الكروشيه » - **كانت ثمة فتاة غلبها النعاس فى مقعد وثير ذى مسندين ، وقد طوحت احدى ذراعيها حول ظهر المقعد ، واستندت بيدها الاخرى الى الحشية التى كانت تجلس فوقها** .. ولا بد انها كانت متعبة الى أقصى حد ، والا ما استطاعت أن تنام فى هذه الضجة وهذا الارتباك الحافل بالانفعال !

وعاد الكسندر الكسندروفيتش يقول للشابين : « لقد آن أن ننصرف ! » .. لم يكن ثمة داع لمجيئهم ، كما أن بقاءهم لفترة أخرى ، كان مجافيا للذوق ! .. واردف قائلا : « بمجرد أن يخرج السيد تشكيفيتش من وراء الحاجز ، يجب أن أودعه وننصرف ! »

ولكن تشكيفيتش لم يكن هو الذى نفذ من وراء الحاجز ، وانما خرج - بدلا منه - سيد عريض المنكبين ، معتد بنفسه . وسار - وهو يحمل المصباح فوق رأسه - الى المائدة ، فوضعه عليها ، فى المكان المخصص له أصلا . واذا الضوء يوقظ الفتاة ، فأجالت انسانى عينيها فى محجريهما ، وتمطت وهى تبتسم للرجل .

وأجفل « ميشا » حين رأى الرجل ، وراح يحملق فيه وكأنه لم يكن يقوى على أن يحول عينيه عنه . ثم جذب كم « يورا » ، وحاول أن يتحدث اليه همسا ، ولكن « يورا » أبى أن يجاريه ، بل قال : « لا يليق بك أن تهمس أمام الناس .. ما الذى يظنونه بك ؟ » . وفى تلك الاثناء ، كانت الفتاة والرجل يمثلان دورا صامتا ، فلم يتبادلا كلمة واحدة ، ولكن أعينهما تلاقت فى حديث خاص . على أن التفاهم بينهما كان يتسم بطابع رهيب ، وكأنه نوع من السحر الخبيث .. أو كأن الرجل كان صاحب مسرح للدمى (أراجوز) ، وكانت الفتاة دمية تتحرك وتنصاع لكل حركة أو اشارة تصدر منه !.. وكانت ثمة ابتسامة مرهقة تثقل عينيها وشفتيها المتباعدتين ، ولكنها لم تلبث - استجابة لنظرة طروب صدرت عنه - أن غمزت بعينيها فى مكر نم عن أمر بينهما .. كان كل منهما مغتبطا

بأن كل شيء قد انتهى نهاية طيبة .. وان سرهما كان بمأمن ، وان محاولة الانتحار ــ التى أقدمت عليها السيدة جيشار ــ قد انتهت الى الفشل !

وراح « يورا » يلتهمهما بعينيه .. ومضى يحملق فى دائرة الضوء ، من الركن المظلم الذى كان يقف فيه ، بقرب الباب .. **كان الموقف بين الفتاة الاسيرة ومولاها المسيطر عليها غامضا محيرا ، وصريحا مفضوحا ، فى آن واحد ، ودون ما تفسير !** .. وبدأت تتدافع فى فؤاد « يورا » مشاعر جديدة ، متضاربة ، ومؤلمة ! .. فأمامه كان عين الشيء الذى طالما تناقش فيه مع تونيا وميشا ، والذى استبعدوه عن أفكارهم بوصفه « مبتذلا » .. الشيء الذى كان سلطانه يفزعهم ويجتذبهم فى آن واحد ، والذى كانوا يخضعونه بسهولة لسلطانهم بأن يقفوا على مسافة مأمونة منه ، ولا يمسوه الا بالكلمات ! .. ولكن ، ها هى ذى هذه القوة تتجلى أمام ناظرى « يورا » حقيقة ثابتة ، ولكنها ــ مع ذلك ــ تتوارى خلف غلالة من حلم مدمر ، عات .. تتجلى مستيئسة ، وكأنها تشكو .. ترى أين ذهبت فلسفة «يورا» الضبيانية أمام هذا المنظر ، وما الذى كان مقدرا له أن يفعل ؟

واذ نفذوا الى الشارع ، سأله ميشا : « هل تعرف من هو هذا الرجل ؟ » .. ولكن «يورا» كان مستغرقا فى أفكاره ، فلم يجب !.. على أن ميشا استطرد يقول : « انه ذلك الذى أغرى أباك بالاقبال على الخمر ، وكان سببا فى موته ! .. انه المحامى الذى كان فى القطار معه .. لقد أنبأتك بذلك ، فهل تتذكر ؟ » . بيد أن يورا كان مستغرقا فى التفكير فى الفتاة ، وفى المستقبل .. وليس فى أبيه ، ولا فى الماضى ! .. ولم يفقه ــ فى البداية ــ ما كان « ميشا » يحدثه به .. ثم أن البرد كان أقسى من أن يحلو معه الكلام ، على أية حال.

وقال الكسندر الكسندروفيتش للحوذى ، اذ بلغا المركبة ، « **لا بد أنك قد تجمدت يا سيمون !** » .. ثم انطلقت بهم المركبة الى البيت .

الفصل الثالث

حفلة عيد الميلاد



« .. واذ مرت تونيا بـ « يورا » ، وهى ترقص مع شريكها المجهول ، ضغطت يد « يورا » وابتسمت ، وتركت منديلها بين أصابعه .. وكان المنديل يعبق بعبير يدها ، فراح يضغطه الى عينيه وشفتيه ، وقد تاه فى شذاه الرقيق .. وفى تلك اللحظة ، دوى طلق نارى خارج القائمة ! »

الفصـــل الثالث

حفلة عيد الميلاد

فى دار آل « سفنتيتسكى »

— ١ —

• فى شتاء عام من الاعوام ، أهدى «الكسندر الكسندروفيتش» لزوجته «آنا» صوانا أثريا ، كان قد ظفر به كصفقة موفقة . وكان الصوان مصنوعا من الابنوس ، وذا حجم هائل ، حتى انه لم ينفذ خلال الباب الا بعد تفكيكه ، فأدخل الى البيت على أجزاء . ثم كانت مشكلة المكان الذى يوضع فيه . اذ أنه لم يكن مناسبا لحجرات الاستقبال ، نظرا لطبيعة استخدامه ، كما أنه لم يكن ملائما لحجرات النوم ، نظرا لحجمه .. وانتهى الامر الى اخلاء جزء له من بهو الطابق الاعلى ، خارج حجرة نوم ربى الاسرة .

وجاء « ماركل » ــ العامل ــ لتركيب أجزائه ، فأحضر معه ابنته مارينكا ، وكانت فى السادسة من عمرها . وقدم بعضهم اليها قطعة من سكر الشعير ، فأمسكت بها بين أصابعها اللزجـة ، ووقفت تمتصها ، وهى ترقب أباها ، وأنفها يرسل صفيرا أجش .. ومضى كل شىء على ما يرام ــ فى البداية ــ فاذا الصوان يتخذ شكله شيئا فشيئا أمام عينى « آنا » . حتى اذا أوشك أن يكتمل ، ولم تبق سوى قمته لترفع الى مكانها ، خطر لآنا أن تساعد « ماركل » ، فوقفت داخل الصوان ، على القاعدة المرتفعة ، ولكن قدمها زلت ، فوقعت على أحد جوانب الصوان ، التى لم تكن قد أحكم تثبيتها بعد ، واذا بالحبل الذى أخاطه « ماركل » به يهبط وينفك .. وهوت « آنا » على الارض مع الالواح ، فى ضجيج عال ، فأصيبت بكدمات موجعة .

واندفع ماركل نحوها قائلا : **« أواه يا سيدتى ، يا مولاتى .. ما الذى جعلك تفعلين ذلك ، أيتها الغالية ؟ .. أرجو أن لا يكون**

قد أصاب العظام أى كسر. تحسسى عظامك !.. العظام هى المهمة ، أما الاجزاء الطرية فلا خوف عليها البتة .. ان الاجزاء الطرية تستعيد حالتها الطبيعية سريعا ، فهى – كما يقول المثل – مجرد كماليات ! » .. ثم التفت الى مارينكا صائحا : « لا تعولى أيتها اللعينة ! .. امسحى الافراز عن أنفك ، واذهبى الى أمك ! .. آه ياسيدتى ، اما كان بوسعك ان تركنى الى فى أن أقيم هذا الصوان بدون أن تتجشمى تعبا ما ؟ .. انك اذ تنظرين الى ، لا تظنين سوى اننى مجرد عامل بسيط ، ولكن صناعة الصوانات والخزانات هى حرفتى . لقد بدأت عملى كصانع صوانات . وما أظنك تتصورين كم من قطع الاثاث مرت بين يدى .. من صوانات ، و « بوفيهات » .. « لاكيه » ، ومن خشب الجوز ، أو خشب المهوجنى .. على سبيل المثال لا الحصر . لقد ضاع كل هذا ، فى الواقع .. وكانت الخمر هى السبب .. المشروبات الروحية القوية يا سيدتى ! »

وأحضر « ماركل » مقعدا ذا مسندين ، تهالكت فيه « آنا » بمساعدته ، وراحت تتوجع وتدلك كدماتها . ثم انهمك فى اعادة تركيب الصوان . حتى اذا وضع الرأس مكانه ، قال : « بقى أن يوضع البابان فى مكانيهما ، ويصبح صالحا لان يعرض على الناس ! »

ولم تحب « آنا » الصوان ، اذ كان شكله وحجمه يذكرانها بالضريح ، أو بمقبرة ملكية ، فيملأ نفسها بتشاؤم مقيت . ومن ثم أطلقت عليه اسم « مقبرة آسكولد » (١) ، وان كانت ترمى الى جواد الامير « أوليج » الذى تسبب فى موت صاحبه (٢) . فان عدم عنايتها بما تقرأ كان يجعلها تخلط بين الافكار خلطا عجيبا .

وأصبحت « آنا » – بعد هذا الحادث – تشكو ضعفا رئويا .

---

(١) كان اسكولد أحد مؤسسى الدولة الروسية ، وكانت (كييف) مقر حكمه ، وقد دفن فيها بعد موته .

(٢) الأمير أوليج حاكم آخر من حكام (كييف) ، قتله ثعبان انساب من جمجمة جواده الذى كان مشغوفا به .

— ٢ —

• **وقفت** « آنا » طيلة شهر نوفمبر من عام ١٩١١ فى الفراش ، من جراء التهابات فى الرئتين . وكان « يورا » و « ميشا جوردون » و « تونيا » فى طريقهم الى التخرج فى الربيع التالى : يورا فى الطب ، وتونيا فى القانون ، وميشا فى الفلسفة .

وكان كل شيء مختلطا في ذهن يورا ، فى ارتباك وعدم انتظام .. كما كان كل شيء ينطبع — الى درجة كبيرة — بطابعه الخاص : سواء أفكاره ، أو عاداته ، أو ميوله .. كان ذا تأثير خارق، وكانت نضارة بصيرته وطرافتها تستلفتان الانتباه . ومع أنه كان ميالا الى الفن والتاريخ الى درجة كبيرة ، الا انه نادرا ما تردد ازاء اختيار مهنته . **اذ كان يعتبر أن الفن لا يمكن أن يكون مهنة ، اللهم الا اذا كان من الممكن للفرح أو الحزن أن يكون مهنة !** .. كما كان يهتم بالعلوم الطبيعية والبدنية ، ويؤمن بأن على المرء أن يمارس عملا نافعا فى حياته العملية ، ومن ثم اتجه الى الطب .

ولقد قضى فصلا دراسيا — فى العام الاول من أعوام دراسته الاربعة — فى قاعة التشريح ، وكانت فى الطابق الارضى من مبنى الجامعة ، غائرة تحت مستوى الارض ، تهبط اليها بسلم حلزونى . وكانت تزخر دائما بالطلبة المشعثى الهيئة : بعضهم عاكفون على الدراسة — وامامهم كتبهم تحيط بها العظام — أو منصرفون الى التشريح فى هدوء ، كل فى ركنه المختار .. وبعضهم يتسكعون فى القاعة ، يطلقون النكات ، ويطاردون الفئران التى كانت تجرى فى أسراب على الارض الحجرية ! .. وكانت الجثث العارية — جثث الغريقات والمنتحرات المجهولات الهوية — تومض كالفسفور فى عتمة المشرحة . وكانت حقن املاح الشب تجددها ، وتبعث فيها استدارة خداعة .. فكانت الجثث تشق ، وتقطع أوصالها ، ومع ذلك فان الجسم الانسانى كان يظل محتفظا بجماله فى أدق أجزائه .. ومن ثم فان « يورا » كان يشعر اذ يحدق فى ذراع أو كف مبتورة من جسم

فتاة ، بعين ما كان يشعر به حين يتأمل هـذا الجسم وهو ملقى بوحشية على احدى الموائد الحديدية . وكان جو المكان ممتلئا بروائح حامض الفنيك و « الفورمالين » ، مشحونا بالاسرار الغامضة .. **أسرار الحياة المجهولة لتلك الاجسام العارية الميتة .. أسرار الحياة والموت ذاتهما ! .. كان الموت مألوفا فى تلك القاعة الغائرة تحت الارض ، حتى لكأنها كانت بيته أو مقر عمله ! !**

وكان صوت هـذه الاسرار الغامضة يطغى على كل ما عداه ، ويشغل بال « يورا » أثناء انهماكه فى التشريح . على أن كثيرا من الاشياء فى الحياة كانت تشغله .. وقد ألفها فلم تكن تصرفه عن العمل !

وكان « يورا » يحسن التفكير ، كما يجيد الكتابة . وكان يحلم — منذ أيام التلمذة الاولى — بأن يؤلف كتابا نثريا .. كتابا عن انطباعات الحياة ، يدس خلاله أغرب ما رآه أو خطر له — فيما انقضى من عمره — كما تدس أصابع الديناميت !.. على أنه كان أصغر سنا من أن يضع ذلك الكتاب ، فألف — بدلا منه — ديوانا شعريا . لقد كان أشبه بالرسام الذى يقضى عمره فى رسوم جزئية يؤلف منها — فى ذهنه — صورة كبيرة . **ولقد حملته قوة أشعاره وطرافتها على أن يغفر لنفسه ما كانت هذه الاشعار تنطوى عليه من خطيئة ، اذ كان يؤمن بأن القوة والجدة وحدهما خليقتان بأن تكسبا العمل الفنى واقعية، وان الفن بدونهما عديم النفع، زائف، ومضيعة للوقت !**

ولقد تبين «يورا» مدى ما ساهم به خاله فى تكوين شخصيته . وكان « نيكولاى نيكولاييفيتش » يقيم — اذ ذاك — فى (لوزان) ، حيث نشرت عدة كتب له باللغة الروسية وغيرها من اللغات . وقد عالج فى هـذه الكتب آراءه فى التاريخ ككون قائم بذاته .. كون شيده الانسان بمعونة الزمن والذاكرة ، كرد على الموت المسلط على عنقه . واذ كانت هذه الآراء مستمدة من فهم جديد للمسيحية ، فانها أدت الى اتجاه جديد فى الفن .

ولقد كان « ميشا » أكثر تأثرا بهذه الآراء من « يورا » ، وكان سلطانها عليه هو الذى حدا به الى أن يتخذ الفلسفة موضوعا

لدراسته ، كما كان يحضر درس اللاهوت ، بل ويفكر فى أن يتحول - فيما بعد - الى كلية فقه الدين . وهكذا كان « يورا » يرقى تحت تأثير نظريات خاله ، التى حررته ، بقدر ما قيدت ميشا بالاغلال . وكان « يورا » يدرك أن أصل « ميشا » العنصرى كان يحدث رد فعل يغريه بالتطرف فى آرائه .. بيد انه كان من الحكمة بحيث لم يحاول ان يصارحه بغرابة افكاره ومشروعاته ، وان كان يتمنى - فى بعض الاحيان - لو أن « ميشا » كان أكثر قربى الى الحياة ، وأكثر ميلا الى التجربة فيها !

— ٣ —

• وفى امسية يوم من الايام الاخيرة من شهر نوفمبر ، عاد يورا من الجامعة الى البيت متأخرا ، متعبا ، لم يتبلغ بشىء طيلة يومه . وقيل له ان أهل البيت قد تعرضوا لذعر فظيع فى ذلك اليوم ، اذ أصيبت « آنا » بتشنجات ، وقد عادها عدة أطباء ، ونصحوا الكسندر الكسندروفيتش بأن يستدعى القس ، ولكنهم لم يلبثوا أن رجعوا عن رأيهم هذا .. وكانت « آنا » - حين عاد يورا - قد تحسنت ، وأمرت بأن يرسلوه اليها بمجرد وصوله . ومن ثم فانه بادر بالذهاب اليها .

وكانت فى الحجرة آثار الارتباك الذى حدث ، وقد انهمكت ممرضة فى اعداد شىء ما على منضدة بجوار الفراش ، فى هدوء . وكانت المناشف التى استخدمت لعمل « الكمادات » ملقاة فى كل مكان ، وهى مبتلة ومتسخة . وكان الماء - فى حوض النفايات - ورديا من جراء الدم الذى انساب مع البصاق ، وقد سبحت على سطحه أنابيب المصل وقطع من القطن الطبى .. أما « آنا » فكانت مغرقة فى العرق ، وقد جفت شفتاها وتشققتا ، وشحب وجهها وهزل عما كان عليه فى الصباح .

وساءل يورا نفسه : « ترى هل كان التشخيص خطأ ؟ .. ان لديها كافة أعراض داء الرئة ، ويبدو أنها تعانى أزمة ! » .. وبعد

أن حياها ، قائلا كل ما يمكن أن يقال - فى مثل هذه المناسبات - على سبيل التشجيع ، أقصى المرضة عن الحجرة ، وأمسك برسغ « آنا » وراح يجس نبضها . ثم مد يده الى جيب معطفه ليخرج مسماعه ، ولكنها حركت رأسها ، وكأنها تقول له : « لا جدوى ! .. فيم تتعب نفسك ؟ » . وأدرك أنها كانت تبغى منه شيئا آخر . وقالت فى عناء : « **لقد تلوا .. الطقوس الاخيرة .. الموت مسلط فوق رأسى .. فى أية لحظة .. انك حين تضطر الى نزع احدى أسنانك ، تشعر بخوف من أن تؤلمك ، وتهيىء نفسك .. ولكن هذه ليست سنا .. انها كلك .. كل حياتك ، تنتزع منك** .. وما معنى هذا ؟ .. لا أحد يدرى .. أن قلبى مثقل ، واننى لفى ذعر ! » . ولاذت بالصمت . وانهمرت الدموع مدرارة على وجنتيها ، فلم يقل يورا شيئا .

وعادت آنا بعد لحظة تقول : « انك ماهر ، موهوب .. وهذا يجعلك على غير شاكلة الآخرين .. فقل لى شيئا .. أرح بالى! » . فأجاب يورا : « حسنا ، ماذا عساى قائلا ؟ » . وتململ فى مقعده ، ثم نهض وراح يسير فى الحجرة ذهابا وايابا . وما لبث أن قال : « أولا ، لسوف تشعرين بتحسن فى الغد .. اننى أرى البشائر ، وأؤكد لك ذلك .. أما عن الموت ، فهو يقظة الوعى ، وهو البعث .. أفتريدين أن تعرفى رأيى من الناحية العلمية ؟ .. أما ترين ان نرجئه الى وقت آخر ؟ .. لا ؟ فورا ؟ .. حسنا ، لك ماتشاءين . ولكنك تعرفين أن من العسير صوغه فى كلمات على الفور » . ثم شرع فى الحديث ، فاذا به يلقى محاضرة مستفيضة ، أذهلته هو نفسه :

« البعث ! .. ان الشكل غير المصقول ، الذى تصور به الفكرة للتسرية عن الضعيف ، لا يروق لى . **لقد اعتدت أن أفهم دائما كلمات المسيح عن الحياة والموت على نحو آخر .. أين يمكن توفير الفراغ لكل هذه الجحافل من الناس ، المتجمعة فى آلاف السنين ؟** ان الكون ليس من الكبر بحيث يتسع لهم ، ولسوف يضيق الله

والخير والعقل بكل هذه الجحافل المتزاحمة فى تدافع حيوانى !

« ولكن الحياة تظل هى هى ، طيلة الوقت ، ودائما محتفظة بطابعها بطريقة لا يدرك أحد كنهها ، مالئة الكون ، متجددة فى كل لحظة فى أشكال ، وتركيبات ، وتحولات لا حصر لها .. ولعل القلق يراودك اذ تتساءلين عما اذا كنت ستقومين من الموت أو لا تقومين ، ولكنك قد قمت من قبل فعلا .. قمت من الموت عندما ولدت ، ولكنك لم تفطنى الى ذلك .. واذ تتساءلين عما اذا كنت ستشعرين بألم ، ولكن : هل تشعر الانسجة بتحللها ؟ .. وبمعنى آخر ، ما الذى سيجرى لوعيك ؟ .. ولكن ، ما هو الوعى أولا ؟.. ان محاولتك النوم ــ ووعيك يحس بهذه المحاولة ــ لهى الطريقة المؤكدة للارق والسهاد .. كما ان محاولة الوعى بعملية الهضم وهى تجرى ، لهى الطريقة المثلى لاشاعة الاضطراب فى المعدة .. **فالوعى سم حين نحاول أن نطبقه على انفسنا ! .. او هو شعاع من نور ينبعث من أعماقنا الى الخارج ، فيضىء الطريق أمامنا حتى لا نتعثر .. انه أشبه بالمصباح الكشاف المثبت فى صدر القاطرة ، فاذا أنت حولت شعاعه الى الداخل ، كان وقوع الكارثة محققا !**

« واذن ، فما الذى سيجرى لوعيك ؟ .. وعيك أنت ، لا وعى أحد سواك ؟ ولكن ماذا أنت ؟ .. هذه هى ذروة المعميات ، فلنحاول أن نكتشفها .. ماهو الشىء الذى فيك ، والذى كنت تعرفينه طول عمرك بأنه أنت ؟ .. ما الذى تعينه عن نفسك ؟ .. كليتاك ، أم كبدك ، أم أوعيتك الدموية ؟ .. لا . فمهما تعودى الى الوراء منقبة فى ذاكرتك ، فلن تصادفى ماهيتك وكنهك الا فى ظاهرة خارجية ، فعالة ، نشيطة على الدوام .. فى عمل يديك ، فى أسرتك ، فى أهلك ! .. والآن ، هل رأيت ؟ انك أنت ــ نفسك ــ فى الغير ! .. هكذا أنت . هذا ماكان وعيك يستنشقه ويعيش عليه طيلة عمرك .. انه نفسك ، خلودك ، حياتك فى سواك ! . وبعد ؟.. لقد كنت دائما فى الغير ، وستبقين دواما فى الغير . فماذا يعنيك اذا سمى ذلك ــ فيما بعد ــ ذكراك ؟ .. انه سيكون أنت

.. الـ « أنت » التى ستدخل المستقبل وتصبح جزءا منه !

« بقيت نقطة أخيرة : ليس ثمة داع لان تقلقى أو تهتمى ، فليس هناك موت .. ان الموت ليس وظيفتنا . ولقد ذكرت الموهبة .. وهذه أمرها يختلف ، لانها ملك أيدينا .. رهن ارادتنا ! .. وان تكونى موهوبة بأوسع وأسمى المعانى ، معناه أن تكونى موهوبة للحياة !

« لن يكون ثمة موت ، هكذا يقول القديس يوحنا ، فتأملى بساطة حجته : لن يكون ثمة موت ، لان الماضى قد انتهى .. انه أشبه بأن تقولى انه لن يكون ثمة موت ، لان الموت قد ولى فعلا ، فهو عتيق وقد سئمناه .. ان الذى نحتاج اليه هو شىء جديد ، وهذا الشىء الجديد هو الحياة الابدية ! »

وكان يروح ويغدو ، وهو يتكلم . ثم دنا من السرير ، ووضع يده على جبين « آنا » قائلا : « .. فنامى ! » . وبعد لحظات ، بدأت تستسلم للنعاس فعلا . فغادر « يورا » الحجرة فى هدوء ، وطلب الى « يوجوروفنا » ان تستدعى الممرضة لتلازم المريضة . وأخذ يقول فى نفسه : **« ياللشيطان ! .. اى مهرج اوشك أن أغدو ! .. أتلو تعاويذ ، وامسح بيدى على الجبين .. »**

وفى اليوم التالى ، كانت « آنا » أحسن حالا !

— ٤ —

• **وواصلت** « آنا » تحسنها ، فما ان انتصف شهر ديسمبر حتى حاولت أن تنهض ، ولكنها كانت بالغة الضعف . ونصحها الاطباء بأن تلزم الفراش وتنعم بأكبر قسط من الراحة .

وكثيرا ماكانت ترسل فى طلب يورا وتونيا ، فتروح تحدثهما ساعة بأكملها عن طفولتها فى جبال (اورال) . فلقد نشأت فى ضيعة أبيها (فاريكينو) ، على نهر (رينفا) . ولم يكن يورا ، ولا تونيا ، قد ذهبا الى تلك الضيعة ، ولكن يورا كان يتمثل فى خياله بسهولة — وهو ينصت اليها — تلك الافدنة الاثنى عشر ألفا من الغابات البكر

الكثيفة ، المظلمة كالليل ، والجدول يخترقها مندفعا فى تعرج ، خلال مجراه الصخرى .

ولاول مرة فى حياتهما ، حظى يورا وتونيا بثياب للسهرة ، صنعت لهما خصيصا . فحصل يورا على بزة رسمية ، وحصلت تونيا على ثوب للسهرة من « الساتان » ، انحسر قليلا عن عنقها . وكانا يزمعان أن يرتدياهما — لاول مرة — فى حفلة عيد الميلاد التقليدية لدى آل « سفنتيتسكى » فى السابع والعشرين من الشهر . وقد وصلت بزة يورا وثوب تونيا فى يوم واحد ، فارتدياهما على سبيل التجربة ، وطربا ، ولم يحاولا أن يخلعاهما عندما ارسلت « آنا » تستدعيهما .. حتى اذا دخلا عليها ، نهضت معتمدة على مرفقها ، وتأملتهما ، وسألتهما أن يستديرا ، ثم قالت : « بديع جدا .. جميل جدا !.. ماتصورت أنهما سيكونان معدين فى الموعد. دعينى أتأملك فى الثوب مرة أخرى ياتونيا . كنت أظن ان الياقة ستكون منتفخة من الخلف . أتعرفان لماذا دعوتكما ؟.. ولكنى أحب أن أقول لك كلمة يايورا ، اولا ! »

— أعرف مالديك يا آنا ايفانوفنا .. أعرف انك رأيت الخطاب ، فقد بعثت به اليك بنفسى ، وأدرك انك توافقين « نيكولاى نيكولايفيتش » فى الرأى . فكلاكما تريان انه ماكان ينبغى أن أرفض الوصية ، ولكن .. مهلا ، لحظة واحدة ! من المضر بك أن تتكلمى ، فدعينى أشرح لك كل شىء .. وان كنت تعرفين الشطر الاكبر منه .. لابأس ، اليك رأيى . أولا : يروق للمحامين ان تكون هناك قضية ذات ضجيج .. « قضية جيفاجو » ، لان فى ضيعة أبى من المال مايكفى لان يسد النفقات ويوفيهم أتعابهم . وفيما عدا ذلك ، لاتجدين ثمة تركة البتة .. لاشىء هناك سوى الديون والارتباكات .. وكثير من القاذورات التى لايحسن غسلها أمام الملأ ! .. ولو كان ثمة مايمكن أن يدر نقودا ، أفتظنين اننى كنت أقدمه للمحكمة هدية ، ولا أفيد منه ؟ .. ولكن الامر كله هو أن القضية مجرد شعوذة !.. لذلك فقد كان من الخير أن أرفض ثروة لاوجود لها ،

حتى لا أكشف عن الاوساخ ، وأن ادعها لثلة من المتزاحمين المتكالبين والمدعين الزائفين ، كما هي حقيقتهم برغم كل شيء ! .. ان من المطالبين بها ــ كما تعلمين ــ سيدة تدعى « اليس » ، تنسب نفسها الى « جيفاجو » ، وتعيش مع أطفالها في باريس .. لقد علمت بأمرها منذ أمد طويل . على ان ثمة أدعياء جددا عديدين ، لست أعرفهم ، ولكني نبئت بهم منذ عهد قريب .. **ويبدو أن أبي شغف أثناء حياة أمي بأميرة غريبة الاطوار والنزوات تدعى « ستولبونوف انريتسي » ، وقد أنجبت هذه السيدة طفلا منه يدعى ايفجراف ، في العاشرة من عمره** .. لقد اعتزلت الاميرة المجتمع ، وهي تعيش اليوم في دار خارج أطراف (اومسك) ، لاتبرحها اطلاقا . ولا يعرف أحد مورد دخلها .. ولقد رأيت صورة للبيت ، فاذا به جميل ، ذو خمس نوافذ طويلة على النمط الفرنسي (١) ، تعلو حافتها العليا نقوش مرمرية .. وقد ظللت ــ في الفترة الاخيرة ــ أخال أن البيت يحدجني بنظرات محرجة تنبعث من النوافذ الخمس ، وتجتاز آلاف الاميال التي بين (الاورال) و (موسكو) ، وانه لن يلبث أن يحيق بي شر من وراء ذلك . فماذا ابغي من كل هذا ؟.. مال وهمي ، مطالبون زائفون ، وشر ، وحسد .. ثم محامون ! فهل هذا ما أبغيه ؟ »

فقالت آنا : « مهما يكن الامر ، فما كان ينبغي أن ترفضه » . ثم تساءلت فجأة ، وهي تعود بهما الى حيث وقف بها الحديث في اليوم السابق (٢) : « أفتعرفان لماذا دعوتكما ؟.. لقد تذكرت اسمه .. أتذكران حارس الغابة الذي كنت أحدثكما عنه بالامس ؟ .. انه يدعى « باكوس » . اسم غريب ، أليس كذلك ؟ .. رجل مخيف حقا ، أسود كالشيطان ، ذو لحية تتصل بحاجبيه ، ويدعو نفسه « باكوس » ! .. وكانت بوجهه ندوب ، اذ هاجمه دب ، ولكنه

---

(١) أبواب كأبواب الشرفات ، ولكنها لا تفضي الى شرفات ، وانما الى حديقة الدار .

(٢) حين حدثتهما عن طفولتها في ضيعة ابيها

استطاع أن يصده ويقاومه .. وكلهم هناك على هذه الشاكلة .. أسماء مؤلفة من مقطعين ، ملفوفة ، ذات رنين : باكوس ، لوبوس ، فاوستوس ! .. ومن آن لآخر ، كان الخدم يعلنون مقدم شخص على هذه الشاكلة .. ربما كان « أوكتوس » .. شخصا ذا اسم أشبه بطلق من بندقية جدك ذات الفوهتين ! .. وكنا نهبط في الحال ، في صف متتابع ، من غرفة الأطفال الى المطبخ . وهناك .. ماكان بوسعك أن تحدس ماقد يكون عليه الموقف ، أو أن تحدس من الذى قد تجده هناك .. فقد يكون القادم تاجر. فحم يحمل جرو دب ، أو أحد المنقبين عن الحديد من الطرف الاقصى للضيعة ، وقد جاء بقطعة من المعدن الغفل .. وكان جدك يدعوهم دائما الى المكتب ، فيصيب بعضهم مالا ، وبعضهم حنطة سوداء ، وبعضهم قذائف من « الخرطوش » . وكانت الغابة تمتد حتى النوافذ . والجليد .. الجليد ! كان أكثر ارتفاعا من السقوف ! »

وشرعت آنا فى السعال ، فأهابت بها تونيا ويورا : « كفى حديثا، فان هذا يضر بك ! »

ــ هراء ، فانما أنا بخير تماما . وبهذه المناسبة ، لقد أخبرتني « يوجوروفنا » بأنكما كنتما غير مرتاحين الى الذهاب الى تلك الحفلة التى ستقام بعد غد ، ولست أحب أن أسمع مثل هذا السخف مرة أخرى .. يجب ان تخجلا من نفسيكما ! .. افتسمى نفسك « دكتور » يايورا ؟! .. اذن ، انتهينا من هذا الامر ، وسوف تذهبان ، وكفى ! .. والآن ، لنعد الى « باكوس » .. لقد كان فى صباه حدادا ، وقد زج بنفسه مرة فى شجار ، فأتلف جوفه . فصنع لنفسه أمعاء من حديد .. على رسلك يايورا ، لاتكن غبيا ، فاننى أدرك ــ طبعا ــ ان هذا لم يكن صحيحا ، واننا يجب أن لا تصدق كل كلمة يقولها .. على انه اعتاد أن يقول للناس ذلك ! »

وقطعت عليها الحديث نوبة أخرى من السعال ، أطول من سابقتها بكثير ، فظلت تسعل وتسعل دون أن تقوى على التقاط أنفاسها . وأسرع اليها يورا وتونيا ، فوقفا كتفا الى كتف بجوار سريرها .. وتلامست يداهما . وأمسكت « آنا » باليدين فى راحتها ، وهى

لاتزال تسعل ، واستبقتهما متشابكتين لحظة . حتى اذا استطاعت أن تتكلم ، قالت : **« اذا قدر لى أن أموت ، فابقيا معا . لقد خلق كل منكما للآخر ، فتزوجا ! » . وارتفع صوتها ، وهى تردف : « ها قد خطبت كلا منكما للآخر ! » . ثم انخرطت فى البكاء .**

— ٥ —

• فى حوالى ربيع سنة ١٩٠٦ ـ قبل أن تبلغ « لارا » الفصل الاخير فى مدرستها ـ كانت الاشهر الستة التى قضتها على اتصال بكوماروفسكى قد ذهبت بكل مالديها من طاقة على الاحتمال . فقد كان داهية فى استغلال بؤسها ، وكان يذكرها ـ عندما يحلو له ـ بعارها ، دون أن يبدو عليه أنه كان يتعمد ذلك . وكانت هذه التلميحات تهوى بها الى الارتباك والحيرة اللذين يحتاج أى فاجر الى أن يلقى بامرأة اليهما ، ليتركها عاجزة عن أن تقاوم كابوسا من الشهوانية لاتستيقظ منه الا لتستسلم الى الخوف والفزع .. كان العالم المختبل المتناقض الذى راحت « لارا » تعيش فيه لياليها ، عالما غامضا ، مبهما ، كأنه سحر خبيث أسود .. كان كل شىء فيه مقلوبا رأسا على عقب ، وعلى نقيض كل منطق . فكان الالم الحاد يعلن عن نفسه بسيل من الضحكات الرنانة ، وكانت المقاومة والصد يعنيان الخضوع والانصياع ، والقبلات التى تغرق يد الرجل الذى كان مصدر كل عذاب !

وكأنما لم تكن ثمة نهاية لكل هذا . ولكن حدث فى ذلك الربيع أن « لارا » ، وهى تجلس فى درس التاريخ شاردة الذهن ، تفكر فى العطلة الدراسية التى كانت تقترب ، وفى ان المدرسة والبيت لن يعودا يقفان بينها وبين كوماروفسكى .. اذا بها تهتدى ـ فجأة ـ الى قرار بدل مجرى حياتها بأسرها ! .. كان اليوم حارا ، وفى الجو نذر عاصفة تتأهب . ومن خلال نوافذ حجرة الدرس ، كان ضجيج المدينة ينساب مقبلا من بعد كأنه طنين رتيب كطنين خلية من خلايا النحل ، تتخلله صرخات أطفال يلعبون فى الساحة الخارجية ..



وعبير الارض المعشوشبة وأوراق الشجر الحديثة النبت يهفو برأسها كما تهفو رائحة فطائر عيد الصوم الكبير و «الفودكا» برأس الصائم!

وكان الدرس عن حملة نابليون على (مصر) . فلما وصل المدرس الى معركة « فريجوس » (١) ، اسودت السماء ، وانبثق البرق ، وقصف الرعد ، واندفعت الى الحجرة سحب من الغبار والرمل ، وفى أعقابها عبير المطر . واندفعت فتاتان — ممن اعتدن مداهنة المدرسين — الى خارج الحجرة لتناديا خادما يغلق النوافذ . فلما فتحتا الباب ، أطارت الريح ورق النشاف عن الادراج جميعا .. وما لبثت النوافذ أن أغلقت . ثم انهمر المطر مدرارا ، محملا بالغبار .

---

(١) فريجوس Fréjus : بلدة فى جنوبى شرقى فرنسا ، بالقرب من البحر الابيض المتوسط ، ولعل اتصالها بالحملة الفرنسية انها كانت من نقاط التقاء الاسطول الفرنسى بالاسطول الانجليزى الذى كان يراقبه .

ومزقت « لارا » ورقة من كراستها ، وكتبت فيها لجارتها ناديا كولوجريفوف : **« ناديا ، انني أريد أن أعيش بعيدا عن امى . ساعديني في الحصول على عمل كمعلمة ، بأفضل أجر ممكن ، فأنت تعرفين كثيرا من الاغنياء »** .

وكتبت ناديا الرد قائلة : « ان أبى وأمى يبحثان عن مربية لاختى ليبا ، فلماذا لا تأتين للاقامة معنا ؟ .. انها لفكرة بديعة ، فأنت تعرفين مدى ولعهما بك » .

— ٦ —

وقضت « لارا » ثلاث سنوات لدى آل كولوجريفوف ، آمنة مطمئنة ، وكأنها فى معقل حصين . فما ضايقها أحد ، بل ان أمها وأخاها — اللذين قطعت ماببنها وبينهما من وشائج — ابتعدا عن طريقها .

وكان كولوجريفوف رجل أعمال من طراز جديد ، شديدالذكاء . وكان يزدرى النظام المتداعى ويكرهه كراهية مضاعفة ، بوصفه غنيا أوتى أكثر مما فى خزانة الدولة ، وبوصفه شخصا ارتفع من أدنى أصل الى مكانة خيالية . فكان يأوى المجرمين السياسيين فى داره ، ويوكل المحامين للدفاع عنهم . وقيل عنه — على سبيل المزاح — انه كان يعين الثورة ماليا ، وكان يجرد نفسه من ثرائه بأن يثير الاضرابات فى مصنعه ! .. ولما كان مغرما بالرماية ، ومن أمهر الرماة ، فانه كان يقضى أيام الاحد — طيلة شتاء سنة ١٩٠٥ — فى غابة (سيربريانى) يدرب دعاة القلاقل على اطلاق البنادق .

وكانت زوجته « سيرافيما » ذات شخصية رائعة ، من نوع جديد — هى الاخرى — كزوجها . وقد تعلقت بهما « لارا » ، كما أحبها أهل البيت كله ، من أعماق قلوبهم .

وبعد ثلاث سنوات من هذه الحياة الخالية من الهموم ، تلقت « لارا » زيارة من أخيها « روديا » ، الذى أقبل لمقابلتها فى مسألة تهمه . وراح يتأرجح على ساقيه الطويلتين ، الى أمام والى خلف ،

فى أسى .. ولكى يضاعف من تأثرها لحاله ، أخذ يتكلم من أنفه ، فأخبرها أن زملاءه فى سنته الدراسية بالاكاديمية الحربية جمعوا فيما بينهم مبلغا ليبتاعوا هدية وداع لناظر الاكاديمية ، وعهدوا بهذا المبلغ اليه ، موكلين اليه اختيار الهدية وابتياعها . فما كان منه الا أن قامر بالمبلغ فخسره — قبل يومين — الى آخر « كوبيك » منه ! ..واذ أخبر « لارا » بكل هذا ، ارتمى فى أحد المقاعد ، وأجهش بالبكاء .

وجمدت أطراف لارا استنكارا واشمئزازا . واستطرد روديا قائلا خلال نشيجه : « لقد ذهبت ليلة أمس لمقابلة السيد كوماروفسكى ، فرفض أن ينصت الى ، **ولكنه قال انك اذا كنت ترغبين فى العودة اليه ، فان سلطانك عليه لايزال قويا جدا ، رغم انك قد كففت عن حبنا ! .. لارا ، يا حبيبتى .. كلمة منك تكفى** .. انك لتدركين أثر هذا الامر بالنسبة لى ، وما فيه من عار يلطخ شرفى كطالب عسكرى .. اذهبى اليه ، مهما يكلفك هذا .. ما أحسبك تحبين أن يصيب حياتى .. »

فقاطعته فى استنكار وهى تذرع الحجرة : « حياتك .. شرفك كطالب عسكرى !.. وبما اننى لست طالبة عسكرية، فليس لى شرف، ولكما أن تفعلا بى ما تشاءان ! .. أو تدرك معنى ماتطلبه منى ؟.. أو تفطن الى مايحملك على أن تفعله ؟ .. اننى أجهد واعمل كالجارية — بعيدا عنكم — سنة بعد سنة ، فاذا بك تأتى ، وتجلس أمامى ، دون أن تحفل بما اذا كان كل مابنيت يذهب بددا ، ويطير مع الرياح . الا اذهب الى الجحيم ! .. اذهب فاقتل نفسك . ففيم يعنينى هذا ؟.. كم تريد ؟ »

فقال « ستمائة روبل وأكثر .. » . ثم اردف بعد قليل من التردد : « بل سبعمائة روبل تماما ! »

— لابد انك مجنون ياروديا ! .. هل تعى ماتقول حقا ؟ .. أحقا قامرت بسبعمائة روبل وأضعتها ؟ .. أتدرك كم من الزمن يحتاج اليه شخص مثلك كى يكسب مبلغا كهذا بعمل شريف ؟

وأعرضت عنه محنقة . ثم قالت ببرود ــ بعد برهة ــ وكأنها تخاطب شخصا غريبا عنها : « لابأس ، سأحاول . تعال غدا . وأحضر معك مسدسك .. المسدس الذى كنت تعتزم أن تقتل به نفسك . لسوف تسلمنيه ، ومعه كمية كافية من الرصاص .. تذكر هذا ! »

وحصلت له على النقود من .. كولوجريفوف .. مخدومها !

— ٧ —

• لم يحل العمل لدى آل كولوجريفوف دون أن تتم « لارا » دراستها فى المدرسة ، وأن تبدأ دراسة جامعية ، مضت فيها موفقة ، وكان من المقرر أن تتخرج فى العام التالى .. سنة ١٩١٢ . وكانت تلميذتها « ليبا » قد أتمت دراستها فى ربيع سنة ١٩١١ ، وخطبت الى مهندس يدعى « فرايسندانك » . وكان شابا ميسور الحال ، من أسرة طيبة . ولقد وافق أبواها على خطبتها ، ولكنهما عارضا زواجها فى مثل تلك السن المبكرة . فأقامت «ليبا» ــ مدللة الاسرة وحبيبتها العنيدة ــ الدنيا وأقعدتها ، وراحت تصرخ فى أبويها ، وتدق الارض بقدميها .

ولم يكن أحد قد ذكر « لارا » ــ وهى تعيش بين أفراد هذه الاسرة الغنية كفرد منهم ــ بما عليها من دين ، بل لعل أحدا لم يكن يتذكره . ولقد كانت خليقة بأن تسدده منذ زمن ، لولا نفقاتها التى كانت تتكبدها فى السر . فلقد كانت ــ بدون أن يعلم « باشا » ــ ترسل نقودا الى أبيه فى سيبريا ، وتساعد أمه الدائمة المرض والشكوى ، وتساهم فى تخفيف نفقاته بأن تدفع ــ مباشرة ــ جزءا من أجر مسكنه و قوته الى صاحبة النزل الذى كان يقيم فيه ! بل كانت هى التى حصلت له على غرفة فى المبنى الجديد بشارع (كاميرجر) ، بالقرب من مسرح الفنون .

وكان باشا يصغرها بقليل ، ولكنه كان متيما بحبها ، وكان يصدع بأتفه رغباتها . وبعد ان تخصص فى العلوم ــ فى المدرسة الثانوية ــ

تحول بناء على مشورتها الى دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية ، ليحظى بشهادة فى الآداب . وكان حلمها أن يستطيعا - بعد أن يتخرجا معا فى العام التالى - أن يتزوجا ، وأن ينزحا الى احدى العواصم فى أقاليم جبال (أورال) ليعملا فى التدريس .

وفى صيف سنة ١٩١١ ، رافقت « لارا » أسرة كولوجريفوف - للمرة الاخيرة - الى (دوبليانكا) . وكانت تعجب بالمكان ، بل انها كانت أكثر شغفا به من أصحابه . وقد تبينوا ذلك ، فأصبح النزوح الى هناك فى الصيف عادة مستتبة .. وعندما لفظهم القطار الساخن الكئيب فى المحطة ، وبينما كان متاعهم ينقل الى عربة ، اتخذوا هم مجالسهم فى المركبة ، وأخذوا يصغون الى حوذى الضيعة - فى قميصه الاحمر وسترته التى لم يكن لها كمان - وهو يروى لهم أنباء الموسم فى المنطقة .. أما « لارا » فقد أذهلها سكون الريف الناعس ، العميق ، الزكى الاريج ، فآثرت أن تمضى الى البيت على قدميها .

وكان الدرب الذى مهدته أقدام القاصدين وعابرى السبيل يسير بمحاذاة السكة الحديدية ، ثم ينحرف الى الحقول . وعند هذا الانحراف ، **وقفت « لارا » وأغمضت عينيها ، وجذبت الهواء بقوة الى رئتيها ، محملا بكل روائح الريف الساحر . لقد كان هذا الريف أعز لديها من أهلها ، وأفضل من حبيب ، وأوفر حكمة من كتاب !** واكتشفت من جديد معنى حياتها ، للحظة واحدة .. لقد كانت على الارض لتفهم لكل فتنة من مفاتن الارض الخشنة معنى عميقا ، ولتدرك كل شىء على حقيقته .. أو لتنجب خلفاء يؤدون هذا عنها - اذا لم يكن فى وسعها - حبا فى الحياة !

وكانت قد أقبلت - فى ذلك الصيف - مرهقة منهوكة من جراء الواجبات الكثيرة التى اضطلعت بها . فكانت سريعة الاضطراب والتهيج ، تتألم وتتأذى من أتفه الامور . وكانت هذه الحساسية الجامحة شيئا جديدا عليها ، منافيا لطبيعتها التى كانت فذة فى كرمها وتسامحها وادراكها ! .. ولقد كان آل كولوجريفوف على

عهدهم بالتعلق بها ، راغبين فى أن تمكث معهم ، ولكنها أصبحت — بعد اذ كبرت « ليبا » — ترى انه لم يعد لها فى البيت مكان . ومن ثم أبت أن تتقاضى اجرها ، حتى اضطروا الى أن يغصبوها على أن تأخذه . وفى الوقت ذاته ، كانت فى حاجة الى النقود ، ولم يكن لها من سبيل آخر اليها ، اذ لم يكن من الميسور — بل كان من المستحيل عمليا — أن تكتسب مالا من مصدر آخر ، وهى تعيش ضيفة عليهم !

وكانت تعتقد أن مركزها بينهم زائف لايطاق ، وتخال انهم كانوا جميعا يعتبرونها عبئا ، ولكنهم كانوا يكتمون ذلك فى نفوسهم ، ويتظاهرون أمامها بغير الحقيقة .. بل انها كانت عبئا على نفسها ، وكانت تتوق الى أن تجرى هاربة من نفسها ومن آل كولوجريفوف — على السواء — بأسرع ماكانت ساقاها تمكنانها . على انه كان لزاما عليها أولا — كما أوحت اليها أفكارها — ان ترد النقود التى كانت قد اقترضتها ، ولم تكن — فى الوقت ذاته — ترى سبيلا الى ذلك . ومن ثم أصبحت تشعر بأنها أشبه برهينة ، بفضل غلطة « روديا » الحمقاء ، فكانت تفرى قلبها بغيظ مستيئس !

وتحت ضغط هذا الارهاق العصبى ، اصبحت تتشمم الاهانات فى كل لفتة . فاذا أولاها أصدقاء آل كولوجريفوف اعتناء ، وقر فى نفسها انهم يرونها ((جارية)) ذليلة ، وفريسة ميسورة المنال .. واذا تركوها وشأنها ، كان ذلك — فى نظرها — دليلا على انهم لا يشعرون بوجودها !

على ان نوبات الوسوسة هذه لم تكن تحول بينها وبين أن تشاطرهم ملاهيهم . فقد كانوا ينظمون حفلات عائلية رائعة طيلة الصيف ، فكانت تذهب للسباحة والتجديف ، ولنزهات منتصف الليل بجوار النهر ، وكانت ترقص وتطلق صواريخ الالعاب النارية مع الباقين . كذلك كانت تشترك فى التمثيليات ، وتساهم — بحماس أكثر — فى مباريات الرماية ، التى كانت بنادق « ماوزر » القصيرة تستخدم فيها . وكانت تحسن التصويب الى الهدف ، وان

كانت تفضل مسدس روديا الخفيف ، فى المران . وكانت تضحك قائلة : « مما يرثى له اننى امرأة ، والا لطار صيتى كمبارز ماهر!» . ولكنها كانت كلما أمعنت فى نشدان التسرية ، ازدادت وعيا وادراكا لما كانت تبغى ، ومن ثم ازدادت شعورا بالتعاسة !

ولقد ازداد الامر سوءا عندما عادوا الى المدينة ، بعدالعطلة . اذ أضيفت الى هموم « لارا » أمور ساءتها من « باشا » ، وان حرصت على أن لا تذهب الى حد الشجار معه ، اذ كانت ترى فيه ملاذها الاخير . فقد شرع « باشا » يبدى شيئا من الثقة بنفسه ، وأخذت أحاديثه تتسم بشىء من التوجيه والارشاد — وكأنه معلم وهى تلميذة — مما كان يلذ لها ويغيظها فى الوقت ذاته !

وهكذا أصبحت همومها جميعا — « باشا » و « ليبا » و « آل كولوجريفوف » والمال — تدور فى رأسها كالدوامة ، حتى سئمت الحياة وكرهتها .. كانت هذه الدوامة تدفع بها نحو الجنون ، فأصبحت تتمنى لو أنها استطاعت أن تتحرر من كل ما عرفته أو خبرته من قبل ، وأن تشرع فى حياة جديدة لم يسبق لها أن جربتها . وانتهت بها هذه الحال — فى عيد الميلاد من سنة ١٩١١ — الى قرار يتعلق بمصيرها ومستقبلها . ذلك هو أن تغادر آل كولوجريفوف لفورها .. فى الحال ! وأن تبدأ حياة مستقلة .. وأن تحصل على المال اللازم لذلك من كوماروفسكى ! .. فقد تراءى لها — بعد كل ما كان بينهما ، وبعد سنوات الاستقلال التى ظفرت بها لنفسها — انه خليق بأن يرى من الشهامة أن يساعدها دون أية مطالب ، أو استفسارات ، أو شروط !

واذ عقدت عزمها على ذلك ، انطلقت صوب شارع (بيتروفكا) ، فى مساء اليوم السابع والعشرين من ديسمبر ، **وقد استقر فى الفراء المحيط بيديها ذلك المسدس الذى أخذته من « روديا » ، وقد ملىء بالرصاص ، ورفع صمام الامن عن زناده . فقد اعتزمت أن تقتل كوماروفسكى اذا هو رفض ، أو أذلها وحقرها بأية طريقة !** وسارت فى الطرقات التى سادها طابع العيد ، وهى فى أفظع حالات

الانفعال ، لا ترى شيئا مما كان يصادفها ، ولا تشعر الا بالرصاصة التى كانت قد غدت ــ فى دخيلتها ــ فى حكم الامر الواقع ، وكأنها أطلقت فعلا !.. ولم يكن قلبها ليحفل البتة بالهدف الذى كانت هذه الرصاصة مسددة اليه .. بل لقد كانت تسمع دويها طيلة سيرها نحو شارع (بيتروفكا) ، وتخالها منطلقة اليها هى ، والى مصيرها ، والى الهدف الخشبى الذى كانت تتدرب عليه فى مروج (دوبليانكا) ، والى « كوماروفسكى » .. فى وقت واحد !

— ٨ —

• **واذ** تقدمت « ايما ايرنستوفنا » تساعدها على خلع معطفها ، هتفت بها : « لا تمسى فراء يدى ! » .. وكانت العجوز قد تلقتها بسيل من « أواه » و « آه » ، وراحت تنبئها بأن « فيكتور ايبوليتوفيتش **كوماروفسكى** » كان فى الخارج ، وتدعوها الى أن تستريح فى انتظار عودته .

وقالت لارا : « لاأستطيع ، فاننى فى عجلة من أمرى .. أين هو ؟ »

لقد كان فى حفلة أقيمت بمناسبة عيد الميلاد . وتناولت « لارا » من العجوز قصاصة تحمل العنوان ، ثم هرعت تهبط درجات السلم المعتم المألوف ، وانطلقت الى دار آل « سفينتيتسكى » بشارع (موشنوى جورودوك) . ولم تلتفت الى المدينة ، أو تلق نظرة على ليل الشتاء الجاثم ، الا عندما خرجت اليهما للمرة الثانية . فاذا الليل قارس البرودة ، واذا الشوارع مكسوة بطبقة سميكة سوداء من الجليد ، ذات لمعان خاب ، كقيعان زجاجات البيرة المهشمة ! .. وآلمها الهواء ، فقد كان مشبعا بالصقيع الاسمر ، وكان يلسع وجهها ويخزه كما يفعل وبر الفراء الخشن .

وسارت فى الطرقات الخالية ، وقلبها يدق فى عنف .. ومرت بأبواب المطاعم الرخيصة التى كان البخار ينبعث منها .. وطالعتها فى ضباب الصقيع وجوه حمراء كالسجق ، ورؤوس جياد وكلاب احاطها الصقيع بما يشبه اللحى النامية فى غير انتظام .. وكانت نوافذ

الدور - التى ختم عليها الثلج والجليد - تبدو بيضاء ناصعة، تلوح خلف زجاجها السميك أشجار عيد الميلاد ذات الاضواء ، وأطياف الهائئين من المحتفلين ، وكأنها رؤى فى مناظر تعرض بالفانوس السحرى على قارعة الطريق .

واذ مرت بالمبنى الذى كان « باشـا » يقيم فيه ، بشارع (كاميرجر) ، وقفت وأوشكت أن تتداعى . وقالت تحدث نفسها بصوت كاد أن يكون مسموعا : « ليس بوسعى أن أمضى . اننى لا أحتمل هذا .. سأصعد وأروى له كل شىء ! » . واستجمعت جرأتها ، ودخلت المبنى خلال البابين الضخمين الحافلين بالزخارف .

— ٩ —

• **كان** « باشا » يقف أمام المرآة محتقن الوجـه ، وقد راح لسانه يضغط شدقه من الداخل ، وهو يجاهد كى يثبت ياقة الى عروة قميصه المنشى، بزر صغير ، اذ كان يتأهب للذهاب الى حفلة . وكان من السذاجة بدرجة أنه ارتبك اذ دخلت عليه « لارا » دون أن تطرق الباب ، ولم يكن قد استكمل ارتداء ثيابه . ولكنه لاحظ انفعالها لفوره ، فقد كانت لا تكاد تقوى على أن تظل مستـوية على قدميها . ودنت منه وهى تدفع ذيل ثوبها جانبا - فى كل خطوة - وكأنها تخوض جدولا صغيرا . فأسرع اليها قائلا : « ماذا بك ؟ .. ماذا جرى ؟ »

- اجلس بجوارى .. اجلس ، ولا تحفـل بأنك لم تستكمل ارتداء ثيابك ! .. فأنا فى عجـلة ، ولا بد لى من أن أنصرف بعد لحظات .. لا تمس فراء يدى !.. انتظر ، ولا تنظر الى للحظة .. أدر وجهك للناحية الاخرى !

واذ أطاعها ، خلعت « لارا » معطفها ، ودست المسدس فى جيبه ، ثم علقته الى مشجب . وعادت ثانية الى الاريكة ، قائلة : « بوسعك الآن أن تنظر الى .. أوقد شمعة ، واطفىء النور الكهربائى ! » . فلقد كانت مولعة بالحديث فى العتمة ، على ضوء شمعة .. وكان

« باشا » يحتفظ ببعض الشموع ، فتناول واحدة منها وضعها فى حامل على حافة النافذة ، وأشعلها . وارتعش اللهب واختلج مرسلا بعض شرر واهن ضئيل ، ثم اشتد واعتدل واستقام ، واذا الحجرة تمتلىء بنور هادىء لطيف . وذاب الثلج المتراكم على زجاج النافذة — فى مستوى اللهب — تاركا ثغرة سوداء ، كأنها مرقب تختلس خلاله نظرات مسترقة .

وقالت لارا : « اسمع يا باشا .. اننى فى محنة ، ولا بد لك من أن تساعدنى ! .. لا تجزع ، ولا تسلنى ! .. لا يخطرن ببالك قط اننا مثل غيرنا من الناس ، ومن ثم فاصغ الى ما سوف أقول لك : **اننى فى خطر دائم ، فاذا كنت تحبنى ، واذا لم تكن راغبا فى هلاكى ، فعليك أن لا ترجىء زواجنا ! »** . فصاح باشا : « ولكن هذا عين ما كنت أبغى دائما ! .. اننى على استعداد لان أتزوجك فى أى يوم تشائين . ولكن ، نبئينى بما يكربك ، ولا تعذبينى بالاحاجى والالغاز ! » . غير أن لارا راغت من سؤاله ، مغيرة موضوع الحديث ، فظلا يتكلمان فترة طويلة ، فى أمور لا شأن لها بهمها وأساها !

— ١٠ —

• **كان** يورا منهمكا — فى ذلك الشتاء — فى اعداد رسـالة عن الجهاز العصبى للعين ، لينال بها « الميدالية » الذهبية للجامعة . ومع أنه كان قد حصل على اجازة الطب العـام ، الا أنه اكتسب دراية تشبه التخصص بتركيب العين وطبيعة الابصار . فقد كان شغفه بها يتمشى مع النواحى الاخـرى لشخصيته : مع مواهبه الخلاقة ، ومع اهتمامه بالعـلاقة بين الخيـال فى الفن ، والتركيب المنطقى للأفكار !

وانطلق فى تلك الليلة مع « تونيا » — فى زحافة مستأجرة — الى دار « سفنتيتسكى » .. كان كل منهما — بعد ست سنوات من اليفاع والمراهقة ، قضياها فى بيت واحد — قد عرف كل شىء عن الآخر ، وعن عاداته وآرائه والضحكة الساخرة التى يستقبل بها

فكاهاته .. كما ألفا الصمت الذى كثيرا ما كانا يخلدان اليه وهما معا . وكانا مستسلمين فعلا لهذا الصمت وهما ينطلقان فى الزحافة ، وقد انصرف كل منهما الى أفكاره الخاصة ، وأطبق شفتيه اتقاء للبرد !.. أما «يورا» فكان يفكر فى المسابقة التى يعد لها رسالته ، وفيما كان ينبغى عليه من جد فى هذا الاعداد . ثم استلفت انتباهه صخب العيد ، والنشاط الذى دب فى الطرقات ، فقفز فكره الى أمور أخرى .. كان قد وعد جوردون بمقال عن « بلوك » (١) لصحيفة الطلبة التى كان يرأس تحريرها ، والتى كانت تطبع على « الكوبيا » . فقد كان الشبان فى العاصمتين متهوسين حماسا لـ « بلوك » ، وكان يورا وجوردون ـ بالذات ـ مجنونين به . ومع ذلك، فان هذه الفكرة لم تشغل باله طويلا، اذ قفز ذهنه الى غيرها .

وظلت الزحافة ماضية بهما ، وقد دس كل منهما ذقنه فى ياقة ثوبه ، وراحا يفركان آذانهما المتجمدة من البرد ، وهما مستغرقان فى أفكارهما .. على أن ثمة فكرة معينة طرقت ذهنيهما معا ، فى وقت واحد : كان ما وقع الى جوار فراش « آنا » قد غير كلا منهما فى عينى الآخر ، وكأنهما لم يحظيا بنعمة الابصار الا اذ ذاك فقط !

فبالنسبة الى « يورا » ، كانت « تونيا » ـ صديقته الحميمة ـ تبدو حتى ذلك الحين جزءا من حياته ، لا يحتاج وجوده الى تبرير أو ايضاح ، لانه أمر طبيعى .. ولكنها أصبحت فجأة ـ بعد حديث آنا ـ اشد المخلوقات التى يستطيع أن يتصورها ابهاما واستغلاقا عليه .. أصبحت امرأة ! .. وكان بوسعه اذا أرخى العنان لخياله أن يتصور نفسه امبراطورا ، أو بطلا ، أو نبيا ، أو فاتحا .. ولكنه أبدا لم يكن يملك أن يتصور نفسه امرأة ! .. واذ أخذت تونيا هذا العبء السامى ، البالغ الصعوبة ، على كتفيها الرقيقتين ـ وكانت قد بدأت تبدو لعينيه هشة رقيقة ، برغم أنها كانت موفورة

---

(١) الكسندر الكسندروفيتش بلوك (١٨٨٠ ـ ١٩٢١) كان أعظم الشعراء الرمزيين فى روسيا .

الصحة ــ فقد امتلأ قلبه بعطف متأجج ، وبحيرة خجلى .. وهما أولى أمارات الوجد !

ولم يكن التغير فى مسلك « تونيا » نحو « يورا » بأقل عمقا من مقابله لدى يورا .. ولقد خطر ليورا أنه ما كان لهما أن يغادرا البيت ، برغم كل شيء ، فقد كان قلقا من أجل « آنا » . وقد سمعا ــ وهما موشكان على الخروج ــ انها لم تكن على ما يرام ، فذهبا الى مخدعها ، ولكنها أمرتهما بأن يسرعا الى الحفلة ، بنفس اللهجة الحادة الحاسمة التى أمرتهما بها من قبل . ثم تساءلت : « ما حال الطقس الآن ؟ » . فذهبا الى النافذة واطلا منها ، وفيما كانا عائدين ، تعلقت الستار الخفيفة النسيج بثوب تونيا الجديد ، فبدت كخمار العروس فى الزفاف .. لكم ضحكوا جميعا ، اذ كان الشبه كاملا الى درجة عجيبة !

والتفت « يورا » حوله ، فرأى ما كانت « لارا » قد رأته قبل ذلك ، فى الليلة ذاتها .. كان احتكاك الزحافة بالجليد يحدث صفيرا عاليا ، غير عادى ، يجاوبه صدى طويل ، غير طبيعى ، من الاشجار المتشحة بالثلج ، على جوانب الطرق والميادين .. وكانت الاضواء المتألقة داخل الدور ــ والظاهرة خلال زجاج النوافذ المغلقة ــ تبدى البيوت كخزائن ثمينة من ياقوت غير صافى اللمعان .. وفى داخل هذه الخزائن ، كانت حياة موسكو فى ليلة عيد الميلاد تتألق : فالشموع مشتعلة فوق أشجار العيد ، والضيوف يدورون راقصين ، ويرتكبون الحماقات، ويلعبون لعبة الاستخفاء ، وهم فى ملابس طريفة .. وخطر ليورا أن « بلوك » كان مظهرا لعيد الميلاد فى حياة الفن فى روسيا الحديثة .. عيد الميلاد فى حياة هذه المدينة من مدن الشمال .. عيد الميلاد فى شوارعها الحديثة ، تحت سمائها المرصعة بالنجوم ، وتحت الاشجار المرصعة بالانوار فى « صالوناتها » المؤثثة على طراز القرن العشرين الحديث .. وشعر « يورا » بأن لا حاجة به الى أن يكتب مقالا عن « بلوك » ، اذ

كان يكفيه أن ينقل لوحة لتعبد المجوس (١) عن الطراز الهولندى ، وأن يضفى عليها طابعا روسيا ، ويدخل عليها منظر الثلوج ، والذئاب ، وغابة مظلمة من أشجار الشربين !

وفيما كانا يجتازان شارع (كاميرجر) ، لاحظ « يورا » أن شمعة أذابت رقعة من الجليد على زجاج احدى النوافذ ، فبدا الضوء منسابا خلال الثغرة كأنه نظرة متربصة ، وكأنما كان اللهب يراقب المركبات المارة ، مرتقبا شخصا معينا . فهمس لنفسه : « شمعة تحترق على المنضدة .. شمعة تحترق .. » ، وراحت تتردد فى ذهنه الكلمات الاولى ، غير المنتظمة ولا الواضحة ، لقصيدة شعرية .. وراح يرجو أن تنتظم القصيدة من تلقاء ذاتها ، ولكنه لم يحظ بأكثر من تلك الكلمات .. بوضعها ذاك :

— ١١ —

• كان ثمة تقليد متبع فى حفلات عيد الميلاد ، لدى آل سفنتيتسكى ، منذ زمن لا تعيه الذاكرة . ففى الساعة العاشرة تضاء شموع شجرة عيد الميلاد مرة أخرى ـ بعد أن يكون الاطفال قد انصرفوا ـ لتبدأ الحفلة من جديد بالنسبة للشباب والكبار ، فتستمر حتى الصباح . وكان المسنون يقضون الليل كله فى لعب الورق ، فى حجرة الجلوس المؤثثة على الطراز « البومبيى » ، وقد فصلت بينهم وبين قاعة الرقص ستائر ثقيلة تتدلى من حلقات برونزية . فاذا كان الفجر ، تناول الجميع طعام الافطار سويا .

وتساءل « جورجى » ـ ابن أخت سفنتيتسكى ـ وهو يهرع عبر البهو الامامى للدار ، فى طريقه الى مخدعى خاله وزوجة خاله ، فى القسم الخلفى من المسكن : « لماذا تأخرتما ؟ » . ولم يجب يورا ولا تونيا ، بل خلعا معطفيهما وقبعتيهما ، ثم أطلا على قاعة الرقص ، قبل أن يذهبا لتحية أهل الدار . وكان الذين انصرفوا عن الرقص

---

(١) قصة المجوس الذين اقبلوا على بيت لحم عند مولد المسيح .

ــ من الضيوف ــ يرفلون فى ثيابهم ، ويدوس بعضهم أقدام بعض، وهم يخطرون فى القاعة ويتجاذبون أطراف الحديث ، متحركين كحاجز أسود يحجب شجرة عيد الميلاد ذات الانفاس الحارة ، وقد تناثرت فيها الاضواء طبقة فوق طبقة .

وفى وسط القاعة ، كان الراقصون يدورون مبهورى الانفاس ، يقسمهم الى ازواج او الى حلقات طالب شاب يدرس القانون ، ويدعى « كوكا كورناكوف » ، كان ابن أحد مساعدى النائب العام .. وكان قد اضطلع بمهمة تبديل الرقصات ، فكان يصيح بأعلى صوته فى الحجرة : « الدورة الكبرى » ، أو « الحلقة الصينية » . فكانوا يستجيبون جميعا لاوامره .. وصاح أخيرا فى عازف البيانو : « فالس ، من فضلك ! » .. ثم قاد زميلته فى الرقص ــ على رأس الحلقة الاولى ــ وراح يدور بها . وما لبثت سرعة الدوران أن خفت تدريجا ، وأخذت الدورات تضيق شيئا فشيئا ، حتى لم يعد فى الوسع تبين شىء من اتساق الحركات مع ما تبقى من أصداء « الفالس » المحتضر . وصفق الجميع ، وأديرت على الجمع الصاخب ، الذى لم يكد يكف عن الحركة ، أقداح المثلجات .. ولم يكف الفتية والفتيات الحمر الوجوه ــ من جراء الرقص ــ عن الصياح والضحك ، وهم يحتسون شراب التوت البرى والليمون المثلج . وفى اللحظة التى وضعوا فيها أقداحهم على الصحاف، أشتد الضجيج عشرة أمثال ما كان ، وكأنهم قد احتسوا شرابا أذكى من مرحهم ..

ولم تقف تونيا ويورا عند قاعة الرقص ، بل واصلا سيرهما الى حيث كان مضيفاهما ، فى الطرف الاقصى للمسكن .

ــ ١٢ ــ

• **وكانت** الحجرات الخلفية مكدسة بالاثاث الذى نقل من قاعتى الرقص والجلوس .. هنا كان آل سفنتيتسكى قد احتفظوا بمركز الاعداد لحفلة عيد الميلاد : بالمطبخ السحرى . فكان ثمة عبير طلاء

وصمغ ، وأوراق ملونة للف ، وعلب للهدايا ، وشموع ، وقد تناثرت كلها على المقاعد . وكان سفنتيبتسكى وزوجته منهمكين فى كتابة الاسماء على بطاقات لتوضع على الهدايا وعلى المقاعد حول مائدة العشاء ، وفى توزيع أرقام لاجراء سحب « يانصيب » ، يساعدهما فى ذلك « جورجى » الذى كان لا ينى يخطىء فى العد ، ويرتبك ، فيتلقى منهما زمجرات مغتاظة . وكان اغتباط الزوجين بالغا لمقدم تونيا ويورا ، فقد كانا يعرفانهما مذ كانا طفلين ، وسرعان ما أشركاهما فى عملهما دون ما كلفة .

ـ ان « فليتساتا سيميونوفنا » لا توافق على أن هذا كله كان خليقا بأن يعمل مقدما ، وليس فى أثناء الحفلة ، بعد أن وصل جميع الضيوف .. انظر الى مافعلت يا جورجى . ان علب الحلوى الفارغة توضع على الاريكة ، وعلب حلوى اللوز المسكر توضع على المنضدة .. ولكنك وضعت كلا منهما مكان الاخرى !

ـ لكم يسرنى أن أنيتا العزيزة فى تحسن .. شد ما كنت و « بيير » فى قلق !

وقدر ليورا وتونيا أن يقضيا نصف السهرة مع جورجى وسفنتيبتسكى وزوجته ، بعيدا عن بقية الضيوف .

ـ ١٣ ـ

• **وكانت** « لارا » ـ طيلة ذلك الوقت ـ فى قاعة الرقص . ولم تكن فى ثوب السهرة ، ولا كانت تعرف أحدا من الحضور ، ولكنها مكثت برغم ذلك ، وراحت ترقص « الفالس » مع « كوكا » ، مثل شخص اعتاد أن يسير فى نومه ، أو تضرب فى أرجاء القاعة على غير هدى . ولقد وقفت ـ مرة أو اثنتين ـ خارج قاعة الجلوس ، مترددة ، وهى ترجو أن يلمحها كوماروفسكى الذى كان يجلس فى مواجهة الباب . ولكنه كان يمسك أوراق اللعب أمام عينيه ، وكأنها درع صغير .. **ولعله لم يفطن اليها ، أو ربما كان قد تعمد أن لا يفطن ! .. وكادت تختنق لفرط كبتها الشعور بالهوان والاهانة .**

وانتقلت فتاة ـ لم تكن تعرفها ـ من قاعة الرقص الى قاعة الجلوس، فرمقها كوماروفسكى بنظرة أثارت فى نفس لارا الذكريات .
واغترت الفتاة ، واحمر وجهها ، وابتسمت باغتباط ، واذ ذاك احتقن وجه لارا استنكارا ، وأوشكت أن تصرخ : « ها هى ذى فريسة جديدة ! » ، وقد رأت نفسها ممثلة فى شخص الفتاة ، وكأنها ترى صورتها فى مرآة ! .. ولم تنزل عن رغبتها فى الحديث اليه ، ولكنها أرجأتها الى حين .. الى لحظة أكثر مناسبة . وتجلدت بالرغم من نفسها ، وعادت الى قاعة الرقص .

وكان كوماروفسكى يلعب الورق مع ثلاثة رجال . فكان الجالس الى يساره هو «كورناكوف» ، والد «كوكا» ، ذلك الفتى الظريف الذى عادت « لارا » الى الرقص معه ـ فهكذا فهمت من الكلمات القلائل التى تبادلتها معه ـ وكانت أم الفتى هى تلك المرأة الطويلة ، السمراء ، ذات الثوب الاسود والعينين المتقدتين والعنق الشبيه بالثعبان ، الذى لم يكن يروق للعين .. ولقد أخذت تروح وتغدو بين قاعة الرقص وقاعة الجلوس ، لتراقب ابنها وهو يرقص ، وزوجها وهو يلعب الورق . وعلمت لارا ـ فى النهاية ـ أن الفتاة التى أثارت فى نفسها أحاسيس مبهمة غامضة ، والتى أنكرت على كوماروفسكى نظرته اليها ، كانت شقيقة الشاب .. وتيقنت من أن وساوسها ـ اذ خالت أن نظرات كوماروفسكى قد استخفتها ـ لم تقم على أساس .

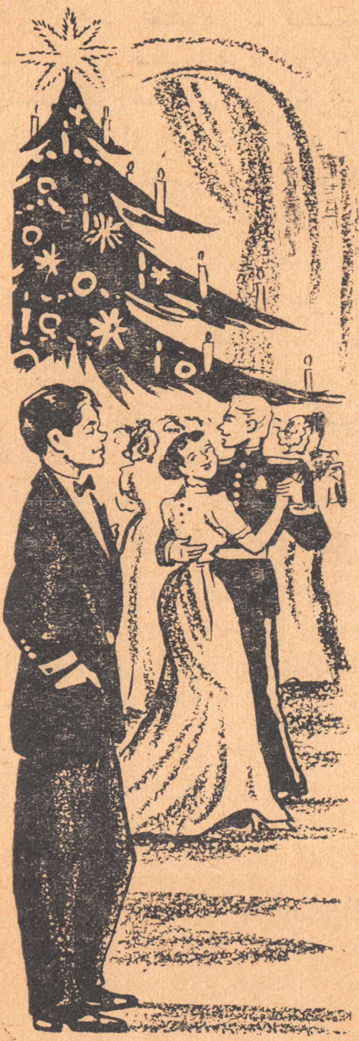
ولم تكن لارا قد ألقت بالا الى لقب « كوكا » ، عندما قدم اليها نفسه فى بادىء الامر . ولكنه راح يردده لها وهو يطوح بها الى مقعد ـ فى آخر حركة فى « الفالس » ـ بدلا من أن ينحنى أمامها ايذانا بانتهاء الرقصة .. فراح الاسم يتردد فى ذهنها : « كورناكوف .. كورناكوف ! » .. كان يذكرها بشىء ما .. شىء لم يكن يبعث السرور فى النفس .. آه ، هو ذاك ، لقد تذكرته .. لقد كان كورناكوف هو مساعد المدعى العام فى محكمة موسكو المركزية ، وهو الذى ألقى مرافعة متطرفة التجنى عند محاكمة عمال السكك الحديدية الذين أضربوا ، والذين كان « تيفرزين » بينهم .. وكان

كولوجريفوف قد ذهب للدفاع عن تيفرزين – بناء على رغبة لارا – ولكنه لم يوفق . اذن فهذه جلية الامر .. بديع ، بديع ، بديع ! .. يالها من مصادفة غريبة .. كورناكوف !

— ١٤ —

• **كانت** الساعة قد بلغت الثانية صباحا تقريبا . وأخذت اذنا يورا تطنان .. وكانت قد تخللت الرقص فترة استراحة ، قدم فيها الشاى و « البيتى فور » ، ثم عاد الرقص ثانية .. ولم يعد أحد يحفل بتغيير الشموع التى راحت تحترق حتى نهايتها على شجرة العيد .

وكان يورا يقف شارد الذهن ، وسط قاعة الرقص ، يرقب تونيا وهى تراقص شخصا غريبا .. وأقبلت عليه ، وهزت ذيل ثوبها الحريرى كما تهز السمكة ذيلها ، ثم اختفت .. كانت أسيرة طرب شابه انفعال بالغ ، حتى انها رفضت تناول الشاى – أثناء الاستراحة – واخذت تطفىء ظمأها بما لا حصر له من ثمار اليوسفى ،



« وكان يورا يقف شارد الذهن ، وسط قاعة الرقص .. »

التى راحت تقشرها ثم تمسح آثارها عن أصابعها وركنى فمها بمنديل فى حجم زهرة الفاكهة . وكانت لا تكف ـ وهى تضحك وتتكلم بلا انقطاع ـ عن اخراج المنديل ثم رده الى الحزام المحيط بخصرها ، أو الى كمها ، أو الى صدر ثوبها المنتفخ .. واذ مرت بيورا ، وهى تدور مع شريكها المجهول، ضغطت يد يورا وابتسمت ، وبقى المنديل بين أصابعه هو ، فضغطه الى شفتيه ، وأغمض عينيه .. وكان المنديل يعبق بعبير يدها وبشذى اليوسفى على السواء !

وكان هذا امرا جديدا على حياة يورا .. فلقد خامره شعور لم يحس به بتاتا من قبل .. شعور حاد ، ثاقب ، اخترم كل كيانه من رأسه حتى اصبع قدمه . كانت الرائحة الصبيانية الساذجة ـ رائحة المنديل ـ أشبه بكلمة ودية ، عاطفية ، تلفظ همسا فى الظلام . فراح يضغط المنديل الى عينيه وشفتيه ، وقد تاه فى شذاه الرقيق .

وفى تلك اللحظة ، دوى طلق نارى خارج القاعة .. فى البيت !

والتفت كل امرىء ونظر الى الستار المسدلة بين قاعة الرقص وقاعة الجلوس . وسيطر الصمت لحظة ، ثم أعقبه ضجيج وجلبة. واندفع بعض القوم فى جنبات القاعة يصرخون ، بينما جرى بعض آخر خلف « كوكا » الى حجرة الجلوس التى انبعث منها صوت الطلق ، والتى برز منها أناس آخرون كانوا يبكون ، ويتجادلون ، ويتكلمون جميعا فى آن واحد !

وكان كوماروفسكى يردد فى قنوط : « ما الذى فعلته ؟ .. ماذا فعلت ؟ »

وراحت السيدة كورناكوف تصرخ فى انفعال تهوسى : « بوريا ، بوريا ، قل انك لا تزال حيا ! .. أين الدكتور دروكوف ؟ .. لقد قالوا انه هنا ، فأين هو ، أين هو ؟ .. كيف تقول .. كيف تقول انه ليس سوى خدش ؟ ! .. ان هذا دليل على اننى كنت على صواب دائما ! .. لقد فضح أولئك المجرمون ، وها أنتم ترون مدى اجرامهم !.. اواه يا حبيبى المسكين ، يا شهيد معتقداتك ! ها هى

ذى هنـاك ، السـافلة ! لسـوف أقتلع عينيك أيتها السـاقطة ! لن تفلتى فى هذه المرة !.. ماذا قلت ياسيد كومارووفسكى ؟.. كانت تقصدك أنت بالرصاصة ؟..أنت ؟ لا ، لا أستطيع أن أحتمل هذا : فان اللحظة أليمة ياسيد كومارووفسكى ، ولست أحتمل أن أسمع مزاحا .. كوكا ، يا حبيبى كوكا ! .. هل تصدق انها حاولت أن تقتل اباك .. اجل ، ولكن العناية .. كوكا ، كوكا ! »

وتقاطر الحشد من قاعة الجلوس الى قاعة الرقص ، وعلى رأسه كورناكوف وقد راح يضحك مطمئنا كل امرىء الى أنه كان بخير ، وهو يمسح ـ باحدى منشفات المائدة ـ خدشا فى يده اليسرى . وتبعهم عدد من الافراد بدا أنهم كانوا يجذبون لارا بينهم من ذراعيها !

وبهت يورا .. ها هى ذى تلك الفتـاة مرة أخرى .. ومرة أخرى يراها فى ظروف عجيبة ، غير عادية ! .. وها هو ذا الرجل الاشيب على مقربة منها ، فى هذه المرة كذلك ! .. على أن « يورا » أصبح الآن يعرفه ، فهو ذلك المحامى المبرز كومارووفسكى ، الذى كان له شأن فى النزاع على ضيعة أبيه . ولم تكن به حاجة الى أن ينحنى تحية له ، فقد تعمد كل منهما أن يتجاهل معرفة الآخر . والفتاة .. **اذن فقد كانت الفتاة هى التى أطلقت الرصاصة ؟ .. أكانت تقصد المدعى ؟ .. لا بد أنها فعلت ذلك لاسباب سياسية ! .. يا للمسكينة ، لقد كانت مقبلة على أوقات عصيبة ! .. ما كان أجملها فى كبريائها وترفعها ! .. ومع ذلك فان هذين النذلين كانا يجرانها ويلويان ذراعيها ، وكأنهما قد أمسكا لصة ! !**

ولكنه تبين لفوره أنه كان على خطأ .. كانت « لارا » توشـك أن تقع مغشيا عليها ، فأمسكاها وكادا يحملانها حملا الى أقرب مقعد .. فتهالكت عليه ! .. وسار اليها يورا ليساعدها على مقاومة الانهيار . ولكنه فطن الى أن من الخير أن يبدى ـ أولا ـ شيئا من الاهتمام بالفريسـة . فقال لكورناكوف : « هل لى أن أقـدم أية معونة ؟ .. اننى طبيب .. أرنى يدك ! .. الحق أنك محظوظ ، فان الخدش لا يكاد يستحق أن يضمد . ومع ذلك ، فلا بأس

بنقطة من صبغة اليود .. ها هى ذى فيلتساتا سيميونوفنا ، ولابد أن لديها بعضا من اليود ! »

وكانت « فيلتساتا » و « تونيا » مقبلتين نحوه ، وقد غاضت الدماء من وجهيهما ولاحتا مفجوعتين .. وسألتاه أن يدع كل شيء فى الحال ، وأن يرتدى معطفه ، فقد وصلت رسالة من البيت ، ولا بد من الرحيل فورا .. فهرع ليحضر معطفه ، وقد تصور أسوأ الاحتمالات !

— ١٥ —

• **ولم يجدا** « آنا » على قيد الحياة .. فعندما طويا درجات السلم صاعدين الى غرفتها ، كانت قد فارقت الحياة منذ عشر دقائق . وكانت الوفاة ناجمة عن نوبة من نوبات الربو المترتبة على « اوذيما » حادة فى الرئتين ، لم يكشفها الفحص فى وقت مناسب .

وراحت تونيا فى الساعات الاولى تصرخ كالمجنونة وتتمرغ على الارض ، وأصابتها تشنجات لم تتعرف خلالها على أحد ! .. لكنها هدأت قليلا فى اليوم التالى ، وأصغت الى كلام أبيها ويورا ، وان لم تجبهما بغير الايماء ، اذ كان الحزن يغلبها اذا فتحت فمها ، فتصرخ كالمأخوذة ! .. وبين أوقات الصلوات ، كانت تقضى ساعات راكعة بجوار المتوفاة ، وهى تحتضن بذراعيها الجميلتين ركن النعش وحافة المنضدة وأكاليل الزهور التى تغطيه ، دون أن تفطن الى أحد حولها . ولكن ما ان التقت عيناها بعيون أقرب الناس اليها حتى هرعت وهى تكتم نشيجها الى مخدعها ، حيث ارتمت على فراشها فدفنت شجنها فى وسادتها .

وتحت وطأة الاسى ، والوقوف ساعات طويلة على قدميه ، والحاجة الماسة الى النوم ، وتلك الاناشيد التى كانت ترتل بصوت عميق ، والشموع التى يزيغ ضوؤها البصر فى الليل والنهار ، والبرد الذى أصابه وأنشب مخالبه فى جسمه .. تحت وطأة هذا كله ، لم يكن غريبا أن يمتلىء يورا بفيض من أسى ولوعة ناعسين ، هادئين ، رقيقين ! .. **لقد كان صغيرا عندما ماتت أمه ، قبل عشر سنوات ،**

ولكنه ظل يتذكر دموعه التى كانت تعبر عن أسى وفزع طاغيين .. لم تكن نفسه ذات قيمة لديه ، فى تلك الايام . بل انه لم يكد يفطن يومئذ الى ان ثمة كائنا يدعى « يورا » على قيد الوجود ، يعيش ككائن له استقلاله ، وكيانه ، وقيمته ، ومصلحته . كان المهم — اذ ذاك — شيئا خارج كيانه ، حوله .. كان العالم القائم خارج كيانه يزحف عليه من كل جانب ، كثيفا ، ملموسا ، لا سبيل الى انكاره ، متشابك الاطراف والمعالم كالغابة .. فكان سبب الفجيعة القاسية التى استولت عليه — من جراء موت أمه — هو انه ضل عن نفسه وهو الى جوار تلك الام .. تاه فى الغابة ، ثم فطن فجأة الى أنه كان وحيدا ، وكانت أمه قد اختفت ! .. وكانت الغابة مكونة من كل شىء فى الحياة ، وفى الدنيا .. كل شىء كان يعرفه ، وجده فيها : سحب ، ولافتات حوانيت ، وقباب أبراج أجراس الكنائس — ذات اللون الذهبى — وأولئك الرجال ذوو الرؤوس العارية الذين كانوا يخبون على صهوات الجياد أمام مركبة « العذراء المباركة » ، وقد غطوا آذانهم بدلا من رؤوسهم اجلالا للايقونة المقدسة (١) .. كذلك كانت فى الغابة واجهات المتاجر ، والاقبية ، وسماء عالية مرصعة بالنجوم — فى ليل بهيم — لا سبيل الى الوصول اليها .. كما كان هناك الله الرحيم ، والقديسون !

ولقد أحنت هذه السماء الشاهقة رأسها حتى كادت تمس طرف ثوب مربيته ، عندما راحت هذه تحدثه عن الامور التى كانت بيد الله .. انخفضت السماء البعيدة المنال ، فأصبحت فى متناوله ، كأشجار البندق عندما يجذب المرء فروعها الى الارض ليلتقط ثمارها .. بل بدت السماء وكأنها تنغمس فى حوض الغسيل — فى غرفة الطفل الذى كانه — بما كان يحمل من زهور حمراء وذهبية على سبيل الزخارف تزين حوافه ، حتى اذا اغتسلت السماء بنار وذهب ، استحالت

---

(١) كان الروس يعتقدون أن أيقونة عذراء (ايفرسكايا) كانت ذات مفعول قدسى يحقق المعجزات ، لذلك كانت تنقل فى عربة الى المرضى والمحتضرين .

الى قداس فى الكنيسة الصغيرة التى ذهب اليها مع المربية ، فى احد الشوارع الجانبية . وهناك ، اصبحت نجوم السماء هى الاضواء الموقدة أمام الايقونات ، وصار الرب الرحيم هو الاب الطيب - قس الكنيسة - وراحوا جميعا يحاولون أن يؤدوا وظائفهم على خير ما يستطيعون. على ان تلك التى راحت تخيم عليه - كغابة مظلمة تحيط به من كل جانب - انما كانت دنيا الكبار ، ودنيا المدينة بوجه خاص ، وقد راح يورا يؤمن - بكل ما فى غريزته من ايمان نصف حيوانى - بالله .. حارس تلك الغابة !

أما فى هذه المرة ، عندما ماتت آنا ، فكان الامر يختلف .. ففى اثنتى عشرة سنة - قضاها فى المدارس - درس يورا الآداب القديمة ، والكتاب المقدس ، والاساطير ، والشعراء ، والتاريخ ، والتاريخ الطبيعى .. قرأ كل هذه الامور وكأنها سجلات تاريخ اسلافه .. كأنها شجرة نسب أسرته ! .. **ومن ثم فانه لم يعد خائفا من شىء : لا من الحياة ، ولا من الموت . لقد اصبح كل شىء فى الدنيا - واحدا فواحدا - مذكورا فى قاموسه باسمه الصحيح . فأصبح يشعر بأنه على قدم المساواة مع الكون ، وبأن للصلوات التى أقيمت من أجل ((آنا)) وقعا فى أذنيه غير وقع الصلوات التى سمعها تتلى من أجل أمه ، وهو بعد صغير ..** لقد كان اذ ذاك يصلى فى ارتباك ، وخوف ، وألم . أما فى هذه المرة ، فراح يصغى الى القداس وكأنه رسالة خاصة موجهة اليه شخصيا ، وذات اثر مباشر على نفسه .. فكان ينصت للكلمات ويتلقفها وهو يرتقب منها معنى واضحا ، كما يرتقب من أية رسالة جدية خطيرة .. ولم يعد لشفقته وأساه أية صلة بمشاعره ازاء قوى الارض والسماء ، التى أصبح يوقرها لمجرد شعوره بأنها تمثل أصله وأسلافه .. فحسب !

— ١٦ —

• ((**قدوس الله** ، قدوس القوى ، قدوس الحى الذى لا يموت ، ارحمنا !)) .. ما الذى جرى ؟ .. واين هو الآن ؟ .. كانوا

ينقلون النعش ، فلا بد له من ان يستيقظ .. كان قد استسلم للنعاس على الاريكة ـ وهو فى ثيابه ـ حوالى الساعة السادسة من الصباح.. واحس بارتفاع فى درجة حرارته.. بينما كان القوم يبحثون عنه فى كل ركن من البيت ، دون أن يخطر ببال أحد أن يفتش عنه فى الركن القصى للمكتبة ، خلف أرفف الكتب . وكان ماركل يصيح مناديا : « يورا ! يورا ! » .. كانوا ينقلون النعش الى الخارج ، وكان على « ماركل » أن يحمل طاقات الزهور ، ولكنه كان يبحث عبثا عن يورا ليساعده . ومما زاد من محنته أنه عجز عن مغادرة المخدع ، اذ كان مزدحما بأكداس من الزهور ، وكان باب الصوان الضخم الثقيل ـ الموضوع فى بهو الطابق الاعلى ـ مفتوحا على مصراعيه ، يسد مدخل الحجرة .. ومن الطابق الاسفل ، كان القوم ينادون : « ماركل ! ماركل ! .. يورا ! » . وتغلب « ماركل » أخيرا على مأزقه ، فركل باب الصوان بعنف ، وقد حمل عددا من طاقات الزهر ، وراح يهبط السلم .

« قدوس الله ، قدوس القوى ، قدوس الحى الذى لا يموت ، ارحمنا ! » .. اخذت الكلمات تتحرك فى الطريق بتؤدة وخفوت ، وكأنها ريش مسته نسمة خفيفة .. **كان كل شىء يتمايل : أكاليل الزهر ، والمارة ، ورؤوس الخيل المزدانة بالريش ، والمبخرة التى كانت تتأرجح فى نهاية سلسلة فى يد القس .. والارض البيضاء ـ المكسوة بالثلوج ـ تحت أقدامهم** .. وهزت « شورا شليزنجر » كتفيها ، وقالت : « أهذا أنت يا يورا ؟ .. يا الهى ! أخيرا ! .. ماذا دهاك ؟ انهم سينطلقون بالنعش .. افلست قادما معنا ؟ »

ـ بلى .. قادم بلا ريب !

— ١٧ —

• **وانتهت** صلاة الجنازة ، فتزاحم المتسولون فى صفين ، وهم ينقلون أقدامهم ليغالبوا البرد بالحركة . وكانت عربة نقل الموتى ، وأكاليل الزهور، ومركبة آل « كروجر » ، تهتز مترنحة . وازدادت

المركبات اقترابا من باب الكنيسة ، فخرجت « شورا شليزنجر » بوجه يسبح فى الدموع ، ورفعت خمارها المخضل ، ورمقت صف المركبات بنظرة متفحصة ، حتى اهتدت الى المركبة التى كان حملة النعش ينتظرون فيها ، فأومأت اليهم براسها تدعوهم . ثم غابت معهم داخل الكنيسة .. واخذ القوم يتقاطرون مغادرين الكنيسة.

ـ اذن فقد انتهت آنا ايفانوفنا ! .. لم تعد معنا .. رحلت الى خير دار .. دار البقاء ! مسكينة !

ـ أجل، لقد أخذت المسكينة حظها من الحياة، وآن لها أن تستريح!

ـ هل جئت فى مركبة خاصة ، أو تراك ستستقل الحافلة رقم (١١) ؟

ـ اننى لا أطيق الحافلات ، لذلك فتعال نحرك ساقينا قليلا ، ثم نستقل مركبة !

ـ هل رأيت كيف كان « فوفكوف » حزينا ؟ .. يا لمنظره وهو ينظر اليها ، والدموع تنهمر من عينيه .. وهو يتمخط ويحملق فى وجهها !

ـ لقد اعتادت عيناه أن تعلقا بها دائما .

وما لبثوا أن اتخذوا طريقهم الى المقبرة ، فى الطرف الاقصى من المدينة . وفى ذلك اليوم ، تشقق الصقيع اليابس. كان يوما ساكنا ، راكد الهواء ، ثقيل الوطأة .. يوم انتهاء الصقيع ، ويوم انتهاء حياة .. كان يوما هو اكثر الايام لياقة لتشييع جنازة ! .. وبدا الثلج القذر وكأنه يلمع تحت ستار من قماش « الكريشة » .. ولاحت أشجار الشربين المعتمة، شبيهة بالفضة الملوثة .. أو كأنها أثواب الحداد.

فى تلك المقبرة بالذات ، كانت أم « يورا » دفينة .. ولم يكن قد زار قبرها فى السنين الاخيرة ، فنظر صوبها ، وهمس : « ماما ! » .. تماما كما كان ينبغى أن يفعل قبل سنوات !

* * *

وعادوا فى جماعات واجمة ، مهيبة المظهر . وبدت تعرجات الدروب النظيفة بعيدة عن التناسق مع الخطوات التى كان المحزونون

يتعمدون أن يكون وقعها ناطقا بالاسى .. وكانت « تونيا » تسير معتمدة على ذراع ابيها ، يتبعهما آل كروجر .. لكم كانت تونيا تبدو بديعة فى الثياب السوداء !

وكان الصقيع الاسمر اللون يكسو السلاسل التى تشد الصلبان الى القباب ، على جدران الدير الوردية ، وكأنه وشى مصوغ فى قوالب للزينة .. وفى الركن الاقصى من فناء الدير ، كان الغسيل منشورا على حبال بين الجدارين : أقمصة ذات أكمام مشبعة بالبلل .. وملاءات ، وأغطية للموائد فى لون الخوخ ، مبتلة ، ومثبتة الى الحبال فى غير تناسق .

وسار « يورا » وحيدا ، فى مقدمة الآخرين ، وهو يتوقف من آن الى آخر ليمكنهم من اللحاق به . **كان مدفوعا بقوة لا قبل له بمقاومتها – كما تندفع المياه فى الميازيب المتجهة الى أسفل – مدفوعا الى أن يحلم ، ويفكر ، ويبتدع أشكالا جديدة ، ويخلق ألوانا من الجمال ، ليصد نذر الوحشة التى جلبها الموت الى حياة تلك الجماعة الصغيرة التى كان أفرادها يسيرون خلفه بخطى وئيدة** .. وتبين – بجلاء أكثر من ذى قبل – أن للفن وظيفتين دائمتين ، مستمرتين ، لا تنتهيان : فهو دائما استغراق فى تأمل الموت .. وهو دائما – من جراء ذلك – خلق للحياة . وتحقق من أن ذلك يصدق على كل عمل فنى خالص .. ولقد صدق بالنسبة لتلك التحفة الفنية التى تسمى : « الوحى الذى تجلى للقديس يوحنا »، ولكل الاعمال الفنية التى كانت مكملة له على مر الايام .

وفكر – فى ترقب طروب – فى اليوم أو اليومين اللذين كان يعتزم أن يقضيهما وحيدا ، بعيدا عن الجامعة،وبعيدا عن البيت ، ليكتب قصيدة فى ذكرى « آنا » .. قصيدة يضمنها كل تلك الامور العابرة التى تسوقها الحياة الى طريقه : بضعة أوصاف لخير مناقب « آنا » .. حداد « تونيا » وأساها .. أحداث الطريق أثناء العودة من الجنازة .. والغسيل المعلق فى ذلك المكان الذى بكى فيه وهو طفل ، فثارت يومئذ العاصفة الثلجية !

Б. ПАСТЕРНАК
"ДрЖИВАГО"

الفصل الرابع

القدر المحتوم !



« .. واندفع الى الغرفة فجأة جميع المرضى الذين لم يكونوا مقيدين الى أسرتهم ، وقد توكأ بعضهم على عكازاتهم ، والآخرون على عصى ، والبعض يهرولون .. وقد أخذوا يصيحون : « القتال فى شوارع بطرسبورج .. لقد انضمت حامية بطرسبورج الى الثوار .. انها الثورة .. انها الثورة ! »

الفصل الرابع

القـــدر المحتـــوم!

— ١ —

• **رقدت** « لارا » فى فراش « فيليتســاتا سيميـونوفنا » ، محمومة، وشبه غائبة عن الوعى.. وراح آل سفنتيتسكى ، والخدم، والدكتور دروكوف يتحدثون فى همس حولها ..

وخيم الظلام على باقى أجزاء المنزل الخـالية ، الا من مصـباح واحد ، وضع على حامل فى غرفة الجلوس ، وأخذ يرسل ضـوءه الكليل على الحجرات المتلاصقة الممتدة أمامه فى صف طويل ..

وكان « كوماروفسكى » يقطع هذا الممر جيئة وذهابا بخطـوات واسعة ، ثابتة ، غاضبة ، وكأنما هو فى بيته الخاص ، وليس مجرد زائر هنا .. كان ينظر فى غرفة النوم مستطلعا الانبـاء ، ثم يكر على عقبيه الى آخر البيت ، مارا بالشجرة المزدانة بالنيازك الفضية، وعبر غرفة الطعام ، حيث كانت المائدة محملة بصحاف لم تمس ، والاقداح البلورية الصغيرة تصلصل كلما مرت عربة تحت النافذة ، أو مرق فأر فوق مفرش المائدة بين الخزف ..

وازدحمت فى صدره مشاعر عاصفة .. ياللفضيحة !.. ياللخزى! .. كان يغلى من الغضب . لقد اصبح مركزه مهددا ، وان سمعته لفى خطر بسبب هذا الحادث . ان عليه أن يحول دون تسرب النبأ مهما كلفه ذلك ، اما ان كان قد انتشر فعلا ، فعليه الآن أن يضـع حدا للشائعات ، وأن يخنقها فى مهدها ..

ولم يكن هذا هو سبب قلقه الوحيد .. لقد قاسى مرة أخـرى من الجاذبية التى لاتقاوم ، لهذه الفتاة الشرسة اليائسة .. لقد كان يعلم دائما انها تختلف عن كل فتاة غيرها .. كانت تمتاز عن الجميع بطبيعة فريدة فذة .. ولكن ما أعمق ماأصابها به من جراح أليمـة غير قابلة للشفاء . وما أشد ماقلب حياتها رأسا على عقب .. وكم كانت هى تبدو ضجرة عنيفة فى تصميمها على أن تعبد تشـكيل

حياتها وقدرها ، وأن تبدأ من جديد !

كان واضحا أن كل الظروف تقضى عليه بمساعدتها ، بأن يستأجر لها غرفة خاصة .. ربما .. ولكن على ان لايحاول الاقتراب منها بأى حال .. بل على العكس من ذلك ، عليه ان ينأى بنفسه عنها ، ان يقف جانبا بحيث لايكتنف حياتها بظله ، والا .. فليس هناك حد لما يمكن أن تندفع اليه فى هياجها !

وفوق هذا ، فكم من المتاعب لايزال فى الطريق . لم يكن ماحدث بالشىء الذى يرجى أى خير منه . فالقانون لا يقف ساكتا حياله . ان الصباح لم يأت بعد ، ولم تكد تمر ساعتان منذ وقعت الاحداث ، ومع ذلك فقد جاء البوليس مرتين ، وقد اضطر هو — كوماروفسكى — أن يذهب بنفسه الى المطبخ ، ويلاطف الجاويش ، لتسير الامور فى غير عنف .

وستزيد الامور تعقيدا كلما قطعت شوطا .. فمن المحتم أن يجدوا الدليل على أن « لارا » كانت تقصده هو بطلقتها ، ولم تكن تقصد كورناكوف . وحتى هذا لم يكن ليضع حدا للمسألة .. ان الفتاة سوف تبرأ بذلك من جزء من التهمة فقط ، ولكنها لا تزال معرضة للادانة عن باقى أجزائها .

ومن الطبيعى أنه سيصنع كل مايستطيع لكى لاتدان . فاذا قدمت القضية الى المحكمة ، فسيحصل على تقرير قاطع من الطبيب النفسى ، بأنها لم تكن مسئولة عن أعمالها فى اللحظة التى أطلقت النار فيها .. وتبعا لذلك ، تسقط الدعوى ..

وهكذا ، راح يهدىء نفسه بهذه الافكار .. حتى انقضى الليل ، وأخذت خيوط الضوء تنساب من غرفة الى غرفة ، وتتسلل تحت الكراسى والموائد ، كما يتسلل اللصوص ..

وألقى كوماروفسكى نظرة أخيرة على غرفة النوم ، حيث علم أن « لارا » لم تتحسن حالتها بعد .. ثم مضى خارج البيت ليذهب الى صديقته « روفينا اونيسيموفنا فويت فويتكوفسكى » ، وهى سيدة تشتغل بالمحاماة ، وكانت من قبل زوجة لسياسى هاجر من

البلاد . ان مسكنها ذا الثمانى حجرات قدأصبح الآن أوسع كثيرا من حاجتها ، ولم تعد قادرة على الاحتفاظ به .. وهى لهذا تؤجر منه حجرتين ، احداهما الآن خالية .

واستأجر كوماروفسكى هذه الحجرة للارا .. ونقلها اليها بعد بضع ساعات . وكانت لاتزال غائبة عن الوعى ، ملتهبة الرأس بالحمى ..

— ٢ —

• **وكانت** روفينا أونيسيموفنا امرأة ذات اتجاهات تقدمية باهرة ، شديدة المداوة للاجحاف والظلم ، مطبوعة على الميل الى تأييد كل ماتراه « نافعا وحيويا »

وكانت تحتفظ على صوان ملابسها بنسخة عليها اهداء المؤلف من كتاب « برنامج ارفورت » ، (برنامج الحزب الاشتراكى الديمقراطى الالمانى ، الذى تمخض عنه مؤتمر سنة ١٨٩١) . وبين الصور المعلقة على الجدران ، كانت تبدو صورة زوجها الطيب « فويت » فى متنزه شعبى فى سويسرا ، وقد جمعت الصورة بينه وبين « بليكهانوف » ، أحد قادة الفكر الماركسى ، وكلاهما يرتدى سترة من الحرير ، وقبعة من قش بناما .

ولكن « روفينا اونيسيموفنا » لم ترتح لمرأى الساكنة الجديدة المريضة . بل لقد رأت فى لارا « متمارضة » لاتطاق ، واعتقدت أن هذيانها من الحمى ان هو الا تصنع من أوله الى آخره . وما كان أيسر عليها أن تقسم أن لارا تحاول تمثيل شخصية بائس قضى عليه بالجنون ، فى جب قوطى قديم ..

وكانت تظهر احتقارها لها بصورة لاتخلو من النشاط والخفة .. فهى تضرب الابواب بشدة . وترفع صوتها بالغناء ، وتندفع فى الجزء الذى تشغله من البيت كالاعصار ، وتترك النوافذ مفتوحة طيلة اليوم .

وكانت الشقة تقع فى الدور العلوى من أحد منازل شارع (أربات)،

الشارع الواسع ، ذى السوق . وعندما ينتصف الشتاء ، ويبدأ الجو دورته نحو الربيع ، كانت نوافذها تبدو غرقى فى السماء الزرقاء ، وكأنما هى نهر عظيم فى موسم الفيضان .. وطيلة النصف الثانى من كل شتاء، كانت هذه الشقة تزخر ببشائر الربيع القادم.

وأخذت ريح الجنوب الدافئة تقتحم النوافذ ، وقطارات السكة الحديد تزأر من محطاتها البعيدة ، وكأنها سباع البحر .. بينما لارا مريضة راقدة فى فراشها ، تملأ فراغها بالذكريات .

وكم كانت تذكر أمسيتها الاولى فى موسكو ، عندما قدمت اليها لاول مرة من الاورال .. كانت هذه الامسية ، التى مرت عليها سبع سنوات أو ثمان ، احدى أمسيات طفولتها التى لا تنسى ..

كانوا يعبرون المدينة فى عربة أخذت تقطع بهم الطرق الضيقة المظلمة ، من المحطة الى الفندق الذى يقع فى الطرف الآخر من المدينة .. وكانت مصابيح الشوارع ترسم للحوذى ظلالا حدباء تتتابع على الجدران بتتابعها .. وكان ظل الحوذى يبدأ صغيرا ، ثم يكبر ويكبر ، حتى يصبح عملاقا ضخما يمتد الى سطوح المنازل ، واذا هو ينحسر مرة واحدة ، ليبدأ صغيرا من جديد ..

كانت أجراس موسكو الثمانون العريقة تطن فى الظلمة، ومركبات الترام تصلصل بأجراسها وهى تنطلق مسرعة فى الطرقات .. ومع كل هذا فقد كانت الانوار ، وواجهات الحوانيت ، تصم أذنى لارا ، وكأنما كانت هى الاخرى تحدث من الجلبة ما تحدثه العجلات والاجراس..

وعند دخولها غرفة الفندق ، أذهلها وجود بطيخة هائلة الحجم الى حد غير مألوف . كان كوماروفسكى قد جاء بها كهدية لها بمناسبة انتقالها الى مقامها الجديد ، وقد رأت هى فيها رمزا لجاهه وثروته .. ولقد أمسكت أنفاسها فى فزع وهى تراه يغمد السكين فى هذه الاعجوبة ، فتنشق البطيخة الداكنة الخضرة الى نصفين ، كاشفة عن قلب سكرى مثلج ، ولكنها لم تستطع ان ترفض تناول شريحة منها . وعلى الرغم مما انتابها من توتر عصبى ، أوقف فى حلقها ما تقضمه من هذه الفاكهة الوردية الناضرة ، فقد أرغمت

نفسها على ازدرادها ..

ومثلما روعتها الاطعمة الباهظة الثمن ، وحياة الليل فى العاصمة ؛ فكذلك بدأت ترتاع من كوماروفسكى نفسه .. وكان هذا هو التفسير الصحيح لكل شىء ..

ولكنه الآن قد تغير كثيرا .. تغير الى حد أبعد من حدود التصور .. فلم يعد الآن يطالبها بشىء .. ولم يعد يذكرها بالماضى مطلقا ، بل انه لم يعد يحضر لرؤيتها .. لقد امسك بنفسه بعيدا عنها ، وان كان قد حرص على أن يؤكد لها بأكثر الطرق رقة ولطفا ، استعداده الدائم لمساعدتها .

أما « كولوجريفوف » ، فكان سلوكه مختلفا جدا عندما زارها . ولقد ملأتها زيارته سرورا .. لا بسبب طوله الفارع وجماله الوضىء ، ولكن لما يشعه من حيوية وذكاء ، بالاضافة الى ابتسامته الخلابة ومرحه .. حتى لكأنما شغل وحده نصف المكان من غرفتها ..

جلس الى جوارها وفرك يديه مفكرا .. لقد كان يدعى فى المناسبات الى الاجتماعات العليا فى (بطرسبرج) ، فيخاطب الشيوخ ذوى الالقاب الرفيعة ، وكأنهم تلاميذ مدارس أشقياء .. ولكنه الآن يجلس ، والى جواره فتاة كانت الى عهد قريب احدى أفراد بيته .. كانت كابنة له .. صحيح أنه لم يكن يبادلها فيما مضى أكثر من كلمة أو نظرة عابرة ، شأنها فى ذلك شان باقى أفراد عائلته ، ولكن سلوكه ـ فى هذه الحدود الضيقة ـ لم يكن يخلو من حرارة وسحر يعرفهما الجميع .. لذلك لم يستطع أن يعاملها بغير اكتراث كما يصنع مع الآخرين . واذ كان لا يدرى كيف يبدأها بالكلام دون أن ينكأ ما يؤلمها من جراح .. فقد قال لها بابتسام وكأنه يحادث طفلا : « والآن يا بنيتى ، ماذا تبتغين ، وماذا وراء كل هذا الشجن والتأثر ؟ »

وسكت برهة ، وهو يفحص بعينيه البقع الرطبة على الجدران والسقف ، ثم هز رأسه فى أسى وقال : « انى ذاهب الى دسلدورف

حيث يفتتح هناك معرض للرسم والنحت والزهور .. ان المكان هنا رطب كما تعلمين . وفوق هذا ، فالى متى تريدين أن تجوبى الآفاق على غير هدى ولغير مكان لائق تعيشين فيه ؟ . بينى وبينك ، هذه المرأة « فويت » امرأة سيئة للغاية .. انى أعرفها . فلماذا لا تنتقلين من بيتها ؟ لقد مضى عليك وقت طويل وأنت مريضة طريحة الفراش ، وقد آن لك أن تنفضى عنك فراش المرض .. غيرى هذه الغرفة .. قومى بعمل ما .. أتمى دراستك .. ان لى صديقا رساما سيرحل الى تركستان لمدة عامين .. ولديه فى الاستديو مكان منفصل ، أشبه بشقة صغيرة ، أعتقد انه سيعهد بها الى شخص ما خلال غيبته ، فما رأيك لو استأجرتها لك منه ؟ .. وثمة واجب آخر كنت أريد ان أؤديه من زمن طويل .. واجب مقدس .. منذ كانت « ليبا » .. هاك قدرا قليلا من المال .. انه مكافأة على تخرجها . لا .. من فضلك .. لا .. أرجوك .. لا تكونى عنيدة هكذا .. لا .. ان عليك ان تقبلى .. »

وعلى الرغم من كل احتجاجاتها ، ودموعها ، ومقاومتها .. فقد أرغمها قبل أن يمضى ، على أن تقبل منه شيكا بمبلغ عشرة آلاف روبل ..

وانتقلت « لارا » ، فور شفائها ، الى المسكن الذى اختاره لها « كولوجريفوف » بالقرب من سوق (سمولنسكى) . وكانت الشقة فى أعلى بيت ذى طابقين يبدو عليه القدم . وكان يسكن الجزء المقابل من البيت جماعة من الحمالين وحوذية النقل .. بينما يستخدم الطابق الارضى كمخزن للبضائع . أما الفناء المرصوف ، فكان دائما يفرش بالبرسيم والشوفان . وبينما كانت أسراب الحمام تختال هناك ، وتصفق بأجنحتها فى جلبة بالقرب من نافذة لارا .. كانت اسراب الجرذان تمرح ايضا فى الميازيب ..

— ٣ —

• **وكان** « باشا » شديد القلق على لارا .. فقد حيل بينه وبين

زيارتها طيلة أيام مرضها .. وأى شعور كان ينتابه ؟ ان لارا قدحاولت أن تقتل رجلا ، لم يكن يربطها به ـ فيما يعلم ـ سوى رباط المعرفة .. وهذا الرجل نفسه الذى حاولت لارا أن تقتله ، قد أصبح فيما بعد درعها الواقى الذى درأ عنها ما كان ينتظرها من عقاب .. شكرا له على أى حال ، فقد أصبحت قادرة على مواصلة دراستها ، آمنة من كل شىء .. ولكن ، يا للحيرة والعذاب اللذين ينهشان قلب باشا !!

ولقد أرسلت لارا فى طلبه عندما تحسنت حالتها . ثم قالت له :

((انى امرأة سيئة .. وانت لا تعرفنى ، ولا تعرف مقدار سوئى .. سأخبرك بكل شىء فى يوم من الايام .. أما الآن فلست أستطيع أن أقول شيئا .. لقد رأيت بنفسك ، كيف يأخذنى البكاء كلما حاولت أن اتكلم .. ابتعد بنفسك عنى .. يجب عليك أن تفعل .. أن تنسانى تماما .. فلست أستحقك))

وتلت ذلك مشاهد مروعة ، كان كل منها أشد إيلاما من سابقه



.. كانت لارا اذ ذاك لا تزال مقيمة فى شارع (أربات) . وكانت المحامية ربة الدار تلتقى بباشا فى بهو مسكنها ، فلا تكاد ترى الدموع المنسابة على وجهه ، حتى تكر مندفعة الى غرفتها ، حيث تلقى بنفسها على الاريكة وتنفجر ضاحكة ، وهى تصرخ : « يا للعجب .. يا للعجب .. يا للرجل القوى الصامت .. يا له من شمشون ! »

أما لارا ، فلكى تحل باشا من هذه الصلة المدمرة ، وتقتلع حبه لها من جذوره ، وتضع حدا لعذابه ، فقد أعلنت أنها قطعت كل ما كان بينهما من صلات ، لانها لم تعد تحبه ! .. ولكنها كانت وهى تعلن هذا تبكى بكاء مرا ، يستحيل معه تصديقها ..

وكان « باشا » يتهم لارا فى نفسه بالسبع خطايا المميتة جميعا .. ولم يكن يصدق حرفا واحدا مما تقول .. بل كان خليقا ان يلعنها ، ويمتلىء حقدا عليها .. لولا أنه كان ولها فى حبها ، شديد الغيرة عليها .. يغار من الاناء الذى تشرب منه ، والوسادة التى ترقد عليها .. وهكذا تعين عليهما اذا أرادا أن يحتفظا برشدهما ، أن يعملا بسرعة وحزم .. واتفقا على الزواج فورا .. بغير انتظار لامتحاناتهما .. وقررا أن يتم الزواج فى يوم الاحد التالى للعيد .. ولكنهما أجلاه بعد ذلك ، الى يوم الاثنين المعروف بعيد السجدة :

وعندما تم زفافهما فى ذلك اليوم ، كانا أيضا قد تخرجا بنجاح . وقد قامت بالاشراف على زفافهما « ليودميلا كابيتونوفنا تشيبوركو » ، والدة « توسيا » ، زميلة لارا فى الدراسة . وليودميلا امرأة لطيفة ، بارزة الصدر ، تمتاز بصوت غنائى خفيض ، ورأس ملىء بعدد لا يحصى من الخرافات ، التى ورثت بعضها ، واصطنعت بعضها الآخر بنفسها ..

وكان يوما شديد الحرارة ، ذلك اليوم الذى كانت لارا « ستساق فيه الى الهيكل » على حد تعبير ليودميلا فى صوتها المنغم النورى .. كانت الصفرة الصارخة تشع فيه من قباب الكنائس المذهبة ، ومن الرمال المفروشة على ممرات الحدائق . وكانت أغصان الشجر

التى قطعت فى يوم « أحد الشعانين » ، معلقة على أسوار الكنائس ، وقد علاها الغبار ، والتوت أوراقها تعكس وهج الشمس .. لم تكن ثمة نسمة هواء ، وكانت أشعة الشمس المتوهجة تتراقص أمام الاعين فتبهر الابصار ..

وكأنما كان فى ذلك اليوم ألف زفاف .. فقد انتشرت الفتيات جميعا كالعرائس فى ثياب خفيفة لامعة ، وقد جعدن شعورهن . بينما صفف الفتيان شعورهم بالدهانات ، وارتدوا الثياب المحبوكة السوداء ، احتفالا بيوم العيد .. والحر يلفح الجميع ويثير اعصابهم ..

وعندما بدأت « لارا » تخطو أولى خطواتها فوق البسط المفروشة الى المذبح ، نثرت « لاجودنيا » — وهى أم صديقة أخرى لها — بدرة من الفضة تحت قدميها ، لتكون فألا حسنا يأتى لها بالخير .. وكانت « ليودميلا » قبل ذلك قد زودتها بعدد من النصائح لنفس السبب .. كانت قد أوصتها بألا ترسم علامة الصليب بأصابعها العارية ، عندما يعقد فوق رأسها اكليل الزفاف ، وانما تغطى أصابعها بطرف طرحتها ، أو ببعض شرائطها المزركشة .. وثمة نصيحة أخرى وجهتها لها ليودميلا ، هى أن ترفع شمعتها عاليا أثناء الصلاة ، لتكون لها الامرة على البيت .. أما هى ، فقد دفعتها التضحية الى تسليم مصيرها لباشا ، فأخذت تهبط بشمعتها الى أقصى ماتستطيع .. وعبثا كانت تحاول ، فكلما كانت تهبط بشمعتها ، كان باشا يهبط أكثر بشمعته !

وخرج الجميع من الكنيسة ليتناولوا طعام الافطار فى الاستديو الذى كان باشا قد زينه استعدادا للحفل .. وكالعادة الروسية فى أيام الزفاف ، صاح بعض الحاضرين : « هذا الطعام مر » ! .. وأجاب الآخرون .. « هيا اجعلوه حلوا » . وفى ابتسامة خجلى تعانق العروسان ، وتبادلا قبلة ..

وبدأت ليودميلا تغنى أغنية « شجرة الكرم » بقرارها المزدوج « ليمنحكما الله الحب والوفاق » ، ثم غنت بعد ذلك أغنية مطلعها « هيا احلل ضفائرها .. وبعثر الشعر الجميل » !

وعندما انصرف الضيوف ، تاركين باشا وحيدا مع عروسه ، ملأه الصمت المفاجىء بالاضطراب . كان الضوء يصل الى الغرفة من مصباح الطريق .. وعبثا حاول باشا أن يحجبه تماما باحكام الستائر . فقد ظل شعاع دقيق منه ينفذ الى الغرفة .. وزاده هذا الشعاع اضطرابا ، كأنما هناك من يراقبه .. ولم يلبث أن اكتشف أنه كان منصرفا الى التفكير فى هذا الضوء ، أكثر من تفكيره فى لارا ، أو فى نفسه ، أو فى حبه لها .. !

وفى هذه الليلة ، بلغ «أنتيبوف» ، أو « ستيفانى » ، أو «العذراء الجميلة » — كما كان اصدقاؤه يسمونه — قمة الفرح .. وهبط ايضا الى أعمق أغوار اليأس . كانت الشكوك والمخاوف تتعاقب عليه مع اعترافات لارا .. كان يلقى عليها السؤال بعد السؤال ، ومع كل اجابة منها ، كانت روحه تغوص الى أعماق بعيدة ، وكأنما هو هابط الى هاوية .. فأنى لخياله الجريح ، أن يساير ماكانت تبوح به اليه ! ؟

وظلا يتحدثان حتى الصباح .. ولم يحدث لباشا طيلة حياته أن أصابه تغيير حاسم مفاجىء ، كهذا الذى حدث له فى تلك الليلة .. لقد نهض فى الصباح وقد تغير تماما، وكأنه رجل جديد، يدهشه أن يكون فى يوم من الايام قد عرف باسم « باشا انتيبوف » !

— ٤ —

• **وبعد** تسعة أيام ، أقام لهما أصدقاؤهما حفلة وداع ، فى نفس الغرفة .. فقد كانا كلاهما قد اجتازا الامتحان بتفوق ، وحصل كل منهما على عمل فى مدينة واحدة من مدن الاورال .. وكانا قد تأهبا للسفر الى مقرهما الجديد فى اليوم التالى .

وقد شربوا ، وغنوا ، وضجوا .. وكانوا جميعا هذه المرة من الشباب ..

وخلف الحاجز الذى يفصل بين الاستوديو وبين الجانب المخصص للسكن ، كانت هناك سلة كبيرة للأمتعة ، وأخرى أصغر منها ،

وحقيبة لارا الكبيرة ، وحقيبة صغيرة أخرى ، وصندوق للاوانى الخزفية ، وعدد من الطرود .. متاع كثير كان ينتظر السفر ، وقد أعد جانب منه للشحن فى اليوم التالى . ورغم أن كل هذه الصناديق والسلال والحقائب ، قد كانت محزومة بأربطتها تماما ، فقد كان هناك فراغ فى الحقيبة ، وفى السلال .. وكانت لارا بين لحظة وأخرى تتذكر شيئا تريد أخذه معها ، فتدسه فى احدى السلال ، معيدة ترتيبها بعناية لتعيد استواء سطحها ..

وكان باشا يرحب بالضيوف فى البيت ، عندما عادت لارا من ادارة الكلية ، حيث كانت تسترد شهادة ميلادها ووثائقها الاخرى .. وقد صعدت الى الدار ، يتبعها حمال يحمل حزمة من الزكائب وحبلا سميكا ، لربط الامتعة التى تم اعدادها للشحن .

وتركت لارا الحمال خارجا ، ثم مضت تطوف بالضيوف ، تسلم على البعض ، وتقبل البعض الآخر ، قبل أن تذهب الى غرفة النوم لتغير ملابسها .. وصفق الجميع عندما عادت وجلست بينهم ، وعادت الضجة والصخب ، كما حدث فى حفلة العرس ..

وأقبل البعض على الفودكا ، يصبون لانفسهم ، وللجالسين الى جوارهم .. وامتدت الايدى ، والشوك ، الى وسط المائدة حيث صف الخبز وأطباق المشهيات وصحاف الطعام .. وقرعت الكؤوس ، وألقيت الكلمات ، وعلت الاصوات بالفكاهة والمرح ، وقد شملتهم جميعا النشوة ..

وهمست لارا فى اذن زوجها الجالس الى جوارها : « انى لفى شدة التعب .. هل قمت بتدبير كل شىء ؟ ! »

وأجاب باشا :

ـ نعم

ـ ومع ذلك ، فأنا اشعر بغبطة عظيمة .. كم انا سعيدة .. ألست سعيدا أنت ايضا ؟

ـ بالتأكيد ... يالها من قصة !

وكان كومار وفسكى قد سمح له ـ على وجه الاستثناء ـ بحضور

حفلة الشباب .. فلما آذنت السهرة بالانتهاء ، بدأ يتحدث عن صعوبة الفراق ، وكم سيفتقد صديقيه الصغيرين عندما يبرحان موسكو ، وكيف ستصبح المدينة خالية بدونهما ، كأنها صحراء .. وغلبه التأثر ، فأخذ ينتحب ، ويعيد كل ماقاله مرة أخرى ، مستأذنا انتيبوف وزوجته فى ان يكتب لهما .. بل فى ان يصحبهما عند سفرهما الى الاورال ، اذا شق عليه احتمال لحظة الوداع ..

وعلا صوت لارا ، وهى تجيبه شاردة الذهن : «لا .. لا .. لاضرورة لشيء من كل هذا .. وهى بعد أشياء لاتجدى .. الكتابة .. والصحراء .. وما الى ذلك من الكلام .. اما عن مصاحبتنا الى الاورال ، فاياك أن تفعل ... ان الله سيساعدك على احتمال فراقنا . ونحن بعد لسنا من الندرة بحيث لانعوض .. سيسعدك الحظ ، فتجد من يعوضك عنا من الاصدقاء .. اليس كذلك يا باشا ؟ »

وكأنما تذكرت شيئا على حين غرة ، فقد نهضت مسرعة وهرولت الى المطبخ ، فأخذت مفرمة اللحم ، ومضت تحشر أجزاءها فى صندوق الخزف ، محيطة اياها بلفائف من القش .. وقد خدشتها حافة الصندوق وهى منهمكة فى تصفيفه ، وأصابتها بجرح فى يدها .. ولكنها كانت لاهية عن كل هذا ، كانت منهمكة فيما تعمل الى حد انها نسيت ضيوفها ، ولم تعد تشعر بوجودهم .. حتى ذكروها بأنفسهم عندما علت أصواتهم بالضحك والضجيج .. وقد بدا لها عندئذ أن الناس عندما يفرطون فى الشراب ، يحاولون تمثيل أدوار السكارى .. وأنهم كلما شربوا اكثر ، كلما امعنوا فى التمثيل الى حد المبالغة ..

ولكن صوتا آخر تناهى اليها من الفناء ، فجذبها الى النافذة .. ورفعت لارا الستائر ، وأطلت ..

كان فى الفناء حصان موثق ، يقفز قفزات قصيرة عرجاء .. وحارت لارا .. لمن الحصان ، وكيف جيء به الى الفناء .. ومدت بصرها الى المدينة النائمة ، فبدت أمامها وكأنما خلت من كل أثر للحياة .. كانت المدينة متشحة بالزرقة الداكنة الرطبة للساعات

للبكرة قبل طلوع النهار .. وأطبقت لارا عينيها ، وقد حملتها أصوات الحصان الموثق، الى ذكريات الريف العميقة، ومرحها الماضى، كما لم يكن يمكن أن يذكرها بها شىء آخر ..

ورن جرس الباب ، فنهض أحد الحاضرين ليفتح للطارق الجديد. وأرهفت لارا أذنيها ، فاذا هى تسمع صوت « ناديا » ، فتندفع مسرعة لملاقاتها .. كانت ناديا آتية لتوها من القطار ، تفيض نضرة وسحرا ، ويفوح منها عطر الزنبق النامى فى وادى (دوبليانكا) ..

وعقد التأثر لسانى الصديقتين .. فتعانقتا .. تاركتين لدمعهما العنان ..

كانت ناديا تحمل للارا تهانىء الاسرة ، وأمانيها الطيبة.. وهدية من أبويها .. فما لبثت أن أخرجت من حقيبة سفرها علبة حلى ، فتحتها واخرجت منها عقدا ساحرا ..

وعمت الفرحة والدهشة جميع الحاضرين .. وصاح أحدهم ، وكان قد أفرط فى الشراب ، ثم بدأ يفيق قليلا :

ـ هذه الاحجار .. من الياقوت الوردى .. نعم .. نعم .. هذا هو الياقوت الوردى ، صدقوا .. أو لاتصدقوا .. فهكذا يبدو دائما .. انه قيم كالماس ..

وقالت ناديا : « لا .. انه من الياقوت الاصفر .. »

وأجلست لارا ناديا الى المائدة بجوارها ، وقدمت لها طعاما وشرابا **.. وكان العقد يرقد فى علبته المفتوحة الى جوار صحفتها ، ولارا لاتستطيع أن تكف عن النظر اليه .. كانت حباته تتألق فوق وسادته البنفسجية ، فتبدو حينا كقطرات الندى ، وحينا كعنقود العنب الصغير ..**

وفى نفس الوقت ، عاد الضيوف ـ الذين كانوا قد بدأوا يفيقون ـ الى الشراب مرة اخرى ، من اجل ناديا .. وظلوا يشربون جميعا حتى شملتها النشوة هى الاخرى .

وسرعان ما استغرق كل من فى البيت فى النوم . فقد كان أغلبهم سيصحبون لارا وباشا الى المحطة ، ففضلوا البقاء جميعا فى الدار

.. وكان عدد منهم قد بدأ يغط فى النوم فعلا قبل وصول ناديا .. بل ان لارا نفسها لم تستطع أن تفهم كيف وجدت نفسها نائمةعلى كنبة بكامل ملابسها الى جوار « ايرا لاجودينا » .

فقد أيقظتها أثناء الليل أصوات فى الفناء ، اذ كان أصحاب الحصان قد جاءوا ليأخذوه .. وعندما فتحت عينيها ، تساءلت فى نفسها : « لماذا يتسكع باشا هكذا فى وسط الغرفة ؟ ! » ، فلما ادار الرجل الذى ظنته باشا رأسه ، رأت أمامها وجها بشعا ، مجدورا ، به آثار جرح عميق ممتد من حاجبه الى ذقنه .. وأيقنت لارا انه لص ، فحاولت أن تصيح ، ولكنها لم تجد أثرا لصوتها .. وتذكرت العقد فى الحال ، فنهضت بحذر متكئة على مرفقها ، ونظرت الى المائدة ، حيث تركت العقد ..

كان العقد لا يزال فى مكانه بين كسر الخبز وأوراق الشيكولاتة الفارغة .. فلم يكن اللص الغبى قد اهتدى بعد اليه ، اذ كان ينبش فى الحقائب التى رتبتها بعناية ، مفسدا ما انفقت فيه وقتا وجهدا كبيرين .. نعم .. كان هذا هو مااستطاع أن يشغل بالها فى تلك اللحظة ، وهى بعد نصف نائمة ، لم تذهب عنها آثار نشوتها ..

وحاولت أن تصرخ مرة أخرى ، فاحتجز الخوف صوتها .. ولم تجد وسيلة الا أن تدفع بركبتها فى بطن ايرا .. وحينما صرخت ايرا من الالم ، وجدت هى أيضا صوتها فصرخت !

وألقى اللص بكل مافى يديه ، وهرول خارجا .. وصحا بعض الرجال فقفزوا خلفه يريدون اللحاق به ، غير فاهمين شيئا مما كان يجرى .. ولكنهم عندما وصلوا الى الباب الخارجى ، كان اللص قد اختفى تماما ..

وأيقظت الضجة الجميع .. ولم تسمح لهم لارا بالعودة الى النوم ، فأعدت لهم أقداح القهوة ، وتركتهم يعودون الى منازلهم حتى يحين وقت الذهاب الى المحطة ..

وعاودت لارا العمل فى سرعة واضطراب ، فأخذت تحشر أغطية الفراش حشرا فى السلال ، وتعيد ترتيب الحقائب ، وتحزم الامتعة

بالحبال .. وتتوسل الى باشا وزوجة الحمال ، ألا يزيدا من مشقتها ، بمحاولتهما مساعدتها ..

وانتهى اعداد كل شيء فى الوقت المناسب ، فلحقت عائلة أنتيبوف بالقطار، الذى أخذ يتحرك رويدا رويدا، يسايره أصدقاؤهما الكثيرون وهم يلوحون بقبعاتهم .. وعندما كفوا عن التلويح بالقبعات ، وصاحوا ثلاث مرات : « مرحى .. مرحى .. مرحى ! » ، كان القطار قد بدأ يستكمل سرعته .. ليختفى ..

— ٥ —

• **مرت** ثلاثة أيام متتالية ، والطقس موحش كئيب .. وكان هذا هو الخريف الثانى للحرب ، وقد بدأ التراجع يعقب انتصارات العام الاول منها .. فالجيش الثامن الذى كان قد تجمع فى الكربات بقيادة بروشيلوف ، على أتم استعداد للزحف الى المجر ، قد بدأ الآن يتراجع ، متأثرا بموجة الانسحاب العام . ولقد بدأنا نخرج من غاليسيا التى تم لنا احتلالها فى الاشهر الاولى للقتال .

وكان الدكتور جيفاجو ـ الذى كان يعرف الى عهد قريب باسم يورا ، ثم بدأ يشتهر الآن باسم يورى اندريفتش ـ واقفا امام غرفة الولادة فى قسم أمراض النساء بالمستشفى ، حيث كان قد أحضر زوجته « تونيا » لتوه . وكان قد فرغ من وداع زوجته ؛ ثم وقف ينتظر المولدة ، ليتفق معها على كيفية حصوله على أنباء زوجته ، واستدعائه اليها اذا لزم الامر ..

كان فى عجلة شديدة ، اذ كان عليه أن يذهب فورا الى مستشفاه الخاص .. وكان عليه قبل ذلك أيضا ، أن يمر بمريضين فى طريقه . وها هو ذا يضيع وقتا ثمينا فى التطلع من النافذة ، ومتابعة قطرات المطر ، اذ تجرفها ريح الخريف ، فتبدو وكأنما هى حقل من عيدان الذرة ، هبت عليه عاصفة !

ولم يكن الظلام قد اشتد بعد . فكان يستطيع أن يرى الجانب الخلفى من المستشفى ، والمنازل المجاورة له ذات الشرفات المغطاة

بالزجاج ، وقضبان الترام المؤدية الى أحد عنابر المستشفى .

وأخذ المطر ينهمر فى رتابة كئيبة ، لايسرع ولا يبطىء ، غيرمبال باحتدام الرياح ، التى كأنما أغضبها عدم اكتراثه بها ، فأخذت تهز النباتات المتسلقة على جدران منزل قريب ، تريد أن تقتلعها من جذورها ، لتعبث بها فى الفضاء ، ثم تسقطها باحتقار ، كبساط ممزق ، متهتك الاوصال ..

ومر ترام ذو عربتين من أمام الشرفة الى مدخل المستشفى حاملا عددا من الجرحى ..

كانت مستشفيات موسكو قد غصت بالمصابين . وامتلأت جميع الممرات بالجرحى ، ورقد الكثير منهم على الارض ، وبدأ الزحام يزحف متجها الى عنابر النساء .

وابتعد يورى عن النافذة ، وهو يتثاءب من التعب والارهاق .. لم يكن لديه مايفكر فيه .. ولكنه تذكر فجأة حادثا وقع منذ أيام فى مستشفى الصليب المقدس ، حيث يعمل .. كانت امرأة قد ماتت فى قسم الجراحة بالمستشفى . وقرر يورى أن سبب موتها هو تسمم فى الكبد . ولكن الاطباء الآخرين جميعا لم يوافقوه فى الرأى . فتقرر لذلك تشريح جثتها ، وحدد اليوم موعدا للتشريح .. وكان يورى يعرف أن الطبيب المنوب اليوم ، رجل سكير عربيد .. والله وحده يعلم الى أى قرار ينتهى !

وهبط الظلام فجأة حتى تعذرت رؤية أى شىء خارج الجدران .. ولكن .. كأنما عصا سحرية قد مست المكان كله ، فانبعثت الاضواء من جميع النوافذ فى لحظة واحدة !

وخرج كبير أطباء النساء من عنبر « تونيا » ، مارا بالردهة الضيقة التى تفصل العنبر عن الممر .. وكان الرجل بدينا هائل الجرم ، من نوع الاطباء الذين كلما سألهم سائل عن شىء ، هزوا أكتافهم ، وأداروا أعينهم فى محاجرها ، وكأنما يرددون قول هاملت المشهور : « مهما بلغنا من العلم ، فهناك أشياء كثيرة أخرى فى السماء والارض ياهوراشيو .. »

ومر الطبيب بيورى فأومأ له مبتسما ، ثم أشار اليه بيديه كأنما يقول : « لم يعد هناك ما تحتاج اليه غير الصبر » ، ومضى فى طريقه الى آخر الممر ، ليشعل لفافة فى غرفة الانتظار .

وتبعته بعد ذلك مساعدته ، وكانت ثرثارة بقدر ماكان هو قليل الكلام ، وما أن رأت يورى حتى قالت له : « لو أنى فى مكانك لعدت الى بيتى على الفور . اذ لماذا تنتظر ؟ . سأتصل بك تليفونيا غدا فى الصليب المقدس . وليس من المحتمل مطلقا أن يحدث أى شىء حتى ذلك الوقت . ان جميع الدلائل تدل على أنها ستلد ولادة طبيعية ، والارجح انها لن تحوجنا الى اجراء اى جراحة لها . هذا بالرغم من ان حوضها ضيق ، ورأس الطفل فى الموضع الخلفى ، وهى لم تبدأ فى الشعور بالالم بعد ، والانقباضات خفيفة ، مما يسبب شيئا من القلق .. ولكن هذا الكلام على كل حال سابق لاوانه .. فعلينا أن ننتظر حتى يبدأ احساسها بالالم ، وتتقدم نوبات المخاض .. وعندئذ ، نستطيع أن نقرر بدقة ما يجب أن يعمل . »

وعندما أتصل يورى تليفونيا بالمستشفى صباح اليوم التالى ، تلقى منه حارس الباب سؤاله ، ثم أمهله حتى يستفسر له عما يريد . وبعد أن تركه عشر دقائق عسيرة ، عاد اليه بهذه الاجابة المقتضبة ، المصوغة فى كلمات جافة : **« انهم يقولون انك أحضرت زوجتك قبل الاوان ، وان عليك أن تأتى لتأخذها ! »**

وطلب منه يورى ثائرا أن يرسل فى طلب شخص مسئول ليتفاهم معه .. وعندما جاءت الممرضة أخيرا ، أجابته بقولها أن أعراض الولادة التى ظهرت على زوجته كانت أعراضا كاذبة .. وان عليه الا يقلق لشىء ، فقد تستمر هذه الحال يوما أو يومين ..

وفى اليوم الثالث ، قيل له أن نوبات المخاض قد بدأت ليلا ، وأن كيس المياه قد انفجر عند الفجر ، وأن آلام الوضع تتتابع على فترات متقاربة منذ الصباح .

واندفع رأسا الى المستشفى ، وبينما كان يقطع المسافة الى باب الغرفة الذى كان قد ترك مفتوحا عن طريق السهو ، تناهت اليه

صرخات تونيا تمزق قلبه . كانت تصرخ ، وكأنها ضحية حادث .. كأنما كان يسحبها قطار مزق أطرافها تحت عجلاته !

ولم يسمح له برؤيتها .. فأخذ يعض أصابعه حتى أدماها .. ثم مضى الى النافذة ، وكان المطر لايزال يهطل كما حدث خلال اليومين السابقين .

وخرجت خادمة العنبر ، فسمع « يورى » مع خروجها ثغاء طفل مولود لتوه ، فهمس لنفسه فرحا : « لقد نجت ! .. لقد نجت ! » .. وقالت الخادمة بصوت منغم : « انه ولد .. ولد صغير .. أهنئك بسلامتها » . ثم أضافت : « انك لن تستطيع رؤيتها الآن .. سيسمح لك بالدخول عندما ينتهى كل شىء .. وعليك حينئذ أن تداعبها ، وتنسيها آلامها .. لقد مرت بها لحظات عصيبة ، فهذه ولادتها الاولى ، والولادة الاولى شاقة فى أغلب الاحيان »

ولكنه كان يردد فى نفسه فرحا هذه العبارة : « لقد نجت ! .. لقد نجت ! » ، غير ملق بالا لكلام الخادمة التى كانت توجه اليه التهنئة ، **وكأنما كان له أى فضل فيما حدث .. اذ ماذا صنع هو فى الحقيقة ، ليصبح أبا .. لطفل ؟ ! انه لم يصنع شيئا يستطيع أن يفخر به لكسب هذه الابوة التى هبطت عليه من السماء . أما العظمة الحقيقية ، فهى عظمة تونيا .. تونيا التى خاضت الخطر المحقق ، والتى نجت الآن منه !**

وكان أحد مرضاه يسكن على مقربة من المستشفى ، نذهب لعيادته ، ثم عاد الى المستشفى بعد نصف ساعة .. ومرة أخرى كان باب العنبر والغرفة لايزالان شبه مفتوحين . وبغير تفكير اندفع يورى الى العنبر . واذا به وجها لوجه أمام كبير الاطباء الذى ظهر فجأة كأنما انشقت الارض عنه ، ليسد عليه الطريق بجسده الكبير ، وثيابه البيضاء .

وخاطبه كبير الاطباء همسا حتى لايزعج المرضى : « ماذا جئت تصنع هنا ، هل فقدت عقلك يارجل ؟ .. الجراح والدماء وأخطار

التسمم .. ناهيك عن الصدمات النفسية أيضا .. ياله من سلوك حميد .. ومنك أنت .. انت الذى تسمى نفسك طبيبا » !

– لم أكن أقصد ... فقط اسمح لى بأن ألقى نظرة .. نظرة واحدة من هنا فقط ، من خلال هذا المصراع ..

– حسنا .. لا بأس اذا كنت لاتستطيع صبرا .. ولكن لاتدعنى أضبطك .. واياك أن تجعلها تراك ، فلو حدث أن رأتك ، سأدق انا عنقك .. سأقتلك .. أتفهم ؟

كان بداخل الغرفة امرأتان وقفتا فى ثياب بيضاء ، وقد أعطيتا ظهريهما للباب . كانت احداهما هى المولدة، والاخرى هى الممرضة.

وعلى راحة يد الممرضة ، رقد مخلوق آدمى حديث الولادة ، يتلوى ويمد أطرافه ويقبضها ، وكأنه قطعة من المطاط داكنة الاحمرار .. وكانت المولدة تربط أوعية السرة الدموية قبل أن تقطع حبلها ، وكانت « تونيا » راقدة على فراش العمليات ذى الظهر المتحرك فى وسط الغرفة . وقد بدا الفراش أعلى من المستوى الطبيعى ، بل ان يورى الذى كان لفرط انفعاله يجسم كل شيء ويبالغ فيه ، قد خيل اليه انها ترقد على فراش يبلغ ارتفاعه نفس ارتفاع المكاتب التى أعدت ليكتب الناس عليها وهم وقوف !

وكانت الزوجة تستلقى فى اعياء على هذا الفراش المرتفع ، وقد غلفتها سحب من آلامها المنقضية .. **ولاحت لعينى يورى كأنما هى سفينة راسية فى وسط الميناء ، بعد أن ألقت حمولتها .. سفينة تخبطت فى بحار الظلمة بين شواطىء العالم المجهول ، وبرور الامان ، حاملة أرواحا ترتحل فيها لاول مرة** .. وها هى ذى احدى هذه الارواح ، قد هبطت الى الشاطىء . وألقت السفينة مراسيها ، وطوت شراعها لتستريح .. كل مافيها يستريح : شراعها المنصوب، وهيكلها .. وحتى ذاكرتها ، قد خلت تماما من كل ما مر بها من صور .. من صور الشاطىء المجهول ، والمعبر المظلم ، وبر الامان !

وكما أن أحدا لم يكن يعرف من أى بلد جاءت ، وأى علم ترفع، فكذلك لم يكن احد يعرف بأى لغة يخاطبها ..

وعندما عاد يورى الى المستشفى الذى يعمل به ، أدهشه وصول النبأ اليه بهذه السرعة ، فقد جاءه الجميع مهنئين ..

واتجه يورى من فوره الى غرفة الاطبـاء ، وكانوا يطلقون عليها اسم « مستودع القمامة » ، فعندما ضاق المستشفى بمن فيه من مرضى ، تحولت هذه الغرفة أيضا الى غرفة للمعـاطف ، وأصبح الناس يفدون من الخارج اليها بأحذيتهم التى يغمـرها الجليـد ، فيتركون فيهـا ما يحملون ، ويلقون على ارضـها اوراقهم المهملة واعقاب السجائر ..

كان الطبيب المقيم ، واقفا أمام النافذة ، وفى يده وعاء به سائل معتم ، يفحصه أمام الضوء خلف نظارته ..

وبادر الطبيب يورى ، من غير أن يلتفت اليه ، بقوله :

ــ تهانينا !

ــ شكرا لك

ــ لا .. لا تشـكرنى ، فأنا لم أصـنع شيئـا .. لقـد قام « بيزوشكيين » بالتشريح .. وكم كان تأثرنا جميعاً .. فقد ثبت أن سبب الوفاة تسمم الكبد .. نفس تشخيصك .. نعم .. ان هذا حديث الجميع ..

وفى نفس اللحظة دخل كبير الاطباء عليهما ، فحياهما .. ثم قال : « أى لعنة حلت بهذا المكان .. ماهذه الفوضى والقـذارة ؟ ! » . والتفت الى يورى قائلا : « على فكرة ياجيفاجو ، لقد ثبت أن الوفاة نتجت عن تسمم فى الكبد .. تصور أننا جميعا ــ ماعداك ــ كنا مخطئين .. انى أهنئك .. وهناك شىء آخر .. شىء مزعج ، ولكنى لم أستطع دفعه هذه المرة .. لقد طلبوا مرة أخرى ملفات دفعتك .. ولست أستطيع المعارضة فى هذه المرة . ان هناك نقصا مخيفا فى الاطباء .. ولسوف تستنشق رائحـة البارود قبل مرور وقت طويل ! »

— ٦ —

• **ومضت** أربعة أعوام منذ استقرت عائلة « انتيبوف » فى (يورياتين) . وقد ساعدهم فى تذليل متاعب انشاء بيتهم الجديد ، ما حفظه أهل المنطقة من ذكريات طيبة لآل جيشار ، (أسرة الزوجة) .

ولقد أصبحت «لارا » كثيرة المشاغل الآن . كان عليها أن تعنى بيتها ، وبابنتها « كاتيا » التى أصبحت الآن فى الثالثة من عمرها .. وبالرغم من أن الخادمة ذات الشعر الاحمر « مارفوتكا » كانت تعمل بكل همتها ، الا أنها لم تكن تكفى وحدها للقيام بجميع مطالب البيت .. ولذلك فقد كانت « لارا » تساعدها . وبالاضافة الى كل هذا ، فقد شاركت لارا زوجها فى جميع مسئولياته ، فالتحقت بوظيفة معلمة فى مدرسة البنات العليا . كانت تعمل بغير انقطاع .. وكانت سعيدة .. فهذه هى الحياة التى كانت تحلم بها تماما .

وكانت تحب (يورياتين) ، فهى مسقط رأسها ، وهى تقع على أحد الخطوط الحديدية بالاورال ، وعلى ضفة نهر (رينفا) الصالح للملاحة دائما ، (فيما عدا جزء من منابعه العليا) .

وكان من بوادر اقتراب الشتاء فى (يورياتين) ، أن يسحب الاهالى قواربهم من النهر ، ثم يضعوها على عربات تحملها الى داخل المدينة ، حيث تلقى على جوانبها فى أفنية المنازل ، حتى يحل الربيع .. وكان منظر هذه القوارب ، المقلوبة على جوانبها فى أفنية البيوت ، يعنى فى (يورياتين) نفس ماتعنيه هجرة طيور «التتلق» ، أو تساقط الثلوج فى مناطق أخرى .

ولقد كان هناك قارب فى فناء البيت الذى استأجرته عائلة أنتيبوف ، وكانت كاتيا تلعب فى ظل شراعه الابيض ، وكأنها فى كوخ من أكواخ المصيف . وافتتنت لارا بعادات يورياتين وتقاليد أهلها .. بلكنتهم الشمالية الممدودة .. بأذكيائهم البسطاء المتواكلين ، وأرديتهم الرمادية القصيرة الاكمام .. كان كل شىء يجذبها الى يورياتين : أرضها وأهلها البسطاء .. اما باشا ، ابن عامل السكة

الحديدية فى موسكو ، الذى طبعته العاصمة بطابعها ، فكان على النقيض من زوجته ، لايحب أهل يورياتين ، ويقسو كثيرا فى حكمه عليهم .. كان يضيق بهم ، ولا يرى فيهم غير جماعة من الجهلاء الغلاظ !

وكانت له قدرة خارقة على القراءة السريعة ، واستيعاب كل ما يقرأ .. وقد تجلت الآن قدرته هذه .. كان قد قرأ الكثير فى الماضى . وكان يدين ببعض قراءاته للارا . ثم جاء هذا المنفى الريفى فدفعه الى الاسراف فى القراءة ، الى حد لم تعد معه « لارا » تبدو أمامه مثقفة . أما فى محيط زملائه المعلمين ، فقد بدا البون شاسعا بينه وبينهم ، حتى لقد أصبح يضيق بهم ، ويشعر بالاختناق وهو معهم .. فالآن ، والحرب مشتعلة ، أصبح التجاوب مستحيلا بين مستوى أفكارهم الوطنية المحدودة ، وبين مشاعره الشديدة التعقيد حيال بلاده .

ومع أن « باشا » كان حاصلا على درجته الجامعية فى الدراسات القديمة ، وكان يعلم الآن اللغة اللاتينية والتاريخ القديم ، فانه كان يحتفظ ، منذ أيام الدراسة ، بكثير من الميل الى الدراسات العلمية ، كالعلوم الطبيعية والرياضيات . وقد عاوده ميله القديم ، فبدأ فى البيت دراسات خاصة فى هذه العلوم ، حتى بلغ المستوى الجامعى فيها ، ثم أخذ يحلم بنيل الدرجة الجامعية فى العلوم ، والانتقال الى فروع العمل العلمى ، والارتحال بأسرته الى (بطرسبورج) . وكان الاستذكار المتواصل الى الساعات المتأخرة من الليل ، قد أثر على صحته ، وأورثه القلق .

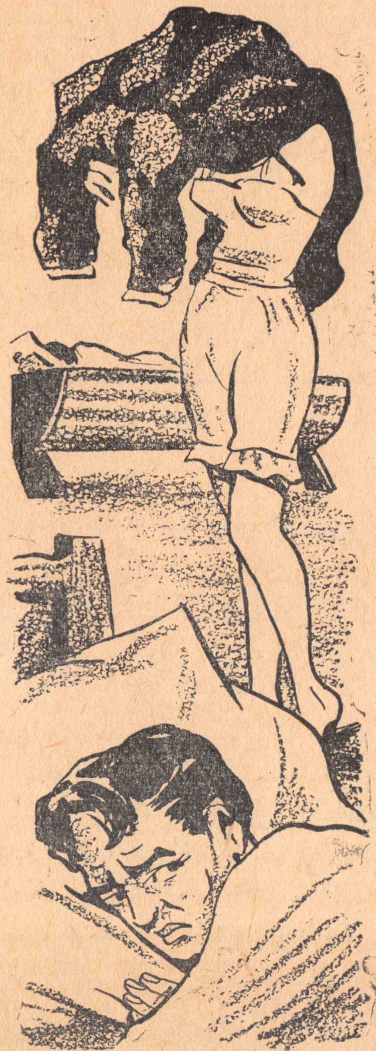
.. وكانت علاقته بزوجته على مايرام ، ولكنها لم تكن صافية تماما . وقد ضايقه كثيرا عطفها الزائد واهتمامها الشديد به ، ولكنه لم يكن يبدى لها ذلك ، خوفا من ان تؤول كلمة بريئة من كلماته بانها كلمة لوم أو تأنيب ، أو اشارة ـ مثلا ـ الى أنها أرقى منه عنصرا ، أو الى انها كانت تمت فى يوم من الايام ، لغيره !

كان يخشى دائما أن تساورها الشكوك فى أنه ينظر اليها نظرة

غير عادلة ، وهذا ما حال بين كل منهما وبين اطلاق العنان لسجيته. كان كل منهما يحاول دائما ان يكون اشد كرما من صاحبه ، وهذا ماعقد حياتيهما شيئا ما .

وكان لديهما ضيوف فى هذه الليلة : ناظر مدرسة لارا ، وبعض زملاء باشا المدرسين ، وأحد اعضاء المحكمة العرفية التى كان باشا قد انضم اليها اخيرا ايضا ، وعدد قليل آخر من الناس . وكان هؤلاء جميعا فى نظر باشا ، جماعة من الاغبياء والحمقى . لذلك ادهشه ان تستطيع لارا ملاطفتهم جميعا ، فلم يكن يستطيع ان يتصور ان هناك فردا واحدا بينهم يمكن ان تحبه لارا .

وقضت لارا وقتا طويلا بعد انصرافهم ، فى اعادة ترتيب غرف المنزل ، وغسل الاطباق مع مارفو تكا فى المطبخ . وبعد ما استيقنت من احكام الغطاء على كاتيا ، ومن ان باشا قد نام ، خلعت ملابسها بسرعة ، واطفأت النور ، وتسللت برقة الى جواره فى الفراش ، كما لو كانت طفلا يأوى الى فراش امه!



« .. وبعد ما استيقنت من احكام الغطاء على كاتيا ، ومن ان باشا قد نام ، خلعت ملابسها بسرعة .. »

على أن باشا لم يكن نائما ، وانما كان يدعى النوم فحسب ، فما أكثر ما كان الارق يصيبه فى هـذه الايام ! ولعلمه بأنه لن يستطيع النوم لساعات طويلة ، نهض من فراشه بهدوء ، وارتدى – فوق ثياب نومه – معطفه المصنوع من الفرو ، وقبعته . ثم مضى خارجا .

كان الليل صافيا شديد البرودة ، وشرائح الثلج تنسحق كالدقيق تحت قدميه . وكانت السماء بنجومها الوضيئة ترسل على الارض السوداء ، بما يعلوها من كتل الطين المتجمد ، أشعة زرقاء باهتة تخفق كما يخفق اللهب المتصاعد من الكحول المشتعل .

كانت عائلة انتيبوف تعيش فى طرف البلدة المقابل للميناء ، وكان المنزل يقع فى نهاية الطريق ، حيث يمتد أمامه حقل ، تقطعه قضبان السكة الحديد ، ويرتفع عليها من أمامه مزلقان للمرور ، وكوخ للاشارات .

وجلس باشا على القارب المقلوب . ورفع عينيه يرقب النجوم . . وسيطرت عليه بشدة أفكاره التى اعتادت أن تنتابه خلال الاعوام الماضية . وبدا له أنهما ان عاجلا أو اجلا ، سيفكران فى وضع حد لما بينهما . . وان هذا يمكن أن يحدث الآن . .

ان هذه الحال لا يمكن ان تدوم ، ولقد كان عليه ان يدرك ذلك قبل الزواج بوقت طويل . لماذا تركته يتعلق بها وهو بعد طفل ؟ وحتى فى تلك الايام ، كانت تستطيع أن تجعله يصنع ماتشاء . **لماذا لم يستمع الى صوت العقل ، فيقطع صلته بها فى الوقت المناسب ، عندما كانت هى نفسها تصر على ذلك ؟ الم يكن واضحا ، انه لم يكن الشخص الذى أحبته هى ، وانما كانت تؤدى واجبا فرضته على نفسها فرضا ، وقامت بأدائه بكل ما تستطيع من كرم ؟!** ان ماكانت تحبه ، هو صورة بطولتها . ولكن ماشأن شىء كهذا ، مهما كان ماينطوى عليه من نبل جدير بالتقدير . ماشأنه بالحياة الزوجية الحقة ؟ واسوأ ما فى الامر ، انه ظل يحبها كما احبها دائما . . فقد كانت فياضة اللطف . ومع ذلك ، فهل هو على يقين من أن مايشعر به نحوها هو الحب ؟ ألا يمكن أن يكون نوعا من العرفان المضلل ، لما

أحاطته به من كرم ولطف ؟ من يستطيع أن يجزم ؟ !

ومع هذا ، فماذا عليه أن يصنع ؟ أيحل زوجته وابنته من قيد هذه الحياة الزائفة ؟ . ان هـذا فى حد ذاته لا يقل أهميـة ـ بل يزيد ـ عن تحرير نفسه ! ولكن، كيف السبيل ؟ أيطلقها ؟ ! أيغرق نفسه ؟ !

ولكنه ثار على هذه الخواطر ضائقا ، وقال : « يا للحقـارة .. كأنما من المستطاع أن يأتى مثلى عملا كهذا ! واذن فلماذا أسمح لعقلى بأن يكون مسرحا لهذه الخواطر السوداء ؟ ! »

ونظر الى النجوم ، كأنما يطلب النصح منها .. كانت النجوم تخفق فى السماء .. الصغيرة والكبيرة ، الوحيدة ، والمتجمعة .. بعضها أزرق ، وبعضها متعدد الالوان . وفجأة اختفت النجـوم جميعا ، وسطع ضـوء قوى خاطف على البيت ، والفنـاء ، وعلى القارب الذى جلس عليه باشا ، وكأن شخصا قد اندفع يجرى من الحقل الى المنزل ، حاملا فى يده شعلة متوهجة ..

ومرق فوق المزلقان قطار حربى ، ينفث سحبا من دخان أصفر، كاللهب والدخان اللذين تطلقهما القذائف النارية فى السماء . واختفى القطار متجها الى الغرب ، شأن القطارات التى لا تحصى ، التى ظلت تمر من نفس الطريق ، طوال العام ..

وابتسم باشا ، ونهض عائدا الى فراشه ..

لقد وجد الجواب .

— ٧ —

• **ذهلت** « لارا » عندما سمعت قرار زوجها ، ولم تصدق أذنيها أول الامر .. قالت فى نفسـها : « هـذا جنون . انه يهذى .. لن ألقى بالا الى مايقول ، ولسوف ينسى ! »

ثم اتضح أنه كان يعد نفسه طيلة الاسبوعين الماضيين . فقد أرسل أوراقه الى مكتب التجنيد ، وعينت المدرسة التى يعمل بها من يحل محله . وقد تلقى هو الأمر بالذهاب الى مدرسة التدريب

العسكرى فى (أومسك) .

وولولت « لارا » كنساء القرى .. وتشبثت بيد « باشـا » ، وتمرغت تحت قدميه ، وراحت تصرخ : « **باشا .. باشا .. أيهـا الحبيب ، لاتتركنا .. لا تتركنا .. لم يفت الوقت بعد ، سأتدبر أنا كل شىء .. انك لم تفحص بعد طبيا كما يجب .. وأن قلبك ... مـاذا .. هـل يخجلك أن تغير رأيك ؟ .. وألا يخجلك أن تترك اسرتك من اجل خاطر جنونى ؟** انت .. تصبح متطوعا ! لقد كنت طول حياتك تسخر من « روديا » ، فهل أصبحت تغار منه ؟ .. تريد أن تخطر فى ثياب الضباط ، وان تصلصل بسيفك أنت أيضا ؟ لا .. لست أنت من نعرفه .. انى بالكاد أتبينك .. ما الذى غيرك هكذا ؟ قل لى بصراحة .. قل لى من أجل المسيح .. قل لى ، بغير تنميق فى الكلام ، أهذا حقا هو ماتحتاج اليه روسيا ؟ »

وأدركت فجأة أن هذا لم يكن السبب مطلقا . وعلى الرغم من أنها لم تدرك كل شىء ، فقد استطاعت أن تلمح جوهر الامر . لقد أخطأ باشا فهم موقفها منه ، لقد ثار على مشاعر الامومة التى كانت ــ طول حياتها ــ تكون عنصرا من عناصر عاطفتها نحوه ، ولم يستطع أن يدرك أن حبها له كان أكثر من ذلك كثيرا .. وانه لم يكن يقل ــ على اى حال ــ عن اى حب طبيعى تشعر به امراة نحو رجل !

وعضت على شفتها ، واجفلت كمن اصابته ضربة .. ثم ابتلعت دموعها ، وأقبلت فى صمت تحزم له أشياءه ..

وأحست بعد رحيله كأن المدينة كلها قد خيم عليها الصمت .. حتى الغربان التى كانت تطير فى الجو ، قـد قل عددها . وعبثـا حاولت « مارفوتكا » ــ الطاهية ــ ان تردها الى نفسها ، منـادية اياها : « سيدتى .. سيدتى » .. وعبثا راحت طفلتها تجذبها من كمها صائحة : « ماما .. ماما » .. فلقد احست انها تلقت اكـبر هزيمة فى حياتها . لقد تحطمت أجمل آمالها وابهرها !

* * *

وكانت الخطابات التى أرسلهـا اليها باشـا من سيبريا تكشفه

لها عن كل أحواله . لقد بدأ يرى الامور أكثر وضوحا . بدأ يفتقد زوجته وابنته . ولكن الاختيار وقع عليه بعد بضعة اشهر كحامل للعلم فى مهمة طارئة .. ومرة اخرى ، وفجأة ايضا ، ارسل الى الميدان . ولم تقده رحلته الى أى مكان قرب (يورياتين) ..وعندما هبط موسكو ، لم يكن لديه وقت ليرى أى انسان .

وبدت رسائله التى أرسلها من الميدان أقل حزنا . لقد كان يسعى الى احراز تفوق ما ، حتى يكافأ عليه باجازة قصيرة يرى فيها أسرته ، بل تمنى أن يصاب بجرح خفيف يتيح له نفس هذه الفرصة .. وما أسرع ما واتته الفرصة . كانت قوات « بروشيلوف » قد تسللت وبدأت الهجوم . وتبع ذلك توقف وصول أى رسالة من باشا . ولم تنزعج لارا أول الامر ، فقد أرجعت عدم كتابته الى انشغاله بالعمليات الحربية ، فليس من المستطاع أن يكتب الجندى أثناء تحركات كتيبته . ولكن الخريف أقبل ، وتباطأ تقدم القوات التى أخذت تحفر الخنادق لنفسها ، ورغم ذلك لم تصلها منه كلمة واحدة ! عندئذ ساورها القلق ، وبدأت تتحرى عنه فى كل مكان . سألت عنه أولا السلطات المحلية فى يورياتين ، ثم أرسلت تسأل عنه بالبريد فى موسكو .. ثم كتبت اليه على جميع عناوينه السابقة فى الخدمة . ولم يصلها أى رد مفيد .. لا أحد يعرف عنه شيئا على الاطلاق !

وبدأت لارا ، ومعها بعض السيدات ، يعملن كمتطوعات فى عنبر الجرحى بمستشفى المدينة . واذ أتمت تدريبها ، ونالت اجازة التمريض ، استأذنت المدرسة التى تعمل بها فى التغيب عنها لمدة ستة شهور . وتركت بيتها فى رعاية « مارفوتكا » ، ثم أخذت « كاتيا » الى موسكو ، حيث تركتها عند « ليبا » . وكانت ليبا تعيش الآن وحدها ، لان زوجها الالمانى الجنسية « فرايسنداك » كان قد زج به فى معسكرات الاعتقال، كأحد الرعايا المدنيين للاعداء.

وكانت لارا قد قررت ان تذهب بنفسها للبحث عن باشا ، بعد أن ثبت لها بوضوح عقم كل محاولة أخرى لمعرفة أنبائه . ولهذا

فقد حصلت على عمل كممرضة فى قطار طبى يستعمل كمستشفى متنقل ، كان متجها الى الحدود المجرية ، عبر مدينة (ليسكى) ، آخر مكان كتب اليها ((باشا)) منه !

— ٨ —

• **وصل** قطار الصليب الاحمر الى مقر قيادة الفرقة محملا بمعدات جمعتها جمعية (تايانا) لمساعدة المصابين، وكان القطار القديم يسحب رتلا طويلا من عربات البضاعة القصيرة القبيحة المنظر . وفى ديوان الدرجة الاولى ، الوحيد فى هذا القطار ، جلست نخبة من أهل موسكو ، تحمل الهدايا الى القوات . وكان « جوردون » يجلس بين أفراد هذه الجماعة . لقد عرف أن صديق طفولته «جيفاجو» يعمل بمستشفى الفرقة ، واذ فهم أن المستشفى يقع فى قرية قريبة، فقد حصل على اذن بالسفر الى المنطقة ، التى تقع خلف خطوط القتال مباشرة ، وركب عربة كانت ذاهبة الى هناك .

كان سائق العربة من أهالى (بيلوروسيا) — أو لتوانيا — الذين يتحدثون بلهجة روسية محرفة ، وكان حديثه لا يتجاوز بضع عبارات رسمية تافهة، كان أمثاله يلتزمونها خوفا من حمى التجسس التى انتشرت بشكل جنونى . ولهذا فقد قطع جوردون أكثر الطريق فى صمت .

وكان القوم فى مقر القيادة — حيث تتابع تحركات الجنود ، وحيث تقاس المسافات بوحدات أقلها مائة ميل — قد أخبروه أن القرية على مقربة منهم ، وقدر هو أن تكون على مسافة خمسة عشر ميلا مثلا .. ولكنها كانت فى الحقيقة تبعد أكثر من خمسين ميلا .

وظلت تتناهى الى أسماعهما على طول الطريق دمدمة تجمعات غاضبة معادية ، عند الافق ، الى يسارهما .. ولم يكن قد سبق لجوردون أن عاش فى بقاع بركانية ، ومع ذلك ، فقد خيل اليه أن ما يطرق سمعه من الاصوات الكئيبة البعيدة غير المتميزة ، التى تصل اليه من مدفعية الاعداء ، هو أقرب الاشياء شبها بانفجارات

البراكين وهزاتها . وقبيل المساء ، لمع وهج وردى عند حافة الافق فى ذلك الجانب ، وظل يخفق عاليا حتى الفجر ..

ومرت بهما كثير من القرى التى أصابها الخراب والتدمير .. كان الناس قد هجروا بعضها ، وكانوا فى البعض الآخر يعيشون فى مخابىء عميقة تحت الارض . وكانت الانقاض تبدو لهما فى صفوف تحدد أماكن الدور القديمة . **وكنت تستطيع أن تلمح فى نظرة واحدة ما خلفته الحرائق التى التهمت بقاعاً بأسرها ، فلم تبق منها سوى قفار مجدبة .**

وانتشرت العجائز هنا وهناك بين الاطلال والخرائب ، كل منهن على أنقاض منزلها .. وكانت كل منهن تنبش بيديها فى الاتربة والانقاض ، لتستخرج بين وقت وآخر شيئا تضعه جانبا ، محتمية بالطلل من أعين الغرباء والمارة ، وكأنما لازالت ترى فيه آثارجدران منزلها ..

وكن ينظرن الى جوردون ، ويتابعنه بعيونهن وهو ماض فى الطريق ، وكأنما يسألنه ، متى يسترد العالم صوابه ، ويعودالسلام والامن والنظام الى الحياة ؟ !

وعندما اقبل الظلام ، التقت بهما احدى الداوريات ، وامرتهما بان يتركا الطريق الرئيسى فورا ، ولم يكن السائق يعرف طريق العربات الجديد ، فظلا يتجولان على غير هدى قرابة ساعتين .

ووصلا عند الفجر الى قرية تحمل نفس الاسم الذى كانايبحثان عنه . ولكنهما لم يجدا فيها من يعرف أى شىء عن المستشفى . ثم اتضح لهما أن هناك قريتين تحملان نفس هذا الاسم . واخيرا ، عند الصباح ، بلغا القرية التى يقصدانها ، وبينما كانا يعبران طرقاتها المعبأة برائحة « الكاموميل » و « اليودوفورم » ، قرر جوردون فى نفسه ألا يقضى الليل فى القرية ، وانما يكتفى بسحابة النهار .. حتى اذا أقبل المساء ، مضى الى محطة السكة الحديدية ، حيثترك أصدقاءه . ولكن الظروف التى تلت ذلك ، أرغمته على البقاء أكثر من اسبوع !

— ٩ —

• كانت الخطوط الامامية قد بدأت تحركاتها ، اذ كانت قواتنا قد استطاعت أن تحدث ثغرة فى صفوف الاعداء ، فى الناحية الجنوبية التى وجد جوردون نفسه فيها . ثم تبعتها الامدادات المساعدة ، التى أخذت فى توسيع الثغرة ، ولكنها سقطت خلف خطوط الاعداء ، وانقطعت الصلة بينها وبين الوحدات المتقدمة ، فتم أسرها .. وكان الملازم « انتيبوف » بين الاسرى ، فقد اضطر الى تسليم نفسه عندما استسلمت وحدته .

واعتقد الجميع أن قنبلة قتلته ، ودفنه الانفجار . وكان مصدر هذا الاعتقاد ما قاله صديقه « جاليولين » ، الذى كان يرقب المعركة بمنظار الميدان من احدى نقط المراقبة ، عندما كان « انتيبوف » يقود الهجوم .

وكان ما رآه جاليولين هو الصورة المألوفة لوحدة مهاجمة .. فقد تقدم الرجال يتواثبون بخطى سريعة ، عبر أرض لا يحرسها احد ، وقد جفف الخريف الحقول ، واخذ القش يتماوج مع الرياح ، تتخلله أشجار الشوك الجامدة . وكان هدفهم اما أن يرغموا النمساويين على التدفق خارج خنادقهم ، ليشتبكوا معهم بالسلاح الابيض ، أو أن يبيدوهم بقنابلهم اليدوية . وكانت الساحة تبدو بلا نهاية امام اعين المهاجمين ، والارض تميد تحت اقدامهم ، وكأنهم يتواثبون فوق مستنقع رطب .. وكان حامل بيرقهم يتقدمهم أول الامر ، ثم أصبح يحاذيهم ملوحا بمسدسه الذى يرفعه فى يده ، وقد اتسع فمه الى أذنيه ، وهو يهتف بصيحات النصر ، التى لم يكن هو نفسه يسمعها ، ولا أحد من المتقدمين . وكانوا بين لحظة وأخرى ينبطحون أرضا ، ثم يهبون مندفعين الى الامام وقد علا صياحهم .. وفى كل مرة كان يسقط بينهم مصاب أو اثنان ، وكان سقوط هؤلاء يختلف فى طريقته عن انبطاح الآخرين ، فقد كانوا ينكفئون على وجوههم ، وكأنهم جذوع أشجار اجتثت من الغابة ..

ثم لاينهضون ثانية !

وصاح « جاليولين » بضابط المدفعية الواقف الى جواره قائلا : « فلتبدأ المدفعية فى تغطيتهم ، فقد جاوزوا الاهداف .. » ، ثم قال : « لا .. انتظر .. كل شىء على مايرام »

وكان المهاجمون على وشك الاشتباك مع العدو ، عندما توقف ستار المدفعية .. وخلال الصمت المفاجىء الذى تلا سكوتها، سمع المراقبون دقات قلوبهم ، وكأنما هم أيضا ـ كأنتيبوف ـ قد بلغوا برجالهم خنادق العدو ، متوقعين منهم فى الدقائق التالية ان يحققوا المعجزات بشجاعة لاحدود لها ..

وفى هذه اللحظة ، رأى المراقبون قنبلتين ألمانيتين من عيار ١٦ بوصة تنفجران أمام المهاجمين . وتصاعدت سحب سوداء من التراب والدخان ، فأخفت عن أعينهم كل ماتبع ذلك .. **وهمس جاليولين ، وقد ابيضت شفتاه : « يا ألله .. لقد انتهى كل شىء » .. وأعتقد أن حامل البيرق وجميع رجاله قد قتلوا .. ثم سقطت قنبلة أخرى بالقرب من مركز المراقبة ، وانفجرت بشدة ، وأسرع المراقبون يلتمسون النجاة بعيداً عن موقع الانفجار ..**

وكان جاليولين قد شارك صديقه انتيبوف فى حفر الخنادق . فلما اعتبر أنتيبوف مقتولا ، كلف صديقه بالمحافظة على مخلفاته لتسليمها لارملته، وكان لها بين مخلفاته كثير من الصور الفوتوغرافية المختلفة ..

وكانت الاوامر قد صدرت أخيرا بترقية جاليولين ، العامل الميكانيكى ، ابن « جيمازيدين » ، حارس مجموعة عنابر السكنى التى كان (تيفرزين) يقيم فى احدها . وكان جاليولين هو نفسه الصبى الذى كان يعرف فيما مضى باسم يوسوبكا ، والذى ضربه « خودوليف » رئيس العمال ذات يوم !

و لترقية جاليولين قصة : فذات يوم وجد نفسه ـ على الرغم منه ، ولغير سبب واضح ـ قد عين قائدا لحامية فى بلدة صغيرة فى المؤخرة . وكانت الحامية مكونة من عدد من أشباه المرضى العاجزين،

وقد عكف رؤساؤهم — الذين لايقلون كهولة عنهم — على تدريبهم كل صباح على مانسيه الفريقان كلاهما : الجنود ، والذين يدربونهم!

وكان عليه أن يشرف على التدريب ، وعلى تغيير نوبات الرجال المنوطين بحراسة الذخيرة ، ولم يكن أحد يطالبه بشىء أكثر من هذا . ولم يكن هناك ما يشغله فى الوجود ، عند ما وفد المجندون الذين استدعوا حديثا من موسكو ، ليكونوا تحت امرته ، واستطاع أن يتبين بينهم الشخصية التى لا يستطيع أن ينساها : « بيوتر خودولييف » .

وتمتم جاليولين بمرارة : « هذا أنت ايها الصديق القديم !؟ » ..

واجاب خودولييف محييا فى وقفة الانتباه : « نعم يا سيدى .. »

وكان من المستحيل أن يقف الامر عند هذا الحد .. فعند أول خطأ وقع فيه الجندى الجديد أثناء التدريب ، زمجر الضابط فيه بغلظة شديدة . **وعندما أدار الجندى عينيه ، غير عابىء بموقف الانتباه المفروض عليه ، لطمه بشدة على فكه ، وعاقبه بالحبس الانفرادى يومين ، على الخبز الجاف والماء !**

وبدأت صلة جاليولين بهذا الجندى الجديد تتسم بطابع الانتقام ، الامر الذى لم يكن يبدو لائقا ، ولا أخلاقيا ، لعدم تكافؤ الرجلين ، وما تكفله النظم العسكرية لأحدهما من سلطان لا حد له على الآخر .

ولكن ، ماذا كان جاليولين يستطيع أن يصنع ، وقد تبين له أن مكانا واحدا لايمكن أن يضمهما معا ؟ .. بأى مبرر يستطيع ضابط أن ينقل جنديا من وحدته ، والى أى مكان ينقله ، ان لم يكن هذا النقل بسبب مخالفة الجندى للنظام العسكرى ؟ ومن جهة أخرى ، على أى أساس يستطيع هو ان يطلب نقل نفسه ؟ .. واخيرا ، قرر ان يطلب نقل نفسه الى الجبهة ، مبررا طلبه بتبرمه بعمله الضئيل فى حاميته .. واكسبه هذا الطلب سمعة طيبة فى الجيش ، ثم ساعدته مزاياه الاخرى فى اثبات صلاحيته كضابط ، فرقى الى رتبة الملازم .. وهكذا صار يدين بترقيته الى من كان يعذبه قديما !

وكان جاليولين يعرف باشا انتيبوف من ايام «تيفرزين» ، عندما

امضى « باشا » معهم ستة اشهر من عام ١٩٠٥ . وكان «يوسوبكا» ـ جاليولين ـ يذهب ليلعب معه فى ايام الاحد . وهناك قابل لارا مرة أو مرتين ، ولكنه لم يسمع عن أحد منهما منذ ذلك الوقت . وعندما اتى انتيبوف قادما من (يورياتين) ، والتحق بالكتيبة ، دهش جاليولين دهشة عظيمة للتغير الذى أصاب صديقه . فقد كان معروفا بحيائه الجم ، وخفره الذى يشبه به الفتيات الصغيرات فاذا هو الآن عالم مستكبر كثير الوساوس والشكوك ، ذكى ، شجاع ، قليل الكلام ، ساخر . وعند ما كان جاليولين يرى نظرات الحزن فى عينيه ، كان يستطيع أن يقسم انه يرى من خلالهما شيئا ما ، وكأنهما نافذتان تشفان عما وراءهما .. أما هذا الشىء ، فقد يكون فكرة تملكته ، أو شوقا مبرحا لابنته وزوجته . كان انتيبوف يبدو له تائها مسلوب الارادة ، كبعض أشخاص القصص الخرافية. وها هو انتيبوف قد راح ، وبقى جاليولين وحده ، حاملا أوراقه وصوره الفوتوغرافية ، وذلك السر الدفين الغامض ، الذى أحدث فيه كل هذا التغير ..

وحدث ما كان لابد أن يحدث عاجلا أو آجلا ، فقد بلغت أنباء استفسارات لارا عن زوجها اسماع جاليولين ، وكان قد حاول قبل ذلك أن يكتب اليها ، ثم شغلته الشواغل ، فقد كان كل وقته مشحونا بالعمل ، فلم يجد فرصة ليكتب اليها ما يستطيع به اعدادها لتحمل الصدمة .. وهكذا ظل يؤجل الكتابة يوما بعد يوم ، حتى سمع بوجودها فى مكان ما بالجبهة ، حيث تقوم بالتمريض .. وحتى عند ذلك ، لم يستطع أن يعرف العنوان الذى يكتب اليها فيه ..

— ١٠ —

• كان جوردون يسأل الدكتور جيفاجو كلما عاد لتناول الغداء فى الكوخ الذى اتخذاه لهما :

ـ أيمكن ان نجد خيلا اليوم ؟

وأجاب الدكتور جيفاجو :

ـ لا أمل فى ذلك .. وعلى أى حال ، فالى أى مكان ستذهب ؟ انك لا تستطيع أن تتحرك يمينا او يسارا .. فالاضطراب يسود المنطقة بأسرها ، ولا أحد يستطيع أن يجزم بشىء . ففى الجنوب ، قد استطعنا أن نتغلب على جناح الجيش الالمانى فى بعض الاماكن، واخترقنا خطوطه فى أماكن أخرى . وقيل لى أن عدة وحدات لنا قد غلبها التحمس ، فأدى بها الى الاسر .. أما فى الشمال ، فقد اجتاح الالمان منطقة (سفنتا) من موقع كنا نظن انه لايقهر ، وكان فرسانهم ، الذين لايزيدون عن كتيبة فى قوتهم ، هم الذين اخترقوا ذلك الموقع .. وهم ينسفون الآن السكك الحديدية ، ويدمرون مخازن الذخيرة ، وفى اعتقادى أنهم الآن يطوقوننا .. هذا ما نحن فيه ، وأنت تتحدث عن الخيل ؟ ! »

وأضاف جيفاجو موجها الكلام للجندى :

ـ هيا يا كارينكو .. تحرك وأعد المائدة .. ماذا لدينا للعشاء ؟! كوارع عجالى ؟ ! عظيم !

كانت الوحدة الطبية ، بمستشفاها وملحقاتها ، قد وزعت نفسها فى أنحاء البلدة التى لم تصب بضرر ما .. وكانت المساكن تتألق بنوافذها الاوروبية النمط ، ممتدة من جدار الى جدار ، لم يتحطم منها شىء .. ولا لوح واحد من زجاج !

وبدأ الجو الذى كان يشبه جو الخريف الاصفر الدافىء ، يتحول الى صيف شديد القيظ ، واضطر الاطباء الى فتح النوافذ أثناء النهار ، ومطاردة جماعات الذباب الزاحفة على أعتاب النوافذ والسقوف المنخفضة البيضاء . وقد فكوا أزرار أرديتهم ومعاطفهم، واعتادوا ـ وهم يتصببون عرقا ـ أن يرتشفوا مرق الكرنب ، أو الشاى الساخن الذى يلهب شفاههم ..

أما فى المساء ، فكانوا يجلسون للعب الورق ، أمام المدافىء التى توقد بكتل الخشب الرطب ، فترسل سحبا من الدخان تؤذى عيونهم ، فيصبوا لعناتهم على الجنود الذين لايعرفون كيف يوقدون

النار ..

كان الليل يرخى سدوله ، وقد رقد جوردون وجيفاجو فى قمرتين متقابلتين تفصل بينهما مائدة العشاء ، وقطرات المطر تبلل زجاج النافذة المنخفضة الممتدة على طول الجدار . وكانا قد فتحا جانبا من زجاج النافذة ليتسرب الدخان الذى يملأ الغرفة ويزيدمن حرارتها ، وليستنشقا نسيم ليل الخريف المنعش . وكالمعتاد كانا يتحدثان ، وكالمعتاد أيضا كانت السماء تتألق عند الافق بلونها الوردى .. ومن وقت لآخر ، كانت صدمة قوية تهز الارض ، وتتخلل أصوات الطلقات المتتابعة ، وكأنها جذع شجرة كبيرة مكسوة بالحديد ، تجر على الارض جرا ، فتنتزع قشرتها .

وأطرق جيفاجو لدى سماعه ذلك الصوت ، قائلا : « هذه مدافع « برتا » الالمانية من عيار ست عشرة بوصة .. وهذه الطلقة من عيار ستة وثلاثين ثقلا ، كل منها يزن ستين لبرة .. »

وعندما استأنفا حديثهما بعد ذلك ، كأن قد نسى فيما كانا يتحدثان !

وسأل جوردون : « ماهذه الرائحة التى تملأ البلدة ؟ ! » .. ثم قال : « لقد لاحظت وجودها منذ جئنا هنا .. رائحة مقززة تبعث على الغثيان كالرائحة المنبعثة من الجرذان ! »

فأجاب جيفاجو : « أعرف ماتعنى .. انها رائحة نبات القنب ، فهم يزرعونه بكثرة هنا . وبالاضافة الى مايحمله هذا النبات من روائح عفنة كرائحة الرمم ، فلا تنس أننا هنا فى منطقة القتال ، وان جثث القتلى تبقى عارية فى حقول القنب حتى يصيبها العفن ، فتمتزج رائحتها برائحة النبات .. نعم .. لاشك أن رائحة الجثث تملأ الجو هنا فى كل مكان .. وهذا طبيعى جدا .. أتسمع ؟ ! .. هذه مدافع برتا مرة اخرى ! »

وكانا فى الايام الاخيرة قد تطرقا بالحديث الى كل شىء تحت الشمس .. وكان جوردون قد عرف كل آراء صديقه عن الحرب ، وعن الروح السائدة فى هذه الايام . **كان جيفاجو قد حدثه عن**

الصعوبة التي يجدها في فهم هذا المنطق الوحشي الذي يبررون به تبادل الابادة ، أو في اعتياد رؤية الجرحى .. وعن الهول الذي لقاه من منظر الجراح المتقرحة التي ابتلينا بها في هذه الايام ، وعن الالم الذي يغشاه كلما تصور حياة المشوهين الذين احالتهم فنون الحرب الحديثة الى مسائخ من اللحم المشوه ..

وكان جوردون قد عاني بدوره من رؤية هذه المناظر الاليمة البشعة ، في جولاته اليومية مع جيفاجو . وكان يستنكر من نفسه موقف المتفرج السلبي ، في وقت يقاسي فيه الآخرون بشجاعة لا مثيل لها ! .. يستنكر أن يكتفي بمراقبة الجهد الذي يتغلبون به على مخاوف الموت ، وهو جهد يفوق طاقة البشر .. وأن يرى ما يندفعون اليه من مخاطر ، وما يدفعونه من ثمن .. ولكنه لم يفطن الى أن مجرد البكاء عليهم لم يكن اقل نكرا من كل هذا ! .. كان يرى في مسلكه المسلك البسيط الامين الذي تقضي به عليه الظروف التي أوجدته الحياة فيها ..

وكان قد أدرك كيف يضعف الانسان لمرأى الجراح .. ادرك ذلك من تجربته الشخصية عندما زار احدى وحدات الصليب الاحمر المتنقلة ، خلف خطوط القتال : فقد ذهبا الى أرض خلاء في داخل غابة خربتها بشدة نيران المدفعية . وكانت عربات المدافع المحطمة مبعثرة بين حطام الاشجار الهاوية .. وثمة حصان موثق الى جذع شجرة .. وفي وسط الغابة بيت تابع لادارة الغابات قد سقط نصف سقفه ، وقد اتخذ منه مركز للاسعاف ، واقيمت خيمتان الى جواره ، على جانبي الطريق الموصل اليه ..

وقال جيفاجو لجوردون : « لم يكن ينبغي لي ان احضرك معي .. ان خنادق الجنود على بعد ميل أو اثنين ، ومدفعيتنا هناك خلف الغابة . ان في استطاعتك أن تسمع مايدور هناك ، ولذلك فاياك أن تجرب القيام بدور البطل ، فلست أصدقك ان حاولت .. وما أظنك قادرا الا على أن تجمد في لحظة واحدة من الرعب والهول .. وهذا طبيعي على أي حال .. وفوق هذا ، فقد يتغير الموقف في

أي لحظة ، ويبدأ العدو فى قصفنا بقنابله . »

وكان الجنود الصفار ، بأحذيتهم الثقيلة ، وثيابهم المغبرة التى سود العرق أكتافها وصدورها ، يتمددون على جانب من الطريق . وقد رقد بعضهم على ظهره ، وانكفأ الآخرون بوجوههم الى الارض .. **كان هؤلاء الجنود هم البقايا الحية من الفصيلة التى عزلت عن الخطوط الامامية بعد أربعة أيام من القتال المرير ، وقد جىء بهم الى المؤخرة ليحصلوا على راحة قصيرة . كانوا يرقدون بلا حس كأنما قدوا من حجر .. لا حركة ، ولا ابتسامة ، ولا كلمة سباب !** وحتى عندما كانت العربات الثقيلة العديدة تملأ الطريق صخبا الى جوارهم ، لم يحاول أحد منهم أن يرفع رأسه ، أو يستدير بها ليرى شيئا مما حوله .. وكانت العربات المارة من عربات المؤن غير المسقوفة ، وقد حملت بالجرحى ، وراحت تطحن عظامهم وتلوى ضلوعهم وجذوعهم ، فى قفزاتها المتتابعة على الطريق الى وحدة الاسعاف .. وهناك كانت جراحهم تضمد بسرعة ، والعمليات الجراحية تجرى للحالات العاجلة . كانوا قد التقطوا منذ نصف ساعة من أمام الخنادق فى ساحة القتال ، عندما هدأت نيران المدفعية قليلا، وكان أكثر من نصفهم يرتمى فى العربات فاقدالوعى.

وعندما وقفت العربات أمام شرفة مكتب الاسعاف، هبط الانفار السلالم حاملين النقالات ، وأخذوا يفرغون الجرحى عليها . بينما ازاحت ممرضة طرف احدى الخيام ، ووقفت تنظر الى مايجرى، وقد بدا عليها انها فى وقت فراغها . وخرج رجلان من خلف الخيام ، وسارا فى الطريق متجهين الى المكتب، وقد اخذا يتناقشان بصوت عال ، يتردد صداه بين الاشجار الطويلة الفتية ، فيصعب على السامع من بعيد فهم ما يقولان من كلمات .

كان أحدهما ملازما شديد العصبية ، يصرخ فى صاحبه «طبيب الوحدة» ، سائلا اياه عن حامل مدفع كان هناك فى الفضاء وقد اختفى ، ويريد أن يعرف أين هو الآن ! ولم يكن الطبيب يدرى شيئا من ذلك - فليس هذا من شأنه - فراح يرجوه أن يكف عن

الصياح ، وأن يتركه يؤدى عمله ، بعد أن وصل الجرحى . ولكن الضابط استمر يسب الصليب الاحمر ، والمدفعية ، والدنيا بأسرها .. !

وأقبل جيفاجو على الطبيب ، فتبادلا التحية ، ثم دخلا معا الى المكتب .

أما الملازم الذى كان لايزال يملأ الدنيا صياحا وسبابا ، فقد فك وثاق جواده المسرج ، وقفز الى ظهره ، ومضى مسرعا فى الطريق الى الغابة .. وكانت الممرضة اذ ذاك لاتزال فى وقفتها .. وسرعان مابدا عليها الرعب ، وانطلقت تصيح : « ماذا تصنعان ، هل فقدتما وعيكما ؟ ! » .. وكانت توجه كلماتها الى جنديين جريحين ، قد قاما يسيران بغير مساعدة بين الخيام ، ثم انطلقت مسرعة اليهما ..

وكان الجند حينئذ يحملون جريحا مشوها بصورة وحشية غريبة .. فقد أصابته فى وجهه شظية ، لم تقتله ، ولكنها أحالت لسانه وشدقيه الى خبيصة حمراء ، واستقرت فى عظام فكه الممزق ! .. وكان يئن انينا قصيرا بصوت خفيض لا يشبه صوت الانسان فى شىء .. كان أنينه أشبه برجاء يائس لمن حوله أن يسرعوا بالاجهاز عليه ، ليضعوا حدا لعذابه الذى لا يستطيع أحد تصوره .

وأدركت الممرضة أن الجريحين اللذين نهضا يسيران بين الخيام ، قد تأثرا لصرخات هذا الجريح ، وانهما على وشك انتزاع الشظية الحديدية المستقرة فى عظام فكه ، بأيديهما المجردة ! .. فصاحت فيهما : « لا .. لاتفعلا هذا ، سيقوم الجراح بهذا العمل بآلاته الخاصة ، ان كان لابد من ذلك . »

ومضت اثر ذلك تتمتم فى همس عميق : « يا الهى .. يا الهى .. خذه اليك .. لاتدعنى أشك فى وجودك ورحمتك »

وفى اللحظة التالية ، وبينما كان الجنود يصعدون به الدرج .. صرخ صرخة عظيمة ارتجف لها جسده بأكمله .. ثم مات !

كان الرجل الذى مات لتوه هو الجندى « جيمازيدين » ، وكان



الضابط الذى مضى يصرخ فى الغابة، هو ابنه الملازم ((جاليولين)) .. اما الممرضة ، فقد كانت ((لارا)) نفسها ، واما جوردون وجيفاجو، فقد كانا الشاهدين اللذين رأيا كل شىء ..

كل هؤلاء القوم كانوا هناك « معا» فى ذلك المكان . ولكن البعض منهم لم يكن قد تعارف من قبل ، بينما عجز البعض الآخر عن معرفة الآخرين . كانت هناك اشياء كثيرة قد قدر لها ان تظل مجهولة .. وكان يتعين على بعضهم ان ينتظروا فرصة اخرى ليكشفوا عن انفسهم .

— ١١ —

• **كانت** القرى التى بقيت بأعجوبة ، تبدو فى هذه المنطقة وكأنها جزر أمن صغيرة فى محيط متلاطم من الخراب ، وبينما كان جيفاجو وجوردون فى طريقهما ذات مساء الى بيتهما ، اذ بهما يريان فى احدى القرى شابا من القوقاز ، يحوطه جمع سعيد .. كان القوقازى يقذف بقطعة نقود نحاسية فى الفضاء ، ليلتقطها

كهل يهودى وخط الشيب لحيته ، وتهدل على كتفيه معطفه الطويل . وكان الكهل يفشل فى كل مرة فى التقاط قطعة النقود ، التى كانت تمر من أمامه ، ثم تسقط فى الوحل ، فاذا انحنى ليلتقطها لكزه القوقازى فى مؤخرته ، وضج المشاهدون يمسكون جوانبهم من الضحك .. كانوا يتسلون بهذا العمل . وكانت تسليتهم حتى الآن غير مؤذية ، ولكن من يستطيع أن يجزم بأنها لن تنقلب الى شىء من الخطر ؟ !

وكانت زوجة الكهل المسن تخرج ، بين لحظة واخرى ، من كوخها ، وتعبر الطريق مولولة ، رافعة يديها الى السماء فى رعب . بينما ظهرت فى نافذة الكوخ بنتان صغيرتان ، كانتا ترقبان عذاب جدهما وتبكيان .

وأبطأ السائق ليتيح للمسافرين أن يلقيا نظرة على ما يجرى هناك .. فنادى جيفاجو الشاب القوقازى ، ونهره ، وأمره أن يكف عن هذا العبث باليهودى الطاعن فى السن .. فقال القوقازى على الفور : « ياسيدى ، نحن لانقصد به شرا .. انما نحن نتسلى !! »

ومضى جيفاجو وجوردون فى طريقهما الى القرية التى يقيمان فيها .

وقال يورى فى الطريق : « انك لاتستطيع أن تتصور ماذا تفعل الحرب بهذا الشعب اليهودى البائس . فالحرب تجرى فى غرب روسيا حيث حكم عليهم أن يقيموا . وكأنما لاتكفيهم الضرائب التأديبية المفروضة عليهم ، ولا خراب ممتلكاتهم ، ولا كل ما يحل بهم من آلام ، حتى يفرض عليهم أيضا احتمال الاهانات والسباب ، ومواجهة الاتهام الدائم بالافتقار للوطنية .. ولماذا يكونون وطنيين اذا كان العدو يكفل لهم هو أيضا كل هذا ، فاننا لانزيد على أن نضطهدهم ، مثلما سيضطهدهم الآخرون .. ان هناك تناقضا فى صميم هذا الحقد الذى يصب عليهم . فهذا الحقد تثيره ، وتحث عليه ، نفس الاشياء التى كانت أدعى لاثارة الشفقة عليهم : فقرهم ،

وكثرتهم ، وضعفهم ، وعدم قدرتهم على أن يدافعوا عن أنفسهم .. انى أعجز عن فهم كل هذا .. كأنما هو قدر مشئوم كتب عليهم !؟

وكان جوردون يسمع ، دون ان يجيب .

— ١٢ —

• **وها هما** مرة أخرى يرقدان فى قمرتيهما الى جوار النافذة الطويلة المنخفضة ، ويتحدثان .. كان جيفاجو يروى لجوردون كيف رأى القيصر فى الجبهة . حدث ذلك فى أول ربيع قضاه يورى فى الجيش . وكان ملتحقا بوحدة تقف عند مدخل واد فى جبال الكربات لتسد الطريق أمام جنود المجر . أما مركز قيادة الوحدة فكان فى الوادى نفسه . وكانت محطة السكة الحديدية تقع فى أسفل الوادى .. وراح جيفاجو يسهب فى وصف المكان : الجبال التى تكسوها أشجار خشب الموسكى ، وتنسدل على قممها خصلات الضباب . وأجراف من الحجر الرمادى والجرانيت تبدو خلال الغابات ، وكأنها رقع صلعاء فى فراء سميك ..

كان ذلك فى يوم من أيام ابريل ، والصباح رطب مغبش يحاكى لون الاحجار الرمادية .. والوادى ساكن لايتحرك الهواء فيه ، لاحاطته بالجبال من كل ناحية . وخيم الضباب فوق الوادى ، وتصاعدت الابخرة والدخان من كل جانب . دخان القاطرات من محطة السكة الحديدية ، والضباب الرمادى من الحقول والجبال ، والغابة المظلمة ، والسحاب الداكن ..

كان القيصر فى ذلك الوقت يقوم بجولة تفتيشية فى (غاليسيا) . وجاءت الاخبار فجأة انه قادم ليتفقد هذه الوحدة ، التى هو آمرها الفخرى . وأصبح وصوله متوقعا فى أى لحظة .. فانسحب حرس الشرف الى رصيف المحطة ، ووقف ينتظر .. وبعد قرابة ساعتين من الانتظار ، وصل قطاران متعاقبان يحملان الحاشية الامبراطورية . ثم وصل بعدهما قطار القيصر .

وتفقد القيصر حرس الشرف ، يصحبه الدوق العظيم «نيكولاى» .

وكانت هتافات الجنود تهدر ، كلما تفوه بكلمة تحية هادئة .. كانت أصواتهم العالية وهم يصيحون « مرحى » تتدفق معا ، كما ينسكب الماء من أوعية كبيرة ..

وكان القيصر فى ابتسامته القلقة يبدو أكبر سنا ، وأكثر تعبا ، مما يبدو فى صورته المنقوشة على النقود والميداليات . كان وجهه فاترا مترهلا .. وكان ينظر الى الدوق بين لحظة وأخرى ، معتذرا عن عدم المامه بما يجب عليه أن يصنع فى كل لحظة .. وكان الدوق ينحنى أمامه باحترام ، ويدله على مايقتضيه الموقف ، بحركات وايماءات بسيطة منه ، أكثر مما كان يدلى بالكلام .

وشعر يورى بالاسى وهو يرقب القيصر عبر الجبل الاغبر فى ذلك الصباح الدافىء . لم يستطع أن يتصور أن يكون هذا الخجل والحياء ، هما الصفتان الملازمتان لطاغية لامعقب على كلمته ! .. لم يستطع أن يتصور كيف يستطيع هذا الضعف أن يقتل أو يعفو .. أن يسجن انسانا ، أو يطلق سراح آخر !

وقال جيفاجو : « كان عليه أن يلقى خطبة .. « أيها الشعب .. يا سيفى وقوتى .. » ، كما يفعل « غليوم » .. أى كلام عن الشعب .. ولكنه لم يفعل ، وانما تصرف التصرف الروسى المألوف . فهذا النوع من التمثيل المسرحى لا يلقى رواجا كبيرا فى روسيا . انه يظل تمثيلا ولا ينطلى على أحد . انى أستطيع أن أتصور شعوبا تقبل هذا النوع من التمثيل من قياصرة المغول وأضرابهم .. هؤلاء الذين لا يكادون يفتحون أفواههم ، الا ليقولوا : « أيها الشعب .. ويا شعبى !! »

والآن ، ها هى ذى الجبهة تعج بالمراسلين والصحفيين .. وقد راحوا يدونون ملاحظات ، ويجمعون درر الحكمة الشعبية ، ويزورون الجرحى ، ويبتكرون نظريات جديدة فى النفس البشرية ، ويضيفون الى القاموس الروسى القديم مجموعة جديدة من المفردات الغريبة الزائفة .. جنون لغوى ، ودعارة لفظية ! !

وهذا طراز واحد منهم .. أما الطراز الثانى ، فشىء آخر ..

هذا طراز التحقيقات ، والمشاهد ، والفلسفات ، والكلام المقروض والمنظوم . لقد قرأت شيئا من هذا الطراز أمس ، ولا يزال معى .. نعم ها هو ذا : « كان اليوم أغبر كيوم أمس . أمطار منذ الصباح ، ووحل .. ونظرت من النافذة الى الطريق ، هؤلاء هم الاسرى يسيرون فى خط لا نهاية له .. والجرحى .. وبندقية تطلق نيرانها .. تطلقها اليوم ، كما أطلقتها أمس ، وكما ستطلقها غدا .. اليوم .. وكل يوم .. وكل ساعة !! »

أليس هذا استهتارا واحتيالا .. انى لأعجب ، ماذا يريد من البندقية أن تصنع ؟ ! أيتوقع منها تجديدا فى عملها ؟ ! ولماذا لاينظر الى نفسه ، وهو يطلق كل يوم نفس الجمل والعبارات والبيانات ، محافظا على أريحيته الصحفية بسرعة فرقة كاملة من البراغيث القافزة ! لماذا لا يستطيع أن يدرك انه هو المطالب بعدم تكرارنفسه، لا البندقية .. وان الانسان لا يستطيع أن يستخرج من تكرار الهراء كلاما مفيدا .. ان الحقائق نفسها لاتعيش الا اذا أضاف الإنسان اليها شيئا من نفسه ، من مقاييسه الخاصة ، ومهارته ، وخبرته وعبقريته .. والا ، فهى حديث خرافة ، أو نوع من الاساطير !

وصاح جوردون مقاطعا : « انك لعلى حق ، ولتدعنى الآن اخبرك برأيى فى هذا الحادث الذى رأيناه اليوم ، حادث القوزاقى الذى وقف يسخر من المسكين الطاعن فى السن ويضطهده . . وآلاف الحوادث المماثلة . لاشك أنها جميعا حوادث تافهة ، وانك لاتستطيع أن تقيم نظرية ثابتة على أساسها . مثلها لايحتاج منك الى تفكير ، ولكن الى صفعة على وجه رجل ما .. أما اذا نظرنا الى المسألة اليهودية بأسرها ، فهنا يأتى دور الفلسفة . وليس معنى هذا انى مخبرك بشىء جديد ، فكلانا مدين بأفكاره الى خالك .

لقد كنت تتساءل ما هو الشعب ، ومن الذى يخدم الشعب أكثر من الآخر : الرجل الذى يدلل الشعب ، أم الذى يلقيه من خلف ظهره ، وهو يقوده الى الشهرة والخلود بجمال أفعاله ؟ لا شك أن

الجواب واضح لا يحتمل أى جدال .

وما هى هذه الشعوب التى نتحدث عنها اليوم فى العالم المسيحى ؟ انها ليست مجرد شعوب جامدة ، فهى فى الواقع شعوب تكونت من أفراد أصابهم الكثير من التغيير والتبديل . وهذا التغير الذى أصابهم هو مركز الاهمية ، لا الولاء الذى يحملونه لتقاليدهم القديمة .

وما الذى يقوله الانجيل فى كل هذا ؟ .. لنبدأ بتقرير هذه الحقيقة : ان الانجيل لم يضع شرائع ولا أحكاما جامدة ، لم يقل ان « حكم هذا الامر كذا ، وحكم ذاك الامر كيت » ، ولكنه قدم عروضا عملية — وتجريبية — للبشر .. وهو فى عروضه المتواضعة يسأل الناس : « أتريدون أن تعيشوا حياة جديدة تماما . ان تحصلوا على السعادة الروحية الكاملة ؟ » . وتقبل الناس هذه العروض بغبطة عظيمة ، فقد كانوا يتعلقون بهذه الآمال منذ آلاف السنين .

وعندما يقول الانجيل : « ليس فى ملكوت السموات يهودى ولا وثنى » ، أتراه يقصد أن الجميع سواء أمام الله ؟ لا أظن أنه كان يعنى مجرد هذا ، فليس فى هذا الكلام شىء جديد . **لقد قال به فلاسفة اليونان ، ومعلمو الرومان ، وأنبياء اسرائيل . وانما يريد الانجيل أن يخبرنا اننا فى هذه الحياة الجديدة ، المليئة بالاسرار المقدسة النابعة من القلب ، والتى نسميها ملكوت السموات ، لن نكون أمما أو شعوبا ، ولكننا سنكون أفرادا .**

ولقد قلت أنت نفسك أن الحقائق تظل جامدة لامعنى لها ، مالم تضف اليها من ذاتك مايكسبها ذلك المعنى .. وهذا حق ، والشىء الذى تستطيع ان تضيفه الى حقيقة الحياة الانسانية لتصبح مليئة بالمعنى ، هو المسيحية .. هو سر ذاتية الفرد .

وكنت تتحدث عن هؤلاء السياسيين المألوفين ، الذين لا تعنيهم الحياة ككل ، ولا يشغلهم العالم فى مجموعه . هؤلاء الناس ذوى العقول الضعيفة المحدودة ، الذين يشغفون بالقيود . هؤلاء الذين

يملأهم سرورا ان يستطيعوا دفع الناس الى التحدث عن أمم صغيرة تعسة مثقلة بالقيود .. وكلما تعقدت المشاكل وازدادت التعاسات ، ازدادوا فرحا ، لانهم يجدون عند ذلك المجال الفسيح لاظهار براعتهم وقدرتهم .. كنت تتحدث عن هذا الصنف من الناس ، فهل تستطيع أن تجد مثلا لهم ، لضحايا هذه العقلية الوضيعة ، اقرب من اليهود ؟ لقد دفعتهم فكرتهم القومية، قرنا بعد قرن ، الى أن يكونوا شعبا ، وشعبا فقط . والشيء الغريب انهم ظلوا صرعى هذه القيود خلال القرون الطويلة ، بينما كان الناس جميعا يتحررون من قيودهم بقوة جديدة انبثقت من صميمهم . اليس هذا غريبا ؟ أم كيف تستطيع تفسيره ؟

تأمل فقط ، هذا التحرر المجيد من ضعة الحياة وحقارتها ، من جمود الايام وبلادتها ، قد ظهر لاول مرة فوق تربتهم ، وبودى به بلغتهم ، وانتمى الى جنسيتهم . وطبيعى أنهم أبصروا به وسمعوه . ثم تركوه يذهب عنهم . كيف امكنهم ذلك ؟ كيف سمحوا لروح لها كل هذه القوة القاهرة والجمال ، أن تذهب عنهم .. حتى اذا توجت هامتها بغار الانتصار ، كانوا هم كالجلدة الفارغة الملقاة بغير نفع ؟ لحساب من ، كانت هذه التضحية التى تبلغ حد الاستشهاد، ومن الذى يستفيد من استمرارها .. من الذى يستفيد من بقاء كل هؤلاء الابرياء من الرجال والنساء والاطفال ، بكل مالهم من مهارة وانسانية ووداعة ، ضحايا للسخرية والاضطهاد ، على مر العصور؟ ولماذا كان كل هؤلاء الذين يسمون انفسهم « أصدقاء الشعب » ، هؤلاء الكتاب الذين يكتبون عن مسألتهم القومية، ايا كانت الجنسيات التى ينتمون اليها ، لماذا كانوا دائما بغير خيال ، ولا موهبة ؟ لماذا لايخرج قادة الشعب اليهودى من حدود هذا الكلام الفارغ والحكمة الخاوية ؟ لماذا لايسرحون هذا الجيش الذى حكم عليه بأن يقاتل أبدا ، ويسفك دمه، من أجل غاية لا يعرفها أحد ، حتى لو تعرضوا فى سبيل أداء هذا الواجب الى خطر الانفجار ؟ لماذا لايقولون لهم : « كفى .. عودوا الى صوابكم .. لاتتشبثوا بأصلكم ، ولا تسيروا

معا كالقطيع . تفرقوا . امتزجوا بالنـاس جميعـا .. أنتم أول المسيحيين فى العالم ، وخيرتهم . أنتم ضحايا أنفسكم ، يقودكم الى ذلك أضعف عناصركم وأسوأها .. »

— ١٣ —

• وفى اليوم التالى ، قال جيفاجو عندما عاد الى البيت لتنـاول طعام الفـداء : « لقد كنت تتعجل الرحيل ، وها هى رغبتك قـد تحققت . ولست أقول لك « حظا سعيدا » ، فليس من حسن الحظ أن نضرب مرة أخرى ويضيق علينا الخناق . أن الطريق الى الشرق مفتـوح ، والضغط قادم من ناحية الغرب . وقـد تلقت جميع الوحدات الطبية أمرا بالرحيل . أما الى أين ؟ فلست ادرى . أحسب يا كاربنكو أن ثياب جوردون لم تغسل بعد .. نفس القصة دائما .. سيقول لك كاربنـكو انه أعطاها لابنته لتغسلهـا ، فاذا سألته أى ابنة هى ، وأين تكون .. لم يستطع أن يجيب .. يائه من أبله !! »

ولم يلق جيفاجو بالا لتذرعات كاربنكو ، ولا لاعتذارات جوردون عن استعارة أقمصته .. وانما قال : « هـكذا حياة الجندية . ماتكاد تعتاد على مكان حتى تنقل الى آخر . لم يكن شىء فى هذا المكان يعجبنى ، عندما جئناه أول مرة . كان قذرا خانقا . الموقد فى غير مكانه المناسب ، والسقف شديد الانخفاض ! وانى لاعجز عن تذكر أى شىء عن المكان الذى جئنا منه . وفى الوقت نفســه ، فانى لا أمانع الآن فى قضاء عمرى كله فى هذا المكان ، أحدق فى ركن هـذا الموقد ، حيث تقع أشـعة الشمس . وتعبرها ظـلال تلك الشجرة .. »

وحزموا أمتعتهم بغير تعجل .

واستيقظوا خـلال الليـل على أصـوات صراخ ، وطلقـات بنادق ، ووقع أقدام . كان هناك احتدام غاضب فى القرية ، وكانت ظلال المارة تتخلل النافذة ، وقد نهض صاحب البيت وزوجته من

فراشهما خلف الحاجز . وارسل يورى خادمه ليسأل عن سبب كل ذلك الهرج .

وعاد الخادم يقول ان الالمان قد اخترقوا الخطوط ، فأسرع يورى الى المستشفى حيث استوثق من صحة الخبر . كانت القرية تحت النيران ، وقد نقل المستشفى على الفور ، دون انتظار الاوامر بالجلاء .

وقال يورى لجوردون : « سنغادر هذا المكان قبل الفجر . ستبرح انت مع الدفعة الاولى . ان العربة المسافرة قد تهيأت للرحيل ، ولكنى طلبت منهم أن ينتظروك ليأخذوك معهم . لا بأس .. أرجو لك حظا حسنا .. سأمضى معك الى العربة ، كى اتأكد من وجود مكان لك فيها . »

وأخذا يركضان فى شارع القرية ، ينحنيان حينا ، ويحتضنان الجدران حينا آخر ، والرصاص يئز من حولهما ، والانفجارات تبدو لهما من مفارق الطرق ، وكأنها مظلة كبيرة من النيران قد نشرت فوق الحقول !

وسأل جوردون صاحبه وهما يركضان : « وأنت .. ماذا ستصنع ؟ »

فأجاب يورى : « سأتبعك فى الدفعة التالية .. فلا بد لى من العودة ، لحزم أمتعتى »

وافترقا عند حافة القرية . وبدأ رتل العربات الذى تتكون منه القافلة ، يتحرك ، فتصطدم العربات ببعضها ، ثم تفسح كل منها الطريق للاخرى .. ولوح يورى بيديه لصديقه الذى استطاع أن يراه لبضع لحظات أخرى على ضوء لهب متصاعد من احدى الحظائر .

وعاد يورى مسرعا ، يحتمى فى الطريق بجدران المنازل ، واذ **أصبح على بعد بضع ياردات من منزله ، وقع انفجار طرحه أرضاً وأصيب منه بشظية .. فسقط فى وسط الطريق ، فاقدا رشده والدماء تنزف منه .**

— ١٤ —

• **كان** يورى يتماثل للشفاء فى عنبر الضباط بمستشفى نقل حديثا الى قرية صغيرة تقع على الخط الحديدى ، بالقرب من مقر القيادة العامة . وكان اليوم دافئا من أيام فبراير ، وقد فتحت النافذة القريبة من فراشه .

وكان المرضى يقتلون الوقت قبل الغداء ، وقد شاع بينهم ان ممرضة جديدة قد التحقت بالمستشفى ، وستقوم بجولتها الاولى فيه هذا اليوم . وعلى الفراش المقابل لفراش يورى ، جلس جاليولين يقرأ الصحف التى كانت قد وصلت لتوها ، متأففا من المساحات البيضاء التى أحدثتها فيها رقابة النشر .. اما يورى ، فكان يقرأ رسائل تونيا التى وصلت اليه فى كومة كبيرة . وكان النسيم يهب فيعبث بأوراق الرسائل والصحف ، عندما سمع صوت أقدام رقيقة ، دخلت « لارا » على أثرها الى الغرفة !

وعرفها كل من يورى وجاليولين ، دون أن يفطن احدهما الى معرفة الآخر لها ! أما هى فلم تعرف أحدا منهما ، وانما تقدمت الى وسط الغرفة وهى تقول : « كيف حالكم ؟ لماذا تتركون النافذة مفتوحة ؟ ألا تشعرون بالبرد ؟ » .. ثم اتجهت الى جاليولين وسألته عن حالته ، وأمسكت برسغه لتجس نبضه . ولكنها سرعان ماتركت يده .. وجلست على حافة فراشه تحدق فيه بنظرات مليئة بالدهشة ..

وقال جاليولين : « لم يكن هذا متوقعا يا لاريسا فيودوروفنا . فقد عرفت زوجك .. وكنا معا فى كتيبة واحدة ، ولقد احتفظت لك بما كان لديه من أشياء »

وأخذت لارا تردد : « **أيمكن هذا ؟ .. أيمكن هذا ؟ .. يالها من مصادفة غريبة .. أكنت تعرف زوجى ؟ .. خبرنى اذن عما حدث .. لقد قتلته قذيفة ، ودفنه الانفجار .. أليس كذلك .. ها أنت ذا ترى انى أعرف كل شىء ، فلا تخش أن تخبرنى بكل**

ما حدث !»

ولكن شجاعة جاليولين خانته ، فقرر أن يكذب عليها اكذوبة تريحها .. فقال : « لقد اخذ أنتيبوف أسيرا .. كان قد تقدم بوحدته أكثر مما ينبغى ، فوقع فى الحصار ، وعزل ، واجبر على التسليم »

ولم تصدقه لارا .. واذ كان هذا اللقاء المفاجىء قد هز كيانها ، فقد خشيت أن تخونها عواطفها أمام الغرباء ، وأسرعت خارجةالى البهو ..

وعادت بعد لحظات ، وقد استردت رباطة جأشها .. ولكنها تجنبت النظر الى جاليولين ، خوفا من أن يغلبها البكاء اذا خاطبته مرة أخرى .. والتفتت الى يورى قائلة ، بصوت خال من أى تعبير : « كيف حالك ؟ »

وكان يورى قد لاحظ اضطرابها ورأى دموعها ، وأراد أن يسألها عن سبب ضيقها ، وأن يخبرها انه رآها قبل ذلك مرتين ، مرة وهو تلميذ صغير ، ومرة وهو طالب فى الجامعة .. ولكنه خشى أن تتهمه بالفضول ، أو أن تسىء فهم مقصده .. ثم تذكر فجأة أعياد الميلاد فى تلك الاعوام الماضية ، والنعش الذى ترقد فيه آنا ، ونواح تونيا .. فاكتفى بقوله : « أشكرك .. انى طبيب، واستطيع العناية بنفسى ، ولست بحاجة الى أى شىء . »

وعجبت لارا متسائلة فى نفسها : « أأكون قد أسأت اليه ؟ » . وظلت تنظر بدهشة الى هذا الرجل ، ذى الانف المفلطح ، والوجه العادى الذى لايتميز بشىء !

وظل الجو متقلبا عدة أيام ، والريح الدافئة تهب ليلا ، تفوح منها رائحة الارض . وفى تلك الايام ، وردت تقارير غريبة من مقر القيادة العامة ، وانتشرت الشائعات المخيفة من داخل البلاد. كانت المواصلات التلغرافية قد قطعت مع بطرسبورج مرة بعد اخرى . وكان الناس فى كل مكان يتحدثون فى السياسة ..

واستمرت الممرضة « لارا انتيبوفا » تقوم بجولتها الصباحية والمسائية كل يوم ، وتتبادل خلالها بضع كلمات مع المرضى ، بما فيهم يورى وجاليولين . كانت ترى فى يورى شخصا غريبا ، وكانت تحدث نفسها عنه قائلة : « ياله من مخلوق غريب ، هذا الشاب القوى .. ان المرء لايستطيع أن يعتبره جميلا بهذا الانف المفلطح ، ولكنه ذكى بكل معانى هذه الكلمة ، ملىء بالحيوية والنشاط واليقظة .. وعلى أى حال ، فليس يعنينى امره .. انما يعنينى ان انتهى من عملى هنا بأسرع ما أستطيع ، لأعود الى موسكو ، وأصبح قريبة من كاتيا .. وأسعى لاخلاء طرفى من عمل الممرضة ، والعودة مرة اخرى الى يورياتين ، والى وظيفة التدريس . لقد وضح لى الآن كل ماحدث لباشا المسكين ، ولم يعد هناك من أمل . ولهذا فمن الخير ان أسرع فى خلع ثياب البطولة هذه التى أرتديها ، فما كنت لأطأ بقدمى هذا المكان ، لو لم يكن ذلك فى سبيل البحث عن باشا ! »

وكانت تذكر بالاسى حالة كاتيا اليتيمة المسكينة ، فلا تملك نفسها من البكاء .

ولقد لاحظت فى المدة الاخيرة تغيرا شديدا فى كل ماحولها . فمن قبل ، كانت هناك واجبات من كل نوع ، واجبات مقدسة : **كان هناك واجبك نحو وطنك ، وواجبك نحو جيشك ، وواجبك نحو المجتمع .. أما الآن ، وقد خسرت الحرب ، ولم يبق فى القاع غير سوء الطالع ، فقد تغير كل شيء .. لم تعد هناك قداسة لاى شيء !** كل شيء قد تغير فجأة .. اللهجة والروح المعنوية . انك لم تعد تدرى فيم تفكر ، أو لمن تصغى .. كأنك قد عشت حياتك مسلما قيادك لمن يأخذ بيدك كالطفل ، ثم اذ بك تصبح وحيدا ، ويتعين عليك أن تتعلم كيف تسير غير معتمد على أحد . لم يعد أحد حولك : لا العائلة ، ولا الناس الذين كنت تحترم آراءهم . وأنت ، فى مثل هذه الاحوال ، تشعر بحاجتك الى الارتماء فى أحضان أى معنى مطلق ، كالحياة .. أو الحقيقة .. أو الجمال .. وأن تخضع

له خضوعا كاملا ، بعد مافقدت المبادىء التى وضعها الانسان ، لينبذها .. أن تستسلم له بكل قوتك ، وبغير تحفظ ، ولا شيء من الحذر الذى كنت تستمسك به فى أيامك القديمة الهادئة ، فى حياتك المنقضية ، التى ذهبت ولن تعود ..

أما لارا ، فقد استطاعت أن تسترد نفسها ، لقد كانت لديها كاتيا ، لتشبع حاجتها الى الوجود والهدف . فالآن ، وقد فقدت باشا ، لم تعد تصلح الا لتكون أماً ، لتمنح كل قوتها ووجودها لطفلتها اليتيمة كاتيا !

ووصلت الى يورى الانباء من موسكو، بأن جوردون ودودوروف قد نشرا كتابه دون اذن منه ، وان الكتاب قد لقى نجاحا واستحسانا ، واعتبر عملا ادبيا مبشرا . وان موسكو تجتاز اياما عصيبة مليئة بالاضطرابات ، وان احداثا هامة على وشك الوقوع ، والسخط يجتاح الجماهير ، وينذر بتطورات سياسية كبرى ..

وكان الليل قد أوشك على الانقضاء ، وقد شعر يورى بحاجته الشديدة الى النوم ، فمضى يحايل النعاس ، وقد خيل اليه أن اضطرابات الايام الماضية قد أورثته القلق . وتثاءبت نسمات ناعسة أخذت تهب عليه من خلال النافذة ، وكأنما كانت الريح تئن وتشكو .. « تونيا .. ساشا .. انا مشوق اليكما . اريد ان اذهب الى البيت .. وأن أعود الى عملى » . وعلى تمتمة الرياح ، نام يورى ، واستيقظ .. ثم نام .. تتقاسمه الفرحة والالم .. يتقلبان عليه كما يتقلب الجو ، ويملآنه اضطرابا كالليل المدلهم .

وذكرت لارا أن جاليولين ، رغم كل ما أظهر من وفاء لذكرى باشا ، وما تحمل من مشقة فى المحافظة على حوائجه ، فانه لم يظفر منها بمجرد سؤال عمن يكون ، ومن أين أتى ... فشعرت بالاحتقار لنفسها .. ولما كان الصباح التالى ، حرصت على سؤاله عن نفسه ، أثناء قيامها بجولة الصباح ، تصحيحا لخطئها ، وحتى لاتبدو ناكرة للجميل .

ولم تملك نفسها من الدهشة لما سمعته منه : « يا الهى .. ٢٨

شارع برست .. وعائلة تيفرزين .. وثورة ١٩٠٥ .. وذلك الشتاء ! .. يوسوبكا ؟ ! لا .. » . لم تستطع أن تذكر انها قابلته من قبل .. هل يغفر لها .. ولكن ، نعم .. ذلك العام .. ذلك العام .. وذلك البيت .. ! هل وجد فعلا ذلك العام ، وذلك البيت ؟ ! كيف عادت حية اليها كل هذه الذكريات ؟ طلقات النار .. نعم .. وذلك الشيء الذى كانت تسميه « مبادىء المسيح » .. ما كان أقوى وأعنف تلك المشاعر ، التى يعرفها الانسان لاول مرة فى طفولته ! .. **« اغفرلى .. اغفرلى ايها الملازم .. قل لى .. ما اسمك مرة أخرى . نعم .. نعم .. لقد سمعت هذا الاسم من قبل .. « أوسيب جيمازيدينوفيتش » .. لست أستطيع أن أوفيك حقك من الشكر على تذكيرى بكل هذه الذكريات . »**

وظلت طيلة النهار تفكر فى ذلك البيت ، وتحدث نفسها بصوت يكاد يكون مسموعا : « ياالله .. شارع برست .. رقم ٢٨ .. وها هم يطلقون النار مرة أخرى .. ولكن ، كم هو مخيف اطلاق النار هذه المرة ! .. ليست تستطيع أن تقول اليوم ان الاطفال يلعبون باطلاق النار .. لا .. لقد كبر الاطفال . جميعهم هنا الآن .. فى الجيش .. هؤلاء الناس البسطاء الذين عاشوا فى ذلك البيت ، وفى البيوت المماثلة له .. وفى القرى المتشابهة جميعا .. كلهم هنا اليوم .. ما أغرب هذا .. ما أغربه !! »

واندفع الى الغرفة فجأة جميع المرضى الذين لم يكونوا مقيدين الى أسرتهم ، وقد توكأ بعضهم على عكازاتهم ، والاخرون على عصى ، والبعض يهرولون .. وقد أخذوا يصيحون : **« القتال فى شوارع بطرسبورج .. لقد انضمت حامية بطرسبورج الى الثوار .. انها الثورة .. انها الثورة »!!**

الفصل الخامس

وداعا للماضى !



« .. لماذا باالله لايملك الرجل الناضج أن يتحدث الى امرأة ناضجة دون ان تثار الريب حول دوافعه ، وحول ما سوف يترتب على ذلك ؟ ! .. اللعنة على كل الدوافع . استمرى فى الكى ولا تلقى بالا الى . أفتدركين أى شىء لم يسبق له مثيل يحدث اليوم ؟ اننا احرار ، لا بمجرد الكلام والنظريات ، وانما هى حرية حقيقية سقطت من السماء ! .. »

الفصل الخامس

وداعا للماضى !

— ١ —

• **كانت** البلدة الصغيرة التى نقل اليها المستشفى تدعى (مليوزيبفو) ، وتقوم وسط الريف الخصب ، الاسود التربة . فكان الغبار الاسود يعلق بهوائها ويخيم فوقها طول النهار — كأنه غمامة من جراد — كلما أثارته القوات والقوافل العسكرية التى كانت تجتاز البلدة ، فى كلا الاتجاهين : بعضها ذاهب الى الجبهة ، والبعض عائد منها .. وكان من العسير أن يجزم المرء بما اذا كانت الحرب دائرة الرحى ، أو انها توقفت .

وكان « جيفاجو » ، والممرضة « لارا انتيبوفا » ، و « جاليولين » يجابهون فى كل يوم واجبات جديدة تنبت كالنباتات الفطرية . وكانوا — مع فئة قليلة وفدت من المدن — يعتبرون أهل خبرة ودراية ، ويقع الاختيار عليهم لكل مهمة تحوج الضرورة اليها : فكانوا يعملون فى المجلس البلدى .. ويمارسون سلطات صغار الضباط فى الجيش وادارة الصحة . وكانوا يتطلعون الى هذا التنوع فى مهامهم كنوع من التسلية أشبه برياضة فى الخلاء ، او كلعبة التغرير بالاعمى (١) ! .. على أنهم أخذوا يشعرون — فى فترات متزايدة — بأن الوقت قد حان للكف عن اللعب ، وللعودة الى أعمالهم الاصلية والى مواطنهم .

وكان العمل كثيرا مايجمع بين جيفاجو وانتيبوفا .

— ٢ —

• **وأحالت** الامطار التراب الاسود الى وحل فى لون القهوة .

---

(١) لعبة أشبه بالاستخفاء «الاستغماية»

وانتشر هذا الوحل فى الطرق التى لم يكن معظمها مرصوفا .

وكانت البلدة جد صغيرة ، تكاد ترى عند نهاية كل شارع فيها - تقريبا - السهول الجرداء ، والسماء المعتمة ، والريف الشاسع يتوهج بالثورة والحرب .

وكتب « يورى » (١) الى زوجته يقول : « لقد انتدبت لاتفقد بعض وحدات الجيش فيما حولنا . ان الفوضى تزداد استفحالا بالرغم من كل مايبذلونه لتحسين النظام والروح المعنوية . وجدير بى أن اضيف بهذه المناسبة - وقد كان ينبغى ان أفعل ذلك فى جزء مبكر من رسالتى - **اننى أؤدى قسطا من عملى مع امرأة تدعى « أنتيبوفا » ، هى ممرضة من (موسكو) ، ولدت فى جبال (أورال)**



.. أتذكرين تلك الطالبة التى أطلقت الرصاص على المدعى العام ، فى تلك الحفلة المروعة ، ليلة موت أمك ؟ .. أظن أنه كانت ثمة محاكمة

---

(١) يلاحظ ان « يورى » هو ذاته « يورا » . والظاهر ان الأخير اسم تدليل ، كان يطلق عليه قبل أن يكبر .

بعد ذلك ، واتذكر اننى اخبرتك بأن ميشا واياى كنا قد رايناها مرة قبل الحادث ـ وهى بعد تلميذة فى المدرسة العليا ـ فى فندق حقير كان أبوك قد اصطحبنا اليه . ولست أذكر السبب الذى ذهبنا من أجله . كل الذى اذكره ان الليلة كانت قارسة البرد . وأظن ان ذلك كان ابان ثورة (بريسنيا) .. المهم ، لقد كانت الفتاة هى « انتيبوفا » !

« لقد بذلت عدة محاولات للحضور ، ولكن الامر ليس من السهولة بمكان . وليس ذلك راجعا الى العمل ـ فان بوسعنا ان ندبر امره بسهولة ـ وانما المشكلة تتمثل فى الرحلة ذاتها . فاننا اما لانجد قطارات البتة ، واما نجد القطارات مليئة بحيث لا يجد المرء موطئا لقدم فيها . ولكن هذه الحال لن تستمر على الدوام طبعا ، وقد عقدت العزم ـ مع بعض الذين استقالوا او سرحوا من الخدمة ، وبينهم انتيبوفا وجاليولين ـ على ان نرحل فى الاسبوع المقبل ، مهما يحدث . وسنسافر فرادى ، فان هذا يفسح الفرص اكثر مما لو كنا معا . ومن ثم فقد اهبط من السماء فى أى يوم ، وان كنت سأحاول ان ابرق اليك » .

على انه ـ قبل رحيله ـ تسلم رد « تونيا » . وكانت العبرات تتخلل عبارات خطابها بجلاء ، والدموع تلطخها ، وبقع الحبر تحل محل علامات الترقيم فيها ! وكانت ترجوه فى رسالتها ان لا يعود الى (موسكو) ، بل يذهب الى (الاورال) مباشرة مع تلك المرضة الرائعة ، التى كانت تشق فى الحياة طريقا محفوفة بنذر رهيبة واحداث غريبة ، تجعل من المستحيل عليها ـ أى على تونيا ـ بما اوتيت من بساطة ، أن تنافسها !

واستطردت تقول فى رسالتها : « لا تشغل بمستقبل ساشا ، فلن تضطر الى أن تخجل يوما منه . لسوف انشئه على تلك المبادىء التى رأيتها فى صباك تراعى فى دارنا .. وهذا وعد أقطعه على نفسى ! »

وتردد يورى قبل ان يجيب قائلا : « **لابد أنك اختبلت ياتونيا !**

.. كيف تتصورين شيئا كهذا ؟ .. كيف تسنى أن لاتعرفى ، وان لاتشعرى اعمق الشعور بأننى لولاك، ولولا تفكيرى الدائب، المخلص، فيك وفى دارنا ، لما قدر لى أن أعيش بعد هذين العامين الرهيبين ، المروعين ، من أعوام الحرب ؟ .. على أن الكلام لا يجدى ، ولن نلبث ان نصبح معا ، وان تبدأ حياتنا من جديد ، واذ ذاك سيتضح كل شىء بجلاء .

« على أن الذى يزعجنى من خطابك هو أمر آخر : فانى اذا كنت قد اتحت لك حقا السبب الذى يدعوك للكتابة بهذا الاسلوب ، فلا بد أن تصرفى كان نابيا الى الدرجة التى تدينني ، لا معك أنت فحسب، بل ومع تلك المرأة الاخرى ، التى أسأت الحديث عنها .. لسوف أعتذر اليها بمجرد عودتها ـ لانها فى الريف ، اذ يجرى العمل فى اقامة مجالس محلية فى القرى (عدا مجالس المقاطعات ومجالس المناطق التى كانت موجودة من قبل) ، وقد ذهبت لتمد يد العون لصديق لها يتولى الارشاد وتقديم المشورة فى كل ما يتعلق بهذه التعديلات الادارية ـ **وقد يهمك أن تعرفى اننا وان كنا نقيم فى دار واحدة ، الا اننى لا اعرف حتى اليوم اى الغرف هى غرفة انتيبوف، لاننى لم أحفل بذلك يوما ! »**

— ٣ —

• تتفرع من (مليوز ييفو) طريقان رئيسيتان ، تتجه احداهما شرقا ، والاخرى غربا . وكانت احداهما دربا موحلا ، غير ممهد ، يشق الغابة الى (زابوشينو) ـ وهى بلدة صغيرة كانت تعيش على تجارة الغلال ، وتتبع (مليوز ييفو) اداريا ، برغم انها متقدمة عنها فى كثير من النواحى ـ أما الطريق الاخرى فكانت مرصوفة بالحصباء، وكانت تتخلل حقولا ـ موحلة فى الشتاء ولكنها جافة صيفا ـ الى (بيريوتشى) ، وهى أقرب ملتقى للخطوط الحديدية .

وفى شهر يونيو ، أصبحت (زابوشينو) جمهورية مستقلة . وقد قام بالحركة « بلاجيكو » ـ صاحب المطحن المحلى ـ يؤيده

جنود هاربون من كتيبة الخط الثانى عشر بعد المائتين ، الذين هجروا الجبهة ابان القلاقل ، واحتفظوا بأسلحتهم ، ثم وفدوا على (زابوشينو) عن طريق (بيريوتشي) . وقد رفضت الجمهورية أن تعترف بالحكومة الاقليمية ، وانسلخت من بقية أرجاء روسيا . وكان « بلاجييكو » من الطائفيين المتعصبين ـ وقد اتصل فى فترة ما بتولستوى ـ فأطلق على المجلس المحلى « الكرسى الرسولى » ، وأعلن عن قيام مملكة ألفية جديدة (١) ، يكون العمل فيها قسمة بين الجميع ، والثروة ملكا مشاعا للسكان كلهم .

ولقد كانت (زابوشينو) دائما موطنا للأساطير والمبالغات ، وورد ذكرها فى صحف « اوقات الاضطرابات » (٢) . كما انها كانت وسط غابات اتخذها اللصوص موئلا لهم الى عهد غير بعيد ، واشتهرت بما لتجارها من غنى فاحش ، وما لارضها من خصب يفوق الخيال . ومنها انبعثت كثير من المعتقدات العامة ، والعادات الغريبة التى جعلت أحاديث أهل المنطقة كلها تتسم بالشذوذ . **وقد أصبحت الحكايات العجيبة التى تنبعث منها عادة تدور فى هذه الفترة حول المساعد الاول لبلاجييكو ، فقد قيل انه ولد أبكم أصم ، لا يحظى بنعمة الكلام الا باذن الهى خاص ، يمنحه فى اوقات معينة !**

ولقد عاشت الجمهورية أسبوعين ، ثم قضت عليها ـ قبل نهاية شهر يونيو ـ وحدة من الجيش موالية للحكومة الاقليمية ، فتراجع الهاربون الى (بيريوتشي) . وكانت عدة أميال من الغابة قد اجتثت ـ على جانبى الخط الحديدى ـ فأقام الهاربون معسكرهم بين بقايا الاشجار القديمة التى نما حولها التوت البرى ، وبين اكوام الخشب التى اقتطعت خلسة ولم تستهلك، وأطلال اكواخ العمال الموسميين الذين كانوا يقتطعون الاشجار .

---

(١) تقول الكتب الدينية ان المسيح سيقيم مملكة الرب فى الارض ، وانه سيحكمها الف عام . فالمقصود هنا بـ « مملكة الفية » دولة تقوم على مبادىء المسيح .

(٢) فترة قلاقل وحرب اهلية فى روسيا ، فى القرن السابع عشر .

— ٤ —

• أما المستشفى الذى كان « يورى » مريضا – ثم اصبح طبيبا – فيه ، فكان يشغل المقر السابق للكونتة جابرينسكايا .. وقد قدمته للصليب الاحمر فى بداية الحرب. وكان منزلا من طابقين، فى موقع من احسن مواقع البلدة ، عند ملتقى الشارع الرئيسى بالميدان الذى كان يسمى (بلاتز) ، حيث كان الجنود يتدربون فيما مضى ، وحيث أصبحت الاجتماعات تعقد فى الآونة الاخيرة . وكان موقع المبنى يجعله مشرفا على المنطقة المجاورة اشرافا تاما . وفضلا عن الميدان والشارع ، فانه كان يطل على ساحة البيت المجاور – الذى كانت تمتلكه أسرة ريفية فقيرة ، تعيش معيشة الفلاحين تقريبا – وعلى حدائق الكونتة ، الممتدة خلفه . وكانت الكونتة تمتلك ضيعة كبيرة فى المنطقة تدعى (رازدولنوى) ، فلم تكن تستخدم الدار فيما مضى الا كمقر أثناء الزيارات التى كانت تقوم بها لماما الى البلدة ، لبعض شؤونها ، والا كاستراحة للضيوف الذين كانوا يأتون من قريب وبعيد ليقضوا الصيف فى (رازدولنوى).

ولقد أصبح البيت مستشفى ، وحددت اقامة صاحبته فى (بطرسبورج) . ولم يبق فى الدار من الخدم العديدين سوى امرأتين : اوستينيا ، كبيرة الطاهيات ، و « مدموازيل فليرى » مربية بنات الكونتة ، اللاتى أصبحن زوجات . وكانت « مدموازيل فليرى » ، بشعرها الاشيب ، ووجهها الاحمر ، ومظهرها المشعث ، تجوس خلال المستشفى وكأنه بيتها ومقامها – كما كانت تفعل فى ايام اسرة « جابرينسكايا » – مرتدية معطفا باليا متهدلا ، ونعلين خفيفين . وكانت تروى القصص الطوال بلغة روسية مهشمة ، ماضغة أواخر الكلمات ، ملوحة بيديها ، متخذة أوضاعا تمثيلية مؤثرة . ثم تنفجر بفيض من القهقهة الصاخبة ، التى تنتهى بها الى نوبات من السعال .

ولقد اعتقدت « الآنسة » العجوز انها استطاعت ان تفهم المرضة

انتيبوفا قلبا وقالبا ، وان هـذا مكنهـا من أن ترى ان الممرضـة والطبيب كانا مسـوقين الى أن يميل كل منهمـا الى الآخر ! .. **واستهواها حب المغامرات « والمؤامرات » العاطفية ، شأن كل أبناء العنصر اللاتينى ، فكانت تغتبط كلمـا وجدت الطبيب والممرضـة معا ، وكانت تهز أصبعها فى وجهيهما ، وهى تغمز بعينها !** .. وكان هذا يحير « لارا » ويغيظ « يورى » . ولكن « المدموازيل » ظلت متشبثة بتصوراتها الوهمية ، تأبى أن تتخلى عنها بأى ثمن !

على ان « اوستنيا » كانت أغرب شأنا .. كان جسمها المنبعج ، الشبيه بشكل ثمرة الكمثرى ، يبديها كالدجاجة المفـرخة (التى تحتضن بيضها حتى يفرخ) . وكانت تزن كلمـاتها عادة ، وتلزم الدقة والايجاز فى كلامها . ولكن خيالها كان ينطلق على رسله ، فى كل مايتعلق بالخرافات والشعوذة . فلقد ولدت فى (زابوشينو) ، وقيل أنها كانت ابنة امرأة تمارس السحر هناك . ومن ثم فقـد كانت على معرفة بما لاحصر له من الرقى والتعويذات ، وما بارحت دارها يوما قبل أن تهمهم بكلمات فوق الموقد وعند ثقب الباب ، لتقى الدار من النار ومن الشر فى غيابها ! .. وكان بوسعها أن تظل أعواما هادئة ، ولكنها اذا ما استثيرت ، تعذر كبح جماحها . وكان اى تحامل على معتقداتها كفيلا بأن يضرم فى نفسها نيران الدفاع عن الحقيقة !

وبالرغم من القضـاء على جمهـورية (زابوشينو) ، فقـد ظل المجلس الثورى فى (مليوزييفو) فى خوف من آثارها الفوضوية على المنطقة ، وقرر أن يبدد كل مفعول لها بحمـلة لتنوير الاذهان . وكانت الفرص تسنح لذلك فى الامسـيات ، عندما كانت تعقـد فى الميدان الرئيسى بالبلدة اجتماعات سلمية هادئة ، يفد اليها القـوم طواعيـة دون دعوات أو تنظيم .. وكان يحضرها أولئـك الذين لم يكن لديهم ما يشغلهم ، وأولئك الذين اعتادوا ــ فى الايام الغابرة ــ أن يجتمعوا عند محطة اطفاء الحريق ، فى الطرف الآخر من الميدان ، ليثرثروا ويتبادلوا الشائعات !

ومن ثم شجع المجلس هذه الاجتماعات ، واصبح يدعو خطباء — من أهل البلدة ومن خارجها — ليفتتحوا المناقشات . وكان الخطباء المدعوون من خارج البلدة يؤمنون بأن قصة نطق الاصم الابكم (مساعد بلاجيبكو) كانت سخفاً تافهاً ، ويحرصون على أن يجهروا بهذا الرأى . ولكن صغار الصناع ، وزوجات الجنود ، والخدم السابقين فى (مليوزيبفو) ، لم يكونوا يرون فى تلك القصص هراء ، وراحوا يدافعون عن ذلك الاصم الابكم . وكانت «اوستنيا» منهم ، وقد أحجمت فى البداية ، بتأثير الحياء النسوى ، ثم أخذت تزداد جراة فى دحض الآراء التى لم تكن ترضى أهل البلدة ، فلم تلبث أن غدت خطيبة مصقعة ، ماهرة !

وكانت جلبة الاصوات فى الميدان تسرى خلال النوافذ المفتوحة الى داخل المستشفى . وفى الليالى الهادئة ، كان من الميسور تمييز كل مايقال .. فاذا كانت « اوستنيا » تخطب فى القوم ، فان « المدموازيل » كانت تندفع الى أية حجرة بها أحد، وتهيب بالجميع أن ينصتوا ، وتروح تقلد الخطيبة بلهجتها الركيكة : « راسبوتين . راسبو .. قيصر . زابوشيه .. أصم ابكم .. خونة ! .. خونة ! » . وكانت تزدهى — فيما بينها وبين نفسها — بصديقتها الموهوبة ، المشحوذة اللسان . كانت كل من المراتين مشغوفة بالاخرى ، برغم انهما لم تكونا تكفان عن الشجار !

— ٥ —

• راح « يورى » يطوف بالمكاتب الحكومية التى كان بحاجة الى أن يحصل منها على الاجازات والمسوغات اللازمة لعودته الى (موسكو) ، كما أخذ يزور أصدقاءه ومعارفه مودعا . وكان « القوميسار » الشاب — الذى عين حديثا فى القطاع المحلى من الجبهة — يقضى بضعة أيام فى (مليوزيبفو) ، وهو فى طريقه الى الجيش . وقد قيل انه كان مجرد فتى صغير السن ، وكان تعيينه قد ترتب على النشاط الجديد الذى دب فى الجبهة ، اذ كان الجيش

يتاهب للهجوم ، وكان كل جهد يبذل لتحطيم تراخى الجيش ، ولتعزيز النظام .. فأقيمت محاكم الحرب الثورية ، واعيد العمل بعقوبة الاعدام التى كانت قد الغيت منذ عهد قريب .

وكان من التوقيعات التى احتاج « يورى » اليها على مستنداته، توقيع الحاكم العسكرى للبلدة . وكان من العسير الوصول الى مكتبه عادة ، اذ كان الصف الذى ينتظم قاصديه يمتد الى منتصف الطريق ، كما أن الضجيج فى الداخل كان من الارتفاع بحيث يعز على المرء أن يسمع شيئا .. على أن ذلك اليوم لم يكن من الايام التى يستقبل فيها الحاكم قاصديه ، فجلس الكتبة ساكنين الى مكاتبهم التى سادها الهدوء ، وقد همهم الازدياد المطرد فى أعمالهم ، فراحوا يتبادلون نظرات حافلة بالسخرية المنبعثة عن الضيق .. وكانت تنبعث من حجرة الحاكم اصوات مليئة بالابتهاج ، اذ كان الذين فى الحجرة قد تخففوا من أزيائهم الرسمية ، واقبلوا على المرطبات . وما لبث « جاليولين » ان برز من الحجرة ، فرأى « يورى » وأشار اليه بحركات مبالغ فيها ، اهتز لها كل جسمه الضخم ، وكأنه كان يتحفز لينطلق فى سباق ! .. ولما كان «يورى» مضطرا الى أن يقابل حاكم البلدة — على أية حال — فانه لم يلبث ان دخل .. والفى الحجرة فى حال بينة من الفوضى .

كان «القوميسار» الجديد يحتل وسط المسرح، أى وسط الحجرة. وكان قد غدا بطل اليوم ، ومثار اهتمام البلدة ، يلقى الاوامر على حكام هذه المملكة المصنوعة من الورق ، فى أمور لاعلاقة لها بالعمل ولا بالمسائل العسكرية ، بدلا من أن يخف الى مقر منصبه ! .. وصاح حاكم البلدة ، وهو يقدم يورى اليه : « آه ، هاك نجما آخر من نجومنا ! » . ولم يلتفت « القوميسار » ، اذ كان فى شغل بنفسه عن كل شىء .. فلم يجد حاكم البلدة سوى أن يوقع الاوراق التى وضعها « يورى » أمامه ، ثم يشير اليه فى تأدب نحو مقعد وثير ، ليستأنف بعد ذلك تظاهره بالاستغراق فى الاصغاء .

وجلس « يورى » . كان الوحيد — بين من كانوا فى الحجرة —

الذى جلس كما ينبغى للانسان أن يجلس ! .. أما الآخرون ، فكانوا يميلون فى استرخاء وتهدل ، وفى أوضاع غريبة ، متظاهرين — فى مغالاة مصطنعة — بالارتياح . فكان حاكم البلدة يكاد يستلقى على مكتبه استلقاء ، وخده على قبضته ، فى منظر يشبه منظر « بايرون » (١) وهو يفكر ! .. اما مساعده — وكان رجلا ربعة ، عريض المنكبين — فقد قبع على مسند الاريكة ، ملقيا ساقيه منفرجتين على المقعد ، وكأنه يجلس على سرج مدليا ساقيه فى أحد الجانبين ! وجلس « جاليولين » على المقعد فى وضع معكوس ، وقد دلى ساقيه من الجانبين ، واحتضن ظهر المقعد بذراعيه مسندا رأسه اليهما .. بينما كان « القوميسار » لايكف عن الاتكاء على رسغيه ليرفع نفسه الى حافة النافذة ، ثم يقفز عنها ويصول فى أرجاء الحجرة ذهابا وجيئة بخطوات قصيرة سريعة ، وهو يطن كخذروف يدور حول نفسه ، لايسكن ولا يصمت لحظة .. كان يتكلم باستمرار ، وكان موضوع حديثه هو مسألة الهاربين من الجيش ، المعتصمين ببيريوتشى !

وكان القوميسار يشبه تماما مانمى الى « يورى » عنه : نحيلا ، بديع الشكل ، أشبه بفتى تخرج من المدرسة لفوره .. يتحرق بلهب آرائه وكأنه شمعة . وكان يقال أنه من أسرة طيبة — بل ابن أحد اعضاء مجلس الشيوخ ، كما ظن بعض الناس — كما قيل انه كان من أوائل من قادوا كتائبهم الى (دوما) فى شهر فبراير . وكان يدعى « جينتز » أو « جينتزه » — فان « يورى » لم يكن قد التقط اسمه تماما — وكان يتكلم بلهجة واضحة ، بطريقة أهل (بطرسبورج) فى النطق الصحيح ، وبرنة خفيفة من لكنة أهل (البلطيق) .. أما بزته فكانت عسكرية محبوكة حول جسمه . وربما كان من بواعث الحرج له أن يكون صغير السن بهذه الدرجة ، ومن ثم فقد كان ينتحل مظهر القسوة ، ويصطنع الانحناء ، مقوسا

---

(١) الشاعر الانجليزى المعروف

كتفيه بما تحملان من شارات رتبتـه ، ويداه لاتبرحان جيبيه . والحق أن هذا كان يكسبه الشكل العام لفارس ، يرسم بخطين مستقيمين ، يهبطان مائلين الى الداخل من زاويتى كتفيـه الى قدميه .

وقال له حاكم البلدة : « هناك كتيبة من القوزاق معسكرة على مسافة قصيرة ، على طول الخط الحديدى . انها حمراء ، موالية . ولسوف تستدعى لتشارك فى العملية ، وبذلك يتسنى محاصرة المتمردين ، فتكون هذه خاتمة الامر .. ان قائد الفصيلة متلهف الى تجريدهم من السلاح ، دون ما ارجاء » .

فصاح القوميسار : « قوزاق ! .. لايمكن ، مهما تكن الظروف . اننا لسنا فى سنة ١٩٠٥ .. ليس هذا وقت استرجاع الذكريات التاريخيـة . ان آراءنا على نقيض ذلك على خط مستقيم . ان قادتكم يحاولون ان يكونوا امهر مما ينبغى لهم ! » .

ـ ولكنهم لم يفعلوا بعد شيئا قط ! .. انما هو مشروع فحسب .. مجرد خطة !

ـ ان بيننا وبين القيادة العليا اتفاقا على ان لانتدخل فى أوامر العمليات العسكرية . ومن ثم فلن ألغى الامر الصادر بدعوة القوزاق .. ليأتوا ! .. ولكننى سأتخذ ـ من جانبى ـ الاجراءات التى يمليها الادراك السليم .. أعتقد أن للمتمردين معسكرا خلويا هناك .

ـ هـذا صحيح .. لابد لهم من معسـكر ، على أية حال .. معسكر مسلح !

ـ بديع ! .. أحب أن أذهب الى هناك ، فعليكم ان ترونى مبعث الخطر هذا .. هـذا الوكر المعمـور بالافاقين . انهم قـد يكونون متمردين ـ أيها السادة ـ وقد يكونون هاربين من الخدمة العسكرية ، ولكن .. تذكروا أنهم بشر . والبشر أشبه بالاطفـال ، لابد من أن تعرفوهم .. لابد من أن تلموا بنفوسهم . ولكى تسيطروا عليهم ، لابد من أن يكون لديكم الاسلوب الصحيح لعلاجهم ، ولا بد لكم من أن تسعوا اليهم ، وأن تروضوا قلوبهم وتعاملوها ! .. لسوف اذهب

واتحدث اليهم ـ حديث القلب للقلوب ـ وسوف ترون كيف يعودون الى مراكزهم التى هجروها ، وهم انقى من الذهب ! .. الا تصدقونني ؟ .. فليكن بيننا رهان على ذلك ، اذن !

ـ من يدرى ؟ .. اننى لأتمنى صادقا أن تكون على صواب !

ـ سأقول لهم : « خذوا حالى مثلا .. اننى الابن الأوحد ، والامل الاوحد لوالدى. ومع ذلك فاننى لم أعف نفسى من الواجب. لقد تخليت عن كل شيء .. عن الاسم ، والاسرة ، والمركز . فعلت ذلك لاحارب من أجل حريتكم ، من أجل حرية أكبر من تلك التى يستمتع بها اى شعب آخر فى الدنيا . هكذا فعلت ، وهكذا فعل كثير من الشبان غيرى ، فضلا عن حراس أمجاد اسلافنا ، الابطال الذين نافحوا عن حقوق الشعب، والذين أرسلوا ليمارسوا الاشغال الشاقة فى (سيبريا) ، أو سجنوا فى حصن (سلوسيلبورج) . فهل فعلنا نحن شيئا من هذا القبيل ؟ أو هل ينبغى أن نفعل ؟ .. وأنتم .. أنتم يامن لم تعودوا مجرد محاربين عاديين ، وانما اصبحتم محاربى الجيش الثورى الاول فى العالم ، كيف قدر لكم ان تثبتوا جدارتكم بما تطلقون على أنفسكم ؟ .. فى اللحظة التى تريق فيها بلادنا دماءها ، والتى تبذل فيها جهدا خارقا ، ساميا ، لتطرح عنها أخطبوط العدو الذىيطوقها ، اذا بكم تسمحون لانفسكم بالانسياق كالحمقى لعصابة من الامعات ، النكرات .. اذا بكم تصبحون غوغاء ، مجردين من الوعى السياسى ، متخمين بالحرية ، مشاغبين ، لا يقنعون بشيء .. **أصبحتم ممن يقولون عنهم فى المثل: « اعطهم شبرا يطمعوا فى ذراع » ! .. أو كما يقول مثل آخر : « دع الخنزير يلج قاعة الطعام، تجده يرفع حوافره الىالمائدة » (١) .. آه ، اننى لن أخفف من وقع كلماتى ، بل لسوف أجعلهم يشعرون بالخزى من أنفسهم !**

واستجمع حاكم البلدة جراته ليقول معقبا ، وهو يرمق مساعده

---

(١) ما أشبه هذا بالمثل العامى : « سكتنا له .. دخل بحماره » !

بنظرة ذات معنى : « آه .. لا ، لن يكون هذا المسلك جم الخطورة ! » . ولكن « جاليولين » بذل قصارى جهده ليثنى القوميسار عن فكرته الجنونية . فقد كان يعرف رجال الكتيبة الثانية عشرة بعد المائتين ، اذ كانوا فى قطاعه فى جبهة القتال .. ولكن القوميسار أبى ان ينثنى !

وظل « يورى » ـ طيلة الوقت ـ يحاول أن ينهض وينصرف . فلقد أذهلته سذاجة القوميسار ، ولكن الرياء الخبيث الذى اشتمه من حاكم البلدة ومساعده ـ وهما افاقان مذبذبان من أسوأ انواع البشر ـ لم يكن افضل من تلك السذاجة . كان غباء الاول يعادل رياء الثانيين وغشهما ، وقد غثيت نفس « يورى » بفيض كلماتهما السخيفة ، العديمة القيمة واللزوم ، التى تمجها الحياة ذاتها !

ما أشد ما يبلغه أحيانا الشوق الى الهرب من خواء وغباء اللغو البشرى ، واللجوء الى الطبيعة المبرأة عن مثل هذا اللغو ، أو اللجوء الى العمل الطويل الطاحن ، أو النوم العميق ، او الموسيقى الحقيقية .. او اللجوء الى التفاهم البشرى الذى تقره العاطفة دون ما داع الى كلمات !

وهنا تذكر « يورى » الحديث الذى كان مرتقبا بينه وبين المرضة انتيبوفا . كان مقدرا له أن لايكون حديثا سارا ، لكن « يورى » كان مغتبطا لضرورة لقائه اياها ، ولو بهذا الثمن ! .. ولم يكن من المحتمل أن تكون قد عادت بعد . ومع ذلك فقد أسرع الى النهوض ، بمجرد ان سنحت له الفرصة ، وخرج دون ان يفطن الآخرون الى انصرافه !

— ٦ —

• **ولكنها** كانت قد عادت ، اذ انبأته « المدموازيل » بذلك ، وأردفت بأن المرضة كانت متعبة ، وانها تناولت قسطا من الطعام بسرعة ، ثم اوت الى حجرتها ، راجية ان لايزعجها احد .. ومع ذلك ، فقد اضافت « المدموازيل » ، على سبيل الاقتراح : « ولكن ، لماذا لا تصعد وتطرق بابها ؟ .. اننى أعتقد انها لم تنم بعد » .

ـ واية غرفة هى غرفتها ؟

وعندما غالبت « المدموازيل » دهشتها ، قالت له ان غرفتها تقع فى نهاية الردهة ، فى الطابق الاعلى ، فى نهاية عدة غرف جمع فيها كل أثاث الكونتة ، وفى قسم من الدار لم يكن « يورى » قد ارتاده من قبل .

وكان الظلام يهبط على الكون . . وأخذت ظلال البيوت والاسوار تتقارب وتتجمع فى الخارج . وبدت الاشجار وكأنها تشرئب برؤوسها من أعماق الحدائق المعتمة الى ضوء المصابيح البترولية الذى كان ينساب من النوافذ . وكان الهواء ساخنا ، لزجا ، مشبعا بالرطوبة . . ونور المصباح يتساقط فى فناء الدار أشبه بنقط من العرق تهوى على لحاء الشجر !

ووقف « يورى » عند رأس السلم ، اذ خطر له أن مجرد طرق باب « لارا » ـ وقد عادت لتوها من رحلتها متعبة ـ عمل بعيد عن اللياقة ، مسبب للحرج ، وان من الخير أن يرجىء الحديث الى الغد . وفى شرود البال ـ الذى يستولى على الإنسان عندما يتحول عن فكرة معينة ـ مشى الى آخر الردهة ، ومال على نافذة كانت تشرف على فناء الدار المجاورة ، فأطل منها .

كان الليل مليئا بأصوات هادئة ، محفوفة بالاسرار . . وعلى مقربة من « يورى » ـ فى ردهة جانبية ـ كان ثمة صنبور تنساب منه قطرات ثقيلة ، بطيئة ، فى تتابع منتظم رتيب . . وكان أناس يتهامسون فى مكان ما ، خارج النافذة . . وفى بقعة ما ، فى حديقة الخضر فى فناء الدار المجاورة ، كان ثمة أشخاص يروون أحواض الخيار ، ويضربون جدران البئر بسلسلة الدلو ، وهم يستخرجون الماء ويصبونه من دلو الى آخر . . وكان ثمة أريج انبعث من كل الزهور دفعة واحدة ، وكأنما كانت الارض فى غفلة ـ طيلة النهار ـ ثم انتبهت فجأة ! . . ومن بستان الكونتة الذى يرجع عمره الى عدة قرون ، والذى تناثرت فيه الاغصان المتساقطة وتراكمت حتى أصبح السير فيه متعذرا . . من هذا البستان تصاعد عبير زكى

يخالطه تراب . عبير أشجار الموالح العتيقة التى دبت فيها الحياة والازدهار ، وقد تصاعد كموجة هائلة تسامت الى مايعادل ارتفاع منزل عال .. ومن الشارع الممتد خلف السياج – الى اليمين – تناهت أصوات متباينة : نتف من اغنية ، وصيحات جندى ثمل ، وطرقات شديدة على الابواب .

ومن وراء أعشاش الغربان السوداء فى حديقة الكونتة ، أخذ قمر قرمزى ضخم يرقى الى السماء . كان فى بادىء الامر فى لون قالب الطوب الجديد ، فى مصنع الطوب بزابوشينو ، ثم تحول فأصبح فى صفرة برج الماء فى (بيريوتشى) .. ومن تحت النافذة مباشرة ، تصاعد اريج العشب الذى اجتث حديثا .. عبير قوى كعبيرالشاى الصينى ، وقد امتزج بعبير نبات « الثلثلان » – أو عنب الثعلب – الذاوى . وكانت ثمة بقرة مربوطة فى تلك البقعة ، وقد سيقت من قرية نائية ، وقضت يومها كله سائرة ، فأنهكها التعب ، وبرح بها الحنين الى القطيع ، فأبت أن تتناول من مولاتها الجديدة طعاما !.. وراحت السيدة تهمس لها فى اغراء : « آه ، وبعد يا .. أنت ؟ ! لسوف أريك كيف تعارضين ! » . ولكن البقرة هزت رأسها فى عناء ، واشرأبت بعنقها الى الناحية الاخرى ، وهى ترسل خوارا شاكيا . وخلف أجران (مليوز ييفو) التى خلع عليها الليل وشاحا قاتما ، لمعت النجوم ، وتدلت منها خيوط – غير مرئية – من العطف على البقرة الحزينة ، وكأنما ثمة حظائر فى عوالم اخرى ، عامرة بماشية ترثى لها !

كان كل شىء يتخمر ، وينمو ، ويرتفع بتفاعل خميرة الحياة .. كان الفرح بالحياة يتسلل فى موجات مستخفية – كأنه الهواء الراكد – عبر الحقول والمدن ، وخلال الاسوار والجدران ، وخلال الخشب واللحم .. ولكى يفر من انسيابه المحير ، خرج «يورى» الى الميدان ، ليصغى الى الخطب التى كانت تلقى .

— ٧ —

• وكان القمر قد ارتفع فى تلك الاثناء ، واشتد ضياؤه فى الميدان ،

فكأنه طلاء أبيض سميك ، تحف به ابسطة سوداء عريضة من الظلال ، أمام المداخل ذات الاعمدة فى بنايات الميدان الحجرية .

وكان الاجتماع معقودا فى عرض الميدان ، ولو شاء « يورى » لسمع كل كلمة فيه ، ولكنه كان متأثرا ببهاء مارأى ، الى درجة جعلته يجلس على مقعد خشبى أمام محطة الاطفاء ، ويتأمل بدلا من ان يسمع .. كانت الطرقات الضيقة ، المسدودة ، تتفرع من الميدان ، وقد تكدس فيها الوحل فكأنها حوارى الريف ، وحفت بها البيوت فى صفوف متعرجة . وكانت الاسيجة المصنوعة من فروع الصفصاف المجدولة تبرز من خلال الوحل كأنها أصداف سرطان البحر (ابو جلمبو ، او الكابوريا) . **وكنت ترى النور ينبعث من شق واحد من كل نافذة ، فكأنه العين المبصرة فى وجه فقدت عينه الثانية ابصارها** . ومن الحدائق الامامية الصغيرة ، كانت أقماع الذرة المنداة — ذات الرؤوس الحمراء ، والشعيرات المنضحة بالزيت والشبيهة بالسوالف — تطل على النوافذ ، كما كانت زهور فرادى من الخبيزى الشاحبة الناحلة ، تتطلع الى الفضاء من أعلى الاسيجة ، وكأنها نسوة ساهرات أجبرهن الحر على أن يبرزن من داخل البيوت ، التماسا لنسمة من هواء .

كانت الليلة المقمرة باعثة للطمأنينة بدرجة مدهشة ، فكأنها الرحمة ذاتها ، أو كأنها النعمة التى ترين على النفس لدى النظرة الثانية الى شىء كانت ترهبه . وفجأة ، رن فى ذلك السكون المتألق ، ذى الجو الاسطورى الشاعرى ، صوت موزون ، مصقول ، مألوف لاذن « يورى » ، اذ كان قد سمعه منذ وقت قصير .. كان صوتا بديعا ، تتردد فيه قوة الاقناع .. وأرهف « يورى » سمعه فعرفه فى الحال .. كان القوميسار جينتز يلقى خطابه . وبدا من الجلى ان البلدية سألته ان يعير حملتها تأييدا ، لمكانته ، فراح يتكلم عن عاطفة وشعور ، مؤنبا أهل (مليوز يفو) لاساليبهم غير المنتظمة ، ولانهم انساقوا لتأثير البلشفيك الذين كانوا المحرضين الحقيقيين للشغب الذى جرى فى (زابوشينو) — كما أكد لهم — والذين كانوا

يسعون للتفرقة . وأخذ يذكرهم ، بعين الروح التى كان يتكلم بها فى مكتب حاكم البلدة ، بقوة العدو وجبروته الغاشم ، وبأن بلادهم كانت فى ساعة محنة وبلاء . فبدأ القوم يتململون . واذا صيحات الرجاء بعدم مقاطعة الخطيب تختلط بصيحات الاحتجاج .

وازدادت المقاطعة ارتفاعا وتكرارا . وصاح رجل كان قد جاء بصحبة جينتز وترأس الاجتماع ، قائلا ان الحديث من بين الصفوف محظور ، ومطالبا بالمحافظة على النظام . وأصر البعض على المطالبة بالسماح لاحدى المواطنات بالكلام ، بينما صاح آخرون يطالبون بالصمت . **وشقت امرأة طريقها وسط الجمع الى الصندوق الخشبى الذى كان يستخدم كمنصة . ولم تحاول أن تعتلى المنبر ، بل وقفت الى جواره .. وكانت امرأة معروفة للجميع ، فلاذوا بالصمت ، وأولوها آذانهم .. وكانت المرأة هى « أوستنيا » !**

وشرعت تقول : « كنت تتكلم أيها الرفيق القوميسار عن (زابوشينكو) ، وعن وجوب الانتباه .. فطالبتنا بأن ننتبه جيدا ، وأن لانغتر . ولكنك أنت نفسك ــ وبعد أن سمعتك ــ لا تعرف أكثر من التلاعب بالالفاظ ، والتشدق بكلمات مثل « بولشفيك ــ منشفيك » ، وهذا كل ماتتحدث عنه : البلاشفة ، والمناشفة ! .. والواقع اننى اعزو كل حديث عن الكف عن القتال ، وعن التآخى ، الى الله ، وليس الى المناشفة ! .. واما تحول المصانع و «الورش» الى الفقراء ، فليس من عمل البلاشفة ، وانما هو مبنى على الانسانية والرحمة والمحبة . أما الاصم الابكم ، فقد سمعنا عنه الكفاية ، فلسنا فى حاجة الى حديثك عنه . كل امرىء يتكلم ويعيد ويزيد عن الاصم الابكم ، فماذا لديكم ضده ؟ .. مجرد انه كان ابكم طيلة العمر ، ثم شرع فجأة فى الكلام ، دون أن يستأذنكم ؟ .. حسنا ، وماذا فى ذلك ؟ .. كأنما الامر أعجب من أن يكون ! .. لقد عرف الكل عن أمور أعجب من ذلك حدثت .. خذ البغلة المشهورة مثلا (١) ، فقد قالت لصاحبها : « بلعام ، بلعام ! .. استمع لى ،

(١) اشارة الى قصة زوجة لوط التى لم تطع النصيحة بأن لا تلتفت الى الخلف ــ قبيل تدمير (سدوم وعمورة) بسبب فساد أهلهما ــ فصارت عمود ملح !



وامض فى خط مستقيم الى الامام، ولا تسلك هذه الطريق والا بؤت بالندم ! » .. ولكنه لم يستمع لها طبعا ، ومضى فى طريقه .. وكما تقولون انتم : « رجل اصم ابكم » ، قال صاحب البغلة فى نفسه : « ماجدوى الانصات اليها .. انها ليست سوى بغلة .. حيوان ابكم ! » . فتذكروا كم كان اسفه فيما بعد ! .. انكم انفسكم تعرفون كيف انتهى امره ! »

وهنا تساءل فرد من الحشد فى فضول : « وكيف انتهى امره ؟ » . فصاحت اوستنيا : « كفى ، فلسوف تشيخ قبل الاوان اذا اكثرت من السؤال ! » . ولكنه قال فى اصرار : « ما هذا بالجواب النافع . خبرينا ! »

ــ حسنا ، لا بأس .. افلا بد ان تعرف كيف ولماذا أيها الثرثار العنيد ؟ .. لقد تحول صاحب البغلة الى عمود من الملح !

فصاح القوم : « لقد أخطأت أيتها العزيزة .. تلك كانت امرأة

لوط .. تلك كانت زوجة لوط (١) ! » . واخذ كل فرد يضحك ، فصاح رئيس الاجتماع يدعو الى الصمت والنظام .. وانصرف « يورى » الى مخدعه .

— ٨ —

• **ورأى** « لارا » فى المساء التالى . وجدها فى المغسل وأمامها كومة من الغسيل خرجت لتوها من المعصرة .. وكانت عاكفة على كيها . وكان المغسل يشغل احدى الغرف الخلفية المطلة على الحديقة ، فى الطابق الاعلى . وهناك كانت الغلايات (السماورات) تعد ، والطعام يغرف فى الاطباق ، والاطباق المستعملة ترص فى المصعد الذى يدار باليد ، ليهبط بها الى غاسل الاطباق . كذلك كانت قوائم الادوات الخزفية والزجاجية تحفظ هناك ، كما كان القوم يقضون لحظات فراغهم، ويتواعدون على اللقاء فى تلكالحجرة !

وكانت النوافذ مفتوحة ، وعبير أزهار الموالح يمتزج فى الحجرة ـ كما كان يمتزج فى البستان العتيق ـ برائحة الكراوية المنبعثةمن الاغصان الجافة ، وقد انضم اليهما دخان الفحم المتصاعد من المكواتين اللتين كانت « لارا » تستخدمهما بالتبادل ، وهى تضع المكواة التى تتركها منهما عند حافة المدفأة من الداخل ، لتظل ساخنة .

وبادرته لارا قائلة : « لماذا لم تطرق بابى ليلة أمس ؟ .. لقد انبأتنى « المدموازيل » .. وان كنت أرى أنك أصبت فى الواقع ، فما كان بوسعى أن ادعوك للدخول ، لاننى اندسست فى فراشى فورا . لا بأس .. كيف حالك ؟ .. حذار من أن يصيب الفحم ثيابك ! »

ـ كأنى بك قد تكفلت بغسيل المستشفى بأسره !

ـ لا ، بل ان لى نصيبا كبيرا فى هذا الغسيل .. ارأيت ؟ لقد ظللت تغيظنى بأننى سأبقى فى (مليوزييفو) ، ولكننى فى هذه المره

---

(١) النبى لوط .

اعتزم الرحيل عنها فعلا . لقد غسلت ثيابى ، وسأعد حقائبى . وما ان أفرغ من ذلك حتى أسافر . **ولسوف أقيم فى (الاورال) وتقيم انت فى (موسكو) . وفى ذات يوم ، يسالك شخص ما : ((هل قدر لك أن تعرف يوما بلدة صغيرة تدعى مليوزييفو ؟)) . فتجيب: ((لست اذكر)) .. ويسالك : ((ومن تكون انتيبوفا ؟)) ، فتقول : ((لم أسمع بهذا الاسم من قبل)) !**

ــ هذا مايحتمل حدوثه .. هل استمتعت برحلة طيبة ؟ .. وكيف كانت الحال فى الريف ؟

ــ هذه قصة طويلة !.. يا الهى ، ماأسرع ماتبرد هاتان المكواتان. ناولنى الاخرى ، اذا سمحت ! انهـا هنـاك .. انظر ، وراء حافة المدفأة مباشرة .. وهل لك أن تضع هـذه مكانها ؟ شـكرا .. ان الحال فى كل قرية يختلف عنه فى الاخرى ، تبعا للقرويين انفسهم .. فهم فى بعض القرى مجدون عاملون ، ومن ثم فالحـال هنـاك ليست سيئة .. وفى قرى أخـرى يخيل الى أن الرجال جميعـا سكيرون ، ومن ثم فهى بلقع ، والحال فظيعة ..

ــ ماهذا الهراء ؟.. ولماذا تحسبين انهم سكيرون ؟.. انك لتفهمين الكثير عن حقيقة الامر .. كل ماهنالك ان ليس فى تلك القرى رجال، لان جميع الرجال فى الجيش . وماذا عن المجالس الجديدة .. المجالس الثورية ؟

ــ انت مخطىء فيما قلت بصدد السكيرين ، ولكنا سنناقش هذا فيما بعد . أما المجالس ، فلن تلبث أن تقوم كثـير من المتاعب فى وجهها ، اذ أن التعليمات ليست ميسـورة التطبيق ، وليس ثمـة مرجع يرجعون اليه . أما الفلاحون ، فـكل مايحفلون به فى الوقت الحاضر هو مسألة الارض . ولقـد زرت ضيعـة (رازدولنوى) ، يالها من مكان جميل ! .. يجب أن تذهب لزيارتها . لقد أحرقوها ونهبوها فى الربيع الماضى .. فمخزن الغـلال محروق عن آخره ، واشجار الفواكه اكلت النيران بعضها ، كما ان الدخان اتلف جزءا من واجهة الدار .. أما (زابوشينو) فلم أرها ، اذ اننى لم أذهب

اليها . ولكنهم فى كل مكان يؤكدون أن الابكم الاصم موجود فعلا . انهم ليصفونه ادق وصف ، ويقولون انه شاب ، ومتعلم !

— لقد وقفت « اوستنيا » تدافع عنه ليلة امس ، فى الميدان .

— وما ان وصلت الى هنا ، حتى وصلت أنباء جديدة عن شغب فى (رازدولنوى) . لقد سألتهم عشرين مرة — لا مرة واحدة — ان يدعوا هذه الضيعة وشأنها .. كأنما المشكلات التى تواجهها لاتكفى ! .. ومع ذلك ، ففى هذا الصباح بالذات أقبل حارس مكتب حاكم البلدة يحمل رسالة مقتضبة . يجب أن يحصلوا على أدوات الشاى الفضية والاكواب البلورية ، فالمسألة مسألة حياة أو موت .. ولن يستبقوها أكثر من ليلة واحدة ، ثم يردونها . ولكننى أؤكد لك أننا لن نرى نصفها ثانية . اننى أعرف هذه الاساليب فى الاستعارة والاقتراض . وأحسبهم سيقيمون حفلة تكريم لزائر ما !

— أستطيع أن أحدس حقيقة الامر . فقد وصل القوميسار الجديد الذى عين لهذا القطاع من الجبهة التى نقيم فيها . انهم يريدون ان يستدرجوا الهاربين من الجيش ، ثم يحيطون بهم ويجردونهم من أسلحتهم . والقوميسار طفل فى ثياب عسكرية . ويريد أصحابنا هنا أن يستدعوا القوزاق ، ولكنه يقول « لا » ، لانه يعتزم أن يعصر قلوب الهاربين بكلامه !! .. انه يقول ان الناس كالاطفال ، ويظن ان الامر كله مجرد لعب أطفال ! .. ولقد حاول « جاليولين » ان يجادله ، وقال له : « لا تهيجن الوحوش فى الغاب . دعهم لنا نعالجهم بطرقنا الخاصة » . ولكن المرء لايستطيع أن يحول شابا كهذا عما فى ذهنه .. لكم اتمنى ان تصغى الى ! .. هلا كففت لحظة عن كى الثياب ؟ .. لسوف نتعرض هنا لمشكلة سخيفة فى القريب ، وليس فى طاقتنا ان نمنع حدوثها . ومن ثم اتمنى ان ترحلى قبل أن تقع !

— لن يحدث أى شىء ، فانما أنت تبالغ . ثم اننى راحلة ، على أية حال . ولكنى لا أستطيع أن أفرك اصبعين من يدى فاذا انا قد رحلت ! يجب ان اسلم مافى عهدتى حسب الاصول الدقيقة ، وان

تراجع الاشياء التى كانت موكولة الى للتثبت من وجودها ، فلست أحب أن أبدو كما لو كنت قد سرقت شيئا وفررت به . ثم ، من الذى يتسلم منى ؟ هذه هى المشكلة .. ليس بوسعى أن أصف لك ماعانيت فى سبيل جرد الاشياء . وكان كل الشكر الذى تلقيته هو ان قيل لى اننى ارتكبت تزويرا ، بأن سجلت أمتعة «جابرينسكايا» تحت اسم المستشفى ، لان هذا مايفهم من المرسوم . فهم يقولون الآن اننى فعلت هذا عن غش ، لأحتفظ بالامتعة لصاحبتها الاصيلة . انه لشىء يدعو الى التقزز ! »

ــ ألا تكفين عن حمل هموم الاوانى والسجاجيد . اتركيها للجحيم ! .. انها ليست بالتى تستحق ان يثيروا من اجلها ضجة فى وقت كهذا ! .. آه ، ليتنى رأيتك بالامس ، فقد كنت فى حال ذهنية طيبة ، وكان بوسعى ان اشرح كل شىء على الارض والسماء ، اذ كان لدى الجواب حاضرا عن كل سؤال . صحيح ، فلست أمزح .. **كنت أتحرق شوقا الى أن أجلو كل شىء عن صدرى . كنت أريد أن أحدثك عن زوجتى ، وابنى ، ونفسى .. لماذا بالله لا يملك الرجل الناضج ان يتحدث الى امرأة ناضجة دون أن تثار الريب حول دوافعه ، وحول ما سوف يترتب على ذلك ؟ ! .. اللعنة على** كل الدوافع . أرجو أن تستمرى فى الكى ، ولا تلقى بالا الى ، فلسوف أستمر فى الكلام . اننى أعتزم أن اتكلم وقتا طويلا .

« تصورى كل مايجرى اليوم ! .. وتصورى أن تعيشى وأعيش فى هذه الايام ! .. أفتدركين أى شىء لم يسبق له مثيل يحدث اليوم ؟ .. ان مثل هذا الشىء لايحدث الا مرة فى عمر الكون ! .. تصورى روسيا بأسرها وقد انتزع سقفها من فوقها ، وأنت وأنا وكل امرىء آخر نعيش فى الخلاء .. وليس هناك من يتجسس أمورنا .. أى اننا أحرار ، لا أحرار بمجرد الكلام أو النظريات ، وانما هى حرية حقيقية سقطت من السماء .. حرية فاقت كل ماكنا نتوقع .. حرية بالمصادفة ، جاءت عن طريق سوء فهم !

« ثم ما اضخم ماصار اليه كل امرىء ، وما أعظم غفلته عن

حجمه . ألم تلاحظى ذلك ؟ .. كأنه مذهول بنفسه وبما تجلى له من عظمته ! .. امضى فى الكى ، أرجوك .. ولا تتكلمى . أرجو أن لا تسأمى . دعينى ابدل المكواة لك !

« فى الليلة الماضية ، كنت أشهد الاجتماع فى الميدان .. كان منظرا مدهشا .. ان أمنا روسيا قد بدأت تتحرك ، وليس بوسعها أن تجمد فى مكانها .. انها قلقة ، ولن تجد سبيلا الى راحة .. وانها لتتكلم ، ولن تكف عن الكلام . **وليس الكلام قاصرا على الناس وحدهم ، بل ان النجوم والاشجار تلتقى وتتكلم ، والازهار تتحدث فى الفلسفة فى الليل ، وأحجار البيوت تجتمع** .. ما أشبه ذلك بشىء من الاناجيل . ألا ترين ذلك ؟ .. كأننا فى أيام الرسل . كأننا فى عهد القديس بولس .. أتذكرين ؟ : « ستتكلم بألسنة وبالنبوة . ادع من أجل نعمة الفهم » !

ـ ادرك ماتعنيه بالاجتماعات التى تعقد بين النجوم ، أو بين الاشجار .. اننى أفهمه ، لانه خطر لى أنا الاخرى .

ـ لقد كان للحرب بعض الفضل ، ثم جاءت الثورة فأتمت الباقى .. لقد أحدثت الحرب تبدلا زائفا فى الحياة .. كأنما كان فى الامكان تأجيل الحياة أو ايقاف عجلتها بعض الوقت . أى هراء هذا ! .. أما الثورة فانفجرت فى كل مكان ، أشبه بنسمة طال احتباسها أكثر مما ينبغى . واذا بكل امرىء يحيا من جديد ، ويولد من جديد ، ويتغير ، ويتحور .. حتى ليحق لك أن تقولى أن كل امرىء مر بثورتين : ثورته الشخصية الخاصة ، والثورة العامة . لكم يبدو لى أن الاشتراكية هى البحر ، وكل هذه الجداول المتفرقة ـ الثورات الخاصة الفردية ـ تصب فيه .. انه بحر الحياة ، الحياة على حقيقتها . لقد قلت : الحياة ، ولكنى أقصد الحياة كما أراها فى تحفة فنية ، وقد أضفى عليها النبوغ بهاء ، وزادها غنى ورواء بقوته الخلاقة .. الآن فقط قرر الناس أن يمارسوا هذه الحياة .. لا فى الكتب والصور ، وانما فى انفسهم .. لانظريا وانما عمليا !

ونمت الرجفة التى طرأت على صوته بغتة عن اشتداد انفعاله ، فكفت «لارا» عن الكى ، ورمقته بنظرة رصينة ، مبهوتة ، واذا به يرتبك فينسى ماكان يقول . وما لبث أن اندفع — بعد لحظة من الحيرة والارتباك — فراح يهذى بكل ما أسعفته به القريحة : «بنفسى فى هذه الايام حنين طاغ الى حياة أمينة مثمرة . لكم ابتغى أن أكون جزءا من كل هذا التطور السريع . ثم ، **وفى غمرة كل هذا الفرح العام ، اذا بى أصادف نظرتك الشاردة ، الحزينة ، المحيرة ، التائهة فى دنيا مفتونة لايعلمها أحد .. اننى على استعداد لان أجود بكل شيء لكى لاتكون نظرتك هكذا ، ولكى ينبئنى وجهك بأنك على مايرام، وبأنك مسرورة بالحياة ، وبأنك لست بحاجة الى أى شيء من أى انسان ..** ولكى يأتينى شخص يكون وثيق القربى بك حقا — كصديق أو كزوج .. ومن الخير أن يكون عسكريا — فيمسك بيدى ويقول لى فى رفق أن ليس لى أن اشقى بمصيرك ؛ واننى يجب أن أدعك وشأنك . واذ ذاك فقط ، سأصرعه بلكمة ، طبعا ... آسف، لم أعن ذلك ! »

ووشى به صوته مرة أخرى . وهز رأسه ، ثم نهض وهو يشعر بارتباك حائر عاجز ، فسار الى النافذة ، ومال على حافتها ، وراح ينظر — بعينين شاردتين ، زائغتين ، غير مبصرتين — الى الحديقة وقد لفها الظلام .. وأخذ يحاول أن يتمالك نفسه .

ودارت « لارا » حول لوحة الكى — وكانت ممتدة بين طرف المائدة وحافة النافذة الاخرى — ثم سارت الى وسط الغرفة ، فوقفت على قيد خطوات قلائل خلف « يورى » .. وقالت بصوت خافت ، وكأنها كانت تحدث نفسها : « هذا ماكنت اخشاه دائما .. ماكان ينبغى لى أن .. لا، يا « يورى أندرييفيتش » ، يجب ألا .. اواه ، الا انظر ما جعلتنى افعل ! » . واسرعت تجرى الى لوحة الكى ، حيث احترق أحد اقمصتها (بلوزة) ، وتصاعد من تحت المكواة خيط نحيل من دخان لاذع الرائحة .

وعادت تقول وهى تضع المكواة على حاملها فى استياء : « يورى

اندرييفيتش .. كن عاقلا ، واذهب الى ((المدموازيل)) لحظة ، واشرب كوب ماء ، ثم عد ياعزيزى ، وكن كما عهدتك دائما حتى الآن ، وكما أحب أن تكون . افتسمعنى يا يورى اندرييفيتش ؟.. أعرف أن فى طوقك ان تفعل ذلك . فأناشدك ان تفعله .. أتوسل اليك !))

ولم تدر بينهما أحاديث من هذا القبيل بعد ذلك .. وان هو الا الاسبوع حتى رحلت « لارا » !

— ٩ —

• **وبعد** ذلك بفترة ، رحل « جيفاجو » هو الاخر . وكانت ثمة عاصفة رهيبة فى الليلة التى سبقت سفره . وكانت ضوضاء الزوبعة تختلط بخرير السيل الدافق ، والمطر يتخلص — فى بعض الاحيان — من دفع الرياح ، فينصب رأسيا على سقوف الدور ، بينما يهبط فى أحيان أخرى على أرض الطريق ، وفق ماتوجهه الريح ، وكأنها تسوطه بسياط خفية . وكانت نوبات الرعد القاصف تتتابع الواحدة وراء الاخرى دون ما فترات بينها ، فكأنها حبل موصول من هدير صاخب . وكان الشارع يبدو تحت وهج البرق كما لو كان يهرع هاربا نحو الفضاء ، والاشجار المنحنية تتبعه فى عين الاتجاه ..

وأوقظت « المدموازيل فليرى » من نومها — فى جوف الليل — على طرقات متعجلة ، ملحاحة ، كانت تهوى على الباب الخارجى ، فجلست فى فراشها مذعورة ، وانصتت .. واستمرت الطرقات فى الحاح . وقالت لنفسها : أمن الممكن حقا أن لايكون قد بقى فى المستشفى أحد لينهض فيفتح الباب ؟ .. أفكان لزاما عليها دائما أن تفعل كل شىء بنفسها ، وهى العجوز البائسة ، لمجرد أن الطبيعة جعلتها امينة ، وخلعت عليها شعورا بالواجب وتقديرا له ؟ !

صحيح أن آل « جابرينسكايا » كانوا من علية القوم الاغنياء ، وكانت الدار دارهم ، ولكن .. مابال المستشفى ؟ الم يكن ملك للشعب ؟ الم يكن مستشفاهم ؟ .. فمن تراهم يرجون ان يعنى

يشؤونه ؟ .. ترى أين تلاشى الممرضون الذكور مثلا ؟ .. منذا الذى ينبئها ؟ .. لقد فر الجميع .. فلم يعد هناك ممرضـون ، ولا ممرضات ، ولا اطباء ، ولا اى انسان له سلطة ما ! ومع ذلك فقد كان ثمة جرحى لايزالون فى الدار .. كان هناك رجلان مبتورا السيقان فى قاعة الجراحة ، التى كانت قاعة للجلوس فيما مضى.. وفى الطابق الاسفل ، كانت غرفة المخزن ــ الملاصقةللمغسل ــ مليئة بالمرضى بالزحار (الديسنطاريا) .. **ولقـد خرجت تلك الابليسـة « اوستنيا » لتزور معارفها . كان جديرا بها أن تعرف تمام المعرفة أن العاصفة كانت موشكة أن تهب ، ولكن .. هل منعها هـذا من الخروج من الدار ؟ .. لقد أتاحت لها العاصفة حجة لقضاء الليل مع الأغراب !**

آه ، حمدا لله ، فقد كف الطرق على الباب، وتبين الطارقون ان ليس ثمة من مجيب ، ومن ثم انثنوا عن غايتهم ، وارتدوا من حيث أتوا . ولكن .. لماذا كان بعض الناس راغبين فى المجىء ، فى مثـل هذا الطقس .. أم تراها كانت أوستنيا ؟ .. لا ، لقد كانت تحمل مفتاحا .. ولكن ، اواه ياربى ! .. لقد عادوا يطرقون الباب ثانية.. ياله من أمر مزعج مفزع !

ومع ذلك ، فيالرجال المستشفى من خنازير ! .. صحيح انه لم يكن لك أن تتوقع من «جيفاجو» أن يسمع شيئا ، اذ أنه كان يزمع الرحيل فى اليوم التالى ، ولا بد أن أفكاره كانت بعيدة ــ لعلها كانت اذ ذاك فى (موسـكو) ، أو فى الطـريق اليهـا ــ ولـكن ، مابال « جاليولين » ؟ .. كيف يتسنى له أن يغط فى نومه ، برغم كل هذا الضجيج ؟ .. أم تراه كان يستلقى مستيقظا ، ينصت للطرقات ، متوقعا أن تنهض هى فى النهاية ؟ .. ايركن الى امرأة ضعيفة لاحول لها ولا نصير ، فيطمع فى أن تهبط وتفتح الباب لشخص لا يعـرف أمره الا الله ، فى مثل هذه الليلة الرهيبة ، فى هذا "الريف الموحش !

جاليولين ! .. وأبرقت فى ذهنها الفكرة فجأة . يالها من فـكرة بديعة حقا .. جاليولين ؟ ! .. فيمن كانت تفكر ؟ لابد أنها كانت

نصف نائمة ، والا لتذكرت ان جاليولين لم يكن موجودا ، ولا بد انه على مسافة بعيدة من الدار فى تلك اللحظة ! ألم تكن هى نفسها ـ بمعونة جيفاجو ـ التى خبأته ، وغيرت مظهره ، ووصفت له كل طريق وكل قرية فى المنطقة حتى يعرف كيف ينجو بعد ذلك الهياج المروع فى محطة (بيريوتشى) ، عندما قتلوا القوميسار جينتز ، وطاردوا جاليولين طيلة المسافة من (بيريوتشى) الى (مليوزييفو) وهم يطلقون النار عليه ، ثم راحوا يفتشون عنه ارجاء البلدة ؟

لولا تلك السيارات ، لما تركوا حجرا قائما فى (مليوزييفو) . فقد صادف ان مرت بالبلدة فرقة مصفحة ، فوقفت لتدافع عن البلدة ، واذاقت أولئك الشياطين من أمرهم وبالا !

* * *

وكانت العاصفة قد بدأت تهن ، وخف تتابع الرعد ، وتثاقل هزيمه وبدا كأنه كان يبتعد .. وتوقف المطر ، فأصبح من الممكن سماع الماء وهو ينحدر عن أوراق الشجر وينساب فى البالوعات . ولمعت فى حجرة « المدموازيل » ومضات من البرق تباطأت كما لو كانت تفتش عن أحد بالحجرة ! .. وفجأة ، عادت الطرقات تترى على الباب من جديد ، بعد ان طال صمتها .. لابد أن ثمة شخصا كان فى حاجة ملحة الى العون ، فراح يقرع الباب مرارا فى استماتة .. وما لبثت الريح أن هبت من جديد ، وعاد المطر الى الهطول .

وصاحت المدموازيل لتطمئن الطارق ، أيا كان : « ها أنذى آتية! » . وافزعها رنين صوتها .. وفجأة ، خطرت ببالها حقيقة الطارق ، فاستوت فى فراشها ، ودست قدميها فى النعلين الخفيفين ، وألقت ثوب الغرفة على كتفيها ، وهرعت لتوقظ « جيفاجو » ، فلعل هبوطه معها يخفف من ذعرها .. وكان هو الآخر قد سمع الطرقات ، فأقبل يحمل شمعة مضاءة ، وتأهب لهبوط السلم .. وكانت الفكرة قد خطرت لكليهما معا ، عن حقيقة الطارق .

وهتفت بالفرنسية : « جيفاجو ! جيفاجو ! .. انهم يقرعون

الباب الامامى ، وانى لخائفة من الهبوط وحدى » .. ثم اردفت بالروسية : « لسوف ترى أن الطارق أحد اثنين : اما لارا ، أو الملازم جايول ! »

وكان « يورى » حين إستيقظ على الدوى ، قد داخله هو الآخر يقين بأن الطارق شخص معروف لديه .. فهو اما جاليولين وقد سدوا عليه طريق الفرار ، فعاد ينشد ملاذا .. أو الممرضة انتيبوفا وقد حيل بينها وبين مواصلة سفرها ، ومن ثم عادت ثانية .

وعند مدخل الدار ، أسلم « يورى » الشمعة الى «المدموازيل»، ورفع المزاليج ، ثم ادار المفتاح . وهب الهواء خلال الباب المفتوح ، فأطفأ الشمعة ،وأغرقهما بنثار من قطرات المطر الباردة. وصاحت «المدموازيل» و«جيفاجو»-كل بدوره - من جوف الظلام :«من هناك؟.. من هناك ؟ .. هل هناك أحد ؟ » . ولكنهما لم يتلقيا جوابا . وفجأة ، انبعث الطرق من جديد ، فى مكان آخر .. أتراه كان لدى الباب الخلفى ، أم تراه - كما أصبح يخيل لهما - على النافذة الفرنسية المفضية إلى الحديقة ؟ .. وقال الطبيب : « يلوح لى أن الامر من فعل الريح . ولكن ، قد يكون من الخير أن تلقى نظرة على الباب الخلفى ، من قبيل التأكد . وسأبقى هنا ، فربما كان ثمة أحد فعلا ! » .

وغابت « المدموازيل » فى جوف الدار ، بينما خرج الطبيب الى المدخل الذى كانت تحميه الجدران البارزة . وكانت عيناه قد الفتا الظلام ، فاستطاع أن يبصر أولى بوادر الفجر . وكانت السحب تتسابق فوق البلدة ، وكأن وراءها من يطاردها .. وكانت جد منخفضة ، حتى ان بطونها كادت تمس قمم الاشجار ، التى كانت تنحنى فى الاتجاه ذاته ، مما كان يظهرها فى صورة المكانس المنحنية تكنس صفحة السماء . وكانت الامطار تسوط جدران البيت الخشبية ، فتحول لونها الاغبر الى أسود .

وعادت المدموازيل ، فبادرها يورى متسائلا : « ماذا وجدت ؟» . فقالت : « انك على حق .. ما من احد هناك » . كانت قد جاست

خلال البيت كله ، فتبينت أن فرعا من احدى الاشجار هوى على نافذة المغسل فحطم أحد المصاريع الزجاجية ، وأغرق أرض الحجرة ببركة كبيرة من الماء .. وحدث الامر عينه فى الحجرة التى كانت « لارا » تشغلها ، فاذا فيها بحر .. أجل ، بحر بمعنى الكلمة .. محيط !

وأردفت المدموازيل قائلة : « وفى هذه الناحية .. أنظر ! هناك مصراع خشبى مكسور ، ولا يفتأ يصفع الجدار .. اتراه ؟ هذا كل ماهنالك ! » . وتكلما قليلا ، ثم عادا الى حجرتيهما ، وفى نفس كل منهما أسف لان الطرقات كانت زائفة ! .. **كان كل منهما شبه موقن من أنه لن يكاد الباب يفتح ، حتى تدخل « لارا » وقدتصلبت أطرافها من البرد ، وابتلت ثيابها — حتى لحمها — بماء المطر .وكان كل منهما يحلم بأنه سيغرقها بعشرات من الاسئلة ، بينما تكون منهمكة فى خلع ثيابها الخارجية . ثم تصعد فتستبدل ثيابها ، وتهبط من جديد وقد زال عنها البلل، واستردت جأشها ، فتجلس أمام موقد المطبخ — الذى لايزال بعد ساخنا منذ المساء السالف — ثم تمضى تقص عليهما مغامراتها ، وهى تدفع شعرها الى الخلف وتضحك !**

كانا واثقين من ذلك حتى أن طابع يقينهما بقى — بعد أن أغلقا الباب — عالقا بالطريق ، عند زاوية الدار ، أشبه بهيكل من الماء لتلك المرأة ، أو لعله كان طيفها الذى ظل يلاحقهما !

— ١٠ —

. اتجه الظن الى أن « كوليا فرولينكو » — عامل التلغراف فى بيريوتشى — كان يحمل مسئولية غير مباشرة للشغب الذى جرى فى المحطة .. وكان « كوليا » نجل صانع ساعات فى (مليوزييفو) ، وقد عرفه القوم هناك منذ صغره . وكانت « المدموازيل » تعرفه تمام المعرفة ، لانه كان قد قضى فترة فى (رازدولنوى) مع بعض الخدم ، وهو بعد غلام ، وكثيرا ماكان يلعب مع تلميذتيها — ابنتى

الكونتة ـ تحت مراقبتها .. وفى هذه الفترة ، قدر له أن يتعلم اللغة الفرنسية .

ولقد اعتاد أهل المنطقة ان يروه على دراجته، بلا معطف ولا قبعة، وفى حذاءين صيفيين من التيل السميك ، مهما تكن حال الطقس . وكان يقود الدراجة دون أن يمسك مقوديها ، وهو عاقد ذراعيه على صدره ، منطلقا من (بيريوتشى) ، متأملا الاسلاك والاعمدة ـ على طول الطريق ـ ليتفقد أحوالها . وكانت ثمة أجهزة للتليفون فى عدد قليل من منازل (مليوزييفو) ،تتصل ـ عن طريق خط فرعى ـ بمركز التحويلات فى محطة (بيريوتشى) . وكان «كوليا» يشرف على هذا الخط من مكتبه بالمحطة .. وقد اعتاد أن يغرق فى العمل الى قمة رأسه هنـاك ، لانه كان ـ عندما يتغيب ناظر المحطة ـ يتولى مسئولية اشارات الخط الحديدى ، التى تدار من عين غرفة المراقبة ، الى جانب أعماله التليفونية والتلغرافية . وقد استطاع ـ لاضطراره الى مراقبة عدة أدوات آلية فى آن واحد ـ أن يبتكر لنفسه أسلوبا فى الحديث مبهما ، موجزا ، غامضا ، يمكنه ـ حين يشاء ـ من أن يتفادى الاجابة عن بعض الاسئلة ، أو يتحاشى أن يقحم فى حديث . وقيل أنه أساء استغلال هذه الميزة فى يوم الاضطرابات .

والحق انه كان قد وفق ، بمراوغاته ، الى أن يحبط كل النوايا التى كان جاليولين يضمرها ، وتسبب ـ دون أن يقصد ، فى الغالب ـ فى التحول الخطير الذى اتجهت اليه الاحداث ! .. وكان جاليولين قد أتصل من البلدة تليفونيا بالقوميسار جينتز ـ الذى كان فى المحطة ، أو على مقربة منها ـ لينبئه بأنه قادم اليه فورا ، وليسأله ان لا يفعل شيئا حتى يصل هو . فما كان من « كوليا » الا أن أبى أن ينادى جينتز ، بحجة انه كان منهمكا فى توجيه الاشارة الى قطار كان يقترب من المحطة . وعمد ـ فى الوقت ذاته ـ الى انتحال كل عذر صحيح أو غير صحيح ، ليؤخر القطار الذى كان يقل «الفرسان القوزاق » الذين كانوا قد استدعوا الى (بيريوتشى) . فلما وصل

الجنود ــ رغم ذلك ــ لم يستطع أن يخفى استياءه !

وزحفت القاطرة الى ظلال المحطة ، ثم وقفت أمام النافذة الهائلة لحجرة المراقبة مباشرة ، فأزاح «كوليا» الستار الجوخية الخضراء ، التى كانت تحمل الحروف الاولى من اسم الشركة مطرزة الى حافتها باللون الاصفر ، ثم رفع ابريق الماء الضخم الذى كان على صينية كبيرة فوق الحافة الحجرية للنافذة ، فصب شيئا من الماء فى الكوب الزجاجية السميكة ، الخالية من أية زخرفة ، وشرب بضع جرعات ، ثم أطل من النافذة .. ورآه سائق القاطرة من مقصورته ، فأومأ اليه برأسه فى مودة .

وقال كوليا لنفسه فى حقد : « ياللدنىء ، السافل ! » . وأخرج لسانه للسائق وهز قبضته متوعدا . ولم يفهم السائق مقصده فحسب ، بل أنه حاول ان يقول له بهز كتفيه ، والايماء برأسه نحو القطار : « وماذا كنت أملك أن أفعل ؟ .. أحب ان ارى ماكنت تفعله لو كنت فى مكانى . انه الرئيس ! » . ورد كوليا بالاشارات : « انك وغد قذر ، مع ذلك ! » .

واقتيدت الخيل بعيدا عن الخطوط الحديدية ، وهى تتمنع وتقاوم ، وحوافرها تدق المعبرة الخشبية ، ثم تجاوزها الى رصيف المحطة الحجرى .. واقتيدت ــ وهى مجفلة ــ عبر عدد من الخطوط . وكان ثمة صفان من العربات الخشبية المهملة فى نهاية الخطوط الفرعية ، وقد أزال المطر طلاءها تماما ، ونخرها السوس والرطوبة من الداخل ، حتى ارتدت الى أصلها ، وأصبحت شبيهة بخشب الغابة التى كانت تبدأ خلف مخازن المهمات مباشرة ، بأشجارها وحشائشها النامية ، والسحب تخيم فوقها .

واعتلى القوزاق صهوات الجياد ــ خارج المحطة ــ وانطلقوا راكضين صوب معسكر الهاربين من الجيش ، فى الارض الخلاء التى فى وسط الغابة . وسرعان ماطوقوا المتمردين . ومع أن هؤلاء كانوا يملكون أسلحة فى أكواخهم ، الا أنهم فزعوا لمرأى الفرسان الذين بدوا ــ كالعادة ــ أطول واكثر مهابة مما كانوا وهم بعيدون عن الاشجار .

* * *

وأشهر القوزاق سيوفهم . وسار « جينتز » الى الحلقة ، ثم قفز على كومة من كتل الخشب فى الوسط ، وأخذ يخطب فى المحاصرين .. فراح يتحدث عن الواجب العسكرى ، وعن معنى الوطن ، وعن كثير من الموضوعات ذات الرنين البراق . ولكن هذه الآراء لم تلق أذنا مصغية بين الحضور . كانت براقة أكثر مما ينبغى ، فقد مل الرجال مناظر الحرب وسئموها ، وقست قلوبهم غلظة من جرائها . ولقد سمعوا هذه الالفاظ من قبل ، وكم من شهور أصغوا فيها الى الدعاية الطنانة من « اليسار » ومن «اليمين» على السواء ، حتى أصبحوا يسخرون منها . ثم انهم كانوا ــ الى جانب ذلك ــ قوما سذجا ، وقد كرهوا من جينتز اسمه الاجنبى ، ولكنة أهل البلطيق فى حديثه .

وشعر جينتز بأن خطابه قد طال عما ينبغى ، فحنق على نفسه ، ولكنه رأى ان من واجبه أن يكرر قوله حتى يفهمه الرجال تماما . وكان جديرا بهم ان يحمدوا له ذلك ، ولكن وجوههم لم تكن تكشف ــ برغم ذلك ــ الا عن ملل ، أو عدم اكتراث ، أو عداء . واذ أخذ يفقد صبره تدريجيا ، قرر أن يتكلم مباشرة بوحى من رتبته العسكرية ، وأن يطلق الانذارات والتهديدات التى كان يدخرها . ولم يعبأ بغمغمة الاستياء التى تصاعدت منهم ، بل راح يذكرهم بأن محاكم الحرب الثورية قد شكلت واستدعيت لمحاكمتهم ، وان عليهم ــ لتفادى عقوبة الاعدام ــ أن يتخلوا عن أسلحتهم ، وأن يسلموا زعماءهم .. ومضى قائلا انهم اذا رفضوا ، فسوف يبرهنون على انهم خونة اشقياء ، وعلى انهم غوغاء ، جامدو العقول ، مجردون من كل وعى سياسى ..

وازداد الرجال استنكارا لهذه اللهجة . وارتفعت مئات الاصوات فى زمجرة عالية . وكان بعضها منخفضا ، واهنا ، ينم عن تخاذل قانط : « حسنا ، حسنا .. اطلقوا نيرانكم ، وكفى ! » . ولكن

اصـواتا أخرى ارتفعت الى حد الصراخ بالـكراهية ، وطغت على ما عداها .. وتعالت الصيحات المتهوسة : « استمعوا اليـه وهو يطرح مافى جعبته ، أيها الرفاق ! .. تماما كما كان العهد فى الايام الغابرة ! كأننا لم نتخلص بعد من حيل هؤلاء الضباط ! .. اذن فنحن خونة ، أليس كذلك ؟ وما رأيك فى نفسك ياصاحب السعادة؟ .. ولكن ، لماذا نحفل به ؟ .. من الجلى أنه المانى ، من المتسللين الى بلادنا ، ألا ترون بأعينكم ؟ .. أرنا مستنداتك ياذا الدم الازرق! .. لماذا تفغر فاك استنكارا ؟ » . ثم التفتوا الى القوزاق قائلين : « لقد جئتم لتعيدوا النظام ، فهيا أقبلوا .. قيـدونا ، واقضـوا علينا ! »

ولكن القوزاق كانوا أقل منهم رضاء عن خطاب جينتز غير الموفق ، فراحوا يتمتمون : « اننا جميعا خنازير فى نظره ! .. انه ليتصور نفسه سيدا وحاكما بأمره ! » . وأخذوا يغيبون سيوفهم فى أغمادها ، واحدا بعد آخر .. وواحدا بعد آخر أخذوا يهبطون عن جيادهم . فلما ترجل معظمهم ، تحركوا فى تسكع نحو وسط الارض الفضاء ، واختلطوا برجال الكتيبة الثانية عشرة بعد المائتين ، وتآخوا معهم !

وقال ضابط القوزاق لجينتز وهو منزعج : « يجب ان تنصرف .. يجب أن تنسحب فى هدوء ، ولا تدعهم يروك وأنت تتسلل ! .. وان مركبتك لتقف عند المعبرة ، وسنستدعيها لتقابلك فى الطريق ، فاسرع ! »

وانصرف جينتز .. ولكنه راى ان التسلل لا يليق بكرامته فتحول جهارا ، وسار الى المحطة . حتى اذا بلغ حافة الغابة ، وبدت له الخطوط الحديدية ، التفت خلفه لاول مرة ، واذا بجنود مشهرى البنادق يتبعونه . فقال لنفسه فى حيرة : « ترى ما الذى يبتغون ؟ » . وغذ الخطى .. وكذلك فعل الذين كانوا يتبعونه ، فظلت المسافة بينه وبينهم على حالها . ورأى صفى عربات السكة الحديدية البالية ، فتوارى خلفها ، ثم انطلق يجرى . وكان القطار الذى أحضر القوزاق قد سار الى المخزن ، وخلت الخطوط الحديدية .. فأخذ « جينتز »



يجتازها مسرعا ، ثم قفز الى الرصيف المنحدر . وفى تلك اللحظة ، أقبل الجنود مسرعين من خلف العربات البالية .

وكان كوليا وناظر المحطة يصيحان ويشيران اليه كى يلوذ بمبنى المحطة ، حيث يستطيعان أن ينقذاه . ولكن شعورا من الكرامة المتغلغلة فى نفسه ، والمتوارثة عبر الاجيال، راح يدفعه الى التضحية بالنفس فى سبيل الشرف .. ولكن من المحزن حقا ان ذلك لم يكن يناسب تلك الظروف ، ومن ثم فانه أقام حاجزا بينه وبين النجاة. فقد بذل جهدا خارقا ليتغلب على خوفه ، بينما كان قلبه يدق فى عنف جامح . وقال لنفسه : « يجب أن أصرخ فيهم : « عودوا الى رشدكم أيها الرجال ، فانكم لتعرفون اننى لست جاسوسا ! » .. ان بضع كلمات ذات رنين انسانى مهدىء للخواطر ، خليقة بأن توقفهم ! »

كان شعوره بالاخلاص والبطولة قد أصبح - فى الشهور القلائل الماضية - مرتبطا دون وعى منه باقامة المنصات والمنابر ، وبالمقاعد التى يقفز فوقها ليلقى بصيحة يدعو فيها الى العمل ، او يتوعد بها

صفوف المستمعين المتراصة . ومن ثم فقد أحس بانه محتاج الى منبر ! .. وعند باب المحطة تماما ، وتحت جرسها ، كان ثمةبرميل ماء معد لاستعماله عند نشوب حريق . وكان يعلوه غطاء ، فقفز « جينتز » فاعتلاه ، ووجه بضع كلمات تذيب القلوب — ولكنها غير مترابطة — الى الرجال الذين كانوا يقتربون . وأذهلتهم الشجاعة المجنونة التى بدت فى حركته هذه ، وهو على قيد خطوتين من باب المحطة، حيث كان يستطيع أن يحتمى بسهولة، فتوقفوا عن جريهم، ونكسوا بنادقهم . ولكن جينتز تقدم خطوة الى حافة غطاء البرميل، فاختل توازنه ، وهوى باحدى ساقيه الى الماء ، بينما بقيت الساق الاخرى خارج البرميل .

واذ رأوه يفقد توازنه بارتباك أرعن ، انفجر الرجال مقهقهين ، ورماه الشخص الذى كان فى المقدمة برصاصة ، أصابت عنقه !

وكان قد فارق الحياة حين هرع الآخرون وغرسوا « سونكى » بنادقهم فى جسده !

— ١١ —

• **اتصلت** « المدموازيل » بكوليا تليفونيا ، وسألته ان يحجز للدكتور جيفاجو مقعدا مريحا فى القطار الذاهب الى (موسكو) ، متوعدة اياه بأن تفضح امره اذا هو لم يفعل .. وكان كوليا منهمكا فى محادثة اخرى .. ونمت الفترات المنتظمة التى تخللت كلامه عن انه كان يملى رسالة بالشفرة خلال آلة تليفونية ثالثة : «بسكوف ، بسكوف ! .. هل تسمعنى ؟ .. ماذا ؟ المتمردون ؟ اية معونة ؟ .. عم تتكلمين يامدموازيل ؟ اقطعى الاتصال من فضلك .. بسكوف ، بسكوف ، ستة وثلاثون ، علامة عشرية ، صفر ، على خمسة .. آه ، ياللجحيم ، لقد قطعوا الاتصال ! .. هالو ، هالو ! لست اسمع .. أهذه أنت ياموموازيل ، مرة أخرى ؟ .. قلت لك اننى لا استطيع ، فتحدثى الى ناظر المحطة فى الامر .. كلها اكاذيب، خرافات .. ستة وثلاثون .. آه ، ياللجحيم! .. اخرجى من الخط

يا مدموازيل ! »

وكانت المدموازيل تقول : « لاتذر الرماد فى عينى ، ولا تغرر بى .. بسكوف ، بسكوف ، أيها الكذاب ! .. اننى استطيع ان ارى مافى أعماق نفسك . لسوف تحجز مكانا للدكتور فى القطار غدا ، ولن استمع الى كلمة أخرى من يهوذا ضئيل ، قاتل ! »

— ١٢ —

• كان اليوم الذى رحل فيه « يورى » يوما متجهما ، وقد أخذت تتحفز للانقضاض عاصفة تشبه تلك التى هبت قبل يومين . وكانت ضاحية المحطة مزركشة بأكوام من قشور بذور زهر عباد الشمس ، وقد بدت الاكواخ الطينية بيضاء كالاوز ، يخيم عليها الخوف تحت السماء السوداء المنذرة بالشر .

وكان العشب فى الساحة التى تقع أمام المحطة وتمتد على جانبيها قد داسته الاقدام ، وتوارى تماما تحت الحشد الذى لاحصر له ، والذى كان يترقب وصول القطارات منذ أسابيع . وكن الكهول — فى معاطفهم الرمادية المصنوعة من صوف خشن — يتنقلون من جماعة الى جماعة ، التماسا للأنباء والشائعات . أما الفنية الصامتون — ابناء الاربعة عشر ربيعا — فكانوا يرقدون معتمدين على مرافقهم ، يلوحون باغصان مقشورة اللحاء ، كما لو كانوا يرقبون اغناما فى رعايتهم . بينما كان اخوتهم واخواتهم الصغار يجرون بين أقدام القوم ، واقمصتهم تطير مع الهواء ، كاشفة عن ادبارهم الوردية !.. أما أمهاتهم ، فكن يجلسن على الارض باسطات سيقانهن أمامهن فى أوضاع مغرية ، وقد ضممن الصغار الرضع الى صدور ستراتهن الريفية الضيقة ، البنية اللون ، الخالية من أى جمال .

وقال ناظر المحطة ليورى فى غير اشفاق ، وهما يشقان طريقا متعرجة بين صفوف الاجسام المستلقية على الارض عند مدخل المحطة وفى داخلها : « لقد تناثروا جميعا كالغنم بمجرد ان بدأ اطلاق النار ! .. واخلوا جميعا الارض المعشوشبة فى لمح البصر ، حتى

لقد كان بوسعك أن ترى الارض ثانية ، بعد أن كنا قد حرمنا رؤيتها اربعة اشهر ، من جراء معسكر الفجر هذا . اقول لك اننا كناسينا شكلها .. وها هنا استلقى جسد جينتز ! كان الامر عجيبا ، فكم من بشاعات رأيت فى الحرب ، حتى لقد كنت أخالنى ألفت أسوأ المناظر . ولكنى شعرت الآن بالاسف الى حد ما . كان ما جزعت له هو ما اتسم به الحادث من بعد عن العقل . فما الذى فعله الرجل ليستحق أن يقتلوه ؟ .. على أنهم ليسوا بمخلوقات آدمية ! .. ويقال انه كان الابن الاثير لدى والديه .. والآن ، عرج الى اليمين من فضلك ، لنلج مكتبى . لا أمل فى أن تستقل هذا القطار ، فانى أخشى أن يشتد ضغطهم عليك حتى تهلك . لسوف أفرد لك مكانا فى قطار فرعى نعد له العدة الآن ، ولكنا لن نذكر شيئا عنه الى أن يتسنى لنا السماح لهم بالصعود اليه ، والا هدموه قبل أن يكون قد أعد . وعليك أن تنتقل الى قطار آخر فى (سوخينيتشى) الليلة ! »

— ١٣ —

• **عندما** اقبل القطار — الذى أعد سرا — الى المحطة من خلف المخازن ، وهو يسير بظهره ، تدفق الحشد بأكمله على الخطوط الحديدية . وانحدر الناس من الجوانب كأنهم البلى ، ولجأوا الى الطريقة المعهودة دائما ، فراحوا يتدافعون ، وقفزوا الى درجات القطار ، والى الجوانب الامامية والخلفية للعربات ، وتسلقوا النوافذ الى الداخل ، وصعدوا الى السقف . وفى لحظة واحدة امتلأ القطار ، وهو بعد يسعى الى المحطة . فما أن استقر لدى الرصيف حتى كانت جماعات من الركاب متعلقة به من كل جانب ، ومن أعلاه الى أسفله ، فضلا عن ازدحام جوفه ..

واستطاع ((يورى)) أن يصعد — بمعجزة — الى الوصلة التى تربط بين عربتين ، ومن هناك ، نفذ الى ردهة احدى العربات بطريقة لاسبيل الى وصفها .. وهناك ، مكث جالسا على متاعه ، طيلة الطريق الى (سوخينيتشى) .

وكانت السحب قد تفرقت ، وتألقت الحقول تحت فيض من ضياء الشمس ، وتجاوب نقيق صراصير الحقل من كافة الارجاء ، حتى لقد طغى على جلجلة عجلات القطار .. وكان الركاب الذين وقفوا لدى النوافذ ، يحجبون الشمس عن الباقين . وكانت ظلالهم المستطيلة فى اسراف ، تمتد بعرض الارض والمقاعد ، وترتمى على الجدران .. ثم تقفز من نوافذ الجانب الآخر ـ وكأن الزحام الشديد فى الداخل قد لفظها ـ وتروح تعدو وتتواثب مع ظل القطار ، على الناحية الاخرى للخط الحديدى .

وكان الناس ـ فى كل ركن حول يورى ـ يصرخون ، ويرفعون عقائرهم بالسباب ، يسبون بعضهم بعضا ، ويقامرون .. وكلما وقف القطار ، أضيفت الى الضجة التى فى داخله أصوات الجماعات التى كانت تلتف حوله فى الخارج . وبلغت الضوضاء أعلى ارتفاعها ، فكأنها هدير عاصفة على البحر .. وكما يحدث عند البحر ، كان السكون يستتب فجأة للحظات . وفى نوبات الصمت المفاجئة هذه ، التى لم يكن من سبيل الى تعليلها ، كنت تسمع وقع الاقدام المتسارعة على طول الرصيف وعرضه ، والهرج والجدل عند عربة الامتعة ، وقوما يتبادلون عبارات الوداع على طول القطار ، ونقنقة الدجاج وحفيف الاشجار فى حديقة المحطة .

ثم ، هب عبير شذى مألوف لدى « يورى » ، وكأنه رسالة او تحيات حملتها الريح من (مليوزييفو) موجهة اليه هو وحده . وكانت الرائحة تنبعث من مكان ما على أحد جانبى النافذة ، يرتفع عن مستوى الحديقة والازهار البرية .. واذ كان الزحام يحول بين « يورى » والنافذة ، فانه لم يستطع أن يرى الاشجار التى انبعث منها هذا الشذى ، ولكنه تصور ـ فى خياله ـ انها كانت تنمو فى مكان جد قريب ، وتنشر فروعها الوادعة فوق سقوف العربات ، وقد كستها الاوراق المغبرة ، الكثيفة ـ التى تشبه الليل فى غزارتها ودكنتها ـ وتناثرت فيها الزهور الصغيرة ، كأنها النجوم توشى صفحة ذلك الليل !

وهكذا كان ثمة زحام صاخب فى كل مكان ، على طول الطريق .. وفى كل مكان كانت اشجار الموالح مزهرة .. وكأنما كان عبيرها فى كل بقعة – فى آن واحد – يلاحق المسافرين فى رحلتهم الى الشمال ، أشبه باشاعة تطير على جانبى الخط الحديدى ، وتلف حول كل مركز للاشارات وكل مجمع للخطوط، فتنتظر وصولهم وقدتدعمت وتعززت !

— ١٤ —

• واذ بلغ القطار (سوخينيتشى) فى ذلك المساء ، قاد حمال – من الطراز العتيق – « يورى » عبر الخطوط غير المضاءة الى قطار وصل لتوه ، (ولم يكن من القطارات المنتظمة التى تضمنها « جدول » المحطة) ، وارشده الى احدى عربات الدرجة الثانية . وما ان فتح باب احدى المقصورات ، بالمفتاح الخاص الذى لايحمله سوى عمال القطارات ، ورفع متاع « يورى » الى رفوفها ، حتى اقبل (الكمسارى) الموكل بالقطار ، وحاول أن يلقى المتاع الى الخارج .. لولا أن صده « يورى » بلين ، واسترضاه ، فلم يلبث أن انصرف .

وكان القطار الغامض يخضع لنظام غريب .. كان يمضى بسرعة كبيرة ، ولا يكاد يقف عند المحطات ، وله حارس مسلح . وكانت العربة خالية تقريبا .. وكانت مقصورة « يورى » مضاءة بشمعة قامت فى حامل على منضدة صغيرة ، وقد راح لهبها يتراقص تحت تيار الهواء الذى كان ينساب من النافذة نصف المفتوحة . وكانت الشمعة ملكا للراكب الآخر الوحيد .. وهو شاب أصفر الشعر ، كان حجم يديه وقدميه يوحى بأنه فارع الطول جدا. وكانت اطرافه مفككة المفاصل ، وكأنها لم تربط بعضها الى بعض رباطا وثيقا . وكان مضطجعا فى مقعد فى ركن مجاور للنافذة . ولكنه اعتدل فى جلسته بأدب عندما أقبل « يورى » . وكان ثمة شىء أشبه ب « المشمع » منشورا تحت مقعد الشاب ، فتحرك طرف منه ، وبرز كلب صغير ذو اذنين عريضتين متهدلتين ، فتأمل « يورى »

وتشممه ، ثم شرع يجرى من أول المقصورة الى آخرها ، باسطا مخالبه فى تراخ ، اذ رأى مولاه يعقد ساقا فوق ساق .. وسرعان ماعاد زاحفا - اذ أمره صاحبه - فانزوى تحت المقعد وكأنه منفضة من الريش ، من النوع الصغير الذى يستخدم فى نفض الغبار .

واذ ذاك فقط ، لمح « يورى » قراب البندقية ، وحزام الطلقات، والكيس الجلدى المنتفخ ، التى كانت على الرف .. اذن فقد كان الشاب عائدا من الصيد !

وكان محبا للكلام الى اقصى حد ، فابتسم ليورى فى ود ، وسرعان ما استدرجه الى الحديث ، وكأنما لم يكن يحفل من كل ملامح يورى بغير فمه ! .. وكان له صوت رفيع ، عال ، تمجه الاذن ، ويصل احيانا الى مايشبه فرقعة الصفيح ! .. ومن الغرائب الاخرى التى كشف عنها كلامه ، انه - وان وضح بجلاء انه روسى - كان ينطق حرفى (oo) اذا اجتمعا ، فى ترقق اشبه بلهجة السيدات ، او كما يلفظ المرء حرف u فى الفرنسية ، **او ü فى الالمانية** . والحق ان نطق هذين الحرفين مجتمعين كان يكبده جهدا ليس بالقليل ، وكان يرهق نفسه الى أقصى حد ، ويستحيل صوته الى مايشبه صراخا اكثر ارتفاعا - الى حد ما - منه حين ينطق بأية حروف أخرى . وكان فى بعض المرات يوفق الى أن يصحح عيبه ، بجهد قوى واضح . بيد انه كان لايلبث أن ينزلق اليه ثانية .. باستمرار .

وقال يورى فى نفسه : « ماهذا بحق الشيطان ؟ ! .. اننى واثق من اننى قرأت عن هذه الظاهرة ، وكان خليقا بى أن أعرف - كطبيب - كنهها ، ولكنى لا أستطيع أن أحدسها . لابد انها راجعة الى عيب فى المخ يؤثر على المقدرة على الكلام ! » .. ومهما يكن السبب ، فقد بدت الظاهرة ليورى طريفة ، حتى انه لم يقو على أن يمنع أثر ذلك من أن يبدو على أساريره ، فقال لنفسه : « من الخير أن آوى الى فراشى ! » . وصعد الى مضجعه ، وكان فى السرير الاعلى (١) . وتطوع الشاب فعرض أن يطفىء الشمعة

---

(١) المعروف أن أسرة النوم فى القطارات تتألف من طبقات بعضها فوق بعض .

حتى لاتذب النوم عن عينى الطبيب ، فقبل هذا تطوعه ، وسرعان ما باتت المقصورة فى ظلام تام .

وقال يورى متسائلا : « هل أغلق النافذة ؟ .. ما أحسبك خائفا من اللصوص ؟ » . ولم يكن ثمة جواب ، فكرر سؤاله بصوت أكثر اعتدالا ، ومع ذلك فانه لم يتلق ردا فى هذه المرة أيضا ! فأشعل عود ثقاب ، ومال على حافة سريره ليتبين ما اذا كان زميله قدغادر المقصورة .. ولاح له أن من غير المعقول أن يكون هو قد أغفى لحظة فلم يشعر بالشاب وهو يغادر المقصورة ! .. ولكن الشاب لم يكن قد غادر مجلسه ، بل ظل جالسا وعيناه مفتوحتان . وابتسم يورى حين أطل عليه !

وانطفأ عود الثقاب ، فأشعل يورى عودا آخر ، وردد سؤاله للمرة الثالثة ، والعود مشتعل . واذ ذاك أجاب الشاب : **« افعل ماتشاء ، فليس معى مايمكن ان يطمع فيه اللصوص .. وفى وسعك أن تدع النافذة مفتوحة ، فان الجو راكد ! »** .. وقال يورى فى نفسه : « ياله من شخصية غير عادية ! .. انه غريب الاطوار بلا شك ، فهو لايتكلم فى الظلام ! .. ما أشد غرابة هذا ! ! »

— ١٥ —

• **توقع** « يورى » ان يوافيه النوم بمجرد ان اراح جسمه على الفراش ، اذ كان منهوك القوى من جراء أحداث الاسبوع الماضى ، ولانه استيقظ وبدأ رحلته فى ساعة مبكرة من ذلك اليوم .. ولكنه كان من الاعياء بحيث ظل مسهدا الى الفجر تقريبا ، وقد راحت افكاره تتدافع وتدور فى الظلام . ولاح له أنها كانت تدور فى حلقتين رئيسيتين ، راحتا تختلطان وتشتبكان ثم تنفكان وتنفصلان من تلقاء ذاتيهما ، طيلة الوقت .

وكانت احدى الحلقتين تضم أفكاره عن « تونيا » : دارهما ، وحياتهما المستقرة السابقة ، التى كان لكل شىء فيها ــ الى أدق الدقائق ــ شاعريته ، واخلاصه ، وصدقه ، وحرارته .. وشعر

« يورى » بقلق ينتابه من أجل هذه الحياة ، فقد كان يتوق الى ان تظل سالمة ، كاملة .. وكان الشوق يبرح به اليها - والقطار منطلق به - بعد الفراق الذى دام عامين !

وكانت هذه الحلقة تضم كذلك ولاءه للثورة ، واعجابه بها .. الثورة بالمعنى الذى تقبلته الطبقات الوسطى ، والذى فهمه عنها الطلبة - اتباع « بلوك » - فى سنة ١٩٠٥ .

وكانت هذه الحلقة الشخصية تحتوى أيضا على ماكان يتوقعه من ارتياح الى الاوضاع الجديدة . فكانت فيها تلك النذر ، وتلك الامانى التى كانت تلوح للفكر الروسى - قبل الحرب ، وفيما بين سنتى ١٩١٢ و ١٩١٤ بالتحديد - باعتبارها جماع الفن والحياة فى مصير روسيا بأكملها ، وفى مصيره هو .. جيفاجو !

وكانت العودة الى ذلك الجو بمجرد أن انتهت الحرب - ليشهد تجدده واستمراره - مبعث ارتياح لايقل عن ارتياحه للشعور بانه عائد الى داره وأسرته ..

* * *

كذلك كانت هذه الامور الجديدة فى الحلقة الثانية من أفكاره ، ولكن .. شد ما كانت تختلف فى هذه الحلقة عنها فى الحلقة الاولى ! .. فان هذه الامور الجديدة لم تكن مألوفة، ولم تفض اليها الاوضاع القديمة . لم تكن نتيجة اختيار ، ولا كانت من نتاج حكم الواقع ، كما أنها كانت مفاجئة وكأنها زلزال !

وكانت الحرب بين هذه الامور .. الحرب بما فيها من دماء مراقة ، ومن أهوال وفظائع ، ومن تشرد وضراوة وعزلة ، ومن محاكمات وتجارب وحكمة دنيوية هى التى اوحت بها .. وكذلك كانت بينها المدن الصغيرة المنعزلة ، التى كانت الحرب تلقى بك اليها ، والناس الذين كانت تلقى بهم معك ! .. ومن هذه الامور الجديدة ايضا : الثورة .. لا الثورة التى كانت المثل العليا ترسمها فى اذهان الطلبة فى سنة ١٩٠٥ ، وانما تلك الانتفاضة الجديدة ،

التى ولدتها الحرب .. الانتفاضة الدموية التى لاتعرف رحمة ، والتى تناولت الاسس الجوهرية .. ثورة الجنود التى قادها المحترفون .. البلاشفة !

وكانت المرضة « انتيبوفا » بين أفكاره الجديدة هذه ، وقد حجزتها الحرب فى أقصى مؤخرة ذهنه ، مع حياتها المجهولة تماما . انتيبوفا التى لم تنح باللوم على أحد اطلاقا ، والتى كان صمتها ـ مع ذلك ـ تأنيبا محسوسا .. **انتيبوفا التى كانت متحفظة ، قوية فى تحفظها ، غامضة فيه ! .. ومع هذه الافكار كان الجهد الصادق الذى راح « يورى » يبذله لكى لايحبها .. الجهد النابع من صميم قلبه ، كما كان ينبع نضاله طيلة حياته ـ حتى اليوم ـ لكى يحب كل انسان ، لا أسرته او اصدقاءه فحسب !**

وكان القطار يندفع بكل سرعته ، والهواء الداخل من النافذة يعبث بشعر « يورى » ويبث فيه الغبار . وكانت جموع الناس تضج وتصخب عند كل محطة ـ سواء بالليل أو بالنهار ـ وحفيف اشجار الموالح يصل الى سمعه .. وكان يسمع فى بعض الاحيان قرقعة عجلات العربات أو المركبات الخفيفة منبعثة من جوف الظلام ، وهى مقبلة على المحطة ، فاذا الاصوات والقرقعة تمتزج بحفيف الاشجار اذ يشتد ويقوى . فكان « يورى » يشعر فى مثل تلك اللحظات بأنه فهم القوة التى كانت تجعل أشباح الليل هذه ـ الاشجار ـ تتحرك فى حفيف ، وتقرب مابين رؤوسها .. وانه ادرك ما كانت تتهامس به وهى لاتكاد تقوى على أن تحرك أوراقها ، وقد أثقلها النعاس ، فكأنها ألسنة عيية ، ثقيلة النطق !

كان ماتتهامس به هو عين ماكان « يورى » يفكر فيه وهو يتقلب متململا فى سريره .. انها انباء القلق والهياج المتسع الدائرة فى روسيا .. أنباء الثورة ، والساعة العصيبة التى قد يتقرر فيها مصيرها ، والعظمة التى يحتمل ان تتوجها فى النهاية !

— ١٦ —

* وظل يورى نائما الى ساعة متاخرة فى الصباح التالى . فكانت

الساعة الحادية عشرة عندما استيقظ . وكان زميله يهيب بكلبه — الذى راح يزمجر — بصوت خافت : « برينس ! برينس ! » .. وكانا لايزالان وحيدين فى المقصورة ، لدهشة يورى ، فلم يشاركهما اياها أى مسافر آخر . وكان القطار قد تجاوز اقليم (كالوجا) ، واوغل فى الاقليم الذى تقع فيه (موسكو) ، حيث كانت أسماء المحطات مألوفة ليورى منذ الطفولة .

ونهض فاغتسل ، وحلق لحيته ، وهو يستشعر عين العذوبة التى كانت لهذه العملية قبل الحرب . ثم عاد الى المقصورة فى الوقت المناسب ليتناول الفطور الذى دعاه اليه زميله الغريب . واستطاع فى هذه المرة أن يجد فرصة أكثر ملاءمة كى يتأمله ويدرسه . وكان أكثر ما أدهشه منه هو ميله العارم للثرثرة ؛ حتى انه لم يصمت لحظة قط ! كان يحب الكلام ، ولم يكن أحب الاشياء اليه — فى هذا الصدد — أن ينقل أفكاره الى الغير أو يبادلهم افكارا بأفكار ، وانما كان يحب عملية الكلام ذاتها .. عملية النطق بالكلمات، واصدار الاصوات ! .. وكان لاينفك يقفز ويتقفز وهو يتكلم، وكأنه يجلس على زنبركات .. وكان يضحك فى قهقهة تصم الآذان ، لغير ماسبب أو داع .. ويفرك يديه فى سرعة فائقة ، حتى اذا أخفقت كل حيلة فى التعبير عن مشاعره ، كان يدق ركبتيه بشدة ، ويضج بالضحك حتى تدمع عيناه !

وكان لحديثه عين الظواهر الغريبة التى بدت فى الليلة السالفة . كان ملحاحا الى درجة عجيبة ، فهو يفضى حينا باعتراف لم يسأله اياه أحد ، وهو يترك — فى حين آخر — أكثر الاسئلة براءة ، دون أن يجيب عنها . وراح يفيض بحقائق غير متصلة ، ولا يكاد يصدقها العقل ، عن نفسه . ولعله كان يكذب بعض الشىء ، ومن المؤكد انه كان يسعى لكى يؤثر على المستمع اليه بآرائه المتطرفة ، وبانكار الآراء المسلم بها عادة ، مهما تكن هذه الاراء !

وبعث كل هذا الى ذاكرة « يورى » بشىء : لقد كانت تلك شيمة

« العدميين » .. أنصار مذهب « العدمية » فى القرن الماضى (١) ، كما كانت شيمة شخصيات قصص « دوستويفسكى » ـ بعد ذلك ـ ثم انها كانت شيمة ورثة هؤلاء وأولئك فى العهد القريب ، من أبناء الاقاليم المثقفين ، الذين كثيرا ماكانوا يسبقون عواصم اقاليمهم فى التقدم الفكرى ، بسبب ماكانوا يطوون عليه نفوسهم من حرارة وصدق حمية ، كانت المدن الكبرى تعتبرهما من مظاهر التأخر عن ملاحقة ركب الحضارة !!

ولقد أنبأه الشاب بأنه كان ابن أخى أحد الثوريين المعروفين ، ولكن والديه كانا رجعيين ، متأخرين الى درجة لاتدع مجالا لامل يرتجى فيهما .. كانا « من قبل التاريخ » ، كما سماهما ! .. وكانت لهم ضيعة كبيرة جدا ، فى منطقة أصبحت ملاصقة لجبهة الحرب . وفى هذه الضيعة نشأ الشاب . وكان والداه على شقاق محتدم مع عمه الثورى ذاك طيلة حياتهما ، ولكن العم لم يؤاخذهما بذلك ، بل أصبح يستخدم نفوذه لينقذهما من كثير من المنغصات. أما هو ، فكانت آراؤه عين آراء عمه .. كان متطرفا فى كل شيء ، سواء فى الحياة ، أو فى السياسة ، أو فى الفن ! .. وقد بعث هذا ايضا الى ذاكرة « يورى » بطيف « بيتر فيرخوفنسكى » (٢) لا من حيث ميوله اليسارية ، وانما من حيث فساد أفكاره ، وطنين عباراته !

وقال يورى فى نفسه : « انه لن يلبث أن يقول لى انه من المستقبليين ! » . وفعلا تحول الحديث الى « المستقبلية » (٣) .

---

(١) العدميون : أنصار « العدمية » وهى نظرية اعتنقها كثير من الثوريين الروس ابان الحكم القيصرى . وكانت تدعو الى هدم النظم الاقتصادية والاجتماعية القائمة ، مهما تكن الأنظمة التى قد تخلفها . وكان الأفراد يقيمون من أنفسهم حكاما ومنفذين للأعمال الهدامة ، دون انتظار توجيهات هيئات مركزية ، وقد اعتاد المترجمون ان يسمونهم « الفوضويين » عن خطأ فى الترجمة .

(٢) احدى الشخصيات التى ابتدعها دوستويفسكى فى رواية « المأخوذ »

(٣) مذهب في الفن يرمى الى التحرر من الفن التقليدى ومن القواعد الواقعية ، واتباع قواعد أخرى للتعبير عن قوى التطلع فى الانسان .

وفى كل مرة ، كان حدس يورى يصدق ، وهو يقول فى نفسه : «الآن دور الرياضة .. دور سباق الخيل .. دور الانزلاق على الجليد.. دور المصارعة الفرنسية » ! .. بل انهما تحدثا عن الصيد كذلك . فقد كان الشاب فى رحلة صيد على مقربة من ضيعة أسرته . وكان يزهو بأنه صياد بارع فى الرماية ، ولولا العيب الجسدى الذى جعله بمنأى عن الجيش لكان خليقا بأن يلمع ويتألق فى الرماية . وصاح وهو يثبت بصره الى عينى يورى : « أفلم تلاحظ شيئا حقا ؟ .. لقد خيل الى أنك حدست علة متاعبى » .

وأخرج من جيبه بطاقتين ، فأسلمهما الى يورى . كانت احداهما بطاقة زيارة تحمل اسمه ــ وكان اسما ذا لقب مزدوج ، اذ كان يدعى « مكسيم اريستارخوفيتش كلينستوف بوجورفشيخ » أو « بوجورفشيخ » فحسب ، كما رجا « يورى » ان يدعوه ، تيمنا وتشرفا بعمه الذى كان يحمل هذا الاسم ! ــ **أما البطاقة الاخرى فكانت مقسمة الى مربعات ، فى كل مربع منها رسم يدين متصلتين فى أوضاع مختلفة ، وقد طويت أصابعهما بأشكال متباينة . تلك كانت الحروف الابجدية للبكم الصم !**

واوضح ذلك كل شىء : لقد كان « بوجورفشيخ » تلميذامو هوبا، فذا ، لمدرسة «هارتمان» أو مدرسة « اوستروجرادوف » .. كان أبكم واصم ، استطاع ان يصل الى درجة من الكمال لا يتصورها العقل ، فى فن تبادل الحديث ، لا بالاذن ، وانما بالعين .. بمراقبة عضلات حلق مدرسيه . وقد مكنته هذه الطريقة كذلك من ان يفهم ماكان الغير يقولون .

* * *

وجمع « يورى » ماذكره له الشاب عن المنطقة الريفية التى اقبل منها ، الى ما قاله عن رحلة الصيد ، فلم يتمالك ان سأله : « ارجو ان تلتمس لى المعذرة اذا بدا سؤالى غير معقول ، ثم انك لست ملزما بأن تجيب . هل كانت لك أية صلة بقيام جمهورية زابوشينو ؟ » .

فقال الشاب ملجلجا، وهو يقهقه ويهتز بكل جسمه ، ويدق ركبتيه براحتيه : « وكيف حدست ذلك ؟ .. هل تعرف بلاجيكو ؟ .. اجل » أجل ! لقد كنت على صلة بها حقا ! » .. وقال بوجورفشيخ ان (بلاشيكو) كانت الحجة و (زابوشينو) الفرصة السانحة لتطبيق آرائه . ولم يستطع يورى أن يعى كل اسهابه فى شرح فلسفته ، فقد بدت له مزيجا من الفوضوية ومن أكاذيب دعى متصيد للفرص !

وفى رزانة من يلقى خطابا ، راح يتنبأ بانتفاضات هوجاء تحدث فى روسيا فى المستقبل القريب . وأقر « يورى » — فى سريرته — ان ذلك لم يكن بالامر البعيد عن الحسبان ، ولكن الطريقة التى كان يصدر بها الشاب أحكامه — فى قحة التلميذ المغرور — كادت تودى بعقله ، فلم يلبث ان قال : « لحظة واحدة .. قد يكون هذا الذى تلته صحيحا برمته ، ولكن يلوح لى على ضوء كل مايحدث من الفوضى ، والتفكك ، والضغط الذى يقوم به العدو .. يلوح لى على ضوء كل هذا ان الوقت الحاضر ليس بالوقت الملائم للبدء بتجارب خطيرة . يجب أن ترفع البلاد رأسها من غمرة احدى الانتفاضات، قبل أن تنغمس فى انتفاضة أخرى .. لابد من استتباب شىء من السلام والنظام أولا ! »

فقال بوجورفشيخ : « هذا حديث ساذج .. ان ماتسميه فوضى انما هو وضع طبيعى للأمور ، يشبه تماما النظام الذى تتحمس له. فكل هذا الدمار ليس سوى المرحلة التمهيدية الصحيحة لخطة انشائية واسعة . ان المجتمع لم يتفكك بعد بالدرجة الكافية . يجب ان يتحطم اربا ، ثم تقوم حكومة ثورية « حقيقية » بجمع هذه القطع ، ولصق بعضها ببعض ، على أسس جديدة تمام الجدة ! »

وشعر يورى بضيق واشمئزاز ، فخرج الى الردهة . وكان القطار قد زاد من سرعته ، وأخذ يقترب من (موسكو) ، شاقا طريقه وسط غابات من شجر «البتولا» قد زخرت ب « فيلات » وبيوت صيفية صغيرة . وكانت الارصفة غير المسقوفة، فى المحطات الصغيرة

التى راح القطار يتجاوزها مسرعا، تتراجع بمن حفلت بهم من رجال ونساء ، وتغيب وسط سحابة من الغبار ، وهى تبدو لفرط السرعة وكأنها تدور حول نفسها. وكان القطار يرسل صفيرا عميقا ، اجوف متكررا ، فتردده جنبات الغابات ، فى تعدد منغوم ..

وفجأة فطن « يورى » ، لاول مرة فى الاشهر الاخيرة ، الى مكانه، والى ماكان يجرى حوله ، والى ماكان ينتظره فى فترة لاتزيد كثيرا عن الساعتين ..

ثلاث سنوات من التغيرات ، والتنقلات ، والقلق ، والانتفاضات .. الحرب ، الثورة ، مناظر الخراب ، مناظر الموت ، القصف بالقنابل ، الجسور المنسوفة ، الحرائق ، الخرائب . . كل هذه تحولت فجأة ، فى مخيلة «يورى» ، الى فضاء شاسع ، خاو ، مقفر .. واذا اول حدث حقيقى فى حياته ــ منذ بداية هذه التطورات الطويلة ــ هو هذه العودة التى تمت بسرعة مذهلة ، فى هذا القطار ، وهو يدرك ان بيته لايزال سالما ، ولا يزال قائما ، وكل حجر فيه ــ بل ادق حجر ــ عزيز لديه .. هذه هى النقطة الحاسمة فى الحياة .. هذه هى التجربة. . هذه هى بغية طلاب المغامرة ، وهى الفكرة التى تطوف بعقول الفنانين .. هذه العودة الى البيت .. الى أسرتك ، والى نفسك ، والى استئناف الحياة المتجددة !

وبرز القطار من الغابة التى كانت مطبقة عليه ، الى الفضاء .. وكان ثمة حقل يصعد بميل من هوة، ليتحول الى مرتفع عريض. . وكانت تمتد على صفحته خطوط افقية من احواض البطاطس الخضراء القاتمة ، وخلفها ــ على قمة المرتفع ــ كانت ثمة اطارات زجاجية .. وفى الناحية المواجهة للحقل ــ وراء ذيل القطار الملتوى ــ كانت ثمة سحابة أرجوانية داكنة تجلل نصف صفحة السماء . وكانت خيوط الشمس تخترقها لتنتشر كأنها مجموعة « اقطار دائرة » متفرعة من محور عجلة ، حتى اذا وقعت على الاطارات الزجاجية ، انعكست فى بريق وهاج لا تطيقه العين .

وفجأة ، لمعت فى ضياء الشمس قطرات مزن هتون ساخن ،

وراحت تهبط بسرعة اتسقت مع سرعة القطار وهو يرسل ذلك الضجيج المنتظم الناشىء عن جرى عجلاته فوق القضبان و«الفلنكات» .. وكأنما كان المطر يخشى أن يخلفه القطار وراءه ، فراح يلاحقه !

على ان « يورى » لم يكد يوليه اهتماما ، عندما لاحت له كنيسة « يسوع المخلص » ، فوق حافة التل (١) . **وان هى الا لحظة أخرى حتى تجلت له قباب المدينة ومداخنها ، وسقوفها ، ودورها .. فعاد الى المقصورة قائلا : « موسكو ! .. آن الوقت للاستعداد !» .**

واذ ذاك قفز « بوجورفشيخ » ، وتناول كيس الصيد فأخرج منه بطة سمينة ، وقال : « خذ هذه .. تذكارا ، فاننى نادرا ما قضيت يوما فى صحبة مستحبة كهذه ! » . ولم تجد الاحتجاجات والاعتذارات فتيلا ، فلم يلبث جيفاجو ان قال فى النهاية : « **لا بأس ، سآخذها كهدية منك لزوجتى !** » .. وردد بوجورفشيخ فى اغتباط : « **بديع .. رائع .. زوجتك !** » .. وكأنما كان يسمع الكلمة للمرة الاولى . واشتد اهتزاز جسمه من الضحك ، حتى ان كلبه « برينس » قفز من مجثمه ، لينضم اليه فى طربه !

ودخل القطار المحطة ، فساد الظلام المقصورة ، وكأن الليل اقبل . ومد الابكم الاصم البطة الى « جيفاجو » وقد لفها فى فرخ ممزق من الورق العريض .

---

(١) كانت هذه الكنيسة من معالم المدينة ، وكانت تقوم فى وسطها كنصب تذكارى للحروب النابليونية . وقد هدمتها الثورة الشيوعية ، لتقيم عليها قصر السوفييت .. الذى لم ينشأ حتى كتابة هذه القصة !

الفصل السادس

وقفة في موسكو



« .. الشيوخ والعجائز ، فى أجساد نحيلة وثياب محتشمة ، واقفين منكمشين الى الجدران ، كأنهم أصبع اتهام يلاحق المارة ، يعرضون فى صمت أشياء لا يحتاج اليها انسان : زهورا صناعية .. غلايات قهوة .. فساتين سهرة من قماش أسود .. أزياء رسمية أصبحت ملفاة ! »

الفصل السادس

وقفة فى موسكو

— ١ —

• **لم يفارق** يورى طوال جلوسه فى القطار شعور بان لاشىءيسير سوى هذا القطار .. اما الزمن فقد توقف سيره ، وكان وقوفهعند ساعة الظهر ، لايتحول عنها ! .. مع أن حقيقة الامر ان الشمس كانت تكاد تؤذن بالمغيب حين شقت عربته ، على مهل ، طريقها من المحطة ، وسط الزحام الشديد فى ميدان (سمولنسكى) .

وهو حين يذكر المشهد فيما بعد ـ دون أن يدرى هل ينقل عن الواقع فعلا أم عن صور عديدة متخلفة فى ذاكرته عن السنين السابقة ـ يخيل اليه ان الناس ، حتى فى ذلك العهد ، قد تجمعوا فى السوق بحكم العادة وحدها .. **اذ لم يكن قد بقى ثمة سبب يدعو الى تجمعهم : فهذه صناديق البضاعة قد أنزل عليها غطاؤها ، لا يبالى أصحابها أن يحكموا غلقها بالمفتاح ، فليس هناك شىء يباع أو يشترى فى هذا الميدان الذى تتناثر القمامة فى جنباته ، لا يجد من يكنسه !**

وخيل اليه انه يتبين فى ذلك اليوم مشهدا تكرر واستقر فيما بعد : الشيوخ والعجائز ، فى اجساد نحيلة وثياب محتشمة ، واقفين منكمشين الى الجدران ، كأنهم اصبع اتهام يلاحق المارة ، يعرضون فى صمت اشياء لا يحتاج اليها انسان : زهورا صناعية .. غلايات قهوة ذات غطاء من الزجاج ، وانابيب تصدر صفيرا اذا اشتد غليان الماء .. فساتين سهرة من قماش أسود يشبه الشبكة .. أزياء رسمية اصبحت ملغاة .. الخ . والى جانب هؤلاء اناس من عامة الشعب ، فى يدهم بضاعة نافعة : لقم جافة من خبز اسرد بائت يوزع بالبطاقات ، قطع من السكر قذرة مبتلة ، اوقية من تبغ غليظ فى نصف علبة قطعت من وسطها . كل هذه البضاعة الخسيسة

ـ التى لايصدقها العقل ـ تجول فى السوق وترتفع اسعارها كلما تداولتها الايدى !

وانعطفت العربة الى شارع جانبى ، ومن خلفها الشمس تنحدر الى المغيب ، ومن امامها عربة نقل فارغة يجرها حصان متوثب مجد يثير أعمدة من الغبار فى لون البرونز حين يبرق فى الشمس .

وما لبثت عربة « يورى » أن لحقتها وسبقتها ، ودهش يورى حين رأى كثرة الصحف والملصقات التى نزعت عن الجدران والاسوار وتناثرت على الارض ، تطوح بها الرياح الى ناحية ، وتقذف بها الحوافر والعجلات والاقدام الى ناحية أخرى ..

واجتازت العربة عديدا من مفارق الطرق ، ووقفت امام منزل يورى ، على ناصية شارعين خلفيين .. فحبس يورى انفاسه ، وأخذ قلبه ـ وهو ينزل من العربة ـ يدق كالمطرقة .. وسار الى المدخل الامامى ، ورفع يده الى جانب الباب ودق الجرس .. فلم يسمع له جوابا . ودق مرة اخرى ، وظل ينتظر .. عبثا !.. فأخذ يوالى دق الجرس ، لا يكف الا لحظات قصيرة يجتر فيها قلقه . وكان لايزال يدق الجرس حين رأى الباب ينشق عن «تونيا» وهى تفتح الباب فسيحا أمامه .. فأذهلتهما المفاجأة كليهما ، ولكن فتح الباب بيد تونيا على مصراعيه كان بمثابة الترحيب ، بل بمثابة ضمة الى حضن ! .. ثم تمالك كل منهما نفسه وأخذ يعانق الآخر . وبعد لحظة اندفعا يتكلمان فى آن واحد :

ـ خبرينى قبل كل شىء . هل الجميع بخير ؟

ـ نعم . نعم . لاتقلق . كل شىء على مايرام ، لقد كتبت لك كثيرا ، رسائل كلها ثرثرة فارغة . اعذرنى ؛ سنتحدث عن ذلك فيما بعد . لماذا لم ترسل برقية ؟ سيحمل « ماركل » عنك متاعك ويصعد به . اظن انك قلقت حين لم تجد « يجورونوفا » تفتح الك الباب . انها فى الريف .

ـ انك زدت نحولا . ولكن ما انضر شبابك وجمالك ! انتظرى لحظة حتى ادفع للسائق اجره .

– لقد ذهبت «يجورونوفا» تحاول العثور على شيء من طحين القمح .. وقد سرحنا بقية الخدم . لم يبق عندنا الا فتاة اسمها نيوشا . انك لا تعرفها . وهي تعنى بساشا ، وليس هناك احد سواها . لقد بلغ الجميع نبأ قرب قدومك ، انهم كلهم – جوردون ودودوروف والجميع – في شوق اليك .

– وكيف حال ساشا ؟

– بخير والحمد لله . انه استيقظ الآن من نومه ، ولولا انك قادم لتوك من القطار ، وحمى التيفوس متفشية ، لأخذتك اليه على الفور .

– هل الوالد في الدار ؟

– الم يكتب اليك احد بخبره ؟ انه يعمل في مجلس الضاحية منذ الصباح الى الليل ، هو رئيس المجلس ، نعم ! هل تصدق هذا ؟ هل فرغت من دفع اجر السائق ؟ يا ماركل ! يا ماركل !

كانا يقفان وسط الطريق وقد زحمه متاع يوري : حقيبة من الجلد وأخرى على هيئة قفص من الغاب . وكان المارة يتريثون وينفحصونهما من الرأس الى القدم ، ثم يحملقون في العربة وهي تتحرك وتبتعد عن المنعطف ، ثم يعيدون نظرتهم الى الباب المفتوح ليروا ما الذي سيحدث بعد ذلك .

ولكن ماركل جاء يهرول من الباب ، في صديري يغطي قميصه القطني ، وعلى رأسه قبعة البوابين ، يرحب بسيده الشاب وهو يصيح :

– يا الهي ! انه يورشكا (١) بعينه ، انني لا أصدق بصري ! سيدنا العزيز المحبوب ! نور عيني ! .. اذن انت لم تنسنا ، وكنا نحن نصلي لك كل يوم . شرفت ونورت !

ثم التفت الى المتسكعين يزجرهم بحدة : « ماذا تريدون ! اي عجب ترون ؟ انصرفوا .. ما الذي يستجلب حملقتكم ؟ »

---

(١) صيغة التدليل لاسم يوري

عانقه يورى وهو يقول له : « كيف حالك يا ماركل ؟ ضع قبعتك فوق راسك يا جحش ! ما أخبارك ؟ وكيف حال زوجك وبناتك ؟ »

ــ وماذا عسى ان يكون حالهن ؟ انهن يكبرن والحمد لله ! أما عن الاخبار فأنت ترى بنفسك اننا لم نكف عن العمل وأنت غائب تعالج مهام الامور . ولكن أى عمل بربك ؟ ربكة كبرى وفوضى لايسوسها الشيطان نفسه ! .. الطرقات قذرة ، والاسقف مختلة يقطر منها الماء ، والبطون خاوية كأننا فى شهر الصوم .. وكل هذا « دون ضم او تعويض (١) . » !

فقاطعته تونيا قائلة : « سأشكوك يا ماركل الى يورى اندريفتش ، هذه هى عادته يا يورشكا . اننى لا أحتمل ثرثرته ، ولكنه أرخى العنان لها اكراما لك . يظن انك تحب هذا منه . وأنت ترى أن له هو أيضا تعليقات بارعة لاذعة .. حسنا . حسنا يا ماركل . لا تجادلنى . اننى أعرفك . انت مراوغ ! آن الاوان لان تكف عن حماقتك . انك تكلمنا كأننا من أصحاب الدكاكين ! »

ودخلوا الى المنزل ، وحمل ماركل متاع يورى بعد أن أغلق الباب الامامى وراءه ، ثم استمر يسر اليه :

ــ ان انتونيا الكسندروفنا قد اغتاظت . قالت لى ، وهذا ديدنها : « يا ماركل ! ان ضميرك أسود مثل ماسورة الموقد ! » .. انها تقول ان كل طفل ، بل كل كلب ، من أى جنس ، يدرك هذه الايام ماهو حادث ! وهذا حق . ولكن صدقنى أو لا تصدقنى ، ان العالمين ببواطن الامور الآن هم الذين طالعوا كتاب الماسونية (٢) الذى ظل مائة وأربعين سنة مدفونا تحت حجر . وانى أعتقد الآن ، بعد اعمال الفكر ، اننا وقعنا فى يد خونة باعونا بيع السماح ! ولكن

---

(١) كانت عبارة « سلم دون ضم او تعويض » هى الشعار الذى ينادى به الجناح اليسارى للحزب الاشتراكى . ويقصد بالضم استيلاء روسيا على بلاد اجنبية .

(٢) المقصود هو كتاب « مقررات رؤساء صهيون » الذى رسمت فيه سياسة اسرائيل

هل أستطيع أن أجهر بلفظ واحد ؟ .. انظر الآن بنفسك ! أن انتونيا الكسندروفنا تهز رأسها لزجرى ..

وقالت تونيا توجه كلامها ليورى : « أرأيت مبلغ حكمته وبراعته ؟ » .. ثم التفتت الى ماركل وقالت : « كفى يا ماركل ! ضع الحقائب ، هذا كل مانطلبه منك . واذا احتاج « يورى اندريفتش » الى شيء فانه سيناديك . »

— ٢ —

— لقد غرب عن وجهنا والحمد لله ! انت وشأنك . تستطيع ان تصغى اليه ان شئت ، ولكنى أقول لك انه ممثل مخاتل ، تتحدث اليه فتظنه أبله القرية ، عاجزاً قليل الحيلة ، وهو فى الوقت نفسه لا يكف عن شحذ سكينه . لعله لم يقرر بعد من سيكون ضحيته ، ياله من مسن ماكر !

— ألست تبالغين قليلا ؟ أظن أنه مخمور ، وهذا هو السر .. ولا شيء هناك غير ذلك .

— ومتى كان يفيق ؟ ليتنى اعلم ! على كل حال فانى ضقت ذرعا به . يؤسفنى أن يعود ساشا لنومه قبل أن تراه . ولولا قمل التيفوس فى القطارات ! هل فى ثيابك قمل ؟

— لا أظن ، فقد كان سفرى فى عربة قطار فاخرة ، من عهد ما قبل الحرب . يحسن بى أن أغتسل على عجل ، ثم أتم الاغتسال كما ينبغى فيما بعد . الى أين نحن ذاهبون ؟ الم نعد نمر بحجرة الاستقبال ؟

— آه ! طبعا أنت لا تدرى ! لقد تدبرت والوالد طويلا ثم استقر الرأى على أن نتخلى عن جزء من الطابق الارضى للاكاديمية الزراعية .. وعلى كل حال فالمنزل كبير ، يصعب تدفئته فى الشتاء ، حتى الدور الاعلى يزيد عن حاجتنا ، لذلك عرضناه عليهم أيضا . ولكنهم لم ينتقلوا اليه بعد . وان نقلوا المكتبة ونماذج النبات والحبوب . وأرجو أن لانبتلى بالفيران ، بسبب الحبوب .. فما هى الا حبوب

قمح . ولكنهم الآن يعنون بنظافة الحجرات كل العنـاية . وعلى فكرة ، اننا لم نعد نستعمل لفظ « حجرة » أو « غرفة » بل نقول اليوم بدلا عنه « مساحة للسكن » . تعال ، من هنا ، هل يتعبك الصعود ؟ اننا سنرقى السلم الخلفى . اتبعنى ، سأريك الطريق .

ــ يسرنى أنكم تخليتم عن هذه الحجرات . ان المستشفى الذى كنت أقيم فيه كان هو الآخر من بيوت الافراد : حجرات عـديدة متتابعة، لايزال بعض أرضها من « الباركيه » ، ووراء الاسرة أصص شجيرات النخيل تمتد مخالبها كأنها اشباح ــ حتى كان بعض الجرحى القادمين من ميدان الحرب يهبون من نومهم فزعين ! .. طبعا كانوا فى حالة غير طبيعية . أورثهم انفجار القنـابل صدمة عصبية ، فلم نر بدا من ابعاد هذه الشجيرات . قصدى أن أقول ان بعض الاغنياء كانوا يعيشون فى ترف فاسد : كماليات لا حصر لها ، اسراف فى الاثاث والسكن ، والرفاهية والمظاهر . اننى سعيد ان اقتصرنا على عدد أقل من الحجرات ، وينبغى ان نتخلى أيضـا عن بعضها .

ــ ماهذه الحزمة التى معك ؟ ان شيئا يطل منها ، أشبه بمنقار طير . **انهـا بطـة ! ياللفرحة ! بطـة برية ، من اين جاءتك ؟ اننى لا أصدق عينى . انها تعد اليوم ثروة طائلة !**

ــ لقد أخذتها هدية من مسـافر بالقطار ، انها قصـة طويلة ، سأرويها لك فيما بعد . ماذا أفعل بها ؟ هل أتركها فى المطبخ ؟

ــ طبعا . اننى سأرسل « نيوشا » من فورها للمطبخ لتنتفهـا وتغسلها . يقولون ان الشتاء سيحمل لنا فى طياته نكبات كثيرة : المجاعة والبرد القارس .

ــ نعم هذا ماتردده الالسن فى كل مكان . وقد قلت لنفسى وانا انظر من نافذة القطار ، هل فى الدنيا شىء يفضل حياة الانسان مع أسرته فى سلام وعمل . أما ما بعد ذلك فقدر ليس فى أيدينا . يخيل الى اننا قادمون على أوقات عصيبة ، وبعض الناس يبحثون عن النجاة بالسفر الى الجنوب ، الى (القوقاز) أو ماهو ابعد ..

وانا نفسى لا أود ان افعل ذلك ، فان الرجل ينبغى له ان يشد على أسنانه ، ويشارك فى تحمل اعباء بلاده ، ولكن الامر يختلف بالنسبة اليك . فاننى ابتهل ان لاتقع هذه المتاعب على كاهلك . أود ان أبعث بك الى مكان امين ، الى (فنلندا) مثلا . ولكن لو بقيناهكذا نثرثر نصف ساعة كلما صعدنا درجة من السلم لما فرغنا منه قط !

ـ انتظر لحظة ، نسيت أن أخبرك . لدى لك خبر مدهش . ان ((نيكولاى نيكولاييفتش)) قد عاد !

ـ من نيكولاى نيكولاييفتش ؟

ـ خالك ((كوليا)) .

ـ يا تونيا . هذا مستحيل ! كيف امكن ان يعود ؟

ـ لم أخبرك الا الصدق . لقد كان فى سويسرا ، ثم جال جولة كبيرة حتى بلغ لندن ، وعاد منها عن طريق فنلندا .

ـ هل تسخرين منى ياتونيا ؟ هل رأيته بعينيك ؟ أين هو ؟ الا نستطيع ان ندعوه الينا الآن على الفور ؟

ـ صبرا ! انه يقيم مع بعض معارفه فى الريف ، وقد وعد ان يعود بعد غد ، انه قد تغير كثيرا . وحين تراه ستصاب بشىء من الاسى وخيبة الامل .. لقد توقف عند عودته فى بطرسبورج وانضم الى البلاشفة ! وان الوالد ليبح صوته وهو يجادله .. يخيل الى ان أقدامنا تنغرز فى الارض كلما صعدنا درجة من السلم .. تعال . اذن أنت سمعت أيضا ان أمامنا الكثير من المتاعب ؟ ماذا يقول الناس ؟ مشاق واخطار ومخاوف ! ؟

ـ نعم ، هذا هو ظنى .. ما علينا من ذلك ، اننا سنتحمل ، وحين تقوم القيامة سنصبر ونرى ، شأننا شأن بقية الناس .

ـ يقولون اننا لن نجد الحطب او الماء او النور ، وانه سيتم الغاء النقود ، ولن تصل المؤن .. ها نحن قد وقفنا مرة أخرى . تعال ، اصعد ، انصت الى ، سمعت أنهم يبيعون الآن فى مخازن (أربات) مواقد حديدية جيدة ، مواقد صغيرة ، تستطيع باستعمال ورق الصحف كوقود لها ان تطبخ طعامك . ولدى العنوان فينبغى ان

نشترى واحدا قبل ان تنفد كلها .

ــ حسنا ، سنفعل . انها فكرة صائبة . ولكن من كان يتصور هذا الخبر عن الخال كوليا . انني لازلت اكاد لا اصدق !

ــ دعنى أخبرك بما نويت أن أفعل . اننا سنحتجز فى اعلى الدار ركنا من حجرتين أو ثلاث ، متصلة بعضها ببعض ، نقيم فيها مع الوالد وساشا و نيوشا ونتخلى عن بقية البيت ، ونقيم حاجزا فيبقى لنا باب خاص بنا ، كأننا فى طابق مستقل . ونضع الموقد الحديدى فى الحجرة الوسطى وتمر ماسورته من النافذة ، ونقوم نحن انفسنا بالغسيل والطبخ فيها ، ونجعلها كذلك حجرة الجلوس . وبذلك نوفر الوقود . ومن يدرى ؟ لعلنا بعون من الله نجتاز الشتاء .

ــ لا ريب اننا سنجتازه . لاشك فى ذلك . ماقولك فى أن نقيم حفلة صغيرة وندعو الخال كوليا ليشاركنا فى أكل البطة ؟

ــ هذا جميل ، وسأطلب من جوردون أن يأتينا بشىء من الكحول فانه يظفر به من مصادر مختلفة ، من معمل تحاليل أو شىء من هذا القبيل ، والآن انظر .. هذه هى الحجرة التى كنت أفكر فيها . هل تعجبك ؟ ضع حقيبتك ، وانزل لتأتى بالاخرى ، يمكننا أيضا ان ندعو دودوروف وشورا شليزنجر الى المأدبة التى سنقيمها . لاتمانع ؟ أليس كذلك ؟ انك لم تنس مكان دورة المياه ؟ اذهب وصب فيها قليلا من السائل المطهر . ريثما أذهب أنا الى ساشا وابعث بنيوشا الى المطبخ . وحين تعد المائدة سنناديك .

ــ ٣ ــ

• حين عاد يورى الى موسكو كان أغرب جديد صادفه هو ابنه الصغير . لقد دعى يورى الى الخدمة العسكرية فور ولادة ابنه ، ولذلك فهو يكاد لا يعرفه !

وحدث ذات يوم ، بينما كانت تونيا لاتزال فى المستشفى ، ان ذهب يورى لزيارتها ، وكان يرتدى الزى العسكرى ــ وهو على

وشك أن يغادر موسكو — ولكنه وصل ساعة ارضاع الاطفال فلم يسمح له بالدخول على ابنه !

وجلس ينتظر فى حجرة الاستراحة ، وقد ترامى اليه من حجرة الاطفال — التى تقع فى نهاية ممر بعد حجرة الولادة — صراح عشرة أو اثنى عشر طفلا يبكون معا فى وقت واحد . وأقبل عبر الممر عدد من الممرضات مسرعات لوقاية الاطفال حديثى الولادة من التعرض للبرد ، فكانت الممرضة منهن تتناول طفلا كالربطة تحت كل ذراع وتحمله الى امه .. ويعلو من الاطفال كلهم صراخ متشابه، كأنه أداء لواجب ، غير منبعث من القلب .. ثم ينفرد من بينها صوت طفل يعلو هو أيضا بصراخ ، لايدل ان مبعثه هو الالم — شأنه فى ذلك شأن الاخرين — وانما هو أشد منها حدة .. وكأنه يبكى ، لا اداء لواجب ، بل عن ثورة معلنة عمدا ضد البرد !

وكان يورى قد قرر ان يطلق على ابنه اسم الكسندر ، أو ساشا عند التدليل ، اكراما لحميه . ولامر ما خيل اليه ان الصراخ المرتفع الذى التقطته اذنه من وسط الضجة هو صوت ابنه — ولعل السبب ان هذا الصراخ ينم عن انفراد صاحبه بطبع مميز ، وانه يتضمن معالم مستقبل انسان بعينه ، يحدد شخصيته وقدره ! — بل بلغ به الخيال أن احس ان هذا الصراخ له جرس وقف عليه ، ينسجم مع اسم الكسندر الذى سيحمله !

وقد صدق قلب الاب ، اذ تبين فيما بعد أن هذا الصوت هو صوت ساشا ! وكان ذلك أول خبرة له بابنه . والخبرة التالية تمثلت فى الصورة الفوتوغرافية التى ارسلتها تونيا اليه وهو فى جبهة القتال ، لطفل ممتلىء وسيم ، فمه مرسوم كأنه قوس كيوبيد اله الحب ، يقف فوق غطاء من الصوف على ساقين منفرجتين ، رافعا معصميه ، كأنه يؤدى رقصة من رقصات الفلاحين . كان ساشا قد اتم حينئذ العام الاول من عمره وبدأ يمشى خطواته الاولى . أما اليوم فقد أتم سنتين وبدأ يتعلم النطق .

رفع يورى حقيبته ووضعها على منضدة لعب الورق الى جانب

النافذة ، وبدا فى اخراج ملابسه .. وهو يسأل نفسه : ترى لاى غرض كانت تستخدم هذه الحجرة من قبل ؟ انها لم تألفها عينه . لا جرم ان تونيا قد بدلت الاثاث أو ورق الجدران ، أو أعادت تنسيقها بصورة أخرى .

وأخرج أدوات الحلاقة .. ومن خلال أعمدة برج الاجراس فى الكنيسة المواجهة للنافذة تمام المواجهة كان يطالعه بدر مكتمل منير ، غمرت اشعته الصف الاول من ملابسه وكتبه فى الحقيبة ، فتعرف بفضله على الحجرة . انها ذات الحجرة التى كانت تستخدم فى الايام الخالية لخزن الحطب ، ولايداع المقاعد والمناضد المكسورة . وكانت « أنا » تضع فى هذه الحجرة كذلك سجلات أسرتها والحقائب التى تخزن فيها مدة الصيف ملابس الشتاء . وكانت أركان الحجرة طوال حياة « أنا » مزدحمة بسقط المتاع الذى يعلو الى السقف ، وكانت تحرم على الاولاد دخولها .

ولم يكن يرفع هذا التحريم الا فى أعياد الميلاد والفصح ، حين يستضيف البيت حشدا ضخما من الاولاد يأتون للمشاركة فى حفلات هذه الاعياد ، فيفتح لهم الطابق العلوى كله ، يلعبون فيه « عسكر وحرامية » ، ويختبئون تحت المناضد ، ويلطخون وجوههم بالفحم .. وقد أعدوا لكل لعبة لباسها .. الخ .. **وقد ظل يورى برهة واقفا يستعيد ذكرى تلك الايام ، ثم نزل من السلم الخلفى ليأخذ حقيبته الثانية .**

وفى المطبخ جلست « نيكوشا » القرفصاء امام الموقد وهى تنتف البطة على ورقة من أوراق الصحف .. فلما دخل عليها وهو يحمل حقيبته ، قفزت من مكانها فى حركة رشيقة تنم عن الخجل والحياء ، وقد تورد خدها واخذت تنفض الريش عن مئزرها وهى تحييه وتهم بتناول الحقيبة من يده .. فشكرها قائلا انه قادر على أن يحملها بنفسه ، ومضى .. فاذا بزوجه تناديه من ثالث حجرة بعد المطبخ وتقول له :

— تستطيع الآن أن تدخل يا يورى !

فدخل ليجتلى طلعة ساشا . وكانت حجرة الطفل هى التى كانت تتخذها تونيا مكتبا لها أيام الدراسة . ولم يبد له ساشا فى جمال الصورة الفوتوغرافية ، غير أنه كان يطابق فى الشبه أم يورى، المرحومة « ماريا نيكولايفنا جيفاجو » ، بل ان ملامح ساشا كانت أصدق شبها بها من أية صورة فوتوغرافية يحتفظ بها لها !

وأخذت تونيا تقول للطفل : « هذا بابا .. أبوك ! أرنا براعنك واشر له بيدك ! »

وأمالت المهد ليسهل على يورى أن يقبل طفله ويتناوله بين ذراعيه . ولعل ساشا الصغير قد خاف ونفر من هذا الغريب الكث الشعر ، فتركه يقترب منه وينحنى عليه .. ثم بذل جهده حتى قام ، تتشبث يده بثوب أمه ، وتدور اليد الاخرى بغضب ثم تهوى على وجه يورى تصفعه ! .. وأفزعته ــ هو نفسه ــ هذه الجرأة ، فارتمى فى أحضان أمه وانفجر فى بكاء مرير .

وأخذت تونيا تزجره : « ياشقى . ياشقى . لاتبك ياشاشونكا. ماذا يقول عنك بابا ؟ سيقول ان ساشا ولد سىء السلوك . أرنا الآن كيف تعطى قبلة.اعط قبلة لبابا.لا تبك ياعبيط.مم تخاف ؟ »

واخذ يورى يناشدها : « دعيه وشأنه يا تونيا ، لا داعى لهذا الانزعاج منك أو الغضب.اننى أعلم السخف الذى يجول فى خاطرك: ان الذى حدث له معناه ، فهو فأل سىء ، ولكن كل هذا هراء . انه شىء طبيعى ، فالطفل لم يرنى قط من قبل . غدا ستنتهى نظرته منى ويألفنى ، ويتوطد بيننا الوفاق .. وسترين اننا سنصبح من أعز الاصدقاء ! »

ومع ذلك فانه حين غادر الحجرة أحس بانقباض ، وشعور بنذير سوء !

— ٤ —

• أدرك يورى فى الايام القليلة التالية كم هو يعيش فى عزلة ، لا ذنب لاحد فيها ــ فى تقديره ــ وانما حقيقة الامر انه يجنى

ما زرع ! لقد تبدل اصدقاؤه بشكل عجيب ، اصبحت لهم فى نظره صورة معتمة لا لون لها . لم يحتفظ واحد منهم بسمته ولابعالمه ، فى حين أن صورتهم كما هى مرسومة فى ذاكرته تتألق واضحة المعالم ! . . لعله غالى فى الماضى فى تصويرهم لنفسه .

ولقد كان من السهل أن يطلق العنان لهذه المغالاة حين كان الوضع القائم يتيح للاثرياء أن يشبعوا نزواتهم وشذوذ طباعهم على حساب الفقراء . كانت هناك أقلية تعبث ، وترى من حقها أن تترفع عن العمل ، فى حين أن الاكثرية تكد وتشقى . هذا الوضع وحده كان يكفى لبعث الوهم بأن لكل فرد فى هذه الاقلية شخصية أصيلة وطبعا متباين الالوان يختص به وحده ، ولكن سرعان مابهتت صورتهم حين ارتفعت الطبقات الدنيا وفقد الاغنياء امتيازاتهم . ان تعجلهم فى التنازل - عن طيب خاطر وبلا ممانعة - عن عقائد ينفردون بها ويرونها وقفا عليهم ، انما يدل على انها لم تكن عقائد أصيلة يعتنقونها عن ايمان !

ولم يجد يورى لنفسه فى معاشرته للناس ملاذا يسكن اليه الا عند تونيا وأبيها واثنين أو ثلاثة من رفقائه أصبحت لهم مهن صغيرة مزجاة يقبلون عليها بعناء وتواضع ، دون أن يقيموا الدنيا ويقعدوها أو يستجلبوا الرثاء بخطب رنانة .

وأقيمت بعد أيام قلائل من عودته المأدبة الموعودة ، قوامها البطة المشربة بالخمر . ولكنه كان قد لقى من قبل اغلب المدعوين اليها ، فضاع على المأدبة وصف انها أقيمت لاول لقاء بهم بمناسبة عودته .

وكانت البطة السمينة ترفا وبذخا لايصدقهما العقل فى تلك الايام التى ساد فيها الجوع . ولكنهم لم يجدوا خبزا ليأكلوها به . ومن اجل هذا وحده فقد مذاقها بعض طعمه ، بل وجد الآكلون لحمها غير شهى . اما الخمر - وهى اندر بضاعة فى السوق السوداء - فقد جاء بها جوردون فى قنينة من قنينات الادوية عليها سدادة من الزجاج ، ضمتها تونيا الى صدرها كما تضم طفلها ، وأخذت تخلط الخمر وهى تصب منها جرعات صغيرة بمقدار من الماء

تجعله قليلا أو كثيرا حسب هواها . فكانت نسبة الكحول فى المزيج اما قوية واما ضعيفة . ولامر ما خال الشاربون انه افعل فى تخديرهم مما لو شربوا صنفا واحدا قويا . وكان هذا ايضا مبعث اسفهم وضيقهم .

ولكن أكثر شىء اثار الحزن هو أن هذه المأدبة لم تكن منسجمة مع الظروف العصيبة فى تلك الايام . فقد كان محالا أن تتصور أن جارك المقابل يصيب نفس الطعام والشراب فى عين الوقت ! ومن وراء النوافذ كانت تجثم موسكو فى الظلام جائعة ، وكأنما قد تمشى الخدر فى أوصالها .. المتاجر خاوية ، أما البط والاوز وبقية الطيور ، والفودكا ، فقد نسى الناس مجرد التفكير فيها !

وبدا أن المنهج العملى الوحيد للحياة أن يعيش الانسان كبقية الناس ، وأن تضيع حياته فى خضم حياة الآخرين ، دون أن تترك لها اثرا .. وان السعادة اذا لم تكن مقتسمة مع الغير فليست هى عين السعادة .. وكذلك فان البطة والفودكا حينما تخال أن ليس فى المدينة كلها بطة أو فودكا سواها ، تفقد عندك معناها !

وكذلك لم يجد أهل البيت فى ضيوفهم أنسا لارواحهم وطمأنينة . كانوا من قبل يستريحون الى جوردون حين كانت له أفكاره المتشائمة ، يعبر عنها بكلمات متقطعة محملة بالنذر . لقد كان أعز أصدقاء يورى ، وكان فى المدرسة تلميذا مرموقا محبوبا .. أما الآن فقد كره سليقته الماضية وآلى على نفسه ــ وان لم ينجح أبدا ــ أن يعتنق سليقة جديدة أفضل منها ، ففرض على حديثه ثوبا من الفكاهة .. يروى النادرة وراء الاخرى وهو يظنها نكتة مضحكة ، فلا يكف عن التعليق عليها بقوله : « يالها من نكتة حلوة ! يالها من نكتة مضحكة ! » .. وهى ألفاظ لاتجدها فى قاموسه ، لان نظرة جوردون الى الحياة لم تكن قط نظرة الى شىء يجد فيه البهجة والمتعة ..

وكان المجتمعون يترقبون قدوم دودوروف ، فأخذ جوردون يروى الشائعات التى أحاطت بزواجه ، ولم يكن يورى قد سمعها

من قبل ، ومنها الزعم بأن دودوروف قد انفصل عن زوجته بعد عشرة دامت سنة واحدة . وان جانب الفكاهة فى قصته ، (وهى فكاهة يستنبطونها افتعالا واعتسافا) ، يبدأ حين أتاه امر التجنيد على سبيل الخطأ ، فظل ملتحقا بالجيش الى أن يتم التحقيق فى قضيته ويصحح الخطأ . وهكذا جر على نفسه سلسلة طويلة من المتاعب ، بسبب غياب ذهنه واغفاله تحية الضباط . وظل شهورا بعد اطلاق سراحه وهو يخال انه لايرى من حواليه الا ضباطا فى زيهم العسكرى، فيرفع يده الى جبهته بالتحية، خطفا ! .. وازداد شرود ذهنه ، وكاد يفترسه الانهيار العصبى .. وتقول القصة انه قابل فى ذلك الحين فتاتين اختين فى محطة نهرية على الفولجا ، وكانت الفتاتان مسافرتين على الباخرة التى ستنقله هو أيضا، فدهمته نوبة من شرود الذهن بسبب كثرة الضباط المنتظرين فى المحطة ، يخايلونه ذهابا وايابا أمامه .. يضاف الى ذلك أثر الحرمان الذى عاناه فى خدمة الجيش ، فاذا به يجد نفسه قد وقع فريسة حب صغرى الفتاتين .. فيعرض عليها الزواج من فوره !

ويقول جوردون بعد أن يفرغ من سرد هذه القصة والشائعات : « أليست هذه حكاية مضحكة ؟ » . ولكن لسانه يلجم حين يسمع صوت بطل القصة من وراء الباب .. ودخل دودوروف عليهم !

وكان هو أيضا قد تبدل طبعه من النقيض الى النقيض . كان من قبل هوائيا كالريشة فى مهب الريح ، لايثبت ولا يستقر . اما الآن فقد أصبح دارسا منصرفا الى تحصيل العلم ، بجد واجتهاد ومثابرة .

وحين فصل دودوروف فى صباه من المدرسة ، لاشتراكه فى تهريب مسجون سياسى ، ظل يتنقل بين مدارس الفنون الجميلة واحدة بعد أخرى .. ثم انتهى به المطاف الى كلية الاداب ، ونال شهادتها أثناء الحرب ، متأخرا عن زملائه ، فاحتفظت به الكلية ليشغل منصب مدرس مادة التاريخ العام ومادة تاريخ روسيا .

وهو يؤلف الآن كتابا عن ايفان الرهيب وسياسته فى الاصلاح

الزراعى ، وكتابا آخر عن « القديس جوست » .

وأصبح من طبعه أن لايترك فى الحديث الدائر مسألة واحدة دون أن يتناولها بالشرح والتعليق . وكان له صوت هادىء ينبعث من انفه ، لايعلو به ولا يهبط ، مثبتا عينيه — كأنما هو فى حلم — على شىء أمامه ، حتى تحال أنه يلقى محاضرة .

.. وقاربت السهرة نهايتها ، وبلغت الحفلة ذروتها ، وتشابك جدل الجميع وصياحهم . وحينئذ هبطت عليهم « شورا شليزنجر » وبدأت تشاكسهم كعادتها ، فزادت من الضجة والمرح .

ومع ان دودوروف كان صديق الصبا ، الا أنه لم يكن يرفع التكليف قط حين يتحدث الى يورى . فأقبل عليه يسأله مرارا بلهجة مؤدبة عما اذا كان قد قرأ قصيدة ماياكوفسكى المسماة : « الحرب والسلام » ، وقصيدته الاخرى : « عمودى الفقرى انبوب ناى ! »

.. لكن الضجة منعته من أن يسمع اجابة يورى ، فتوجه اليه بعد برهة يسأله من جديد : « هل قرأت قصيدة : « عمودى الفقرى انبوب ناى » ، وقصيدة : « الانسان » ؟

— لقد أجبتك من قبل ولكنك لم تسمع . أن « ما ياكوفسكى » يظفر دائما باعجابى . انه امتداد لمدرسة دستويفسكى ، بل قل انه واحد من الشبان الثائرين من أبطال دستويفسكى ، خرج الى الحياة من بين جلدتى الكتاب لينظم لنا الشعر . ان لموهبته فيضا متقدا يلتهم الارواح التهاما . انه ليفصل فى الامر بكلام قاطع لا نقض فيه ولا تساهل ، يكشف به حقيقته بوضوح ، ثم هو فوق ذلك يقتنص العبرة ويقذفها بقوة فى وجه المجتمع . بل قد يتجاوزه الى عالم آخر فى الفضاء الخارجى ..

.. ولكن اكبر متعة فى الحفلة قدمها لهم بطبيعة الحال الخال كوليا . لقد أخطأت تونيا حين ظنت أنه لم يكن فى المدينة ، اذ رجع اليها يوم عاد ابن اخته ، وكان يورى قد لقيه منذ عودته اكثر من مرة ، واستنفد الاثنان مقدمات الكلام عند اللقاء بعد الغياب وشبعا من التحدث والضحك معا .



وكان اللقاء الاول فى ليلة عكرة هامدة ، يتساقط فيها من المطر رذاذ كالرماد . وقد ذهب يورى الى الفندق ليلقاه ، وكانت الفنادق قد بدأت تأبى قبول نزلاء الا بالحاح من سلطات المدينة ، ولكن نيكولاى نيكولاييفتش كانت له سمعة طيبة وظل محتفظا ببعض صلاته القديمة .

وكان الفندق أشبه شيء بمستشفى للمجاذيب تركت ادارته للمرضى انفسهم : فراغ وفوضى وارتجال ! .. ومن خلال النافذة ، فى الحجرة التى لم تجد من يكنسها ، تقع النظرة على الميدان الفسيح الذى يبعث فى القلب احساسا بالخلاء المطبق والرهبة ، كأنه ميدان يتمثله الحالم فى نومه ، لا ميدان يتجلى للعين أمام الفندق !

ووقع اللقاء على يورى وقع حادث عظيم مثير لاينسى . انه يلقى معبود طفولته ، والاستاذ الذى سيطر على عقله فى صباه .. وقد زانه الآن شعره الذى تحول الى لون الرماد ، كما انسجمت عليه

بذلته غير المحبوكة ، من تفصيل بلد أجنبى .. وكان رغم سنه محتفظا برونق الشباب وبهائه .

ولا جرم أن الحوادث الضخمة الجارية قد غيبته فى تلافيفها ، بحيث اذا قيس اليها تضاءل أمامها . ولكن لم يجل قط فى خاطر يورى أن يقيس قدره بالشبر والاصبع .

وتملكه العجب حين رأى الخال كوليا يتحدث فى معترك السياسة باطمئنان وبثقة هادئة . كان من أكثر بنى قومه احتفاظا برويته ورباطة جأشه فى تلك الايام . وخيل اليه انه بازاء طراز من الناس طارىء غير مألوف . وان هذا الطراز كان قد انقرض وعفى عليه الزمن . كل أثره أن يترك فى نفس ناظره شيئا من الحيرة والارتباك .

ولكن ما أكثر المسائل التى تملكت بسحرها زمام قلبيهما فى تلك السويعات الاولى من لقائهما . انها مسائل تختلف كل الاختلاف عن مسائل السياسة ، تلك التى جعلتهما يندفعان فى الضحك ، والنشيج ، وتبادل العناق ، وفى الحديث الى أن يلهث كل منهما وتختنق اللهفة صوته .

وكان الذى ألف بينهما أن كلا منهما له معدن الفنان الخلاق ، ومع انهما مرتبطان بصلة القربى فان الماضى قد نشر من مرقده وهب من جديد ، يجمع بينهما .. واستثيرت ذكرياتهما القديمة، وتبادلا الحديث يسأل كل منهما الآخر عن الجديد فى حياته وحوادثها وملابساتها .. وما شرعا يتناجيان بأهم ما يشغلهما — نجوى لايعرفها الا أصحاب الموهبة الفنية الخلاقة — حتى ارتفعت الفروق بينهما واختفت بقية الروابط . لم يعد الامر امر خال وابن اخت ، او شيخ وشاب ، وانما لم تبق بينهما الا قرابة واحدة : هى قرابة الفيض الروحانى لاحدهما للفيض الروحانى للآخر ، والمبادىء الاولى لهذا للمبادىء الاولى لذاك .

وقد مضت على نيكولاى نيكولاييفتش عشر سنوات لم يتحدث فيها عن مشاكل التأليف ومعنى رسالة الكاتب بمثل هذا العمق والاستيعاب ، أو مع انسان يماثله فى الافكار والمعتقدات .. ولم

يصادف يورى خلالها انسانا يلقى عنده مايظفر به الآن من فهم صادق لآرائه ، تنشط له نفسه وتجد فيه تشجيعا .

وظل الاثنان مستغرقين فى حدة الحديث يذرعان الحجرة ذهابا وايابا ، أو يقفان فى صمت عميق أمام النافذة ، ينقران على زجاجها، تهتز نفس كل منهما وتتسامى حين يرى كم تصدق بصيرة الآخر ويتجلى لهما كم يفهم الواحد الآخر فهما عميقا !

.. هكذا جرى لقاؤهما الاول ، ثم لم يتقابلا بعد ذلك الا فى حضرة الناس ، وحينئذ كانت تختفى شخصية الخال كوليا . لقد كان يشعر أنه فى موسكو ضيف عابر ، وقد سره هذا الشعور . وانه ليتساءل : هل موطنه فى بطرسبورج أو بلد آخر ؟ هذه مسألة لاتزال باقية بدون جواب قاطع . وطابت نفسه للحفاوة التى يلقاها باعتباره من رجال السياسة الذين يجدون فى الصالونات ميدانا لعرض ارائهم ، **ولعله افترض ان الصالونات السياسية قد عهدتها موسكو كما عهدت باريس صالون « مدام رولان » فى مطلع الثورة الفرنسية .**

وحين يزور صديقاته من النساء فى منازلهن المضيافة ، فى الشوارع الخلفية الهادئة من موسكو ، كان يعاتبهن وأزواجهن – فى أرق أسلوب – بسخريته من تمسكهن فى الحياة بمذهب ضيق متحجر لا يساير الزمن ، وأصبح يفخر بأن له صلات بالصحف اليومية ، كما كان يفخر من قبل بتبحره الواسع فى تاريخ الآداب والاديان .

وكان يقال عنه أنه خلف وراءه فى سويسرا مغامرة غرامية بقيت معلقة – لم تبلغ مداها – كما خلف آمالا كثيرة لم يفرغ منها ، وكتابا لم يتم تأليفه .. وانه انما عاد الى موسكو بمحض رغبته فى أن يلقى بدلوه أيضا فى خضم المعترك ، وانه يعتزم اذا ظفر بالنجاة والسلام أن ينطلق عائدا – لايتريث – الى جبال الالب التى يحبها .

وكان مشايعا للبلاشفة ، يرد على لسانه ذكر اثنين من رجال الثورة الاشتراكية ينتميان الى الجناح اليسارى ويقول انهما

يشاركانه اراءه وانهما يكتبان فى الصحف تحت توقيع مستعار ، فيتخذ الاول اسم « ميروشكا بومور » ويتخذ الاخر اسم « سيلفيا كوتيرى » .

.. ويزجره الكسندر الكسندروفيتش قائلا : « انك تغيرت بشكل مخيف ، فلقد صدعتنا بكلامك عن سخف مقالات «ميروشكا» وأشباهه ، وعن الطاقة الكبرى فى مقالات « ليديا بوكورى » !

فيجيبه « نيكولاى نيكولايفتش » مصححا الاسم : « كوتيرى لا بوكورى ، و « سيلفيا » لا ليديا ! »

ــ بوكورى أو بوتبورى ، سيان .. فما أهمية الاسم ؟

فيرد عليه نيكولاى نيكولايفتش فى اصرار وصبر : « قلت لك أن الاسم الصحيح هو كوتيرى » .

وينشب بينهما جدل طويل على النحو التالى :

ــ فيم تجادل ؟ ان الامر واضح ، بدليل ان وجهك يحمر خجلا وأنت تحاول اثباته لنا بحجج جديدة . انها بديهية أولية . لقد عاشت جموع الشعب قرونا طويلة معيشة نكراء لاتطاق . خذ أى كتاب فى التاريخ فسواء أكان النظام السائد هو نظام الاقطاع ، أو الرق ، أو الرأسمالية ، أو الصناعة ، فانه نظام غير طبيعى وغير عادل . لم يكن هذا مجهولا منذ زمن طويل ، وكانت الدنيا تعد انقلابا يحمل النور الى الشعوب ويضع كل شىء فى مكانه الذى ينبغى أن يكون فيه .

ــ أنت تعلم حق العلم أن لاجدوى من ترميم البناء القديم ، بل ينبغى اذا أردت الاصلاح أن تنزل الى الاساس العميق وتبدأ به . لست أنكر أن النتيجة قد تكون هدم البناء كله ، ولكن اى خير فى هذا ؟ ان الفزع من أن يتهدم البناء كله لايمنع انه متهدم فعلا . انها مسألة وقت ، كيف يمكن لك أن تنكر ذلك ؟

ــ ليست هذه هى المسألة ، وليس هذا هو الموضوع الذى كنت أتحدث عنه .

وفقد الكسندر الكسندروفيتش » رباطة جأشه ، واشتعل

الجدل حدة وعنفا :

ـ ان أصدقاءك أمثال « بوتبورى » و « ميروشكا » هم أناس لا ضمير لهم . انهم يقولون شيئا ويفعلون شيئا آخر ! .. وعلى أية حال فان منطقك غير سليم ، وكلامك هراء . انتظر لحظة ، سأريك شيئا . ثم يقوم ينقب عن صحيفة بها مقال يناقض رأسه ذيله ، فيفتح أدراج المكتب ويغلقها بعنف ليستمد من اضطرابه وضجته معينا لبلاغته وفصاحته !

ويحب الكسندر الكسندروفيتش ان يقطع حبل كلامه شىء يعترضه ويقف فى سبيله ، فانه يتخذ من هذه المقاطعة ذريعة تستر تلعثمه وشروده . وهو يسترد فصاحته دائما حين يبحث عن شىء أضاعه ، كأن يفتش عن فردة حذائه الواقى من الجليد فى حجرة خزن الملابس وهى معتمة .. أو حين يقف على باب الحمام وقد علق فوطة بذراعه .. أو حين يناول جيرانه على المائدة احدى صحاف الطعام .. أو حين يصب الخمر فى كؤوس أصدقائه .. الخ

وكان يورى يجد متعة فى الاستماع الى حميه ، ويحب لهجته التى يتميز بها أبناء موسكو . ان شفته العليا ـ التى بغطيها شارب قصير الشعر ـ تبرز عن شفته السفلى .. كما تبرز ربطه عنقه المنعقدة ـ فى شكل انشوطة ـ عن رقبته . وهذا التشابه بين شفته وربطة العنق يجعل شخصه ينم أحيانا عن مزاج صبيانى برىء ، يستدر العطف .

* * *

وفى ليلة المأدبة وصلت « شورا شليزنجر » متأخرة جدا . انها كانت قادمة لفورها من اجتماع ، وكانت ترتدى لباس الرجال وقبعتهم . فخطت الى الحجرة وانفجرت فى شكايات واتهامات وهى **تصافح الايدى الممتدة اليها !**

ـ كيف حالك يا تونيا ؟ كيف حالك يا الكسندر ؟ اننى ممتعضة

أشد الامتعاض . موسكو كلها تعلم أنه عاد ، كل الناس تتحدث بذلك ، ثم لا يخبرني أحد منكم بعودته ! لعلي لست جديرة باهتمامكم . أين هو صاحبنا يوري . دعوني أصل اليه . كيف حالك ؟ قد قرأت المقال . انه بديع . انني لم أفهم منه كلمة واحدة . ولكنه وليد موهبة كبرى ، يتبين لك ذلك لاول وهلة . كيف حالك يانيكولاي نيكولا يفيتش ؟ سأفرغ لك ياعزيزي يوري بعد لحظة واحدة . انني أريد أن أتحدث اليك . طبتم مساء يا أطفال . أأنت حاضر يا « جوجوشكا » يا بطة ! — (**توجه تحيتها هذه الى قريب بعيد لاسرة جروميكو ، وهو رجل ديدنه الاعجاب بكل نجم يسطع فى المجتمع ، ويطلق عليه أصدقاؤه تفكها اسم « البطة » — بسبب ضحكته البلهاء — أو اسم « الدودة » لانه طويل نحيف !**) .. أنتم أكلتم وشربتم ولكن سألحق بكم سريعا . أنتم لاتتصورون أيها الاعزاء أى شيء ضاع عليكم . انتم لا تعلمون شيئا ولم تروا شيئا . لو كنتم تعلمون بما يحدث وما يجرى فى الدنيا .. اذهبوا واحضروا اجتماعا حقيقيا للعمال ، مؤلف من عمال وجنود من لحم ودم ، لا مجرد صور مستمدة من كتاب ، فلو قام انسان يخطب فيهم مطالبا بمواصلة القتال حتى النصر ، لهتفوا له أشد الهتاف ! لقد كنت أستمع الى أحد البحارة .. آه ياعزيزي يوري ، لو كنت مكاني لاذهلتك الدهشة والعجب . ياله من حماس ! ياله من تصميم واجماع رائع !

ولم يكف الحاضرون عن مقاطعة المتحدثة ، كل منهم يرفع صوته عاليا ، ولكنها شقت طريقها الى يوري وشدت على يده ، ووجهها يقارب وجهه ، وصوتها يعلو فوق الضجة كأنه فونوغراف صاخب :

— دعني أقودك ياعزيزي يوري ، دعني أريك الشعب على حقيقته . ينبغي لك ، نعم ، ينبغي لك أن تنشق عبير الارض ، وتحس بها . لماذا تحملق الى هكذا ؟ ألا تعلم أن رأسي شاب فى الجهاد ؟ انني تلميذة جامعة (بستوزيف) (١) ، وقد دخلت السجن ، وحاربت

---

(١) هى جامعة للبنات ، أغلب طالباتها ينتمين الى الجناح اليسارى .

خلف المتاريس فى الشوارع . نعم . ماظنك بى ؟ حقا انك تجهل الشعب كل الجهل ، ولكنى قادمة من الاجتماع وكنت غارقة وسط جموع الشعب . سأفتتح لهم مكتبة عامة ينتفعون بها !

لابد أن الخمر شعشعت فى رأسها ، وكذلك كان حال يورى ، فقد أصابه الدوار . لم يلحظ قط كيف حدث أن اتخذت «شورا» مكانها فى طرف الحجرة وبقى هو فى الطرف الآخر ، ثم ألفى نفسه يقف على رأس المائدة ، متهيئا فيما يبدو — وعلى غير توقع منه — لالقاء خطبة . لكنه احتاج ان يصبر بعض الوقت حتى يسود الصمت :

« سيداتى ! سادتى !

« اننى أود .. أسكت يا ميشا . أسكت يا جوجوكشا . ماذا أفعل ياتونيا ؟ انهم لايريدون الصمت . سيداتى ! سادتى ! لى كلمة أو كلمتان . اننا على وشك أن نمر بتجربة لم تخطر لنا على بال من قبل ، ولا يصدقها العقل . فقبل أن تدهمنا ، اليكم ما أتمناه لكم : ادعو الله أن لايفقد حينئذ أحدنا الآخر ، وأن لانفقد أرواحنا. يا جوجوشكا دع الهتاف الى نهاية كلامى . اننى لم أفرغ بعد ، اقترب واستمع الى بعناية . أصبحت جموع الشعب فى هذه السنة الثالثة من الحرب تؤمن بأن الفرق بين الذين يحاربون فى جبهة القتال والذين بقوا فى المؤخرة سيزول اما عاجلا أو آجلا . **فان أنهار الدم المهراق ستفيض الى أن تبلغنا جميعا ويغوص فيها كل من تخلف عن القتال . الثورة انما هى هذا الفيضان . وحين يقع ذلك سيخيل اليكم — كما كان يخيل الينا ونحن فى الجيش — ان الحياة قد وقفت ، وأن كل فرد أصبح صفر اليدين لا يملك شيئا ، وان لاشىء يحدث فى العالم سوى القتل والموت .** ولو مد فى آجالنا الى الوقت الذى تكتب فيه المذكرات عن العهد الذى نعيش فيه الآن ويسجل تاريخه ، فاننا سنحكم من قراءة هذه المذكرات اننا مررنا فى السنوات الخمس أو العشر الاخيرة بتجارب تفوق ما مر منها ببقية الشعوب فى قرن كامل ! لا أدرى اذا كان الشعب

سيهب من تلقاء نفسه ويزحف مندفعا من فوره كالسيل العرم ، او ان كل شيء سيتم على أيدى اناس يعملون نيابة عن هذا الشعب ويتكلمون باسمه . لا مجال فى هذا الحادث الجلل لان نسأل اين وثائق التفويض ، أو أين المراسم المؤيدة للسلطة والتى تجرى فى جو من الشعور بمأساة رهيبة . اننا سنصدقهم ونودع بين أيديهم ثقتنا بهم . سيكون من الوضاعة والصغار أن ننقب عن دوافع هذه الحوادث الجسام ، بل قد لا يكون وراءها دافع ما . اننا لا نجد الا فى عراك الاسرة شيئا يسمى بداية الحادث .. فبعد ان يجذب الواحد منهم شعر الآخر ، ويحطم الاطباق ، يثوبون الى رشدهم ليسألوا من الذى بدأ الحادث. ان الحادث الجلل حقا حادث لابداية له ، ان كان لهذا العالم بداية ، اننا نصطدم فجأة بشيء كائن بيننا نعثر به ، فاذا هو يشملنا كأنه يهبط علينا من السماء !

« وانى أعتقد كذلك أن روسيا مقدر عليها أن تصبح أول دولة اشتراكية منذ بدء الخليقة ، وحين يحدث هذا سنصاب بالذهول زمنا طويلا ، فاذا ثاب الينا رشدنا بقينا مع ذلك لاندرك الامور الا نصف ادراك . **سنجد ان نصف ذكرياتنا قد انمحت ، سنكون قد نسينا ما الذى حدث اولا ، وما الذى تلاه ، ولن نسعى لمعرفة الاسباب لشيء لا تفسير له ، سيعمنا النظام الجديد وسنألفه كما نألف رؤية الغابات على الافق البعيد أو السحاب فى السماء ، سيزول كل ماعدا ذلك ولا يبقى له أثر ! »**

واستطرد يورى فأضاف الى كلامه السابق عبارة أو عبارتين ، وكان حينئذ قد أفاق من سكرته ، وتملك تمام وعيه ، ولكنه مع ذلك حين جلس لم يتبين ما يقال له .. كان يخلط فى الجواب بين سؤال وسؤال ، وأحس أن الجميع يغمرونه بمحبتهم ، ولكنه شعر بانقباض شديد يهصر قلبه . فقال :

— شكرا لكم . شكرا لكم . اننى مقدر كريم عواطفكم ، ولست جديرا بها . لا تسرفوا فى بذل حبكم ، وانما استبقوا منه لانفسكم ذخيرة تنفعكم فى المستقبل فيما لو سألت قلوبكم أن تهب حبا

يفوق ما تنطوى عليه من حب .

ارتفع الضحك والتصفيق ، فقد ظنوا انه صاغ لهم نكتة وكلاما مستملحا عن عمد ، على حين انه لم يفطن لما قاله ، اذ كان ذهنه مستغرقا فى مطالعة نذر السوء ، يتملكه شعور بالعجز عن التحكم فى المستقبل ، رغم ان قلبه متعطش أشد التعطش لعالم تسوده الطيبة ، وأن هذا القلب قادر كل القدرة على أن يعيش سعيدا .

.. ثم بدأ الضيوف فى الانصراف ، تنطق وجوههم بالاعياء ، ومعاناة السهر ، وكانوا يتثاءبون ، فاذا فتح أحدهم فكيه وأغلقهما ، بدا كأنه حصان ! وألقى أهل البيت على ضيوفهم تحية الوداع ، وهم يزيحون الستائر ويفتحون النوافذ ، وقد لاح فجر شاحب فى السماء وهى تمطر وتغطيها سحب عكرة مخضرة .. وقال أحد الضيوف : « لقد هبت زوبعة لم نفطن لها وسط ثرثرتنا . » .. فأمنت « شورا » على كلامه بقولها : « لقد دهمنى المطر وأنا قادمة ، وكادت العاصفة تلحقنى وأنا داخلة . »

وكان الظلام لايزال يغمر الشارع الجانبى ، وقطرات الماء تتساقط عن الاشجار ويختلط وقعها بزقزقة العصافير بللها المطر . ثم دوى الرعد مرة ، كأن السماء يشقها محراث ، ثم اعقبه سكون ، تلته بعد برهة زمجرة مكتومة تكررت أربع مرات ، كأن يدا تقذف فى الفضاء جسما ثقيلا .. وأضاء البرق جانبا من الحجرة المتربة المملوءة بدخان التبغ ، وفجاة لاحت — بسرعة تيار الكهرباء — عناصر الحياة : الهواء ، والماء ، والعطش الى الجذل ، والارض ، والسماء ..

وامتلأ الشارع الجانبى بأصوات الضيوف المنصرفين . كانوا قد بدأوا وهم فى الدار نقاشا لم يقطعه خروجهم للطريق .. وشيئا فشيئا خفتت الاصوات وهى تبتعد ، حتى غابت واختفت ..

وقال يورى : « لقد سهرنا طويلا . فلنذهب الى الفراش . ان كل من أحب فى هذا العالم هو انت ووالدك »

— ٥ —

• **وانقضى** شهر أغسطس ، وهذا هو شهر سبتمبر يوشك أن يلحق به ، والشتاء على الابواب .. الناس يعيشون فى جو يوحى بقدر محتوم لا مفر منه ، سيدركهم بلا ريب كما سيدرك الموت أمنا الارض اذا حل الشتاء .. والحديث عن ترقب الشتاء يجرى على كل لسان . كان لابد من خزن الطعام والحطب ، ولكن فى تلك الايام التى شهدت انتصار المذهب المادى ، انتقل التفكير من الماديات الى المعانى التى تنم عنها . لم يعد الحديث يدور عن الطعام والحطب ، بل عن مشاكل التغذية وتوفير المؤن . واسقط فى أيدى سكان المدن ، ففدوا ولا حيلة لهم ، كأنهم أطفال يواجهون المجهول !.. هذا المجهول الذى اكتسح كل العادات ، وصار لايترك خلفه الا الدمار .. (مع أن هذا المجهول هو وليد المدنية ومن صنعها !)

وبقى الناس يتحدثون ويخادعون أنفسهم ، وجهادهم اليومى فى الحياة ماض بخطى متعثرة ثقيلة الى مصيره المجهول .. **ولكن يورى رأى الامر على حقيقته وأدرك أن لا نجاة ، وأنه هو وأمثاله مكتوب عليهم ان يصرعوا محطمين ، فان أمامهم محنا ستتلقفهم .. بل لعل الذى سيتلقفهم هو الموت . ان أيامهم معدودة ، وهذه الايام تفر أمامه ، يكاد يرى فرارها رأى العين !**

وكان الذى أمسك عليه صوابه هو انشغاله بتفاصيل الحياة اليومية : بعمله ، بهمومه ، مشاغله ، وزوجته ، وابنه ، وسعيه وراء الرزق ، وطقوس مهنته التى يضمها فى اطار متواضع بلا فخفخة .. نعم ، لقد وجد فى كل أولئك نجاة لنفسه !

وادرك انه قزم ضئيل ازاء الآلة الضخمة المخيفة التى يتمثل فيها المستقبل . انه يحب المستقبل ويخشاه فى وقت واحد ! وكان يبطن اعتزازا بمقدرته على الجمع بين هاتين العاطفتين المتناقضتين .. وأخذ يلتهم ببصره ــ كأنه يلقى نظرة أخيرة أو تحية الوداع ــ الاشجار ، والسحب ، والناس ، والطرقات ، ومشاهد موسكو .. تلك المدينة

الروسية العظيمة التى تغالب المحن .. وانه لعلى استعداد لان يضحى بنفسه لتنصلح الاحوال ، ولكنه عاجز عن أن يفعل شيئا !

وكان منظر السماء والناس يأخذ عادة بمجامع قلبه حين يجتاز ميدان (أربات) ، عند تقاطعه بشارع مخزن العربات القديمة بالقرب من صيدلية الجمعية الطبية الروسية .

وكان قد استأنف عمله بنفس المستشفى الذى لايزال يحتفظ باسم « مستشفى الصليب الربانى » ، ولو أن جماعة القساوسة التى تعمل تحت هذا الاسم كانت قد حلت ، ولم يجد أحد اسما للمستشفى يفضل اسمه المذكور . وكان موظفو المستشفى قد انقسموا الى معسكرات مذهبية مختلفة : فهذا معسكر المعتدلين ، يضايقه منهم غباؤهم – أما هم فيرونه عنصرا خطيرا ! – ومعسكر الغلاة المتبحرين فى السياسة الذين يرونه لا يخلص للراية الحمراء تمام الاخلاص . لذلك لم يرض عنه لا هؤلاء ولا أولئك !

وعهد اليه المستشفى – علاوة على عمله – بأن يتولى قسم الاحصائيات ، فأصبح يمر بين يديه عدد لاينتهى من الاقرارات ، وفى اثرها عدد لاينتهى من الاستمارات التى فرض عليه أن يملأ خاناتها . فان كل شىء ينبغى أن يسجل ويرفع لاولى الامر : نسبة الوفيات ، نسبة الامراض ، بيان مرتبات موظفى المستشفى ، مستوى عقائدهم السياسية واشتراكهم فى الانتخابات ، والعجز الدائم فى الوقود والغذاء والادوية .. الخ

وصار يورى يجلس الى مكتبه القديم بجانب النافذة ، فى حجرة الاطباء . وكانت بها أكوام من الخرائط والرسوم ، من كل شكل وحجم ، أزاحها يورى الى جانب من الحجرة . **وكان يغنم أحيانا وسط العمل وقتا يكرسه لنفسه ، لا ليحرر فيه مشاهداته الطبية فحسب ، بل ليكتب مؤلفه « اقزام ورجال » ، الذى يسجل فيه مذكراته – بأسلوب ملؤه الاسى والانقباض – عن الايام التى يعيشها . وكان الكتاب يجمع بين النثر والشعر ، وتسرى فى غضونه نغمة دفينة هى وليدة شعوره بأن نصف العالم قد فقد**

كيانه ، والله أعلم أى دور أصبح يلعبه فى الحياة !

وتغمر شمس الخريف بأشعتها الذهبية اللطيفة أرجاء حجرته وجدرانها الناصعة البياض . لقد مر عيد صعود العذراء وأخذ الثلج يتجمد على سطح الارض عند الفجر . وبدأ العقعق وطيور الشتاء تندفع طائرة فى الغابات بين اشجار اصفرت أوراقها وتساقط أكثرها .. واذا السماء ترتفع فى مثل هذه الايام الى أعلى سمت لها ، وينبعث من الشمال ضوء أزرق داكن يتنفس بالبرد فيشق الهواء الشفاف بين الارض والسماء . ان كل شىء فى الوجود قد اصبح أقدر من ذى قبل على أن تستوعبه العين والاذن . كل صوت ينطلق مجلجلا فيسمع عن بعد سحيق ، وتصبح الحقول صفحة مكشوفة كأنها مسرح الحياة كلها لعدة سنين قادمة .. وما كانت النفوس لتحتمل كل هذا الاشراق لولا انه قليل العمر ، يأتى فى نهاية اليوم — وأيام الخريف قصيرة — قبل أن يحل الغسق المبكر .

وهذا هو الضوء الذى رآه يغمر حجرته ، ضوء غروب شمس مقتبل الخريف ، التى تغيب مبكرة .. ضوء لطيف براق كأنه قطر الندى ، أو كأنه التفاحة الناضجة ..

وجلس يورى الى مكتبه يجرى قلمه ثم يتريث ليفكر ويغمس سن القلم فى الحبر ، بينما تمر فى صمت أشباح طيور من وراء النافذة الطويلة فى حجرة الاطباء ، فتلقى شيئا من ظلها على يده وهى تتحرك فوق الورق ، وظلا متكاملا على المنضدة وعلى الجدران ، ثم تختفى فى صمت ..

ودخل عليه أستاذ معمل الكيمياء ، وهو رجل بدين أصابه من النحول ما أصبح معه جلده يتهدل فوق جسده طبقة وراء طبقة . وقال له : « ان أوراق الشجر قد سقطت كلها الا قليلا ، فأعجب لها كيف احتملت كل الرياح والامطار ، ثم يكفى أن يأتى صباح واحد يجمد فيه الثلج حتى يحصدها حصدا ! »

صوب يورى نظره الى النافذة ، فأدرك أن الاشباح التى خال انها طيور تمر أمام النافذة لم تكن الا أوراق الشجر ، تعلو بها

الريح عن الاغصان وتسبح فى الهواء محتفظة بارتفاعها لحظة .. ثم تهوى كأنها نجوم عسجدية ، بعيدا عن الاشجار فوق العشب ..

وسأله أستاذ المعمل : « هل أحكم سد النوافذ بالملاط ؟ »

فأجابه يورى وهو ماض فى الكتابة ! « لم يتم ذلك بعد . »

ـ الا تعتقد ان الوقت قد حان لسدها ؟

وكان يورى مستغرقا فى الكتابة ، فلم يرد عليه .. فاستمر الآخر يقول : **« خسارة كبيرة أننا فقدنا « تاراسوك » . انه كان يساوى وزنه ذهبا ، كان يرقع لك الحذاء ، ويصلح الساعة ، ويفعل كل شيء ويأتيك بأى شيء تطلبه فى هذه الدنيا .. والآن ينبغى لنا أن نتولى بأنفسنا سد النوافذ »**

ـ ليس لدينا ملاط .

ـ تستطيع أن تصنع بنفسك شيئا منه ، سأعطيك الوصفة .

وأخذ يشرح له كيف يصنع الملاط من زيت الكتان ومسحوق الطباشير ، ثم قال : « سأتركك الآن . أظنك تريد أن تنصرف الى عملك . »

وذهب الى النافذة الثانية وانحنى فوق قنيناته ونماذجه ، ثم قال بعد برهة : « انك ستؤذى عينيك ، فقد حل الظلام ولن يعطوك أى نور ، هيا نعود الى بيوتنا . »

ـ سأستمر فى العمل عشرين دقيقة أخرى .

ـ أتعلم أن زوجته تشتغل ممرضة هنا ؟

ـ زوجة من ؟

ـ زوجة تاراسوك ـ نعم أعلم .

ـ لا أحد يدرى أين هو ، انه يتنقل فى ارجاء البلاد . لقد عاد فى الخريف الماضى مرتين ليرى زوجته ، وها هو الآن يغيب من جديد . انه يعاون فى اقامة النظام الجديد للحياة . وأصبح من جنود البلشفيك ، الذين تراهم الآن فى كل مكان، يذرعون الشوارع ويزحمون القطارات . هل أقول لك شيئا عنهم ؟ خذ مثلا « تاراسوك » . انه من الذين يقال عنهم « سبع صنائع فى يده » ،

فهو اذا عمل عملا أتقنه ، ولكن ما الذى تعلمه فى الجيش ؟ تعلم القتل كما كان يتعلم من قبل أية مهنة أخرى . أصبح يجيد الرماية . ان أعصابه حسنة الانعكاسات ، والتناسق تام بين حركة عينه وحركة يده ، وقد منحوه وساما ، لا لشجاعته أو نباهته ، بل لانه لا يخطىء المرمى ! هذا ديدنه . **كل عمل يتولاه يستبد بعواطفه وحماسه ، فلا عجب أن صمم على أن يتفوق أيضا فى القتل !** أصبح يدرك معنى البندقية فى يد رجل ، انها تضفى عليه قوة وسلطانا وتميزه عن الآخرين ، فهو يريد ان يكون صاحب قوة وسلطان . والرجل الذى يحمل بندقية بيده ليس رجلا كبقية الرجال . كان هؤلاء الرجال ينقلبون فى الايام الخالية الى قطاع طرق ، ولكن جرب الآن ان تنزع البندقية من يد تاراسوك ! .. **ثم جاءت المناداة بشعار « اديروا السلاح نحو أسيادكم » ، فأطاع تاراسوك الامر ! هذه هى الحكاية كلها ، وهذه هى حقيقة الماركسية .**

ـ هذا عمل طبيعى صادق مستلهم من الحياة ذاتها . أليس كذلك ؟

وتركه الرجل ورجع الى أنابيب تجاربه الكيمائية ، ثم عاد يسأل : « كيف كان حالك مع خبير المواقد ؟ »

ـ أشكرك ان أرسلته الى . انه رجل مدهش . لقد صرفنا الساعات يتحدث معى عن « هيجل » و « كروتشى » !

ـ لا غرابة فى ذلك فقد نال شهادة الدكتوراه من جامعة (هيدلبرج) ، ولكن كيف حال الموقد ؟

ـ ليس على أحسن حال .

ـ لايزال ينبعث منه الدخان ؟

ـ باستمرار .

ـ لا شك انه لم يحكم وضع المدخنة ، فان ماسورتها ينبغى أن تمر من الحجرة الى الخارج خلال كوة ، فهل جعلها تمر من النافذة ؟

ـ لا ، بل من كوة ، ولكن انبعاث الدخان من الموقد لاينقطع .

– اذا لاريب انه لم يحسن تدبير تيار يجعل الهواء يخرج بسهولة، آه لو كان تاراسوك معنا الآن ! ولكن ثق ان الموقد سينصلح حاله فى نهاية الامر ، فان موسكو لم تبن فى يوم واحد . ان اصلاح الموقد يختلف عن العزف على البيانو ! انه يحتاج الى حذق وبراعة . هل حصلت على الحطب اللازم لك ؟

– من أين أحصل عليه ؟

– سأبعث اليك ببواب الكنيسة ، انه متخصص فى سرقة الحطب ، انه يهدم الاسوار ويهشمها الى قطع من الخشب صغيرة ، على انك ينبغى أن تساومه ، ولكن لا . . ان مصيدة الفيران تنفعك خيرا منه . .

ونزلا معا الى حجرة المشجب فلبسا معطفيهما وخرجا . وتساءل يورى : « كيف تنفعنى مصيدة الفيران ؟ ليس فى بيتنا فيران ! »

– اننى لم أتكلم عن الفيران ، بل عن الحطب . أعنى بمصيدة الفيران امرأة عجوزا لها معاملات واسعة فى الحطب جعلت منها تجارة منتظمة . انها تشترى المبنى كله من أجل خشبة . ما أشد الظلام ! احترس ، ولا تخط خطوة الا بحذر ، كنت أستطيع فى الايام الخالية أن أقودك وأنا مغمض العينين الى أى مكان فى هذا الحى ، فانى أعرف فيه كل حجر ، لاننى ولدت بالقرب منه . ولكنى منذ بدأوا يهدمون الاسوار أصبحت لا أهتدى الى طريقى حتى ولو كنت أمشى فى وضح النهار . . لكأننى فى بلد غريب ! ثم ان هناك مبان عجيبة انكشفت للعيون بعد هدم الاسوار ، ألم تلحظ ذلك ؟ منازل صغيرة من طراز العهد الامبراطورى ، كنت من قبل لايقع عليها بصرك ، وقد بقيت كما خلفها أصحابها . لاتزال أمام أبوابها مناضد خضر مستديرة ومقاعد للجلوس بالحديقة ، تتهالك وتبلى فى بستان المنزل . وقد مررت بأحد هذه المنازل ، مكان فقر على ناصية ثلاثة شوارع ، فوجدت عنده امرأة عجوزا تنقب فى الارض بعصا ، لعل عمرها قد بلغ المائة . سألتها : « يا جدتى ، هل تبحثين عن الديدان لتذهبى الى صيد السمك ؟ كنت أمزح بطبيعة الحال ، ولكنها أخذت كلامى مأخذ الجد ، وأجابت : « لا .

انني لا أبحث عن الديدان ، بل عن نبات عش الغراب . والحق ان المدينة أصبحت كالغابة تحس فيها برائحة أوراق الشجر العطنة ، والطحالب .. »

— أظن انني أعرف المنزل الذى تتحدث عنه . انه واقع على ناصية شارع الفضة وشارع الصمت . أليس كذلك ؟ ان أعجب الاشياء تصادفني حين امر هناك ، كأن أقابل رجلا لم القه منذ عشرين سنة ، أو أعثر على شىء . **ويقال انه مكان غير مأمون ، فالحارات الخلفية كأنها جحر ارانب ، متشابكة متداخلة تنتهى الى مغارة اللصوص القديمة ناحية (سمولنسكى) . وقد يحدث لك أن تجد نفسك قبل أن تفطن لمكانك قد وقعت فى يد اللصوص فجردوك من كل ثيابك وتركوك عاريا ثم لاذوا بالفرار !**

— انظر الى مصابيح الشارع ، انها لاتكاد تضىء . لا عجب ان أصبح يطلق عليها الآن من قبيل التندر اسم « غواة البطح ! » احترس أن لا تصيبك أنت أيضا بطحة بالغة .

— ٦ —

• ان حوادث عديدة تصادف يورى حقا على ناصية شارع الفضة .. فقد حدث له قبل معركة أكتوبر بقليل ، فى ليلة حالكة باردة ، أن عثر برجل يرقد فوق الرصيف ، مغمى عليه ، يرتمى جسده عند ناصية الطريق ، وقد انفرجت ذراعاه وساقاه ، ورأسه مسند الى عمود النور . ولما حاول يورى ان يوقظه أخذ يئن ويتمتم بكلمات قليلة عن دفتر كان فى جيبه ، وتبين أن اللصوص هاجموه وسرقوه ودقوا رأسه .. ولكن يورى تحقق ان عظامه بقيت سليمة . فذهب يورى الى الصيدلية فى ميدان (اربات) وطلب بالتلفون من المستشفى أن يرسل عربة الاسعاف ، وحمل الرجل الى « عنبر الحوادث » .

وتبين فيما بعد ان المصاب زعيم سياسي مشهور ، وقد عنى به



يورى وأشرف على علاجه،فأسبغ الرجل عليه فيما بعد حمايته وأنقذه من مآزق عديدة فى تلك الايام التى كانت مليئة بالريب والشكوك !

— ٧ —

• **نفذت** فكرة تونيا واحتجزت الاسرة لها ثلاث حجرات فى الطابق الاعلى لتمضية فصل الشتاء . وكان يوم الاحد يوما قارس البرد شديد الريح تغطى سماءه سحب كثيفة حبلى بالثلوج ، وكان يوم راحة ليورى لا يؤدى فيه عمله بالمستشفى .

وأشعل الموقد فى الصباح ، وبدأ ينفث الدخان . وبذلت « نيوشا » جهدها لاشعال الحطب المبتل ، وظلت تونيا ــ وهى تجهل كل شىء عن المواقد ــ ترشدها بنصائح متناقضة . وحاول يورى ــ بفضل خبرته ــ أن يتدخل ، ولكن زوجته أمسكته برفق من كتفه ودفعته خارج الحجرة ، وهى تقول له : « لا تتدخل فيما لا شأن لك به ، ستكون كمن يلقى على النار زيتا ! »

ــ نعم ، حبذا الزيت . . المصيبة ان ليس هناك زيت وليس هناك

نار !

ــ لاتمزح ! ليس هذا وقت المزاح .

وقد أفسد خلل الموقد خططهم جميعا . كان كل واحد منهم يأمل أن ينجز كل مايريد عمله فى البيت قبل أن يحل الظلام ، حتى يخلص له بقية اليوم للتمتع بحريته . ولكن موعد العشاء تأخر ، ولم تستطع تونيا أن تغسل شعرها ، وكان لامفر من التخلى عن خطط عديدة ..

وزاد الدخان أكثر فأكثر ، ولما اشتدت الريح تراجع الدخان فانبث فى داخل البيت ، لينعقد فى الحجرة فى شكل سحابة من الهباب ، كأنها وحش أسود فى عالم مسحور !

وعمد يورى أخيرا الى دفع الجميع الى الحجرتين الاخريين ، واخرج من الموقد نصف حطبه ، وصف الباقى فى صفوف متباعدة ، وضع بينها شظايا من الخشب وبعض النشارة . واندفعت الرياح الى الحجرة فاهتزت الستائر ، وانبعجت وارتفعت أذيالها فوق النوافذ ، وتناثر الورق من فوق المكتب ، وانصفق باب فى الممر باصطكاك شديد .. واخذت الرياح تطارد بقية الدخان ، كالقط يطارد فأرا ! وبدأ الحطب يشتعل ويطقطق ، وزمجرت النار فى الموقد وبرزت ألسنتها كقطع من معدن ملتهب فى حمرة وجه المريض بداء السل . وراق جو الحجرة ولطف هواؤها ، وانعقد ابخار فوق زجاج النوافذ . وكان يورى قد أحكم سدها بالملاط الذى صنعه طبقا لوصفة أستاذ معمل الكيمياء فكانت له رائحة دهنية دافئة . وانبعثت من كومة الحطب بجوار الموقد رائحة حادة نفاذة للحاء الشجر الذى شيطه قربه من النار .. رائحة مختلطة بعطر لذيذ يتنفس به الخشب الغض .

واندفع نيكولاى نيكولايفتش الى الحجرة اندفاع الريح وقال :

ــ القتال دائر فى الشوارع . ان طلبة المدرسة الحربية يحاربون دفاعا عن الحكومة المؤقتة ضد جنود الحامية الموالية للبلشفيك .

والمناوشات بينهما تجرى فى كل ارجاء المدينة ، والا يعرف عدد المراكز الرئيسية التى يتحصن فيها الجنود المتمردون . لقد تعرضت لاخطار كثيرة فى طريقى اليكم ، مرة عند شارع (ديمترونكا) الكبير ، ومرة عند بوابة (نيتسكى) ، والآن قد انقطع المرور وينبغى للسائر أن يدور دورة واسعة ليصل الى مقصده !.. تعال يا يورى، هات معطفك واخرج معى ، ينبغى لك ان تشهد ما يحدث . ان التاريخ يصنع امام اعيننا ، وهذا لا يحدث الا مرة واحدة فى العمر!

ولكنه بقى فى الحجرة يتحدث ساعتين . ثم تناولوا العشاء : ولما حان موعد اوبته الى داره ، وهم بأن يجر يورى معه ، اذا بجوردون يندفع الى الحجرة كما فعل هو ، ليحمل عين الانباء التى حملها من قبله ..

ومع ذلك كانت الحوادث قد تطورت ، فقد أخبرهم جوردون أن اطلاق الرصاص من البنادق قد تزايد ، وان بعض المارة قد قتلتهم رصاصات طائشة .. بل ان حركة المرور توقفت كل التوقف ، وقد استطاع هو الوصول الى شارع خلفى بمعجزة، ولكن الطريق سد من ورائه !

وابى نيكولاى نيكولايفتش ان يصدقه ، وخرج يعدو ، ثم مالبث أن عاد بعد برهة وجيزة يقول ان الرصاص يصفر فى الشارع فيطير نتفا من الطوب والطلاء من على الجدران ، وان حركة المرور قد توقفت .

وأصيب « ساشا » فى ذلك الاسبوع بنزلة برد ، وأخذ يورى يقول مؤنبا : « قلت ذلك مرة ، وكررته مائة مرة ، ينبغى ان لايلعب بجوار الموقد ، انه من الاسوأ له أن يتعرض لشدة النار من أن يتعرض لشدة البرد . »

والتهب حلق « ساشا » ، وارتفعت حرارته ، وكان من طبعه أن يفزع من المرض فزعا شديدا ، ولما حاول يورى أن يفحص حلقه دفع يده وكز على أسنانه وهو يصرخ ويختنق ، ولم ينفع فيه تهديد أو اغراء .. ولكنه غفل لحظة وفتح فمه واسعا ليتثاءب ،

فانتهز يورى فرصة غفلته ودس بملعقة شاى يضغط بها على لسانه حتى تسنى له ان يفحص الحلق القرمزى واللوزتين المتورمتين ، وكانت عليهما بقع بيض ، فأقلقته رؤية هذه البقع !

وأفلح بمناورة مشابهة أن يأخذ عينة من هذه البقع . واستطاع — لانه يملك ميكرسكوبا فى المنزل — أن يتأكد من أن الطفل غير مصاب بالدفتريا .

ولكن ساشا أصيب فى الليلة الثالثة بتشنج عصبى ، وارتفعت حرارته الى درجة عالية وتعذر عليه التنفس .. فأسقط فى يد يورى ، ولم يجد له حيلة فى تخفيف آلامه ، وقال لتونيا ان الطفل يحتضر ، فحمله الاثنان بالتناوب وراحا يسيران به فى الحجرة .. وبدا ان هذه الحركة نفعت الصبى ، فتحسنت حالته .

وكانوا فى حاجة الى لبن وماء الصودا من أجل ساشا ، ولكن القتال فى الشوارع كان قد بلغ ذروته ، فلم تنقطع نيران المدافع والبنادق لحظة واحدة .. وحتى لو أفلح يورى فى اختراق ساحة القتال ، مخاطرا بحياته ، فانه لن يعثر حين يجتازها على انسان واحد فى الشوارع ، فان المدينة قد كفت عن الحياة الى أن يتقرر مصير المعركة !

ولقد كان هذا المصير واضحا : فقد توالت الانباء بأن العمال مسيطرون على الموقف . وبقيت جماعات من طلبة المدرسة الحربية تقاتل ، ولكن كان بعضهم فى عزلة عن بعض ، والكل فى عزلة عن مركز قيادتهم . واحتلت وحدات من الجنود حى (سيفتسيف) وأخذت تشق طريقها الى وسط المدينة . واستطاع جنود من جبهة القتال فى ألمانيا — ومعهم شبان من العمال — أن يحفروا خندقا فى شارع جانبى ، وقبعوا فيه . ثم بدأوا بعد قليل يألفون سكان الشارع ويمازحون من يخرج منهم أمام الباب ، وبدأت الحركة تدب قليلا فى بعض أرجاء المدينة .

ودام أسر جوردون ونيكولاى نيكولايفيتش ثلاثة أيام فى منزل أسرة جيفاجو ، ثم ردت لهما حريتهما . وقد فرح يورى بلقائهما فى

المنزل أثناء مرض ساشا . وغفرت لهما تونيا زيادة الفوضى على ايديهما .. ولكنهما حسبا أن لاوسيلة لهما لرد جميل أصحاب البيت الا اذا عملا على تسليتهم بثرثرة لا تنتهى ، وقد أورثت هذه الثرثرة يورى غاية الاعياء ، وسره أن شيعهما الى الباب !

— ٨ —

• ووصلته رسالة بأن الضيفين قد وصلا الى منزليهما سالمين . ولكن كان من سبق الحكم أن يقال أن المدينة قد عمها الامن .. فلا يزال القتال دائرا فى بعض الاماكن ، ولا تزال أحياء عديدة مغلقة المنافذ . ولم يستطع يورى الذهاب الى المستشفى ، واشتاق الى عمله والى سجل مشاهداته الطبية ، والى الدفتر الذى يكتب فيه مذكراته ، (وكان قد وضعه فى درج مكتبه بحجرة الاطباء .)

وكان الناس لايبتعدون عن بيوتهم كثيرا اذا خرجوا فى الصباح وساروا قليلا ليشتروا الخبز أو ليقفوا مع حشد من الناس مجتمعين حول غريب فى يده زجاجة لبن يسألونه من أين ظفر بها !
.. ويعود اطلاق النار بين الحين والحين فى كافة أنحاء المدينة ، ويسرى القول بأن الجانبين دخلا فى مفاوضات ، وأن المدافع تزيد من طلقاتها أو تصمت تبعا للانباء التى تدل على أن هذه المفاوضات تسير فى طريق النجاح أو فى طريق الاخفاق .

وخرج يورى ذات ليلة من شهرأكتوبر (حسب التقويم القديم) ليزور أحد زملائه ، دون أن يكون هناك ما يضطره لهذه الزيارة . وكانت الشوارع مقفرة ، ولم يصادف فى طريقه انسانا ، فسار مسرعا وقد أخذ الثلج الهش يتساقط كالعثير وتتقاذفه رياح بدأت تستيقظ .

وكان يجتاز دروبا خلفية ، واحدا بعد الآخر ، حتى نسى عددها .. وبدأ الثلج يتزايد سقوطه ، واشتدت الرياح وانقلبت الى عاصفة ثلجية ، من هذه العواصف التى تصفر بين الحقول وتلقى عليها غلالة بيضاء . اما فى المدينة فهى تضطرب يمنة ويسرة كأنها فى

حيرة قد ضلت طريقها .

وكان هناك شيء من التشابه بين دنيا المعنويات ودنيا الماديات ، بين الاضطرابات القريبة والاضطرابات البعيدة ، بين مشاهدالارض ومشاهد السماء . ومن هنا وهناك ينطلق سيل من طلقات الرصاص المنبعثة من مراكز معزولة قد خفت مقاومتها . ومن فوهات المدافع تنبعث كرات من لهيب محتضر ترتفع للسماء ثم تنشق وتتبدد ، وكذلك الثلج تلفه الرياح فى كرات ترتفع هى أيضا الى السماء . بل ان الثلج فوق الاحجار المبتلة التى تطؤها قدم يورى كان ينبعث منه بخار كالدخان .

ولحق به على ناصية طريقين صبى يجرى حاملا بين ذراعيه لفة من صحف لم يجف عليها حبر المطبعة ، وهو يصيح : « آخر ساعة ! آخر ساعة ! » ، فناوله يورى قطعة من النقود وقال له : « احتفظ لك ببقيتها » ، فأخرج الصبى من اللفة - كأنما ينزع قشرتها - صحيفة ودفعها الى يده ، ثم اختفى وسط العاصفة الثلجية .

ووقف يورى تحت مصباح النور وبدأ يقرأ العناوين الضخمة ، **وكانت الصحيفة « ملحقا » صدر فى ساعة متأخرة ، مطبوعا على جانب واحد ، وقد نشر فيه الاعلان الرسمى من بطرسبورج بأنه قد تم تأليف مجلس السوفييت ، وانه قد توطدت فى روسيا سلطة السوفييت وديكتاتورية الطبقة العاملة** . ثم تلا ذلك أول مراسيم الحكومة الجديدة ، وأنباء متفرقة تلقتها الصحيفة بالتلغراف والتلفون .

لكن رياح العاصفة لاتلبث أن تلطم عيني يورى وتغطى الصحيفة بنخالة دقيقة مغبرة تخشخش ، غير أن العاصفة لم تكن هى التى صدته عن متابعة القراءة ، بل كانت الهزة التى افترست روحه .. وشعوره بطغيان تلك الحوادث الجسام على فؤاده ، وتفكيره فى عواقبها لقرون عديدة قادمة !

وكان لامناص له من متابعة القراءة على كل حال ، فأخذ يتلفت

حوله ، يبحث عن مكان أكثر ضوءا وأوفر وقاية من المطر . وعجب حين وجد نفسه واقفا مرة أخرى على ناصية شارع الفضةوشارع الصمت ، أمام منزل من خمسة أدوار ، له باب زجاجى ورواؤه ردهة حسنة الاضاءة . فدخل ووقف تحت مصباح السقف يوالى قراءة الانباء . وبلغته أصوات وقع أقدام فوق السقف ، ونزل شخص على مهل حتى وصل منتصف السلم ، ثم تريث كأنهيشاور نفسه ، ثم نكص يجرى راجعا الى الطابق الاول . **وسمع أيضا - لايدرى من أين - صرير باب يفتح ، وارتفع صوتان بصياحضاع وضوح ألفاظه بفضل الصدى الرنان ، فلم يستطع أن يفرق هل هو صوت رجل أم صوت امرأة ، ثم أغلق الباب بشدة وهبطت السلم بعزم - هذه المرة - خطى سريعة !**

وكان يورى مستغرقا فى تلاوة الصحيفة ، وليس فى عزمه أن يرفع بصره ، ولكن النازل وقف فجأة عند نهاية السلم ، فحمله ذلك على ان يرفع وجهه عن الصحيفة .

وكان الهابط صبيا فى سن الثانية عشرة ، على رأسه قبعة وعلى جسده رداء كلاهما من جلد حيوان الرنة ، وكان يلبسه ووبرهالى الخارج - كما هى العادة فى سيبريا - وكان وجهه شديد السمرة وعيناه ضيقتين كأهل ولاية (قرغيز) ، وله سمة تنم عن انه من الطبقة الارستقراطية : هذه اللمحة اللامعة الشاردة ، وهذه الرقة المتحفظة التى تنطق بالتعالى ، وهى صفات يتميز بها أحيانا من تجرى فى عروقه دماء موروثة من مزاوجة أجناس مختلفة ..

وبدا على الصبى انه حسب يورى شخصا يعرفه ، فوقف ينظر اليه فى حيرة وقد تولاه الخجل ، كأنما تبين حقيقة شخصيته فلم يجد فى نفسه الجرأة على مخاطبته . وأراد يورى أن يضع حدا لهذا الخطأ ، فصوب اليه نظرة باردة مثبطة ، جللته من رأسه الى القدم .. فاستدار الصبى وهو مرتبك حائر ، وقصد مدخل البيت حيث تريث ونظر من جديد خلفه ، قبل أن يخرج وهويدفع الباب الزجاجى وراءه بشدة !

وانصرف يورى بعد لحظات من خروج الصبى ، وذهنه منشغل بالحوادث التى قرأها . لم ينس الصبى وحده بل نسى زميله الذى كان يعتزم زيارته .. وعاد الى بيته لايلوى على شىء . ولكن ألهاه عن شجونه فى الطريق حادث آخر ، من تلك الحوادث العارضة المألوفة فى الحياة كل يوم — ولو انها كانت تتخذ فى تلك الايام أهمية مبالغا فيها — فبينما كان يورى يسير فى الظلام غير بعيد عن بيته ، عثرت قدمه بكومة من قطع الخشب ، وكان يقع فى الشارع معهد ما من معاهد الحكومة ، هو الذى يتسلم بلا ريب هذا الخشب، وكانت الدلائل تدل على أن كمية الخشب هى كل حطام منزل من منازل أطراف المدينة ، وان فناء المعهد لم يتسع للخشب كله ، فبقى بعضه على الرصيف ، يحرسه جندى يحمل بندقية ويذرع الفناء ذهابا وايابا ، ثم ينظر أحيانا خارج البوابة .

ولمعت فى ذهن يورى فكرة ، فنفذها بلا تردد : انتهز لحظة أدار فيها الحارس اليه ظهره ، وأثارت الرياح سحبا من الثلج ، فتسلل فى الظلام مجانبا نور المصباح، وخلع من قاع الكومة عرقا من الخشب جذبه بكل قوته ، وحمله فى مشقة على ظهره .. ثم مالبث أن أحس أن حمله خفيف — (فكل انسان يجد حمله خفيفا عليه) — ودلف يتستر بظل الجدران ، حتى وصل بغنيمته سالمة الى الدار !

وكان قدومه فى أوانه ، اذ كانت ذخيرتهم من الحطب قد نفدت، فقطع العرق قطعا صغيرة جعل منها كومة ، ثم أشعل يورى الموقد وجلس أمامه القرفصاء فى صمت .. على حين دفع الكسندر الكسندريفيتش مقعده الكبير الى جانب الموقد يلتمس عنده الدفء .

وأخرج يورى الصحيفة من جيبه ومد بها يده اليه ، قائلا : « هل رأيت هذا ؟ انها أخبار هامة ، ألق عليها نظرة . »

وظل يورى جالسا القرفصاء ، يقلب الحطب فى الموقد .. وطفق يتكلم كأنه يناجى نفسه :

— يالها من جراحة ! تمسك مشرطا وتقطع كل خلية خبيثة عفنة .. بكل بساطة وبلا حماقة .. **تمسك بصنم الظلم ، وهو**

وحش مخيف قديم ، ألف طوال القرون أن تنحنى له الجباه وتلمس يداه وتؤدى له مراسم التبجيل والتوقير .. تمسكه وتحكم عليه بالاعدام ! هذه الجراة وهذا المضى فى الامر الى غايته هما من خصائص الطبع الروسى ، تجدهما فى مؤلفات « بوشكين » حين يمضى الى غايته لايتلفت ، مندفعا كالشهاب .. وفى مؤلفات تولستوى حيث ترى ايمانه الجرىء بالحقائق لا بالاوهام !

فقاطعه الكسندر الكسندريفيتش ، وقد حسب الكلام موجها اليه : « ذكرت بوشكين ؟ انتظر لحظة حتى أفرغ من الصحيفة ، فانى لا أستطيع أن أقرأ وان انصت فى آن واحد ! »

واستمر يورى فى مناجاته : « وهاك دليلا على نبوغ من تولى هذا الامر . افترض انك قلت لانسان أن يمضى فيبنى عالما جديدا ، ويبدأ عهدا جديدا ، فانه لابد سوف يسألك قبل كل شىء أن تتاح له مساحة خالية يتحرك فيها . وسينتظر أن تلفظ القرون السابقة أنفاسها الاخيرة حتى يتأتى له أن يبدأ فى بناء العالم الجديد ، انه يريد أن يسجل — كالتاجر فى دفتره — حساب ماله وما عليه ، على صفحة بيضاء ، بأرقام صحيحة . ولكن كل ذلك لا يبالى به أحد هنا عندنا ، حيث يقال : « هذا هو صنع أيدينا ، خذه أو دعه ! » .. ان هذا الشىء الجديد ، هذه الاعجوبة من أعاجيب التاريخ ، هذا الكشف الخارق ، قد انفجر وسط تيار الحياة اليومية دون أن يبالى بسيرها أو يبدأ من البداية ، وانما هو يبدأ من الوسط لا يؤخره تمهل أو تريث . ينفجر فى اليوم الذى يصادفه ، ايا كان ذلك اليوم ، وفى الساعة التى تصادفه ، حتى ولو كانت ساعة زحمة انصراف الناس عن عملهم ! .. هذا هو النبوغ بحق ، وان العظمة بحق هى التى تغض النظر عن تقدير مناسبة الزمان والمكان!

— ٩ —

• **وأقبل الشتاء** ، نفس الشتاء المألوف المتوقع . لم يكن شتاء مخيفا مثل شتاء السنتين اللاحقتين ، ولكنه كان مع ذلك من نوعهما .

أيام سود ، من جوع وبرد ، تنفق فى مراقبة تحطيم كل ما كان مألوفا من قبل ، وتغيير كل أسس الحياة .. وفى بذل جهود غير انسانية للقبض على ناصية الحياة وهى تفلت من بين أصابعك !

ثلاثة فصول شتاء ، متتابعة ، رهيبة ! .. وليست جميع الاحداث التى يبدو اليوم انها حدثت فى شتاء (١٩١٧ - ١٩١٨) قد حدثت بالفعل فى ذلك الشتاء ، فان بعضها قد يكون حدث فى شتاء تال .. ولكن تلك الفصول الثلاثة المتتابعة قد اختلطت الآن فى الذاكرة ، بعضها ببعض ، بحيث صار من العسير التفريق بينها !

ولم تكن هناك بعد أية لحمة بين النظام القديم والعهد الجديد ، اذ لم يكن الصراع بينهما قد بلغ أقصى حدته - شأن الصراع المتلاحم بين الخناجر المشرعة - كما حدث حينما قامت الحرب الاهلية بعد عام .. ذلك ان الروابط بينهما لم تكن كافية .. وكأننا كنا بازاء لعبة الصورة الواحدة التى قطعت الى أجزاء صغيرة وخلط بينها ، حتى أصبح أصل الصورة لغزا مبهما ، وبات المطلوب حل هذا اللغز باعادة تركيبها كما كانت ! .. **فلقد كان المظنون ان النظام القديم نصف للصورة ، والعهد الجديد نصفها الآخر ، ومع ذلك فعندما وضع أحدهما بجوار الآخر لم يتطابقا ، ولم تنطق الصورة بمعنى !**

.. وفى كل مكان باتت تجرى انتخابات جديدة ، للمشرفين على نظام الاسكان ، والتجارة ، والصناعة ، وشئون البلديات ..وصار يختار لكل منصب قوميسار .. رجال يلبسون سترة من جلد أسود ، لهم سلطة لاحد لها ، وارادة من حديد. .سلاحهم الارهاب والمسدس ! .. لايحلقون لحاهم الا قليلا ، ولا يكادون ينامون ! .. وكانوا يعرفون طبقة البورجوازيين المتخفين ، وطبقة متوسطى الحال من حملة الاسهم الحكومية الرخيصة ، فعاملوهم دون أدنى رحمة - وقد ارتسمت على شفاههم ابتسامة ابليس - كما يعامل أحقر اللصوص حين يضبطون متلبسين !

أولئك كانوا رجال الحكومة الذين أعادوا تنظيم كل شىء طبقا

للخطة الجديدة ، ف « بلشفوا » الشركة بعد الشركة ، والمؤسسة فى اثر المؤسسة .. وأصبح مستشفى الصليب الربانى يسمى « المستشفى المستصلح الثانى » . وتغيرت فيه معالم كثيرة : فصلت طائفة من موظفيه .. واستقالت طائفة أخرى ، حين وجدت المرتبات غير مجزية .. !

وكان بالمستشفى أطباء لهم عيادات أنيقة يؤمها الموسرون ، أجورهم مرتفعة ولسانهم ذرب ، يحيطهم مجتمعهم بالاعزاز والتدليل ، تركوا المستشفى سعيا وراء منفعتهم وان زعموا انهم تركوه احتجاجا على الاوضاع التى لم يقبلوها ! .. ثم أخذوا ينظرون شزرا الى من بقى بالمستشفى من الاطباء . وكان «يورى» من طائفة الباقين !

وفى الامسيات، كانت تجرى بين يورى وتونيا أمثال هذا الحديث:

ـ لاتنسى يوم الاربعاء ، فى مبنى اتحاد الاطباء . سوف يعدون لنا فى القبو كيسين من البطاطس المحفوظة بالثلاجات ، وسأخبرك عن الوقت الذى يرخص لى فيه بالانصراف . ينبغى أن نذهب معا ونأخذ الزحافة لحمل الكيسين .

ـ لاتقلق يا عزيزى ، لايزال أمامنا متسع من الوقت . لماذا لا تأوى الآن لفراشك ؟ ان الوقت متأخر ، وأود لك أن تستريح . انك لا تستطيع أن تفعل كل شىء بنفسك !

ـ لقد انتشرت الاوبئة كما تعلمين .. والاعياء يضعف من القدرة على مقاومة الامراض . اننى اراك أنت ووالدك فى صحة سيئة جدا . ينبغى أن نفعل شيئا . ليتنى أدرى ما الذى ينبغى أن نفعله ! اننا لانعنى بأنفسنا العناية الكافية . أتسمعين ياتونيا ؟ هل غلبك النوم ؟

ـ كلا .

ـ أنا لا يقلقنى أمر نفسى ، فان لى سبع أرواح .. ولكن اذا فرض وأصابنى الوباء ، فحذار أن تفقدى رباطة جأشك . هل تعديننى بذلك ؟ .. وينبغى عندئذ أن لاتستبقينى فى الدار ، بل

يجب ارسالى الى المستشفى فورا .

ــ دعك من هذا الكلام يا عزيزى ، أدعو الله لك بالصحة والعافية .. وعلى كل ، فاننا سنجتاز المآزق حين تصادفنا !

ــ تذكرى ! لم يبق أناس شرفاء ، لو أصدقاء ! .. بل لم يبق أحد يعرف حاضره أو مصيره ! .. فاذا حدث حادث ، فحذار أن تثقى بأحد سوى « بيتشوزكين » ــ اذا كان مايزال يومئذ على قيد الحياة ! ــ هل غلبك النوم ؟ ان المرتبات الجديدة لم تعجب هؤلاء السادة، فانصرفوا، والآن يزعمون ان لهم مبادىء ، وعندهم غيرة على حقوقهم كمواطنين ! انهم اذا قابلوا أحدنا فى الطريق لا يتكرمون بمصافحته ، بل غاية تحيتهم له اشارة من حاجب !.. وكأنى بهم يسألوننى ساخرين : « هكذا رضيت ان يستخدمك هؤلاء الناس ؟ » .. فأجيبهم : « نعم ، اذا كان هذا الامر لايسوؤكم . اننى فخور بالحرمان ، وانى أحترم هؤلاء الذين أنالونى شرف تحمل هذا الحرمان الذى فرضوه علينا »

ــ ١٠ ــ

• **وكان** طعام أغلب الناس مقصورا على حبوب « الدخن » المسلوقة وحساء رؤوس سمك الرنجة ــ ثم السمك نفسه ، بلا رؤوس ، كطبق ثان ــ وكانوا يأكلون أحيانا ثريدا من حنطة أو شعير مسلوق . وكان مفروغا منه ان الناس لن يجدوا طعاما لهم غير هذا لزمن طويل !

وتدربت تونيا ــ على يد معلمة صديقة لها ــ على كيفية عجن الخبز فى الموقد الهولندى . وكان القصد من ذلك أن تبيع جانبا من الخبز وتشترى بثمنه حطبا للموقد الكبير تستخدمه ــ كما فى الايام الخوالى ــ بدلا من جهاز الطبخ الحديدى الذى لم ينقطع عن نفث الدخان ، والذى لا تشتد فيه النار .

وقد أجادت تونيا صنع الخبز ، ولكنها لم تحسن البيع والشراء .. فكان لامفر من أن تعود للجهاز الحديدى اللعين .. وأصبح

حالهم حقا سيئا للغاية !

وذات صباح ارتدت تونيا ، بعد ان خرج يورى الى المستشفى ، معطفها الشتوى البالى ، الذى نسل قماشه و رق ، حتى باتت ترتجف فيه من البرد ولو كان الجو دافئا ! .. وخرجت «تصطاد» حطبا ، بعد اذ لم يبق فى البيت الا قطعتان منه !

.. وسارت على غير هدى فى دروب الحى ، حيث قد يصادف المرء فلاحا من احدى القرى الواقعة خارج موسكو ، جاء ليبيع البطاطس أو الخضراوات . فان الفلاح اذا سار بأحماله فى الشوارع الرئيسية يتعرض لان يقبض عليه !

وسرعان ما عثرت تونيا على بغيتها .. صادفت شابا ضخم الجسم يرتدى معطف الفلاحين ، ولم يلبث ان عاد معها يجر وراءه الزحافة كأنها العوبة فى يده ، ثم تبعها بحذر الى الفناء .

وفى الزحافة — تحت غطاء من الخيش — كان فتات حطب من شجر هش ، وكانت تونيا تعرف قيمة هذا الحطب الخسيس . فقد وجدته رطبا حديث العهد بالقطع ، لايصلح للوقود .. ولكن لم يكن لها خيار .. كان من العبث أن تجادل أو تساوم !

وحمل الشاب من الحطب ملء ذراعيه ، خمس أو ست مرات ، الى حجرة الجلوس .. وفى النهاية أخذ مقابل ذلك صوان تونيا الصغير ، الذى كانت أبوابه مغطاة بمرآة ، فرفعه وربطه فوق زحافته ثم غطاه ، ليحمله هدية الى زوجته ! .. **وقبل أن ينصرف ذكر تلميحا أن لديه كمية من البطاطس ، وسأل عن ثمن البيانو الذى رآه فى المنزل !**

وحين عاد يورى الى الدار ، لم يقل شيئا عن صفقة تونيا . كان من الاحجى أن يهشم الصوان نفسه ويستخدم خشبه .. ولكن كان من العسير على النفس ان يحطموا الصوان بأيديهم !

وقالت له تونيا : « على المنضدة رسالة لك وصلت أخيرا . هل رأيتها ؟ »

— أهى الرسالة التى بعث بها المستشفى ؟ نعم ، بلغنى خبرها .

انهم يطلبوننى لعيادة مريض ، وسأذهب بلا ريب ، غير أنى أريد أن أصيب شيئا من الراحة قبل أن اذهب . فالمريض يسكن بعيدا فى جهة ما بالقرب من قوس النصر ، ولدى العنوان .

ـ هل عرفت الاجر الذى يعرضونه عليك ؟ خير لك أن تقرأها بعناية . الاجر هو « زجاجة كونياك ألمانى ، أو زوج من الجوارب »! .. أى جنس من الناس هم ؟ هل جال ذلك بخاطرك ؟ انهم لايدركون فيما يبدو أى حياة نحياها هذه الايام . يظنوننا « أغنياء حرب » ومحدثى نعمة !

ـ لاشك أن الاجر مأخوذ من « مورد » .

.. موردون ، وملتزمون ، ووكلاء ! .. أسماء صارت تطلق على مؤسسات صغيرة أهلية تعاقدت مع الحكومة لمدها بمؤن مختلفة.. فقد ألغت الدولة نظام التجارة الفردية ، وان سمحت لهذه المؤسسات ببعض التسهيلات فى أيام الازمات الاقتصادية !

ولم يكن على رأس هذه المؤسسات رجال كانوا من قبل أرباب نعمة ، أو تولوا رياسة مؤسسات ثم فصلوا من عملهم ـ فمثل هؤلاء الناس لايستغيثون من الضربة التى يترنحون من وقعها ـ بل كان على رأسها رجال أعمال من فئة جديدة .. رجال « بلا جذور » .. بل حثالة طفت على السطح بفضل الحرب والثورة !

وشرب يورى قدرا من الماء المغلى المحلى بالسكر الصناعى ـ السكارين ـ وعليه قليل من اللبن .. ثم مضى ليعود مريضه .

وكانت الثلوج الكثيفة تغطى الشوارع من الرصيف الى الرصيف، وترتفع فى بعض الاماكن الى مستوى نوافذ الطابق الاول ! .. وهنا وهناك ، تطوف بها أشباح صامتة ، بين الحياة والموت ، تحمل نزرا يسيرا من الطعام ، أو تجره على زحافة . ولم تكن هناك وسائل نقل متوفرة .

وكانت بعض الحوانيت لاتزال محتفظة بلافتاتها القديمة ـ وان لم تبق صلة بين ماتعلن عنه هذه اللافتات وبين ما تتجر فيه الجمعيات التعاونية التى احتلت تلك الحوانيت . فلقد كانت هذه

الحوانيت جميعا فارغة ، خاوية على عروشها ، بل ومغلقة .. ونوافذها موصدة بالاعمدة الحديدية أو العوارض الخشبية !

ولم يكن السبب فى فراغ هذه الحوانيت وغلقها انه لم تكن هناك بضائع ، وانما كان السبب أن خطط تنظيم كل جوانب الحياة ـ بما فى ذلك التجارة ـ بقيت حتى ذلك اليوم حبرا على الورق ، ولم تتناول تفصيلات « ثانوية » كتموين هذه الحوانيت الموصدة الابواب !

— ١١ —

• **ووجد** يورى البيت فى نهاية شارع (برست) ، بالقرب من بوابة (تفير) . وكان بيتا مبنيا بالقرميد حول فناء ، كثكنات الجنود . وكان يتسلق جدرانه ، ويدور معها ، سلم خشبى غير مكشوف .

وكان نزلاء البيت يعقدون اجتماعهم العام الذى كان قد تحدد موعده قبل زمن طويل، وحضرته امرأة مندوبة من مجلس السوفييت الخاص بالضاحية . وجاءت لجنة عسكرية لتراجع رخص حمل السلاح وتنقب عن السلاح غير المرخص به ، فأشارت على النزلاء بأن يعودوا الى مساكنهم انتظارا لدورهم . ولكن رئيس اللجنة طلب الى أعضاء مجلس السوفييت ان لا ينصرفوا ، اذ ان التنقيب عن السلاح لن يستغرق وقتا طويلا ، ويمكنهم بعد ذلك استئناف الاجتماع .

وعندما وصل يورى ، كانت اللجنة العسكرية تكاد تفرغ من التنقيب، الا انها لم تكن قد مرت بعد بالطابق الذى يقصده . وأوقفه على مصطبة الطابق جندى يحمل بندقية ، ولكن رئيس اللجنة سمع جدالهما فأمر بأن يؤجل التنقيب حتى ينجز الطبيب عيادة مريضه .

وفتح الباب رب الاسرة : فتى مؤدب ، له وجه شاحب زيتونى ، وعيون سود حزينة . انه مستثار اللب بسبب أشياء كثيرة : مرض زوجته ، وهذا التنقيب الموجه اليه ، ومجىء طبيب ينبغى له الاحتفاء به لانه يكن احتراما عميقا للطب والاطباء .

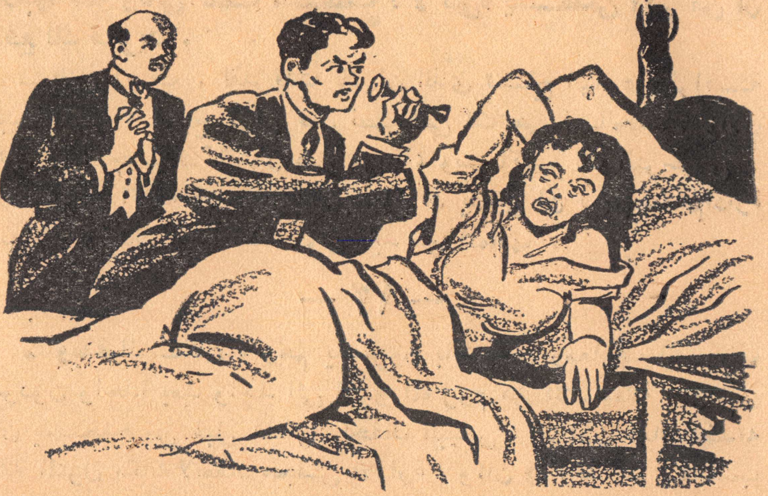
ورغب أن يقدم للطبيب ـ توفيرا للوقت والعناء ـ ملخصا قصيرا عن الحالة ، ولكن عجلته جعلت كلامه غير مفهوم وغير مرتبط بعضه ببعض !

ورأى يورى مسكنا يجمع بين ملامح البيوت الفخمة والشقق الارضية الرخيصة . أغلب أثاثه تم شراؤه على عجل ، كتوظيف أمين للنقود خشية أن يبتلعها التضخم المالى . وكان الاثاث مكونا من أجزاء متفرقة من أطقم كانت من قبل متكاملة ، ومن أشياء فرادى لاعلاقة بين احدها والآخر، وكان لها فى الاصل توأم مماثل.

وكان الفتى مؤمنا بأن علة زوجته مرجعها صدمة عصبية . فراح يشرح ليورى ـ بكلام كان يسترسل فيه مرارا الى مواضيع أخرى دخيلة ـ كيف انهما اشتريا ساعة أثرية تعلن الوقت بعزف لحن راقص . وكانت الساعة معطلة تستعصى على الاصلاح ، فاشترياها بثمن بخس ، لا لشىء الا لانها مثال رائع للفن فى صناعة الساعات ، (وقاد الفتى يورى الى حجرة مجاورة ليرى هذه الساعة) . **وكانت هذه الساعة لم تملأ يد الزنبرك فيها منذ عهد طويل ، واذا بها تدق فجأة وتعزف هذا اللحن الراقص ، ثم تخرس ! .. فأصاب الزوجة الرعب وآمنت أنه نذير بأن ساعتها الاخيرة قد دقت .. وها هى الآن راقدة تهذى ، لاتعرف زوجها ، ولا تأكل ولا تشرب !**

وسأله يورى بلهجة تنم عن الشك : « أتظن انها صدمة عصبية ؟ هل أستطيع أن أراها ؟ »

ودخلا حجرة أخرى يتدلى من سقفها مصباح من القيشانى ، وفيها فراش عريض مزدوج ، على جانبيه منضدة من خشب (الماهوجنى) . وكانت ترقد على حافة الفراش امرأة ضئيلة الجسم لها عيون سود واسعة ، يغطيها اللحاف حتى ذقنها ، وحين رأتهما أخرجت ذراعا من تحت الغطاء وأشارت لهما بأن يغربا عن وجهها. وانسدل كم قميصها فانكشف ابطها، ثم بدأت ـ كأنها منفردة وحدها فى الحجرة ـ تنشد بصوت خفيض شيئا يشبه أغنية حزينة ،



حركت أشجانها فبكت منهنهة كالطفل ، تبتهل ان يعيدوها الى البيت ! .. ولما اقترب منها يورى أدارت له ظهرها ورفضت أن يلمسها .. فقال يورى : « ينبغى لى أن أفحصها ، ولو أن الامر بين واضح . انها مريضة بالتيفوس ، وعلتها شديدة ، يااللمسكينة ! لاجرم انها تحس بأنها فى ضنك شديد ، ونصيحتى لك أن تودعها أحد المستشفيات . اننى أعلم أنك تعنى بهافى البيت وتوفر لها كل ماتحتاج اليه ، ولكن من المهم جدا أن تخضع فى الاسابيع الاولى لمراقبة طبية لاتنقطع . هل فى وسعك أن تظفر باحدى وسائل النقل ، بعربة خيل أو حتى بعربة يد ؟ وينبغى بطبيعة الحال أن يلف جسدها بدثار ، وسأعطيك ترخيصا لها بدخول المستشفى .

ــ سأحاول .، ولكن انتظر لحظة . هل تظن أن هذا هو مرضها حقا ؟ انه شىء فظيع !

ــ نعم ، يؤسفنى ان هذه هى حقيقة مرضها .

ــ انا أعلم اننى سأفقدها اذا ذهبت ، أليس فى امكانك أن تباشر

علاجها هنا وتأتى كلما استطعت ؟ لا شىء يسعدنى أكثر من ان أدفع لك ماتريد .

— اننى آسف . لقد قلت لك ان الذى تحتاج اليه هو مراقبة طبية دائمة ، فاتبع قولى فان نصيحتى لك هى لصالحك . والآن ابذل غاية جهدك للعثور على عربة ، وسأكتب لك الترخيص . وأفضل أن أكتبه فى حجرة الاجتماع اذ ينبغى أن يمهر بخاتم ادارة المنزل ، وهناك اجراءات أخرى لابد من اتمامها .

— ١٢ —

• وبدأ السكان ، وهم يتدثرون بالشيلان ومعاطف الفرو ، يعودون واحدا بعد واحد الى القبو المحروم من التدفئة ، والذى كان يستخدم من قبل كمخزن لحفظ البيض ، أما الآن فقد اتخذته لجنة المنزل مكانا لانعقاد مجلس الادارة ! وكان فى أحد جوانبه مكتب وعدد من الكراسى لا يكفى للجميع ، فضمت اليها أقفاص البيض الفارغة اذ قلبت رأسا على عقب ورتبت جنبا الى جنب . . وكانت بقية الاقفاص قد كومت فى جانب الحجرة حتى بلغت السقف ، وفى ركن آخر أكوام من نشارة الخشب تجمعت فى كتل صغيرة حين اختلطت بالصفار الذى تساقط من البيض المكسور . وكانت تجوس خلال الاكوام فيران تخشخش ، ثم تنفلت أحيانا فتجرى الى وسط الحجرة التى غطيت أرضها بالبلاط ثم تفر راجعة . وكلما حدث ذلك صرخت من بين سكان البيت امرأة بدينة وقفزت فوق صندوق ، وهى ترفع اذيال ثوبها بتأنق وتدقدق على الخشب بكعب حذائها الفاخر وتصيح بصوت مخمور أجش تصطنعه افتعالا :

— يا أوليا . يا أوليا ! ان الفيران قد ملأت البيت كله ! ابتعدى عنى أيتها الوحوش الضارية القذرة . أى . أى . أى . انظروا اليها . انها تفهم ، يالشناعة ، أنظروا كيف تبرز أسنانها الخبيثة استعدادا للطعن والنهش . أى . أى . أى . انها تحاول الصعود والاندساس تحت ثيابى ، اننى مرتعبة . أديروا ابصاركم أيها

السادة ، عفوا ، اننى آسفة ، لقد نسيت اننا رفقاء الآن .. لاسيد ولا مسود ..

وكان معطفها من فراء (الاستراخان) ينشق عن ذقن مزدوج متهدل لحمه فى طيات ثلاث راحت ترتعش وهى توقوق كالبطة ، كما انشق عن ثدى ممتلىء وبطن ضخم رافلين فى الحرير . كانت المرأة من قبل ملكة جمال فى حلقة خلابة تتألف من صغار التجار وكتبة الحوانيت ، أما الآن فان عيونها الضيقة - كعيون الخنازير - لاتزيد عن شق بين أجفانها المتورمة ! فلقد حاولت غريمة لها أن تقذفها مرة بماء النار ، ولكنها أخطأتها ، فلم تقع على وجهها الا نقطة أو نقطتان حفرت لها شقوقا هينة ، حتى ليصح القول انها أضفت عليها شيئا من الجمال كأنها طابع الحسن ، بعضها على خدها وبعضها على جانب من فمها .

وقالت لها المرأة مندوبة مجلس الضاحية ، وكان قد تم انتخابها رئيسة لمجلس الادارة واتخذت مجلسها وراء المكتب :

- كفى عن الصياح يا « كرابوجينا » !

وكانت هذه المرأة المندوبة تعرف المنزل من قبل وتعرف الكثيرين من سكانه ، طوال حياتها ، وكان قد جرى لها قبل الاجتماع حديث غير رسمى مع العمة « فاتيما » خادمة المنزل التى سبق لها ان عاشت مع زوجها وأولادها فى ركن من هذا القبو القذر ثم أصبحت الآن تعيش مع بنت واحدة فنقل مسكنها الى الطابق الاول فى حجرتين يدخلهما الضوء .

سألتها المندوبة : « كيف الاحوال » .. فبدأت « فاتيما » تشكو من انها لا تستطيع أن تنهض بمفردها بعبء منزل كبير كهذا المنزل وسكانه العديدين ، وانها لا تجد عونا من أحد ، فالمفروض ان السكان تتناوب كل أسرة منهم فى تنظيف السلم ودرجات الباب ، ولكن أحدا منهم لايقوم بواجبه .

- صبرا يا فاتيما ، لا تقلقى ، سنريهم ! أى لجنة هذه ؟ انهم لا خير فيهم . ان بعض المجرمين يجدون لهم مأوى ويظل آخرون

– مشكوك فى أخلاقهم – غير مسجلين . سنتخلص منهم جميعا وسننتخب لجنة أخرى وسأجعلك مديرة للمنزل ، ولكن بشرط ان تكتمى السر !

فالتمست منها العمة فاتيما أن تعفيها ، ولكن المندوبة رفضت أن تصغى اليها .. وجالت بنظراتها فى أرجاء الحجرة ، ثم قررت أن فى الحاضرين كفاية لعقد الاجتماع ، وطلبت منهم الصمت . وافتتحت الجلسة بخطبة قصيرة جعلتها بمثابة مقدمة ، ثم نعت على لجنة المنزل تقاعسها واهمالها ، وطلبت الى من شاء منهم أن يرشح نفسه عضوا فى اللجنة الجديدة ، ثم انتقلت الى مواضيع اخرى . وفى ختام كلمتها قالت وكأنما لم تعد كلامها من قبل :

– هذا هو الامر يا رفاق . ينبغى الاعتراف بصراحة ان هذا المنزل كبير ، انه يصلح فندقا . انظروا الى كل هؤلاء المندوبين الذين يأتون الى المدينة للاشتراك فى المؤتمرات ، اننا لا ندرى أين نؤويهم . لذلك تقرر الاستيلاء على هذا المنزل ليكون فندقا لاعضاء مجالس الضواحى وللزوار القادمين من الاقاليم . وتقرر أيضا أن يطلق عليه اسم (فندق تيفرزين) ، تخليدا لذكرى الرفيق تيفرزين الذى كان يسكن فى هذا المنزل قبل نفيه ، كما تعلمون كلكم . هل هناك اعتراض ؟ والآن أنتقل الى الكلام عن موعد الاستيلاء . لاداعى للعجلة . أمامكم عام كامل . سنوفر للعمال منكم مسكنا ، وعلى الآخرين أن يبحثوا بأنفسهم لانفسهم عن مكان يأويهم ، وأمامهم مهلة عام كامل .

.. وتعالى الصياح من كل جانب : « كلنا عمال .. كل واحد منا .. كلنا عمال ! » .. وارتفع صوت بالبكاء : « هذا تعصب شديد لقوم دون قوم »

– وهذا هو طبعنا من قديم : الدس ! كل الاقوام متساوية الآن ، اننى أعرف من تقصدين !

– من فضلكم ، لاتتكلموا جميعا فى آن واحد . على من أجيب أولا ؟ أيها الرفيق « فالدركين » : مادخل القوميات هنا ؟ أنظر الى

كرابوجينا . انك لاتزعم ان القومية كان لها دخل فى تقرير وضعها ، ولسوف نخرجها ولا ريب من المنزل » . فصاحت كرابوجينا : « أنت فاعلة ؟ . أرينى قدرتك ! يا عجوز ياحيزبون .. » .. وانهالت عليها بشتائم أخرى ، ثم التفتت الى الحاضرين تستنجد بهم وتناديهم بأسماء تدليل مضحكة وافتها فى حدة العراك !

فقالت العمة « فاتيما » غاضبة :

ــ يالك من شيطان ! ألا تخجلين ؟

وقالت المندوبة : « لاتتدخلى يافاتيما . اننى أعرف كيف أدبر أمر نفسى ، كفى ياكرابوجينا . اننى أعرف كل شيء عنك . ألجمى لسانك والا سلمتك للسلطات على الفور ، قبل أن يقبضوا عليك بتهمة صنع الفودكا سرا وجعل مسكنك مغارة للصوص ! »

وكانت الضجة قد بلغت ذروتها حين دخل يورى الى الحجرة وسأل أول انسان رضى أن ينصت اليه أن يدله على أحد اعضاء لجنة المنزل ، فاذا بالرجل يضع كفه حول فمه ، كبوق النفير ، ويصيح بصوت يعلو على الضجة :

ــ « جا .. ليو .. لينا » . تعالى هنا .

ولم يستطع يورى أن يصدق أذنيه ، فقد أقبلت على نداء هذا الاسم ــ وهو اسم تدليل للنساء ــ امرأة نحيفة قد انحنى ظهرها قليلا ، هى العمة فاتيما ! فقال محدثا نفسه حين رأى وجهها المتغضن : ليست هذه جاليولينا ، بل أم جاليولين ! ولم يذكر لها اسمه من فوره ، بل اكتفى بأن قال لها :

ــ فى هذا المنزل حالة تيفوس (وذكرلها اسم المريضة) . وهناك احتياطيات كثيرة ينبغى اتخاذها لمنع انتشار الوباء .. وثمة مسألة أخرى : ينبغى نقل المريضة الى المستشفى ، وسأحرر ترخيصا بدخولها ، ولكن ينبغى للجنة المنزل أن تضع عليه خاتمها . أين أستطيع أن أفعل هذا ؟

وحسبته يعنى بقوله هذا : «كيف تنتقل المريضة الى المستشفى» ، فأجابته : « ستأتى عربة من مجلس الضاحية الى الرفيقة «ديمينا»

وهى المندوبة رئيسة الاجتماع . انها طيبة القلب وسأخبرهابالامر، وأنا واثقة أنها ستترك العربة للمريضة . لاتقلق أيها المواطن الطبيب، سنعمل على نقلها للمستشفى بلا ريب . »

ــ هذا بديع ، الواقع انى أردت أن أسألك أين أستطيع ان احرر الترخيص ، ولكن اذا كانت لديكم عربة ايضا فهذا افضل .. هل لى أن أسألك : أأنت والدة الملازم جاليولين ؟ لقد كنا معا فى كتيبة واحدة فى جبهة القتال .

فحملقت فيه بشدة وقد تولتها الدهشــة وشحب وجهها ، ثم امسكت يد يورى وقالت : « تعال اخرج معى . سنتكلم فى الفناء !»

وما خرجا من الباب حتى أسرعت تقول :

ــ **تكلم همسا بحق السماء . لاتخرب بيتى !** ان « يوسوبكا » (١) قد اختار لنفسه طريقا خاطئا . أحكم بنفسك . أى انسان هو ؟ انه كان صبى صانع ، أى عاملا ، ينبغى له أن يفهم ويدرك أنالناس البسطاء هم أحسن حالا اليوم . ان الاعمى يستطيع أن يرى ذلك ولا أحد ينكره . أنا لا اعرف رأيك . **قد لاتجد فى فعلته ضيرا من وجهة نظرك ، ولكن الفعلة من جانبه اثم لاشك فيه . غفر الله له ! ان أباه كان جنديا بسيطا فى الجيش حين قتل . يقولون ان وجهه شوه وانفصلت ذراعاه وساقاه عن جسده وتمزقت اربا اربا !**

وارتعش صوتها وتريثت حتى تهدأ قليلا ، ثم مضت تقول :

ــ تعال ، سآتى لك بالعربة . اننى أعرف من أنت ، انه كانهنا فى اجازة ليومين وأخبرنى انك تعرف « لارا جيشار » . انها كانت فتاة طيبة ، وانى لاذكرها . كانت تأتى لزيارتنا. ترى كيفأصبحت الآن ؟ لست أعلم . فلا يدرى أحد أحوال اناس مثلكم . انه من الطبيعى أن يتساند افراد الاسر الكريمة ، ولكن « يوسوبكا » ليس من هذا القبيل . انه يرتكب بعمله اثما . تعال لنسأل عن العربة . اننى واثقة أن الرفيقة « ديمينا » ستسمح لكم بها . أتعــرف من

---

(١) « يوسوبكا » كان اسم ابنها « جاليولين » فى طفولته .

هى الرفيقة ديمينا ؟ انها أولجا ديمينا ، كانت تشتغل خياطة ، وقد صنعت لأم لارا بعض ثيابها . انها من أبناء حينا ، من أبناء هذا المنزل بالذات .. تعال .

— ١٣ —

• **كان الظلام** يسدل أستاره ويلفهم من كل جانب ، لا يشقه الا ضوء على شكل دائرة ، يقفز بين شآبيب الثلج المنهمر ، منبعثا من مصباح بطارية تحمله ديمينا ، وهى تسير الى الامام تسبقهم بخطوات أربع أو خمس ، فكان فى هذا الضوء ربكة لهم لا هداية .. ان الظلام ضارب أطنابه من حولهم ، وكانوا قد تركوا المنزل الذى عرف فيه أناس كثيرون « لارا » ، والذى كانت تتردد عليه وهى فتاة ، كما نشأ فيه — فيما يقال — زوجها باشا انتيبوف .

وقالت له ديمينا بلهجة معابثة توحى بأنها تحميه تحت جناحها : « هل تستطيع ان تهتدى الى الطريق بدون مصباح أيها الرفيق الطبيب ؟ ان لم تستطع أعرتك مصباحى . اننى أقول لك الحق ، اننى كنت مولعة بهذه الفتاة « لارا » فى صبانا . كان لأسرتها مشغل لتفصيل الملابس وكنت أشتغل فيه كصبية خياطة . ولقد رأيتها هذا العام . قطعت رحلتها وتخلفت فى موسكو ، فقلت لها : أين تذهبين أيتها البلهاء . ابقى هنا فنعيش معا ، وسنجد لك عملا . **ولكن ضاع قولى سدى ولم تستطع البقاء . هذا هو شأنها ، انها تزوجت « باشا » بوحى من رأسها لا قلبها ! .. ومنذ ذلك اليوم عاشت تتخبط ، ولا تلوى على شىء !**

— وما حكمك عليها ؟

— احذروا . ان الارض زلقة ، لا أدرى كم مرة قلت لهم أن لا يقذفوا الماء القذر من النوافذ . كأنك تتحدث الى جدار أصم ! تسألنى ماحكمى عليها ؟ ماذا تعنى .. أى حكم ؟ ليس لدى وقت لان أحكم . أنظر . اننى أسكن هنا . هناك شىء واحد لم أقله لها :

ان اخاها ، الذى يعمل فى الجيش على ما اظن (١) ، قد اعدموه رميا بالرصاص . أما أمها ، التى كانت معلمتى فى مشغل الملابس، فاننى سأعنى بها . ها قد وصلت ، فلأدخل . وداعا .

.. وهكذا افترقا . وكان نور مصباح بطاريتها الضئيل يتواثب على مدخل البيت الضيق المرصوف بالحجر ، ثم يعلو فيكشف الجدران الملطخة والسلالم القذرة . وسار يورى فى جوف الظلام ، الى يمينه شارع حديقة النصر والى يساره شارع حديقة العربات — (وهما اسمان جديدان) — يمتدان الى نهاية البصر فى غلالة من الثلوج ، بعد اذ لم يبق لهما منظر الشوارع ، وانما أصبحا بمثابة «شقوق» وسط غابة من المبانى ، وكأنها دروب فى غابات سيبريا .

ووجد البيت حين عاد دافئا يعمه الضوء ، وسألته تونيا : «لماذا تأخرت ؟ قد حدث شىء أثناء غيابك » .. ثم استطردت قبل أن يستطيع الاجابة عليها : « نعم ، شىء لم يكن فى الحسبان. فبالامس كسر الوالد المنبه — وقد نسيت أن أخبرك — فاغتم لذلك غما شديدا . فالمنبه هو ساعتنا الوحيدة التى لم تتعطل . وقد حاول اصلاحه فأخذ يعالجه المرة بعد المرة ، ولكن بلا جدوى . وصاحب محل تصليح الساعات — ودكانه قريب منا — يطلب أجرا غير معقول : ثلاثة أرطال من الخبز ! .. ولم أدر ماذا أفعل . واسقط فى يد الوالد . ولكن حدث منذ قليل أن رن جرس فجأة رنينا يصم الاذان ، فأفزعنا وأذهلنا . كان رنين جرس المنبه ! هل تتصورهذا؟ لقد عاد المنبه للدوران من تلقاء ذاته ! »

فضحك يورى وقال : « كما دقت ساعة المريضة بالتيفوس !» . وروى لها قصة المريضة ودقات ساعتها ..

— ١٤ —

• **ولكن** يورى لم يصب بدوره بالتيفوس الا بعد زمن . وكانت

---

(١) هو الذى بعد عهدته يوما فاقترضت له المبلغ من صاحب الضيعة .

الاسرة حينئذ قد بلغت آخر طاقتها فى تحمل أعباء الحياة ، فلم يبق عندهم طعام ، وقرصهم الجوع ، وذهب يورى ليقابل عضو الحزب الذى سبق له أن أنقذه من الموت حين هجم عليه اللصوص . فساعده الرجل قدر جهده ، ولكن الحرب الاهلية كانت قد بدأت، فصار لايمكث فى موسكو الا نادرا .. فضلا عن انه كان يرى ان الحرمان الذى يعانيه الشعب فى تلك الايام أمر طبيعى .. وهكذا مضى عضو الحزب يخفى انه هو أيضا يعانى آلام الجوع ! .. واذ ذاك لجأ يورى الى أسرة شارع (برست) ــ مريضة التيفوس وزوجها المورد ــ ولكن الزوج الشاب كان قد اختفى ، فلم يعرف أحد ــ ولا زوجته ! ــ خبره .. وحين ذهب يورى لمقابلة « جاليولينا » لم يجدها فى مسكنها ، ووجد أغلب السكان وجوها جديدة عليه ! وكانت « ديمينا » قد رحلت الى جبهة القتال .

ووصله ذات يوم اشعار بأنه قد خصص له حمل من الحطب بالسعر الرسمى ، وكان عليه أن يتسلمه من محطة (فندافا) ، فعاد الى داره يخترق شارع (ميشانسكايا) المترامى الاطراف ، وعينه على سائق عربة النقل التى تحمل الكنز الذى هبط عليه من السماء ! .. وخيل اليه أن الشوارع قد تغيرت ، **ووجد نفسه يترنح يمينا ويسارا ، وقدماه لاتقويان على حمله ! .. فقال لنفسه: « انها هى ! سأصاب أنا أيضا بالتيفوس . » .. وسقط على الارض ، فالتقطه السائق وأرقده فوق الحطب ..**

ولم يعرف يورى قط كيف عاد الى داره !

— ١٥ —

• **وتتابعت** عليه نوبات من الهذيان طيلة أسبوعين .. ورأى فى الحلم تونيا تضع على مكتبه شارعين : شارع حديقة العربات عن يساره ، وشارع حديقة النصر عن يمينه ، ثم أضاءت مصباح المكتب فعم الشارعين ضوء برتقالى دافىء ، وعندئذ استطاع ان يكتب .. كتب ما كان ينبغى له أن يكتبه منذ عهد طويل ، فحالت دون

ذلك الحوائل ، والآن اتيحت له الكتابة فأقبل عليها بحماس ، وعبر حق التعبير عما يريد قوله .. ولكن صبيا كان يقاطعه بين الحين والآخر ، صبى بعيون ضيقة كعيون أهل (قيرغيز) ، يرتدى معطفا من جلد حيوان الرنة ، غير مزرر ، ووبره الى الخارج ، (كما يفعلون فى مناطق « الاورال » بسيبريا .)

.. وأدرك تمام الادراك أن هذا الصبى هو رسول الموت ، أو بتعبير أصدق ، هو موته قد تمثل انسانا . ولكن كيف يكون هو موته ثم يعينه فى الوقت ذاته على نظم قصيدة ؟ .. كيف يكون فى الموت نفع ، او يستمد منه العون ؟

لم تكن قصيدته عن الدفن ولا عن البعث ، بل عما بينهما من الايام . وكان عنوان القصيدة « خضم المعترك » . ولقد طالما ود ان يصف كيف ان الارض السوداء المجنونة المعششة بالديدان ظلت طوال ثلاثة ايام تهاجم رمز الحب الذى لا يموت ، وتلقى عليه الصخور والحصى ، بينما تعلو الامواج وتثب على شاطىء بحر حتى تعمه وتغطيه .. وكيف استمرت زوبعة هجوم الارض فى جنونها الاسود طوال الايام الثلاثة ، تهجم وتتراجع ، وتكر وتفر . وكان لايفتأ يقفز الى ذهنه شطران من القصيدة :

ما اسعدنا ان نكون بقربك ..
وان يحين وقت اليقظـــــــة .

.. وعلى قرب منه كانت تجثم جهنم ، والفساد ، والانحلال ، والموت .. وكذلك على قرب منه كان الربيع ، ومريم المجدلية ، والحياة .. وكان وقت اليقظة قد حان ، وقت اليقظة والنهوض .. وقت القيام .. وقت البعث !

— ١٦ —

• وبدأت صحته تتحسن .. وكان فى أول امره مستسلما كالطفل ، لايذكر شيئا ، ولا يرى علاقة بين شىء وآخر ، بل لا يدهشه شىء .. وطبقت عليه زوجته نظاما للتغذية يتألف من الخبز

الابيض والثريد والشاى المسكر ، وسمحت له بالقهوة .. وقد نسى هو ان هذه الاشياء منعدمة ، واخذ يتذوقها كما يتذوق الشعر او الحكايات الخرافية ، التى يسمح بها ـ بل توصف وتزكى ـ لمن هو فى دور النقاهة .. ولكن سرعان ما بدأ يفكر ويعجب ، فسأل تونيا :

ـ **من أين ظفرت بكل هذا ؟**

ـ جرانيا هو الذى جاء بها الينا

ـ **من جرانيا**

ـ جرانيا جيفاجو !

ـ **جرانيا جيفاجو ؟**

ـ نعم أخوك « يفجراف » الذى جاء من (أومسك) . أخوك غير الشقيق .. انه كان يزورنا كل يوم أثناء مرضك .

ـ **هل يرتدى معطفا من جلد الرنة ؟**

ـ نعم ، اذن فقد رأيته ؟ مع أنك كنت غائبا عن الوعى طول الوقت! لقد ذكر انه صادفك على السلم فى أحد البيوت ذات مرة ، فعرفك وأراد أن يكلمك ، ولكنك ـ فيما يبدو ـ أخفته خوفا شديدا ! انه يعبدك ويقرأ كل كلمة تكتبها. كم من اشياء اتى بها الينا : ارز وسكر وفواكه مجففة .. الخ .. انه فتى عجيب ، يحوطه شىء من الغموض ، وأعتقد أن له صلة ما بالحكومة .. ومن رأيه انه ينبغى لنا أن نرحل لسنة أو لسنتين من هذه المدينة الكبيرة ، و « نعود الى الارض » ، فترة من الزمن . وقد فكرت أن نذهب الى (كروجر) ، وسألته رأيه فيها فقال انها فكرة بديعة، اذ نستطيع هناك أن نزرع الخضر ونعيش وسط الغابات ، فلا معنى لان نموت كالخراف مستسلمين !

وفى شهر ابريل من ذلك العام رحل يورى جيفاجو هو وأسرته كلها الى ضيعته القديمة فى (فاريكينو) بالقرب من مدينة (يورياتين) ، فى أعماق الاورال

الفصل السابع

Б ПАСТЕРНАК
„Др Живаго"

الرحلة



« .. ان الفلاح لم يفز بأكثر من أن بدل الطغيان القديم ـ طغيان الحكومة القيصرية ـ بطغيان جديد أشد قسوة .. بربقة الحكومة الثورية العليا !.. »

الفصل السابع

الرحلة

— ١ —

• **كان** ذلك فى نهاية مارس . وكما هو مألوف ، كانت الايام القلائل الاخيرة من هذا الشهر هى أول الايام الدافئة فى العام ، فهى تبشر بربيع زائف ، لا تلبث أن تعقبه موجة من برد شديد .. وكان آل جيفاجو يتأهبون للرحيل . ولكى يتكتموا سبب الهرج الذى دب فى البيت ، راحوا ينبئون السكان — الذين أخذوا يحومون كالعصافير فى البيت — ان المسكن كان ينظف ويعد لاستقبال عيد الفصح .

وكان « يورى » معارضا للرحيل . وكان يعرف ان المعارضة لن تنتهى الى شىء ، ومن ثم اكتفى بان أبدى تلميحات اعتراضية . بيد أن الوقت لم يلبث ان سنح لكى يفضى بما كان يجول فى ذهنه . وقد فعل ذلك فى مجلس عائلى ضمه وتونيا واباها . وسألهما فى آخر الامر : « أفتريان اننى على خطأ ؟ .. الا تزالان تصران على السفر ؟ »

وقالت تونيا : « انك تقول ان لابد لنا من ان ندبر امورنا ما استطعنا ، لعامين قادمين ، الى أن يستقر النظام الجديد لحيازة الارض وملكيتها ، ويتسنى لنا ان نحصل على رقعة — خارج (موسكو) — نزرع فيها الخضر . ولكن ، كيف نقضى المدة الى أن يتسنى ذلك؟ .. هذه هى النقطة المهمة حقا ، وأنت لم تحدثنا عنها » .

وقال الاب يؤيدها : « انه محض جنون ! »

فقال يورى فى انصياع لهما : « فليكن ! .. انما الذى يمضنى حقا ، هو عدم التأكد المطلق ، **اننا نذهب معصوبى الاعين الى افق مجهول .. الى مكان لانعرف عنه شيئا . فان أمى وجدتى قد ماتتا ، كما ان جدى معتقل رهينة — اذا كان على قيد الحياة حتى الآن — وهؤلاء هم الثلاثة الذين عاشوا فى (فاريكينو) !..** انكما لتعلمان ان

جدى قد عقد صفقة ما فى العام الاخير من الحرب ، فباع الغابات والمصانع ، أو بالاحرى سجل عقود ملكيتها باسم شخص آخر : مصرفا كان هذا الشخص أو انسانا ، لست أدرى . بل اننا فى الواقع لاندرى شيئا . فلمن الضيعة الآن ؟ . . لست أعنى من الذى يمتلكها، فلست أحفل بهذا مقدار ذرة ، وانما اعنى . . من المسئول عنها ؟ . . من الذى يديرها ؟ . . وهل يجرى العمل فى اقتطاع الاخشاب ؟ . . وهل تعمل المصانع ؟ .. ثم — وقبل كل شىء — من صاحب السلطان فى تلك البقعة من البلاد . . أو — بالاحرى — من الذى سيكون صاحب السلطان ، عندما يقدر لنا أن نصل الى هناك ؟

« انكما تعولان على ميكوليتسين ، المدير الشيخ ، لكى يدبر لنا الامر ، ولكن من ادراكما بأنه لايزال هناك ؟ . . بل من ادراكما بأنه لايزال على قيد الحياة ؟ . . وعلى أية حال ، فما الذى تعرفانه عنه ، اللهم الا اسمه . . وحتى هذا لا نتذكره الا لان جدى كان يجد عناء فى نطقه ! . . على اننى لا أبغى أن امضى فى ذكر المصاعب ، فقد عقدتما عزمكما ، وقد قبلت ما ارتأيتماه ، فلا مجال للارجاء . انما يجب أن نعرف بدقة ما ينبغى على الانسان ان يفعله من اجل السفر ، فى هذه الايام ! »

- ٢ -

• وذهب « يورى » الى محطة (ياروسلافسكى) ليسأل عن ذلك . كانت هناك صفوف لا حصر لها من المسافرين ، تتحرك عبر الابهاء ، وفوق معابر بين أسيجة خشبية . كما كان هناك تحتها — على الارض المرصوفة بالاحجار — أناس فى معاطف الجيش الرمادية ، يسعلون ، ويبصقون ، ويتقلبون على الارض ، ويتكلمون بأصوات مرتفعة — على غير انتظار — غير حاسبين حساب الاقبية التى كانت تردد الصوت وتضخمه .

وكان أغلبهم من مرضى التيفوس الذين كانت تلفظهم المستشفيات — المزدحمة بما يزيد عن سعتها — فى اليوم التالى لزوال الخطر عنهم!

وكثيرا ما كان « يورى » نفسه ـ حين يمارس عمله كطبيب ـ يضطر الى أن يفعل ذلك ، ولكنه لم يكن يتصور ان ثمة كل هذه الكثرة من التعساء ، ولا كان يتصور انهم كانوا يضطرون الى أن ينشدوا المأوى فى محطات السكك الحديدية .

وقال له حمال يرتدى مرولة بيضاء : « يجب أن تحصل أولا على اذن يعطيك الاسبقية على سواك ، ثم يتحتم عليك أن تأتى الى هنا يوما بعد يوم ، لتسأل عما اذا كان ثمة قطار ، فان القطارات أندر من الذهب فى أيامنا هذه ، والمسألة .. مسألة حظ ! » . **وفرك الرجل اصبعيه فى حركة ذات معنى ، وهو يقول : « ثم ، لابد من بعض الدقيق .. ان العجلات لاتدور بدون زيت طبعا ، وما أحسبك الا عارفا بذلك ! » .. ودق على تفاحة آدم فى حلقه ، مستطردا : « واكثر من ذلك ، انك لاتستطيع ان تواصل الحياة دون قليل من الفودكا ! »**

- ٣ -

• **وحوالى** تلك الفترة ، كان « الكسندر الكسندروفيتش » قد دعى ـ عدة مرات ـ ليعمل كمستشار للمجلس الاقتصادى الاعلى ، كما دعى « يورى » ليعالج عضوا من أعضاء الحكومة كان يعانى مرضا خطيرا . ولقد تقاضى كلاهما أجرا بالعملة التى كانت تعتبر أعلى عملة : بأذون صرف على اول متاجر سلع الاستهلاك المحدودة ، التى انشئت حديثا . وكان المتجر فى أحد مخازن الجيش القديمة ، بالقرب من دير القديس سيمون ، فكان الطبيب والاستاذ العالم يخترقان ساحة الدير ، ثم ساحة الثكنة ، ويجتازان بابا حجريا منخفضا الى قبو تحت مستوى الارض . وكان المدخل ينحدر ويزداد اتساعا عند طرفه الاقصى ، حيث امتدت منضدة للبيع من أحد الجانبين الى الجانب الآخر . وكان يقف خلفهما عامل يزن ، ويكيل ، ويسلم السلع فى حركات هادئة غير متعجلة ، وهو « يشطب » أسماء السلع فى قائمة لديه بخطوط عريضة ، بالقلم الرصاص . وكان يجدد موارده ـ بين آن وآخر ـ بمزيد من السلع يأتى بها من مؤخرة المخزن .

ولم يكن ثمة عملاء كثيرون ، ومن ثم كان دوراهما يحينان سراعا، فيقول عامل المتجر وهو ينظر الى أذون الصرف : « الاوعية ! » . فكانا يقدمان عددا من أكياس الوسائد - بين كبير وصغير - ويراقبانها بأعين متلهفة وهى تملأ بالدقيق ، والحبوب ، والمكرونة ، والسكر ، والدهن ، والصابون ، والثقاب ، واكياس من الورق تبينا فيما بعد انها تحتوى على جبن قوقازى .

وكانا يسرعان - وهما مشدوهان لكرم العامل ، وحريصان على ان لا يضيعا وقته - فيضعان الاكياس بعضها داخل بعض ، ليجعلا منها كيسين كبيرين ، يرفعانهما الى كتفيهما .. ثم يغادران القبو وهما منتشيان .. لا لمجرد التفكير فى القوت فحسب، وانما الشعورهما بأنهما بدورهما كانا شخصين نافعين فى الدنيا ، ولم يكونا يعيشان عبثا ، بل كانا يستحقان المديح والشكر اللذين كانت «تونيا» تسبغهما عليهما حين يعودان الى البيت .

- ٤ -

• عكفت « تونيا » على تفقد مقتنيات الاسرة وامتعتها ، بينما كان الرجلان يغيبان اياما بأسرها فى المكاتب الحكومية ، يسعيان وراء مستندات السفر ، أو يعملان على تسجيل المسكن حتى يتسنى للأسرة أن تعاود الاقامة فيه اذا مارجعت الى (موسكو) . وكانت « تونيا » تجوس خلال الحجرات الثلاث - التى أصبحت المسكن المأذون به رسميا لاسرة جيفاجو - تزن أصغر الاشياء فى يدها عشرين مرة ، وهى تعمل فكرها ، قبل أن تقرر ما اذا كانت تضمه الى كومة الامتعة التى كانوا سيحملونها معهم . ولم يكن معدا لاستعمالهم الخاص - من المتاع - سوى قليل ، أما الباقى فكان خليقا بأن يستخدم كعملة يبتاعون بها مايحتاجون اليه فى طريقهم ، وفى الاسابيع الاولى لوصولهم . وكان نسيم الربيع يتسلل خلال النافذة المفتوحة ، يحمل فى ثناياه عبير الخبز الابيض الطازج ، بينما تصيح الديكة ويلعب الاطفال ويتصايحون فى ساحة الدار . وكلما ازداد



مرور الهواء فى الحجرة اشتدت رائحة « النفتالين » الواقى من العث، منبعثة من الحقائب المفتوحة التى كانت ملابس الشتاء قد رصت بداخلها .

وكان اختيار الاشياء التى تؤخذ يخضع لاملاء نظرية دقيقة ، قامت على أسس ماشوهد من أمر اولئك الذين رحلوا من قبل ، واتصلوا بأصدقائهم الذين خلفوهم وراءهم . وقد لخصت هذه النظرية فى بضع قواعد بسيطة ولكنها ذات أهمية بالغة . وكانت هذه القواعد تتسلط على تصرفات « تونيا » وكأنها صوت خفى يأتى خلال النافذة ــ من الخارج ــ مع صرخات الاطفال، وتغريد العصافير ، فيهمس اليها بالتعليمات !

كان الصوت يقول : « خذى أثوابا كاملة من الاقمشة . ولكن الامتعة تفحص خلال الطريق ، ومن ثم فان الاقمشة مبعث خطر، مالم يراع فى دسها أن تبدو كالثياب المصنوعة . خذى أقمشة من كل نوع للملابس .. ومعاطف بوجه خاص ، مالم تكن بالية جدا ..

لا حقائب ولا سلال ، فلن يكون ثمة حمالون ، لذلك احرصى على أن لا تأخذى شيئا لا نفع من ورائه .. واحزمى كل شىء فى حزم صغيرة تستطيع حملها امرأة أو صبى صغير . ولقد ظهر أن الملح والتبغ عظيما النفع ، ولكنهما محفوفان بالخطر .. وكذلك النقود ، على أن تكون بالعملة التى أصدرتها حكومة « كيرينسكى » . والمستندات والوثائق هى أصعب مايمكن اصطحابه بأمان ! » .. وهكذا ، وهلم جرا !

– ٥ –

• وهبت عاصفة ثلجية شديدة فى اليوم السابق على يوم رحيلهم . فكانت هناك سحب رمادية من الثلج ، ترقى صاعدة الى السماء فى حركة حلزونية ، ثم ترتد الى الارض على شكل اعصار ، وتهب مندفعة فى الشارع المظلم ، فتلفه فى غلالة بيضاء .

وتم حزم كل المتاع ، ودبر الامر بحيث يترك المسكن – بما بقى فيه من أشياء – فى رعاية زوجين مسنين ، هما مساعد بدال (سابقا) وزوجته ، من أقرباء « يجوروفنا » ، وكانا يقيمان فى (موسكو) ، وقد ساعدا « تونيا » فى الشتاء السابق على عقد صفقات مقايضة ، نزلت فيها عن ثياب واثاث فى مقابل بطاطس وخشب للوقود !

(ولم يكن من سبيل الى ائتمان « ماركل » ، فمع انه لم يقل – فى مركز المليشيا الذى اختاره منتدى لنفسه – ان سادته السابقين كانوا يمتصون دمه ، الا انه اتهمهم – بدلا من ذلك – بأنهم استبقوه فى الجهل طيلة تلك الاعوام ، متعمدين ان يخفوا عنه أن الدنيا قد انحدرت من القردة !)

وصحبت « تونيا » الزوجين المسنين فى جولة خلال المسكن ، وهى تجرب المفاتيح فى الابواب ، وتفتح وتغلق الادراج والصوانات ، وتتذكر آخر التعليمات التى يعن لها ان تدلى بها اليهما . وكانت المقاعد والمناضد قد دفعت لصق الجدران ، والستائر قد نزعت ..

وفى ركن من كل حجرة كانت ثمة اكوام من الحزم . وكانت الحجرات عارية ، وقد جردت من وسائل الراحة الشتوية ، فكانت — اذ ترى فى ظل العاصفة التى كانت تتجلى خلال النوافذ العارية — تذكر كلا منهم بأحزان الماضى وأشجانه .. فراح « يورى » يفكر فى أمه ، وراحت « تونيا » و « الكسندر الكسندروفيتش » يتذكران موت « آنا » وجنازتها . **ولغير ما مبرر ، شعروا بأن تلك الليلة كانت آخر ليلة لهم فى الدار ، وانهم لن يروها بعد ذلك اطلاقا ! .. وبالرغم من انهم لم يتصارحوا بهواجسهم — تفاديا من ان يثقل كل منهم قلبى صاحبيه — الا أن تلك الهواجس اكربتهم ، فراحوا يناضلون ليكبحوا دموعهم ، وهم يستعرضون حياتهم السالفة تحت سقف تلك الدار .**

ومع كل هذا ، فقد بذلت « تونيا » قصارى جهدها لتحتفظ بمظهرها العادى ، متوسلة الى ذلك بالاندماج فى حديث لا نهاية له مع زوجة الرجل الذى كان سيضطلع برعاية الدار . وكانت تبالغ — فى ذهنها — فى تقدير الصنيع الذى يوليها اياه هذان الزوجان ، فحرصت على أن لا تبدو غير عارفة بجميلهما ، وظلت تعتذراليهما ، وهى تدخل كل حجرة ثم تعود ببعض الهدايا للمرأة — من « بلوزات » وأقمشة من القطن ومن الحرير موشاة بزخارف ونقوش — وكانت هذه الاقمشة جميعا داكنة تتخللها نقوش رفيعة خفيفة ، أو زخارف متخذة من علامات الموسيقى .. كذلك كان الشارع — وهو يطل على الحجرة خلال النوافذ العادية ، فى ليلة الوداع هذه — مظلما ، تتخلل صفحته نقوش من قوالب الثلج ونتفه !

— ٦ —

• **وبارحوا** المنزل فى الفجر ، وكان حريا بالسكان **الآخرين** ان يكونوا نياما ، ولكن واحدة منهم — تدعى زيفوروتينا — كانت مشغوفة شغفا لا علاج له ، بتنظيم المناسبات الاجتماعية ، فأيقظت السكان جميعا صائحة : « انتباه ! .. انتباه ! اسرعوا يارفاق ! ..

تعالوا فودعوا آل جروميكو السابقين ! » ، فتقاطروا جميعا الى خارج الباب الخلفى للدار – اذ كان الباب الامامى قد سد بألواح خشبية فى تلك الايام – وانتظموا فى نصف دائرة ، وكأنهم يتأهبون لتلتقط صورتهم .. وكانوا يتثاءبون ، ويرتجفون ، ويشدون حول أجسامهم المعاطف الرثة التى كانوا قد طرحوها على اكتافهم ، وراحوا يدقون الارض بأحذيتهم الضخمة – المصنوعة من اللباد – والتى كانوا قد دسوا أقدامهم فيها بعجلة !

وكان « ماركل » قد ملأ جوفه بنوع قاتل من الخمر ، وفق الى العثور عليه رغم « جفاف » تلك الايام ، وأطل ملقيا بكل جسمه على سياج درجات المدخل ، التى كانت موشكة ان تنهار . ورغب فى أن يحمل متاع المسافرين الى المحطة ، فلما أبوا عليه ذلك استاء أشد الاستياء . وأخيرا ، تخلصوا منه ، وخرجوا الى الشارع . وكان الظلام لايزال مسيطرا ، والرياح قد هدأت ، وأخذ الجليد يتساقط أغزر وأكثف مما كان فى الليلة السابقة . وكانت كسف كبيرة من الثلج المندوف تهبط سابحة فى الفضاء متكاسلة ، معلقة فوق الارض ، مترددة قبل ان تستقر عليها .

ولكن الظلام كان أخف ادلهاما فى شارع (اربات) ، **وكان الثلج يهبط أشبه بستار مسرح بعرض الطريق ، ينسدل ببطء ، وهو يهز اطرافه الدنيا حول سيقان السائرين ، حتى خيل اليهم انهم لم يكونوا سائرين ، وانما جمدوا فى اماكنهم كمعالم للزمن والعصر !..**
ولم يكن فى الطريق أحد من المارة اللهم الا اصحابنا هؤلاء . على انهم لم يلبثوا ان صادفوا مركبة يجرها جواد صغير فى بياض الثلج ، ويقودها حوذي لاح كما لو انه كان قد التف بقطن مندوف ، فقبل ان يقلهم ومتاعهم الى المحطة ، لقاء أجر خيالى – وأن لم يكن رغم ضخامته يساوى « كوبيك » واحدا فى تلك الايام – ولم يتخلف الا « يورى » ، الذى ترك يقطع المسافة على قدميه ، استجابة لرجائه .

— ٧ —

• **ووجد** « تونيا » ووالدها قد احتلا مكانين فى أحد تلك الصفوف التى لانهاية لها ، والتى كانت تصطف فى المحطة . وكان « نيوشا » و « ساشا » يتمشيان حول المكان ، ويتبينان — من وقت الى آخر — ماذا كان الوقت قد حان لكى ينضما الى الكبار. **وكانت تفوح منهما رائحة زيت « البارافين » ثقيلة ، فجة ، اذ لطخت رقبتاهما — ورسوغهما ، وكعوبهما — بكميات غزيرة منه ، اتقاء للقمل والحشرات** . وكانت الصفوف تسعى الى أبواب أرصفة المحطة . ولكن المسافرين كانوا مضطرين الى أن يسيروا نصف ميل أو أكثر ، على طول الخط ، حتى يصلوا الى القطار . ذلك لانه لم يكن فى المحطة عدد كاف من عمال النظافة، فتراكمت فيها الاوساخ، ولم يعد فى الوسع أن تدرج العجلات على القضبان الممتدة بمحاذاة الارصفة ، نظرا لما كان يعلوها من قاذورات وثلج . ومن ثم فقد كانت القطارات تقف على مسافة منها .

ولوحت « تونيا » بذراعها ليورى ، فلما أصبح على قرب كاف منها ، صاحت ترشده الى المكان الذى كان عليه أن يختم فيه أذون السفر بخاتم المحطة . وقالت حين عاد : « أرنى ما الذى أثبتوه ! » . فأراها الاوراق ، من فوق الحاجز الذى كان يفصل بينهما . واذ ذاك قال الرجل الذى كان يقف خلفها فى الصف، وهو يمد بصره من فوق كتفها : « هذه اذون للسفر فى العربة الخاصة ! »

وكان الرجل الذى يتقدمها أكثر ايضاحا . فلقد كان من أولئك المشغوفين بدراسة اللوائح ، الذين يعرفون — فى كل ظرف ممكن — ماينطبق على ذلك الظرف من قواعد ، والذين يتطوعون للحديث عن هذه القواعد ولو لم تكن لهم مصلحة شخصية من ورائها ، ويتقبلونها على أنها أمر مسلم به .. ومن ثم فانه قال : « هذا الخاتم يبيح لكم حق المطالبة بمقاعد فى عربة مقسمة الى درجات ، أعنى عربة ركاب ، اذا كانت فى القطار عربة للركاب ! »

واندمج جميع من فى الصف فى التعليق : « عربة للركاب ؟ ! ..

حقا ! يجب أن تحمدوا حظكم اذا قدر لكم أن تعثروا على مكان فى ردهات القطار ، فى هذه الايام ! » . ولكن الرجل الذى تولى الشرح، قال : « لاتنصتوا اليهم . سأجلو لكم الامر، فهو غاية فى البساطة. لقد ألغيت جميع القطارات الخاصة ، فليس هناك سوى نوع واحد من القطارات ، لجميع الركاب على السواء ، من جنود ومسجونين وماشية وأفراد .. كلهم سواء فى قطار واحد ! » . ثم التفت الى الجمع قائلا : « لماذا تغررون بالرجل ؟ .. ان الكلمات لاتكبدكم شيئا ، وفى وسعكم أن تقولوا ماتشاءون ، ولكن الواجب يقتضيكم أن تشرحوا ماتقولون ، حتى يتسنى فهمه ! »

فتعالت التعليقات فى وجهه : « ما أوضح شرحك حين اخبرت الرجل انه حصل على أختام تبيح لهم ركوب العربة الخاصة !.. جدير بك أن تتأمل محدثك قبل أن تشرع فى الشرح . كيف يتاح لرجل بهذا الوجه أن يركب العربة الخاصة ؟ .. ان العربة الخاصة مفردة للبحارة ، وقد أوتى البحارة عيونا يقظة وبنادق . ولكن ، انظر الى هذا ، فماذا ترى ؟ .. انه من أعضاء الطبقات صاحبة الاملاك . والاسوأ من هذا انه دكتور .. من السادة السابقين ! .. انه يسحب بندقيته من الصراع ، ويقول وداعا ! »

ولا يعلم أحد الى اى مدى كان العطف الذى أثارته حال الطبيب خليقا بأن يصل ، لو لم يتجه اهتمام الحشد نحو أمر آخر . اذ كان القوم قد راحوا ينظرون فى فضول ـ لفترة من الزمن ـ نحو النوافذ الزجاجية الهائلة ، القائمة عند الخطوط الحديدية ، والتى علتها سقوف امتدت لعدة ياردات . ولم يكن الثلج المتساقط ليبدو للانظار الا بعد الطرف الاقصى للسقوف . وكان ـ اذ يرى على البعد ـ يبدو وكأنه ساكن تقريبا ، لبطء حركته وهو يسقط الى الارض ، كما يهبط الى سطح الماء فتات خبز يلقى الى الاسماك !

وكانت ثمة أطياف ظلت تخطر ـ على البعد ـ طيلة نصف الساعة الاخير ، ماضية على طول الطريق ، جماعات ووحدانا . ولقد أخذت بادىء الامر على أنها أطياف رجال من مستخدمى

السكك الحديدية ، يؤدون واجباتهم . ولكن شرذمة من القوم ما لبثوا أن اندفعوا بعيدا عن الارصفة . وبدت فى الاتجاه الذى كانوا يجرون نحوه غمامة صغيرة من الدخان ، فصرخت أصوات انبعثت من الصفوف : « افتحوا الابواب أيها الماكرون ! » . وتحرك الحشد متجها الى الابواب ، يدفع من فى المؤخرة من هم أمامه ، وأصواتهم تتعالى : « **انظروا الى مايجرى ! .. لقد حبسونا هنا ، فى حين أن بعض الانذال قد داروا حول المكان ، وقفزوا الى خارج الارصفة .. افتحوا أيها الابالسة ، والا دمرنا الابواب تدميرا ! .. هيا يارفاق ، لندفع الابواب ! ! »**

وقال المشغوف بمعرفة القوانين : « لاحاجة بالحمقى الى أن يحسدوا أولئك الناس على نصيبهم ، فهم مجندون مدعوون لاشغال السخرة فى (بيتروجراد) . وكان من المقرر ارسالهم الى (فولوجدا) من طريق المحطة الشمالية ، ولكنهم حولوا الى الجبهة الشرقية .. انهم لايسافرون بمحض ارادتهم ، وانما هم تحت الحراسة ، وسيتولون حفر الخنادق ! »

— ٨ —

• **ومكثوا** ثلاثة أيام فى القطار ، ولكنهم لم يبتعدوا عن (موسكو) كثيرا . واستمر الطقس البارد مسيطرا ، فكانت الخطوط الحديدية ، والحقول ، والغابات ، وسقوف القرى — التى تتراءى خلال النوافذ — ترزح تحت جليد سميك .

وحالف آل جيفاجو الحظ ، فاستولوا على ركن لانفسهم فى الصف الاعلى من أسرة النوم ، مقابل النافذة الطويلة المعتمدة التى تلى السقف مباشرة .. فاستقر بهم المقام فى وسط عائلى خاص . ولم تكن « تونيا » قد سافرت فى قطار من قطارات البضائع من قبل . كان القطار عاليا عن الارض ، ذا أبواب انزلاقية ثقيلة ، حتى لقد اضطر « يورى » فى بادىء الامر الى أن يرفع النساء بين ذراعيه ليساعدهن على الصعود ، ولكنهن لم يلبثن أن تعلمن كيف يهبطن ويصعدن دون معونة .

ولم تبد العربة — فى نظر تونيا — أكثر من حظيرة للماشية، اقيمت على عجلات، فراحت تتوقع ان تهوى منهارة مع كل هزة! ولكنهم ظلوا يهتزون الى الامام والى الخلف، وذات اليمين و ذات اليسار، ثلاثة ايام بطولها، كلما بدل القطار من سرعته أو أتجاهه .. ثلاثة أيام بطولها، والعجلات تقرقع تحتهم، كأنها عصى تقرع طبلا فى لعبة آلية للاطفال .. ومع ذلك، فقد ظلوا سالمين! .. وتبينت «تونيا» أن مخاوفهم لم تكن تقوم على أساس ما!

وكان القطار يتألف من ثلاث وعشرين عربة، كان آل جيفاجو فى الرابعة عشرة منها. ولم تكن تحاذى الرصيف من هذه العربات — كلما وقف القطار فى محطة — سوى العربة الامامية، أو الخلفية، أو الوسطى .. دون سواها. وكان البحارة فى المقدمة، والركاب العاديون فى الوسط، والعمال المجندون فى ثمانى عربات فى المؤخرة. وكان عدد هؤلاء العمال نحو خمسمائة من كافة الأعمار، والظروف، والمهن .. وكان منظر ذلك الخليط من الركاب يستلفت الانظار، فقد كان ثمة محامون، وسماسرة ممن يعملون فى «البورصة» فى (بطرسبورج) — من أهل الثراء والاناقة — جنبا الى جنب مع حوذية، وخدم ممن اعتادوا مسح الارض، وعمال ممن يشتغلون فى الحمامات العامة، وتجار للمخلفات القديمة من التتار، ومعتوهين هاربين من المصحات العقلية، وأصحاب حوانيت، ورهبان.. وقد حشروا جميعا فى زمرة الطبقات الاستغلالية!

وكان المحامون والسماسرة يجلسون بأقمصتهم ذات الاكمام القصيرة، حول المدافىء الحديدية الحامية، يتبادلون رواية ما لاحصر له من القصص، ويتندرون بالفكاهات، ويضحكون .. كانوا أناسا تربط بينهم بعض الروابط. ولم يكونوا يشعرون بقلق ما، اذ كان لهم اقارب من ذوى النفوذ يعملون من أجلهم فى مواطن أقامتهم الاصلية. فاذا قدرت أسوأ الافتراضات، فقد كان بوسعهم أن يفتدوا أنفسهم ويشتروا حرياتهم، فيما بعد!

أما الآخرون فكانوا يرتدون أحذية ضخمة و «قفاطين»، أو

كانوا حفاة ، فى أقمصة طويلة أسدلت خارج سراويلهم ، وبعضهم بلحى والبعض غير ملتحين، وقد وقفوا عند الابواب نصف المفتوحة، يتصيدون النسمات فرارا من جو العربات الراكد ، وقد تشبثوا بجوانب العربات ، أو بالالواح التى ثبتت بعرض الابواب ، وراحوا ينظرون فى وجوم الى الفلاحين والقرى — على جانبى الطريق — دون أن يتحدثوا الى أحد .. هؤلاء لم يكن لهم أصدقاء ذوو نفوذ، فلم يكن لهم مايبنون الآمال عليه !

وكان عدد المجندين للعمل يفوق سعة العربات التى أفردت لهم، فسمح للفائضين منهم بالجلوس فى العربات التى خصصت للركاب بالمجان ، ومنهم أولئك الذين شغلوا العربة الرابعة عشرة .

— ٩ —

• **كانت** « تونيا » تستوى جالسة بحذر — كلما وقف القطار — حتى لايصطدم رأسها بالسقف ، ثم تطل خلال الشق الذى انفرج الباب عنه ، لترى ما اذا كان ثمة مايستحق أن تغادر العربة من أجله . وكان هذا يتوقف على حجم المحطة ، ومدى الفترة التى يمكثها القطار فيها ، وما يحتمل أن يعرض لها من فرص لعقد صفقة على أساس المقايضة ! .. وهكذا كان الامر فى هذه المرة ، فان تباطؤ سرعة القطار أيقظها من اغفاءة . وكان عدد الاشارات والتحويلات التى مر بها يوحى بكبر حجم المحطة . ففركت «تونيا» عينيها ، وسوت من شعرها ، وبعد أن نبشت فى قاع احدى الحزم، أخرجت منشفة مطرزة برسوم الديوك الصغيرة ، وأطواق الخيل ، والعجلات . وساعدها « يورى » — الذى استيقظ هو الآخر — على الهبوط من السرير . وتتابعت مناظر « أكشاك الاشارة » والمصابيح العالية خلال الباب ، واعقبتها مناظر الاشجار وهى تلوح للقطار — فى حفاوة — بمناديل من الثلج الابيض . وقفز البحارة الى الرصيف قبل ان يقف القطار، وتسابقوا الى خلف مبنى المحطة، وهم يحطمون الثلج باقدامهم ، الى حيث كانت الفلاحات يقفن عادة

ليتجرن فى الاغذية ، فى غفلة من القانون . وكان زيهم الرسمى الاسود ، وسراويلهم ذات المقاعد العريضة ، والاشرطة التى كانت ترفرف من قلنسواتهم التى لا حافة لها .. كل هذه كانت تخلع طابعا من الاستهتار على زحفهم السريع ، وتحمل الناس الآخرين على أن يفسحوا لهم الطريق ، وكأنهم أمام رتل من المنزلقين على الجليد وقد اندفعوا بسرعة هوجاء !

وخلف المحطة ، وقفت فتيات ونسوة من القرى المجاورة ، كل تختبىء وراء الاخرى فى انفعال واستحياء ، وكأنهن يقفن بباب قارىء للمستقبل ، مصطفات فى صف واحد ، ملتصقات بجدار المحطة ، يبعن الخيار ، والجبن (القريش) ، ولحم الجاموس المسلوق ، وفطائر الشوفان التى احتفظت بسخونتها اذ لفت بين طيات قطع من القماش . وكانت وجوههن تتضرج حياء — وهن ملتفات بأوشحتهن ، غائصات فى المعاطف المصنوعة من فراء الغنم — ازاء النكات التى راح البحارة يطلقونها .. على انهن كن فى جزع منهم — اذ كان البحارة عادة هم الذين يؤلفون الوحدات التى تساق لمكافحة الاتجار المحرم فى « السوق الحرة » — ولكنهن سرعان ما تخلصن من خوفهن حين وقف القطار تماما ، واقبل الركاب المدنيون ينضمون الى الجمع . واشتدت حركة المقايضة .

وسارت « تونيا » أمام صف النسوة تتفقد سلعهن ، ومنشفتها ترفرف فوق كتفها ، وكأنها ذاهبة الى خلف المحطة لتغسلها فى ماء الجليد . وصاحت عدة نساء خلفها : « هاى ! ماذا تريدين فى مقابل منشفتك ؟ » . ولكنها واصلت سيرها ، وزوجها يتبعها . وفى نهاية الصف ، كانت ثمة امرأة ذات وشاح (شال) أسود ، ذى نقوش قرمزية ، فما ان رات المنشفة حتى أومضت عيناها الجريئتان ، وتلفتت حولها فى حذر ، ثم تسللت الى جوار « تونيا » ، وكشفت عن بضاعتها هامسة فى لهفة : « **تأملى هذا ! أراهن أنك لم ترى له مثيلا منذ أمد طويل .. أتريدينه ؟ .. لاتطيلى التفكير والا اخذه سواك ! .. أتقبلين أن تعطينى منشفتك مقابل نصف واحد ؟** »

ولم تسمع تونيا الكلمة الاخيرة ، فتساءلت : « ما الذى تعنينه يا عزيزتى ؟ » .. وكانت المرأة تعنى نصف أرنب برى مشوى ومشطور الى نصفين . فرفعته قائلة : « قلت لك هل تأخذين النصف فى مقابل منشفتك ؟ .. فيم تحملقين ؟ انه ليس لحم كلاب ، فان زوجى صياد ، وهذا أرنب برى لاريب فيه ! »

وتبادلا سلعتيهما ، وكل منهما تعتقد انها الرابحة فى الصفقة . وشعرت « تونيا » بخجل ، وكأنها قد غشت الفلاحة ، بينما كانت هذه مغتبطة بنصيبها ، فنادت صديقة لها كانت قد باعت هى الاخرى سلعها ، وانطلقت واياها عائدتين الى القرية والفرصة سانحة ، وراحتا تسيران بخطى واسعة مبتعدتين فى الطريق المكسوة بالجليد .

وفى تلك اللحظة ، ثار صخب بين الحشد . وراحت امرأة عجوز تصرخ : « هاى ، انت ! .. الى أين تذهب ؟ اين نقودى ؟ .. متى دفعت لى أيها اللص العديم الحياء ؟ .. الا انظروا الى هذا الخنزير الجشع ، اناديه فلا يحفل حتى بالالتفات خلفه . قف ! .. قلت لك قف ، أيها السيد الرفيق ! .. لقد سرقنى ! .. قف يالص ! .. هاهوذا يبتعد ، انه هو فامسكوه ! »

ـ أى واحد هو ؟

ـ ذلك الشخص .. ذاك الحليق الذقن ، الذى يبتسم !

ـ أهو ذاك الذى اوتى خرقا فى كم ثوبه ؟

ـ أجل ، أجل .. امسكوه ، هذا السارق !

ـ أهو ذاك الذى أوتى رتقا عند مرفق كمه ؟

ـ نعم ، نعم .. أواه ، ياربى العزيز .. لقد سرقنى !

ـ ماهذا الصخب ؟ .. ما الذى يجرى هنا ؟

ـ لقد اشترى الرجل الذى هناك بعض اللبن والفطائر ، فملأ كرشه ثم مضى دون أن يدفع .. ولهذا تصيح العجوز وتبكى !

ـ ما ينبغى أن يحدث هذا .. لماذا لايهرعون خلفه ؟

ـ يهرعون خلفه ؟ ! .. انه محوط بالاحزمة واكياس الرصاص من رأسه الى قدميه . انه هو الذى سيجرى خلفك لو تبعته !

— ١٠ —

• **كان** فى العربة الرابعة عشرة عدد من المجندين للعمل ،يرافقهم حارسهم « فورونيوك » .. ووقف ثلاثة من الرجال فى معـزل عن الآخرين . أولئك كانوا : « بروخور بريتولييف » الذى كان صرافا فى حانوت للخمور تملكه الحكومة ، فى (بطرسبورج) ، وكانوايسمونه « الصراف » .. و « فاسيابريكين » ، وهو فتى فى السادسة عشرة من عمـره ، كان يتـدرب على الاتجـار بالسـلع الحـديدية .. و « كوستويد ــ أمورسـكى » وهو ثائر أشيب ينتمى الى حـزب العمال التعاونى ، تردد على كافة مؤسسات العقاب فى العهدالقديم، وبدأ الآن يرتاد مؤسسات العهد الجديد !

وكان المجندون قد بدأوا يتعارفون تدريجـا ــ وهم الذين كانوا اغرابا كل عن الآخر عندما سيقوا للتجنيد ــ فظهر ان « الصراف » و « فاسيا » قـد جاءا من منطقة واحدة من البـلاد ، هى اقليم (فياتكا) ، وان القطار لن يلبث أن يسير عبر منطقتهما . فلقـد كان « بريتولييف » من (ماليمش) ، وكان شـعره قصيرا ، ووجهه مشوها بآثار الجدرى ، افطس ، قبيحـا . وكانت بزته الرسمية الرمادية ــ التى اسود ما تحت ابطيها ــ تلف جسـمه باحكام ، كما يلف المشد (الكورسيه) جسد امرأة مترهلة ! .. وكان يجلس الساعات ساكنا ، وكأنه طيف واجم ، ويحك البثور المتناثرة فى يديه ــ وهو مستغرق فى التفكير ــ حتى تدمى وتتقيح .

ولقد كان يسير فى اصيل ذات يوم ــ منذ أشـهر قلائل ــ فى شارع (نيفسكى) ، حين ألفى نفسه فى كمين لرجال المليشيا ، عند ناصية شارع (ليتيينى) . وكان عليه أن يبرز اوراق هويته ،فظهر انه كان يحمل دفترا للتموين من الدرجة الرابعة ، أى من النـوع الذى يعطى لمن لايعملون ، والذى لايمكن حامله من أن يبتاع شيئا . ومن ثم احتجز مع كثيرين ممن ألقى القبض عليهم للسبب ذاته ، ثم سيقوا الى الثكنات تحت الحراسة . وتقرر ان توفد جماعته ــ كما

اوفدت الجماعة التى سبقتها ـ لتحفر الخنادق فى جبهة (ارشانجل)، ولكنها حولت عن وجهتها اثناء الطريق لترسل الى الشرق ، عن طريق (موسكو) .

وكانت لبريتوليف زوجة فى (لوجا) ، حيث كان يعمل قبل الحرب . وقد سمعت بسوء طالعه ـ بطريق غير مباشر ـ فخيل اليها انه فى طريقه الى الشمال ، وأسرعت الى (فولوجدا) ـ ملتقى الخطوط الذاهبة الى (ارشانجل) ـ لكى تبحث عنه ، وتسعى للظفر بالافراج عنه . ولكن الفرقة لم تذهب الى هناك ، وكان من الخير لها لو انها مكثت فى دارها . فما كنت لتعرف ، فى تلك الايام ، اين انت .. ولا اين تقيم !

وكان بريتوليف يقيم فى (بطرسبورج) ـ حيث كان منصبه قد حمله ، فى بداية الحرب ـ مع سيدة تدعى «بيلاجيا تياجونوفا» . **وذات يوم كان يتريض معها ، ثم افترقا لتعود هى الى البيت ويذهب هو للوفاء بموعد فى مكان ما ، فاذا به يعتقل ولما تمض لحظات على فراقهما ، حتى لقد كان يرى ظهرها وهى تنحدر فى شارع (ليتيينى) وتغيب وسط الزحام !** .. وكانت هى امرأة من الطبقة المتوسطة ، مليئة الجسم فى التفاف .. ذات قوام مهيب ، ويدين جميلتين ، وشعر غزير ، كانت تنسقه فى ضفيرة لاتنفك تطوح بها فوق كتفها وهى تتنهد . وقد كانت هذه الـ « بيلاجيا » فى العربة الرابعة عشرة من القطار ـ هى الاخرى ـ وقد آثرت طواعية ، ومن تلقاء نفسها ، ان تصحبه فى رحلته .

وكان من العسير أن تعرف ما اجتذب هذه المرأة الى رجل بليد، قبيح ، مثل بريتوليف ! ولكن من المؤكد أن كلا منهما كان يتعلق بصاحبه . وفى عربة أخرى ـ من العربات الامامية ـ كانت ثمة صديقة أخرى له ، تدعى « اوجريسكوفا » . وكانت فتاة بارزة العظام ، ذات أهداب بيضاء ، وقد استطاعت ـ بطريقة ما ـ ان تستقل القطار . وكانت تياجونوفا تدعوها : «المخفقة» و «الخرطوم» وكثيرا من الاسماء النابية . وكانت الغريمتان على شقاق حام ،

فكانت كل منهما تحرص على أن تتفادى الاخرى . ومن ثم فان « أوجريسكوفا » لم تفد قط على العربة الرابعة عشرة ، فكان من الامور الباعثة على الحيرة ، ان يحاول أحد أن يعرف كيف كانت تلتقى بمحط عواطفها . ولكن .. لعلها كانت تقنع بمجرد التطلع اليه عن بعد ، فى المناسبات التى كان الركاب يهبطون فيها عن بكرة أبيهم ، ليساعدوا فى نقل الوقود الى القاطرة .

— ١١ —

• **وكانت** قصة « فاسيا » تختلف عن هذه . كان أبوه قد قتل فى الحرب ، فأرسلته أمه الى (بطرسبورج) ليتتلمذ على عمه فى حرفته . فقد كان للعم حانوت خاص فى سوق (ابراكسين) . وفى احد أيام الشتاء الاخير استدعى العم الى مجلس السوفييت المحلى ، ليجيب عن بضعة أسئلة ، فأخطأ طريقه ، واجتاز بابا قاده الى مكتب لجنة اختيار فرق العمال . وكانت الغرفة زاخرة بالمجندين ، وان هى الا برهة حتى حضر الجنود ، فأحاطوا بالرجال ، وقادوهم الى ثكنات (سميونوفسكى) ، حيث قضوا ليلتهم ثم سيقوا فى الصباح الى المحطة !

وذاعت أنباء اعتقال كل هذا العدد ، فأقبلت اسرات المعتقلين لتودعهم . وكان بين المودعين « فاسيا » وزوجة عمه . **وتوسل العم الى الحارس — وهو نفس « فورونيوك » الذى كان فى العربة الرابعة عشرة — ليدعه يخرج فيودع زوجته . ورفض الحارس أن يسمح له بذلك ، مالم يقدم رهينة ، فقدم اليه « فاسيا » ، ومن ثم احتجز هذا ، وأطلق سراح العم .. وكانت هذه آخر مرة رأى فيها عمه وزوجة عمه !**

وعند ما تكشفت الخدعة ، أخذ « فاسيا » — الذى لم يكن قد ارتاب فى شىء — يبكى وينتحب ، وارتمى على قدمى « فورونيوك » ، وراح يقبل يديه ويتوسل اليه أن يخلى سبيله ، ولكن هذا كله لم يجده فتيلا .. لا لان « فورونيوك » كان قاسيا بطبيعته ، وانما

لان النظام كان صارما فى تلك الفترة القلقة ، وكان الحارس مسئولا ـ بحياته ـ عن عدد من هم فى رعايته ، وكان هذا العدد يراجع بين آن وآخر بنداء الاسماء من القوائم ..

وكانت هـذه هى الطريقة التى قدر بها لفاسيا أن يصبح من المسخرين ..

أما التعاونى « كوستويد » ـ الذى طالما حظى باحترام سجانيه ، ونجح فى أن يكون على علاقات طيبة بهم ، مهما يكن نظام الحكم ـ فقد لفت نظر رئيس القافلة ، أكثر من مرة ، الى موقف « فاسيا » المنطوى على ظلم فادح . وقـد أقر رئيس القافلة بأن الخطأ كان فظيعا ، ولكنه قال أن ثمة عقبات رسمية فى سبيل فعله أى شيء لاصلاح الموقف ، الى أن تصل القافلة الى غايتهـا .. ووعد بأن يبذل خير مافى وسعه بعد ذلك .

وكان « فاسيا » فتى جذابا ، متناسق القسمات ، يبدو كواحد من غلمان القصور الملكية ، أو كملاك من أولئك الذين يشاهدون فى الصور . وكان بريئا ، طاهرا ، نقى النفس الى درجة غير مألوفة . وقد أصبح أحب الاعمال اليه أن يقبع عند أقدام من كانوا يكبرونه سنا ، وأن يتطلع اليهم ، وقد عقد يديه حول ركبتيه ، فينصت الى حديثهم أو الى قصص مغامراتهم . وكان بوسعك أن تفهم الحديث بمراقبة عضلات وجهه وهو يتمالك نفسه ليكبح الضحك أو ليمسك الدموع .

— ١٢ —

• **كان** آل « جيفـاجو » قد دعوا التعاونى « كوستويد » الى العشاء ، فجلس فى ركنهم ينهش ساقا من الارنب الجبلى فى تلمظ مسموع . وكان شديد الخوف من تيارات الهواء ، فظل يبـدل موضعه عدة مرات ، حتى اهتدى أخيرا الى وضع يناسبه . فقال: « هذا أفضل ! » .. حتى اذا فرغ من ساق الارنب ، لعق أصابعه، ومسحها بمنديله ، ثم شكر مضيفيه قائلا : « ان نافذتـكم غـير

مناسبة ، وينبغى أن تسد شقوقها بالمعجون .. ولكن ، لنعد الى حديثنا . ان الارانب المشوية بديعة حقا ، ولكن من الخطل أن نستنتج من ذلك أن الفلاحين فى رخاء .. وهذا أبسط تصوير لحالهم ، اذا اغتفرتم لى هذا التعبير ! » .

وقال يورى : « آه ، خفف من غلوائك ! .. أنظر الى المحطات التى نقف بها . ان الاشجار والاسوار لاتزال قائمة ، فلم تجتث ليتخذ خشبها وقودا . والاسواق ! .. والنساء ! .. ما أبدع أن تتصور أن الحياة لاتزال تسير فى مجراها — فى مكان من الاماكن — وان القوم مغتبطون بها . فليس كل امرىء تعسا . أليس فى هذا تبرير لكل شىء ! »

— هو كذلك ، لو كان الامر كماتقول .. ولكنه ليس كماتصوره ! .. كيف تفكر فى أنه على هذا الشكل ؟ .. ليس عليك سوى أن تنظر الى مايجرى فى الداخل ، فى أى مكان على خمسين ميلا أو مائة ميل من الخط الحديدى .. ان الفلاحين ثائرون، والانتفاضات لا تنقطع . لسوف تقول انهم يقاتلون الحمر والبيض على السواء .. وانهم يحاربون من يكون من الفريقين فى الحكم ، دون تمييز ، فهم — بأبسط تعبير — ضد أى سلطان يفرض ، لانهم لايعرفون ما الذى يبتغون .. ولكن ، اسمح لى أن أخالفك فى هذا . فان الفلاح يعرف تمام المعرفة — وخيرا منك ومنى — مايصبو اليه ، ولكنه يريد شيئا يختلف تماما عما حصل عليه !

« فعندما جاءت الثورة وأيقظته ، قرر ان هذا هو تحقيق حلمه .. الحلم القديم .. حلمه بأن يعيش فى أرضه ، ومن عمل يديه ، بلا حكومة .. فى استقلال ، ودون أن يكون مدينا بشىء ما ، لاى مخلوق ! ولكنه بدلا من ذلك ، الفى انه لم يفز بأكثر من ان بدل الطغيان القديم — طغيان الحكومة القيصرية — بطغيان جديد أشد قسوة .. بربقة الحكومة الثورية العليا ! .. فهل تعجب — بعد ذلك — اذا كانت القرى فى قلاقل ، لا تستطيع أن تستقر ؟ ! .. ومع ذلك ، فأنت تقول انهم سعداء ! .. لا ، هناك كثير من الامور



لاتعرفها ياصديقى العزيز ، ويخيل الى - كما أخشى - انك لاتريد أن تعرفها ! »

- آه ، فليكن ! .. أستطيع ان اقول اننى لا اريد .. **فلماذا ينبغي - بالله عليك - أن اعرف كل شيء، وأن أزعج نفسي وأسقمها من اجل كل شيء ؟ .. ان التاريخ لم يستشرنى ، وانا مسوق الى الرضى بما يحدث - مهما يكن - فلماذا اذن لا أتجاهل الحقائق ؟** .. ستقول ان هذا مسلك غير واقعى . ولكن ، أين الواقع او الحقيقة فى روسيا اليوم ؟ .. يقينى انها فرت من الوجود مذعورة . من الثابت اننى اريد ان اصدق ان الفلاحين اليوم خير حالا، وان القرى اكثر رخاء .. فاذا لم املك ان اصدق هذا ، فماذا ينبغى ان افعل ؟ .. ومن الذى اصدق؟ وعلى ماذا اعيش ؟ .. اننى مضطر الى أن أواصل العيش ، فان لى اسرة يجب ان ارعاها !

وأشار بيده فى قنوط ، تاركا الحديث لحميه ، وابتعد فأطل برأسه عن حافة السرير الذى كانوا يجلسون فوقه، ليتأمل ماكان

يجرى تحته ! .. كان « الصراف » بريتولييف وعشيقته بيلاجيا منهمكين فى الحديث مع فاسيا وفورونيوك الحارس . وكان القطار يدنو سراعا من موطن فاسيا وبريتولييف ، فراح هذا يتذكر الطريق الى قريته .. المحطة ، والطريق التى تسلكها حسب ما اذا كنت ممتطيا جوادا ، أو كنت تسير على قدميك .. وكان فاسيا وهو يسمع الاسماء القروية المألوفة ، ينساق لسحرها ، فيروح يرددها وعيناه تبرقان ، وكأنه تحت سحر حقيقى !

وقال والانفعال يخنق صوته : « تهبط عند الجدول الجاف ، ثم تذهب الى (بويسكى) .. أليس كذلك ؟ »

ــ بلى .. من هناك تسلك طريق (بويسكى) .

ــ هذا ما أقوله . (بويسكى) .. قرية بويسكى ! .. اننى أعرفها حقا ، فهى فى الطريق الينا ، اذ تنحرف يمينا ، ثم تعرج يمينا مرة أخرى ، فتصل الينا .. الى (فريتنيكى) .. ولا بد أن طريق قريتك الى اليسار ، بعيدا عن النهر ، أليس كذلك ؟ .. أتعرف نهر بيلجا ؟ لابد أنك تعرفه ! .. انه نهرنا . فاذا ظللت تتبع النهر ، ومضيت قدما ، موغلا فى صعود التل الذى الى اليمين ، والمشرف على ذلك النهر (بيلجا) ، وصلت الى قريتنا (فريتنيكى) ! .. انها تقع فوق الحافة مباشرة ، وانها لشد..يد..دة الانحدار ! انها لتجعل رأسك يدور ، والله ! .. وتحتها محجر تقتطع منه أحجار الطواحين والرحى . وهناك ــ فى فريتنيكى ــ تقيم أمى وشقيقتاى .. أختى آليا ، وأختى آريا .. ان امى تكاد تشبهك ياعمة بوليا ، فهى لا تزال شابة ، وجميلة . أيها العم فورونيوك ، اننى لأناشدك بحق المسيح .. أرجوك .. أتوسل اليك بحق الله .. أيها العم فورونيوك !

ــ وبعد ، ماذا تبغى ؟ .. أيها العم ، أيها العم .. اننى لاعرف اننى لست عمك ، فما الذى ترتجى أن أفعله ؟ .. **أمجنون أنا ؟ .. لو اننى تركتك تذهب ، لكانت هذه نهاية عمرى ، والله يرحمنى ! .. انهم اذ ذاك يوقفوننى أمام حائط ، ويطلقون الرصاص على !**

وكانت بيلاجيا تياجونوفا تسرح بصرها خلال النافذة ، وهى شاردة الفكر ، تمسح على شعر فاسيا المائل الى الحمرة ! .. وكانت تميل عليه – بين آن وآخر – فتبتسم له ، وكأنها تقول : « لاتكن غبيا . ليس هذا بالموضوع الذى تكلم فيه فورونيوك على مسمع من كل امرىء . لاتحمل هما ، واصبر ، فلسوف يكون كل شىء على ماتروم ! »

— ١٣ —

• **وعندما** خلفوا روسيا الوسطى، فى سبيلهم الى الشرق، بدأت تقع أحداث غريبة .. كانوا يمضون خلال بلاد مضطربة ، وخلال مناطق تسيطر عليها عصابات مسلحة ، مارين بقرى أخمدت قلاقلها منذ عهد قريب . وكان القطار يقف فى غير محطات – فى وسط الفضاء – لتصعد اليه ثلة من رجال الامن ، تفحص أوراق الركاب وأمتعتهم .

وفى ذات مرة ، وقف القطار بالليل . ولم يصعد اليه أحد ، ولا أيقظ وقوفه أحدا .. وتساءل يورى عما اذا كان ثمة حادث ، وخرج ليتبين جلية الامر .

كان الظلام مسيطرا . ولاح أن القطار وقف – لغير ماسبب – فى بقعة عادية ، تحف فيها أشجار الشربين بالخط الحديدى . وقال ركاب آخرون – كانوا قد هبطوا وراحوا يدقون الجليد بأقدامهم – انه لم يكن ثمة سوء ، وانما رفض السائق أن يمضى قائلا ان تلك المنطقة كانت محفوفة بالاخطار ، ولا بد من أن تكتشف أولا ، على « الترولى » . ولقد ذهب مندوبون يتحدثون بلسان الركاب ، ليجادلوه ، ولكى يدفئوا يده (١) اذا استدعى الامر ذلك . كما ان بعض البحارة ساهموا معهم فى المحاولة ، وهم خليقون بأن يفرضوا ارادتهم بلا ريب .

---

(١) اللفظ الأصلى « تزييت » ، وهو عين المعنى الدارج فى اللهجة العامية ، والذى يكنى به عن الرشوة !

وكانت الانوار تسلط - من آن الى آخر - على الجليد الممتد أمام القطار ، منعكسة عن « كشافات » القطار القوية ، أو عن وهج الفحم فى مرجله ، فتبدو كأنها أضواء صواريخ تطلق فى مهرجان .. وعلى هذه الانوار ، لم تلبث ان تبدت عدة أطياف تجرى صوب مقدم القاطرة . وبدا ان اولها كان السائق ، وقد بلغ اقصى اطراف القاطرة ، فوثب فوق « طاسات التصادم » ، واختفى فكأنما ابتلعته الارض ! .. وحذا البحارة - الذين كانوا يلاحقونه - حذوه ، وقفزوا مثله واختفوا ..

وأثار هذا كله فضول كثير من المسافرين ، وبينهم يورى ، فسعوا ليروا ماكان يجرى .. وبعد « طاسات التصادم » ، حيث امتد الخط الحديدى أمامهم ، رأوا منظرا عجبا .. فقد كان الجزء الاعلى من جسم السائق ، يبرز من بركة عميقة فى الجليد - سقط فيها - الى جانب الطريق البرية المحاذية للخط الحديدى . ووقف مطاردوه فى نصف دائرة حوله ، كصيادين يحيطون بطريدتهم ، وقد غاصوا فى الجليد حتى خصورهم مثله !

وكان السائق يصيح : « شكرا لكم يارفاق .. انكم لطيور مجتاحة من طيور النورس حقا (١) ! .. ياله من منظر بديع ، ان يطارد بحارة عاملا بالبنادق ! .. كل هذا لاننى قلت أن القطار يجب أن يتوقف عن السير .. ألا اشهدوا - أيها الرفاق المسافرون - ففى وسعكم أن تروا أى مكان هذا ! .. من المحتمل أن يكون فى هذه البقعة أى شقى يفك مسامير القضبان .. الا اذهبوا الى الجحيم أيها السفاحون ، أبناء السفاح ، ولتذهب معكم امهاتكم وجداتكم اذا شئتم ! .. **انما فعلت ذلك من أجلكم ، حتى لا يحيق بكم شر ، وهذا كل ما لديكم من حمد وعرفان ! .. ألا امضوا فى**

---

(١) هذا الوصف أطلقه « جوركى » فى احدى قصصه .. كما أن الثورة بدأت بحركة عصيان قام بها بحارة اسطول (البلطيق) ، فكأنما يسخر السائق من أن الذين أذكوا الثورة هم الذين باتوا يضطهدون من قامت الثورة لانصافهم .

عنفكم ، وارمونى برصاصكم ! .. ها أنذا ، ولن أفر من أمامكم ، وانى لاشهدكم – أيها الرفاق المسافرون – على ذلك ! »

وانبعثت من الجمع أصوات منزعجة ، تهتف بالسائق : « صه أيها الكهل .. انهم لايقصدون ذلك .. ولن يدعهم أحد يفعلون .. انما أقدموا على ذلك ليرهبوك » .. وانبعثت أصوات أخرى تشجع السائق : « هذا حق يا جافريلكا .. اصمد فى موقفك ، ودعهم يفعلوا مايشاءون ! »

وكان أول ملاح صعد من جوف الجليد ، عملاقا ذا شعر أحمر ، ورأس ضخم بدا وجهه – ازاء ضخامته – كما لو كان رقعة مبسوطة . والتفت الى الركاب ، فتحدث اليهم بصوت عميق ، هادىء متئد ، تشوبه لكنة اوكرانية ، وقد بدا شكله مجافيا للمنظر : « معذرة ! .. فيم كل هذا « الترميدور » ؟ (١) .. حذار أن يصيبكم برد فى هذا الجو أيها المواطنون . ان الريح قارسة ، فلماذا لا تعودون الى مقاعدكم ، وتنشدون الدفء ؟ »

وتفرق الحشد تدريجا ، بينما سار العملاق الى السائق الذى كان ماضيا فى هياجه ، وقال : « لقد أصبت الكفاية من التهوس أيها الرفيق السائق . فاخرج من الجليد ، وأذك مراجلك ، وانطلق بقطارك ، وكن يقظا مفتح العينين ! »

— ١٤ —

• **استأنف** القطار – فى اليوم التالى – سيره فى بطء شديد ، خوفا من الخروج عن القضبان ، التى كستها الريح بنثار من الثلج ، والتى لم ينظفها أحد . وما لبث أن وقف لدى حطام محروق ، عديم الحياة ، هو كل ماتبقى من محطة (كيلمس السفلى) ، التى

---

(١) « ترميدور » هو اسم الشهر الحادى عشر فى التقويم الذى وضعته الثورة الفرنسية فى العام الاول للحكومة الجمهورية .. وقد أصبح رمزا يطلق على دعاة الفتن والمحرضين على الهياج ، واستخدمه الملاح « ذى الوعى السياسى » هنا رمزا للهياج ذاته .

ظل اسمها يبدو باهتا على واجهتها المسودة ..

وخلف المحطة كانت ثمة قرية مقفرة ملتفة بالجليد ، وقد دمرتها النيران هى الاخرى . وكان البيت الاخير منهـا كتـلة من فحم ، والبيت الملاصق له مهدما ، حيث سقطت الدعامات الخشبية التى كانت تقوم أركانه .. وفى طول الشارع الذى تخلل منازل القرية، تناثرت الزحافات المكسورة ، والاسوار المحطمة ، وقطع صدئةمن المعادن ، وقطع مهشمة من الاثاث .. وكان السناج يشوه بياض الجليد ، كما بانت خلال برك من الجليد الذائب رقاع من الارض السوداء ، أطلت منها كتل من الخشب نصف محتـرقة ، تنم عن الجهود التى بذلت للحصول على الماء لاطفاء الحريق .

على أن المكان لم يكن خاليا من الحياة كما تبدى ، اذ ظلت بهفئة قليلة من الناس . ونهض ناظر المحطة من وسط الاطلال ، فقفـز اليه الموكل بالقطار ، وشرع يتحدث اليه : « اظن أن حريقا شب فى القرية ، وان المحطة احترقت خلاله ؟ »

ــ نهارك سعيد ، وأهلا بك .. أجل ، لقد منينا بحريق حقـا ، ولكن هذا لم يكن أسوأ مافى الامر .

ــ لست أفقه ما تعنى ..

ــ خير لك أن لا تحاول !

ــ ما أحسبك تعنى ستريلنيكوف ؟

ــ بل اياه اعنى !

ــ عجبا ! لماذا ؟ .. ما الذى فعلتموه ؟

ــ لم نفعل شيئا ، وانما جيراننا هم الذين فعلوا .. على اننـا عوقبنا فى سورة الغضب . أترى القرية التى هناك ؟ .. انها قرية (كيلامس السفلى) ، فى اقليم (اوست ــ نيمدينسك) .. كل ماجرى كان من جرائها !

ــ وأى جرم ارتكبه أهلها ؟

ــ كل الآثام السبعة الكبرى ، فى الواقع .. لقـد حلوا لجنـة الفلاحين الفقراء فى قريتهم ، وهذا أول الذنوب .. وثانيا ، رفضوا

أن يقدموا جيادا للجيش الاحمر .. وتذكر انهم جميعا من الفرسان التتار ! .. وثالثة الاثافى انهم عصوا مرسوم التعبئة ..

ـ آه ، فهمت .. فهمت تماما .. ومن أجل ذلك أمطروا بالقنابل

ـ طبعا !

ـ .. من قطار مصفح ؟

ـ بالطبع !

ـ أمر جد محزن . على انه ليس من شأننا فى شىء .

ـ لقد انتهى، على أية حال . بيد أن الانباء التى تخصكم ليست طيبة ، هى الاخرى .. فاننى أخشى أن تكونوا مضطربن الى أن تمكثوا هنا يومين !

ـ أحسبك تمزح ، فاننى أقل فى قطارى مجندين للجبهة .

ـ لست أمزح البتة . لقد تعرضنا لعاصفة ثلجية أسبوعا بأكمله، ومن ثم فان ركامات الجليد تغطى الخط ، ولم يكن هناك من يزيلها، اذ هرب نصف أهل القرية ، وسأكلف الباقين بالمهمة ، ولكنهم غير كافين ..

ـ ياللعنة اللعنات !.. ترى ما الذى أفعله الآن ، بحق الجحيم ؟!

ـ سنطهر الخط من الجليد فى فترة مناسبة .

ـ وما سمك الجليد ؟

ـ ليس قليلا . انه متباين الكثافة ، على ان أسوأ مناطقه هى التى فى الوسط . وهناك شق على حوالى ميلين ، ولسوف تعانى عنده عناء بكل تأكيد . أما مابعده ، فقد حجزت الغابة معظم الجليد عن الخط . وعلى الجانبين خلاء ، ومن ثم فان الريح دفعت عنه قسطا من الركامات .

ـ ياللجحيم ! ياله من مأزق ! .. سأجند الركاب فى العملية .

ـ هذا ما كنت أفكر فيه !

ـ على اننا يجب أن لا نمس البحارة . ولكن هناك فرقة كاملة من المجندين للعمل ، فضلا عن المسافرين بالمجان . فلدينا ـ بوجه عام ـ حوالى سبعمائة .

ـ هذا أكثر مما نرجو ، وسنبدأ بمجرد الحصول على مجارف ، فنحن نعانى نقصا فيها ، وقد أرسلت الى القرى القريبة أنشد مزيدا ، ولن تلبث أن تصل بعد وقت قصير .

ـ يا الهى ! .. أى نحس هذا ! .. أتظن اننا سنحصل على شيء منها ؟

ـ بلا شك . انهم يقولون ان الكثرة تستولى على المدن ، فما بالك بخط حديدى ! .. لا تحمل هما !

ـ ١٥ ـ

• **استغرقت** ازاحة الجليد عن الخط الحديدى ثلاثة أيام، وقد اشترك جميع آل جيفاجو ـ حتى نيوشا ـ فى العمل . وكانت هذه أحسن أيام ثلاثة فى الرحلة . وكان للمنطقة مظهر مغلق ، محفوف بالاسرار ! .. كان فيها شيء يذكر المرء بثورة «بوجانشيف» ـ كما رآها بوشكين ـ وبآسيا البدائية الضارية كما صورها « اكساكوف » . وقد ضاعفت الاطلال من جو الغموض ، وكذلك فعل الضجر المشوب بالشكوك ، الذى تبدى ممن بقى من أهل القرية ، فقد كانوا فى خوف من المخبرين والوشاة ، ومن ثم فانهم كانوا يتحاشون ركاب القطار ، وكانوا منطوين على أنفسهم ، صموتين !

وقسم العاملون الى فرق ، وجعل المجندون للسخرة بمعزل من الركاب المدنيين . وأحيط الموقع بجنود الامن .

وقسم هذا الجزء من الخط الحديدى الى قطاعات ، فعينت لكل قطاع فرقة ، وأوفدوا جميعا الى قطاعاتهم ، فشرعوا فى العمل فى وقت واحد . وكانت تلال الثلج بين القطاعات تحجب كل فرقة عن الاخرى ، وقد تركت هذه التلال الى النهاية .

وأخذ العمال يقضون النهار كله فى العراء ، فلا يعودون الى القطار الا للنوم . وكان الجو بديعا ، تشوبه لذعة من برودة ، كما كانت النوبات قصيرة ، اذا لم تكن ثمة مجارف كافية للجميع . وهكذا

كان العمل مبعث لذة وسرور .

وكان قطاع يورى من الخط الحديدى محوطا بمنظر بديع . فكان الفضاء - من ناحية الشرق - يغوص فى الوادى ، ويرتفع ، كأنه أمواج متتابعة حتى الافق .. وعلى قمة أحد التلال ، كان ثمة بيت معرض لكل الرياح ، من كل اتجاه . ولا بد أن أشجاره كانت تظله من الشمس فى الصيف ، ولكن الصقيع الذى وشاها لم يعد يمكنها من أن تكون للبيت وقاء .

وكان الجليد ينثنى فيحيط بكافة الاركان ، ولكنه لم يقو على أن يخفى تماما مجرى متعرجا لجدول كان يندفع - فى الربيع - هابطا الى المنخفض الممتد تحت حافة الخط الحديدى ، والذى كان - فى تلك الآونة - مليئا بالجليد .

وراح يورى يسائل نفسه : ترى أكان فى البيت أى مخلوق حى؟ .. أو انه كان خاويا خاليا ، متروكا للخراب ، أو مخصصا لاحدى لجان الاراضى ؟ .. **وما الذى جرى للقوم الذين كانوا يعمرونه يوما ويعيشون فيه ؟ .. هل فروا الى الخارج ، أو انهم هلكوا بأيدى الفلاحين ؟ .. أو تراهم كانوا مستأثرين بحب النـاس ، ومن ثم سمح لهم بالبقاء فى المنطقة كاخصائيين فنيين ؟ .. واذا كانوا قد مكثوا ، فهل ترى « ستريلنيكوف » قد تركهم وشأنهم ، أو انهم قد شاطروا أهل القرية مصيرهم ؟**

كان المنزل يستهوى فضوله ، ولكنه ظل محتفظا بصمته المفعم بالاسى . ولم تكن الاسئلة مأمونة فى تلك الايام ، كما انه لم يكن ثمة من يقبل أن يجيب عنها !

وكانت الشمس تلمع على الجليد فى توهج أبيض يبهر الابصار ، وراح يورى يقتطع شرائح كبيرة من الجليد ، محدثا نثارا ماسيا من الشرر ، كان يذكره بأيام طفولته . فتمثل نفسه فى ساحة دارهم ، وقد ارتدى قلنسوة مدببة موشاة الاطراف ، وقناعا من صوف الغنم الاسود ، مثبتا الى القلنسوة بمشابك ، وقد شقت فى وبره المجعد فتحتان لعينيه .. وراح - يومئذ - يقتطع الجليد ذا السناء

الخاطف للابصار ـ تماما كهذا الجليد ـ على شكل مكعبات ، واهرام ، واقماع ، وقلاع ، ومدن فى كهوف .. كان للحياة طعما بديعا فى تلك الايام الخالية ، البعيدة .. كان كل شىء متعة مستساغة للعين وللمعدة !

ومع ذلك فقد كان العاملون فى تقطيع الجليد ـ فى هذه الثلاثة الايام التى قضوها فى العراء والهواء الطلق ـ يشعرون هم الآخرون بشعور بهيج يصور لهم ان معداتهم كانت مليئة .. شعور بالشبع العذب . ولا عجب ، فقد كانوا يمنحون فى المساء ارغفة كبيرة من الخبز الطازج الساخن ، الذى لم يكن أحد يدرى من أين أتى ، ولا من صاحب الأمر باحضاره .. وكانت تعلوه قشرة محمصة ، لذيذة ، لامعة ، تختفى فى الجوانب .. اما فى أسفل الارغفة ، فكانت تندس وتنغرز ذرات وقطع صغيرة من الفحم !

— ١٦ —

• **وشغفوا** بأطلال المحطة المخربة ، كما يشغف الرحالة بمأوى آمن يصادفه أثناء رحلة له فى الجبال التى تكسوها الثلوج . وقد بقيت الاطلال المهدمة فى ذاكرتهم ، بشكلها ، وموقعها ، وكل كبيرة وصغيرة من الضرر الذى حاق بها .

وكانوا يعودون الى المحطة فى كل مساء عندما تغرب الشمس ـ وكانت فى غروبها تتوارى دائما خلف نفس الشجرة الضخمة القائمة خارج نافذة عامل التلغراف ، كأنما وفاء منها للماضى وللمكان الذى اعتادت أن تغرب فيه كل يوم ! ـ وكان جزء من الجدار الخارجى للمحطة قد انهار ، فصدع سقف الحجرة ، ولكن النافذة ظلت قائمة ، وظل الجانب المقابل لها من الغرفة على حاله ، لم يمس بشىء ، فبقى الورق الذى كان يكسو جداره ـ بلونه الشبيه بلون القهوة ـ وبقيت المدفأة المبنية بالقرميد ، يحيط بها حاجز مقوس ، ويعلوها غطاء من نحاس .. كما بقيت على الحائط قائمة بأثاث الحجرة ، محوطة باطار أسود . وكانت الشمس الآفلة تزحف ـ كما اعتادت أن تفعل

قبل النكبة لترتمى على القرميد ، وتلقى على ورق الجدار ضوءاً بنيا دافئا ، وتلقى ظل الشجرة على المشجب المثبت الى الجدار ، فكأنه وشاح امرأة معلق !

وكانت حجرة الانتظار — القائمة فى مؤخر المبنى — قد دمرت . ولكن بابها المغلق ظل قائما ، يحمل اعلانا ثبت اليه منذ الايام الاولى لثورة فبراير ، أو قبل ذلك بقليل ، وقد جاء فيه :

« ارجو أن لا يتضايق — الى حين — الركاب الذين بحاجة الى أدوية أو ضمادات . فاننى أحكم اغلاق هذا الباب ، لاسباب لاتخفى .. وهذا اعلان للتنبيه الى ذلك .

توقيع : الملاحظ الطبى

لمنطقة (اوست — نامدينسك)

وعندما أزيلت تلال الجليد التى كانت تفصل بين قطاعات الخط الحديدى أخيرا ، أصبح الخط يبدو ممتدا الى بعد شاسع ، فى استقامة السهم . وكانت كثبان الجليد المزاح تلمع متألقة على جانبى الخط ، وقد ازداد بياضها نصوعا بالقياس الى سواد الغابة التى كانت تقوم كالسياج .

وعلى مسافات متساوية — على طول الخط الحديدى — وقفت جماعات الرجال مزودة بالمجارف .. واذ رأى كل فريق سواه ، دهشوا اذ تبينوا كثرتهم !

— ١٧ —

• ومع ان الوقت كان متأخرا ، والظلام يوشك ان يهبط ، الا انه كان من المنتظر أن يتحرك القطار بعد سويعات مستأنفا رحلته . وخرج يورى وتونيا ليستمتعا برؤية الخط ثانية ، بعد اذ تم رفع الجليد عنه .. ولم يكن قد بقى مخلوق على الخط ، فسرحا بصريهما نحو الافق ، وتبادلا بضع كلمات ، ثم ارتدا على اعقابهما .

وفى الطريق الى عربتهما ، سمعا أصوات امرأتين تتشاجران فى حدة ، فعرفا من الاصوات ان المتشاجرين هما : اوجريسكوفا ،

وتياجونوفا . وكانتا تسيران فى الاتجاه الذى كان يتخـذه يورى وتونيا ، ولكن فى الجانب الآخر من القطار ، وقد حجبهما خط العربات الذى كان يبدو وكأنه لاينتهى . ولاح أن المرأتين لم تكونا تحـاذيان يورى وتونيا قط ، بل كانتا تسبقانهما أو تتأخران عنهما دائما .

وكان من الواضح أن الانفعال استبد بهما ، حتى أوهن قواهما . . ونمت الطريقة التى كانت اصواتهما ترتفع بها الى درجة الصراخ ، ثم تهبط وتخفت . فتتحول الى همس ، أن سيقانهما كانت تأبى أن تحملهما ، أو انهما كانتا تتعثران وتسقطان على كسف الجليد . ولاح أن تياجونوفا كانت تسير وراء اوجريسكوفا وتنهال عليها بقبضتيها كلما لحقت بها . . **وراحت ترميها بكل اسم خطر ببالها ، فاذا صوتها الرخيم العذب يبدى سبابها اشد اقذاعا وقبحا مما هو ، بمراحـل لا نهاية لها . . وكان يتحشرج فيصبح أشد خشونة من صـوت رجل يصخب ويلعن !** . . كانت تصيح : « ايتها المومس . . ايتهـا العاهر التى تجر ذيلها . لا أكاد أتحـرك قيد بوصـة دون أن أراك تختالين وتتمايلين . ألم يكفك رجلى الكهل ، فأبيت الا أن تتغامزى لاجتذاب طفل رضيع ؟ »

ــ اذن ففاسيا زوجك الشرعى ، هو الآخر . . أليس كذلك ؟ . . يالها من نكتة بديعة !

ــ سأمنحك زوجا شرعيا ايتها القذرة الموبوءة ! . . لسوف اقتلك اذا تفوهت بكلمة أخرى من فمك القذر !

ــ وبعد ؟ . . استبقى قبضتيك لنفسك . ما الذى تريدينه بالله ؟

ــ أريد أن اراك ميتة ، يا مباءة الهوى ، يا قطة مسعورة ، يا فاجرة تجردت من الحياء !

ــ هذا رأيك فى ، اليس كذلك ؟ . . حسنا ، الواقع اننى لست سوى قطة ، وفاجرة بالقياس الى سيدة عظيمة مثلك ! . . سـيدة جليلة القدر ، ولدت فى حمأة ، وتزوجت فى خنـدق ، ولقحها فأر وقنفذ لتلد برصا !! . . النجدة ، النجدة ، انها تقتلنى ! . . انهـا تقتلنى ! . . انقذوا يتيمة بائسة ، انقذوا فتاة عزلاء مسكينة !

فغذت تونيا السير ، قائلة ليورى : « أسرع ، فلست أحتمل أن انصت الى هذا .. انه يثير الاشمئزاز ! .. انهما لن تلبثا أن ترتكبا امرا شنيعا فعلا ! »

— ١٨ —

• **وتغير** الطقس والمنظر دفعة واحدة ، فانتهت السهول ، وأخذ الخط الحديدى يتلوى صاعدا فى التلال والهضاب ،فى منطقةجبلية . وتراجعت ريح الشمال التى كانت تهب بلا انقطاع ، وهبت من الجنوب ريح ساخنة ، كأنما انبعثت من فرن .

وفى هذه المنطقة ، كانت الغابات تنمو على ربوات تبرز عن جوانب السفوح ، وكان الخط الحديدى حين يمتد خلالها ، يضطر القطار الى أن يمضى مصعدا فوق التل — بانحناء خطير — حتى يصل الى وسط الغابة ، ثم ينحدر فى شدة .. وكان يئز وينفث الدخان وهو يشق طريقه الى الغابة ، لايكاد يقوى على جر نفسه ، وكأنه حارس طاعن فى السن — من حراس الغابة — يسير فى المقدمة ، ليقود المسافرين الذين كانوا يميلون برؤوسهم من جانب الى آخر ، ليروا ماكان فى الوسع ان يرى .. ولكن ما من شىء كان يرى فى تلك المرحلة ، اذ كانت الغابات لاتزال مستغرقةفى نعاس الشتاء وطمأنينته، فلا شىء الا ان يتحرك غصن — هنا أو هناك — فينطلق متحررا من عبء الجليد الجاثم ، وكأنه يخلص نفسه من طوق .

وتغلب النعاس على يورى ، فظل طيلة هذه الايام مستلقيا فى سريره ، ينام ويستيقظ ، ويفكر وينصت .. ولكن ما من شىء يستحق السمع كان يتناهى الى اذنيه ..

— ١٩ —

• **وبينما** كان يورى ينام ملء جفنيه ، كان الربيع يبث الدفء ، ويذيب كل تلك الكميات الهائلة من الجليد ، التى حطت على روسيا .. كل ذلك الجليد الذى هبط على موسكو يوم غادروها ، وظل يتزايد

طيلة الوقت ، منذ ذلك الحين .. كل ذاك الجليد الذى قضوا ثلاثة ايام ليزيحوه عن الخط الحديدى .. كل تلك الطبقة السميكة ، العميقة ، من الجليد ، التى امتدت الى اقصى مرامى البصر ، فى المسافات الشاسعة .. فى السهل والجبل .

وكان الجليد يذوب – بادىء الامر – فى هدوء وخفية ، من الداخل .. ولكن ما ان تم نصف عملية الذوبان الجبارة ، حتى أصبح من العسير اخفاؤه ، وتجلت المعجزة للانظار ، فانبثقت المياه مندفعة من تحت السطح ، فى خرير منغوم ، عال .. وسرت حركة فى اعمق اعماق الغابة ، حيث لاسبيل لاحد الى الوصول .. واستيقظ كل شىء فيها .

وكان ثمة مجال واسع للمياه تمرح فيه ، فكانت تلقى بنفسها على الصخور من عل ، وتملأ كل بركة حتى تفيض وتنتشر .. وكانت تهدر ، وينبعث منها فى الغابة دخان وبخار ، ثم تغوص فى الجليد فيعوق حراكها ، وترسل فحيحا اذا ما احتكت بسطح الارض ، أو هوت من عل متبددة فى نثار مصحوب بغبار .. وارتوت الارض .. واشرأبت اشجار الصنوبر العتيقة ، متطاولة الى ارتفاعات يدور الرأس اذا حاول الوصول الي قممها ، حتى تكاد تشرب القطر من السحب ، بينما كانت تبعث – عند جذورها – زبدا أبيض تشوبه دكنة أشبه بلون الصدأ ، او كأنه زبد البيرة على شارب رجل منهوم ظامىء .

وسكرت السماء بالربيع ، وانتشت بأبخرته ، واثقلت بالسحب .. وكانت السحب المنخفضة تخيم على المرتفعات كأنها لباد ، وتمخر عباب السماء فوق الغابات ، والمطر يتواثب منها دافئا ، عبقا بعبير التربة ، عذبا .. يمحو عن الارض درعها من الثلج الاسود !

واستيقظ يورى ، فتمطى ، ورفع جسده على مرفقيه ، وارسل بصره ، وأرهف سمعه !

— ٢٠ —

• **واذ** اقتربوا من منطقة المناجم ، ازداد عدد الدساكر والاماكن

المعمورة ، وقصرت المسافات التى كان القطار يقطعها ، اذ ازدادت محطات الوقوف ، وكثر عدد الذين كانوا يصعدون اليه أو يغادرونه فى المحطات الصغيرة . وبدلا من ان يركن الى النوم اولئك الذين لم تكن امامهم سوى مسافة قصيرة ، فانهم كانوا يبحثون لانفسهم عن مقاعد بالقرب من الابواب ، أو فى منتصف العربة ، ثم يجلسون ويندمجون فى حديث خافت عن مسائل محلية لايفهمها سواهم .

ومن العبارات العابرة التى كانت تفلت من أفواه هؤلاء القوم من أهل المنطقة ـ خلال الايام الثلاثة السالفة ـ أدرك يورى ان المنطقة التى يمرون بها كانت فيها كفة البيض هى الراجحة فى القتال ، وانهم استولوا على ديورياتين ، أو أوشكوا .. وان قوات البيض كانت بقيادة جاليولين ، الذى رآه لآخر مرة فى (مليوزييفو) ، اللهم الا أن يكون قد أخطأ التقاط الاسم ، او ان لصديقه القديم قرينا فى الاسم !

ولم يشأ أن يقول شيئا لاسرته ـ الى حين ـ رغبة منه فى أن لا يثير انزعاجهم ..

ـ ٢١ ـ

• **استيقظ** « يورى » فى الساعات الاولى من الليل ، وقد افعمت نفسه بسعادة مبهمة ، بلغ من طغيانها انها ايقظته . وكان القطار واقفا لا يريم حراكا ، والمحطة تسبح فى العتمة الخفيفة المشرقة التى ترافق الامسيات البيضاء (١) . كان فى تلك العتمة الوضاءة (!) شىء يوحى بالفضاء الرحب ، وكأنما كانت المحطة تجثم عالية فوق ذروة سلسلة جبلية . وكان ثمة اناس يسيرون على الرصيف ، مارين بالعربات ، وهم يتكلمون بأصوات خافتة .. يسيرون بخطى خفيفة وكأنهم أشباح . **وتأثر يورى لهذه المراعاة لراحة المسافرين النائمين .. المراعاة التى كانت من شيم ما قبل**

---

(١) أمسيات يشيع فيها سناء يخفف من ظلمتها .

الحرب ! .. على انه أخطأ الحدس فى الواقع ، فقد كان على هذا الرصيف ماعلى سواه من جلبة ، وصياح ، ووقع اقدام ثقيلة تدق الارض . ولكن كان ثمة شلال مائى على مقربة ، فوسعت فوته وانطلاقه من رقعة الليل المترامية الاطراف ، وهذا ما ملأ نفس « يورى » سعادة اثناء نومه .

وكان خرير الماء المنصب ، الذىلم يكن ينقطع ، يطغى على كل ماعداه من اصوات ، فيوهم السامع بالهدوء . ولم يلبث « يورى » ان راح فى سبات عميق وقد هفا الخرير بأعصابه ، وسرى عنه ..

وكان ثمة رجلان يتحدثان تحت سريره :

ـ وبعد ، ترى هل « لووا ذيولهم » ؟ .. هل رانوا الى الهدوء الآن ؟

ـ اتعنى اصحاب المتاجر ؟ ـ أجل .. تجار الغلال .

ـ الذين يتغذى الشعب من ايديهم ! .. ما ان دقت رقاب فئة قليلة منهم ، ليكونوا عبرة لسواهم ، حتى اصبح الآخرون فى جودة الذهب وصفائه . وقد فرضت عقوبة مالية (غرامة) على المنطقة !

ـ وما مقدارها ؟ ـ اربعون الف كيل .

ـ ما اشبه الامر بالقصص ! ـ ولماذا ترانى اكذب عليك ؟

ـ اربعون الف كيل ؟ !

ـ اربعون الف كيل من الحنطة !

ـ تلك كانت فكرة بارعة !

ـ اربعون الف كيل من اجود حنطة الارض !

ـ حسنا ، وبعد ؟ ..انها تربة خصبة ، والمنطقة من احسن مناطق الاتجار فى الحنطة . فمن هذه البقعة فصاعدا ، على طول نهر (رينفا) الى ان تصل الى (يورياتين) ، تجد قرية بعد قرية ، وميناء للغلال بعد ميناء ، وتاجرا للجملة بعد آخر !

ـ لاترفع صوتك والا ايقظت الناس !

فقال الآخر متثائبا : « حسنا ! »

ـ مارأيك فى ان نحظى بقسط من النوم ؟ .. كأنى بالقطار



يتحرك .

على ان القطار ظل ساكنا حيث كان . وانما كان الضجيج منبعثا من قطار آخر أخذ يدنو من خلف بسرعة ، وانفجر منه زئير يصم الآذان ، ويطغى على صوت خرير مسقط المياه كلما ازداد اقترابا . وما لبث ان مر على الخط الحديدى الموازى ، وكان قطارا من الطراز القديم ، فأرسل صفيرا طويلا ، وأخذ الضوء الذى فى مؤخرته يومض ، ثم اختفى فى الافق البعيد .

ـ هذه حال سيئة . لايعلم سوى الله متى نعاود السفر .

ـ اجل ، فلن يكون هذا فى القريب العاجل .

ـ انه قطار مصفح خاص .. **لابد ان فيه « ستريلنيكوف » !**

ـ اجل ، لابد انه هو .

ـ انه لوحش كاسر ، اذا قيس بخصوم الثورة !

ـ انه يطارد « جالييف » .

ـ ومن يكون هذا ؟

ـ « هيتمان جالييف » . يقولون انه خارج (يورياتين) ، مع

قوة تشيكية تحميه . وقد استولى على المرافىء ، ومحصون اللفت الفاسد . وهو رابض فى موقفه .. هيتمان جاليف !

ـ لم اسمع باسمه اطلاقا !

ـ أو لعله الامير « جاليلييف » . لست اتذكر الاسم تماما .

ـ ليس هناك شخص بهذا الاسم . لابد انه « على قربان » ، وقد اختلط عليك الاسم .

ـ ربما كان « قربان » . ـ هذا اكثر احتمالا !

ـ ٢٢ ـ

• **استيقظ** « يورى » مرة اخرى حوالى الصبح ، وقد حظى بحلم آخر سار ، وظل الشعور بالاغتباط والانطلاق يلازمه . وكان القطار لايزال واقفا ، ساكنا . ولعلها كانت عين المحطة السابقة ، ولكن من المحتمل ـ كذلك ـ انها كانت محطة أخرى . وكان خرير الشلال لايزال مسموعا .. ولعله كان شلالا آخر ، ولكن من المحتمل كذلك انه كان عين الشلال الأول !

وعاد الى النوم ثانية لتوه . وفيما كان يغفو ، سمع ـ وهو بين اليقظة والنعـاس ـ وقع اقدام تجـرى ، وجلبة وهرجا . وكان « كوستويد » يتشاجر مع قائد القافلة ، وقد راح كل منهما يصرخ فى وجه الآخر . وكان الهواء عليلا ، ابدع من ذى قبل . كان يحمل فى اطوائه عبير شىء جديد ، شىء لم يكن موجودا من قبل ، شىء خرافى يرتبط بالربيع ، واللون الابيض ، والسمرة ، واللامادية .. وقد تناثر مثل نتف الثلج فى شهر مايو ، عند ما تتساقط الكسف وهى تذوب ، فترتطم بالارض متهشمة ، ويتحول لونها الى سمرة لا الى بياض .. وقال يورى لنفسه فى منامه : « شفاف ، ابيض ضارب الى السمرة ، عذب العبير .. كأنه كريز العصافير ! »

ـ ٢٣ ـ

• **وقالت** له تونيا فى الصباح التالى : « أنك غريب الطباع فى الواقع يا يورى ! .. انك كتلة من المتناقضات : فأحيانا توقظك ذبابة ،

فلا يعود لك من سبيل الى استئناف النوم ، حتى الصباح .. وها انتذا هنا تنام وسط كل هذا الصخب ، حتى اننى لم استطع ان اوقظك ! .. **لقد هرب « بريتوليبيف » و « فاسيا » . تصور هذا ! .. وكذلك تياجونوفا واوجريسكوفا ! .. هل بوسعك ان تتصور امرا كهذا ؟ .. مهلا ، فليس هذا كل شيء . لقد هرب فورونيوك ايضا** . انها الحقيقة . صدقنى اذا قلت انه هرب ! ثم اصغ الى : كيف تمكنوا من الهرب ، وهل كانوا معا ، أو كانوا فرادى ، ومن الذى سبق سواه ؟ .. هذا كله لغز غامض كل الغموض ! .. ان بوسعى ان أفهم امر فورونيوك طبعا ، فما هو ان اكتشف فرار الآخرين ، حتى اصبح مضطرا الى أن يسعى النجاة بجلده . ولكن ، ما أمر الباقين ؟ .. هل اختفوا بمحض ارادتهم حقا ، او ان شخصا ما قد اختطفهم و فر بهم ؟ .. **واذا كان ثمة شك فى امر المرأتين مثلا ، فهل ترى تياجونوفا قد قتلت اوجريسكوفا ، او ان هذه هى التى قتلت تلك ؟** .. لقد راح قائد فرقة المجندين للعمل يجرى من اول القطار الى آخره كالمجنون ، وهو يصرخ : « لن ادعكم تأمرون بتحرك القطار . اننى آمركم — باسم القانون — ان لا تتحركوا حتى القى القبض على السجناء ! » . فصرخ قائد القطار ، ردا عليه : « اننى أنقل جنودا للجبهة ، ولن انتظر رجالك المليئين بالقمل ! .. لن انتظرهم ، ولو فى المنام ! » . ومن عجب ان هرع الاثنان الى كوستويد يوبخانه ، قائلين : « انك من النقابيين ، وأنت رجل متعلم ، فكيف تجلس وتدع جنديا بسيطا ، جاهلا ، ابن حرام ، يتصرف بمثل هذا الاستهتار ؟ .. ومع ذلك تزعم انك شعبى (١) ! » . فصب كوستويد على رأسيهما كل ما فى نفسه ، وراح يقول : « انه لامر طريف !.. كأنى بالسجين مسئول عن مراقبة حارسه ، أليس كذلك ؟ .. جميل وعين الحق !

---

(١) الشعبيون هم اليساريون الذين كانوا يتزمتون فى التشبث بالمبادىء ، وقد كرسوا أنفسهم « للعمل بين الشعب » .

لقد جاء اليوم الذى سنسمع فيه الدجاجات تصيح بدلا من الديوك ! » .. ولقد رحت أهزك بكل ما فى من قوة ، وانا اقول : « يورا ، استيقظ ! .. لقد حدث فرار ! » . ولكن كل جهد بذلته لم يجد نفعا . ولو ان بندقية انطلقت بجوار اذنك لما سمعتها .. ولكنى سأنبئك بالمزيد ، فيما بعد .. آه ، الا انظرا ! .. انظر يا أبى ، وانظر يا يورى .. ما ابدع هذا ! »

وخلال الثغرة التى كانت فى النافذة – والتى خلفها غياب لوح من الزجاج – رأوا الريف تغطيه فيضانات الربيع من اوله الى آخره . اذ طغى نهر ما – فى مكان ما – فحطم ضفتيه ، وانطلق الماء حتى بلغ الخط الحديدى . واستحال لون الماء ، هنا وهناك ، الى زرقة المعدن . وكانت شمس الصباح ترسل على بقية سطحه اضواء ناعمة ، براقة ، فى خفة وميوعة الزبد المنصهر اذا ما راح الطاهى يمسحه بريشة على سطح فطيرة محمرة !

وفى هذا الفيضان الذى لم تكن له شطآن ، غاصت اعمدة من السحب البيضاء ، وقد ذابت اطرافها فى الحقول ، والمنخفضات ، والاحراش . وفى وسط هذا الطوفان ، كانت ثمة رقعة ضيقة ، طويلة ، من الارض ، تحمل صفا من الاشجار التى تضاعف عددها اذ انعكست صورتها على الماء ، وبدت معلقة بين الارض والسماء !

وقال الكسندر الكسندروفيتش : « انظرا .. هذه اسرة من البط ! »

– اين ؟

– بالقرب من الجزيرة . الى اليمين . ياللخسارة ، لقد طارت ! .. لقد أخفناها !

فقال يورى : « اجل ، ها انذا اراها الآن . لابد لى من ان اتحدث اليك يا الكسندر الكسندروفيتش ، فى وقت ما .. فى اى وقت آخر .. **ومهما يكن الامر ، فاننى جد مسرور لان المجندين والمرأتين قد حزموا امرهم وفروا . وانى لموقن من انه لم يحدث اى اغتيال . كل ماهنالك انهم فروا .. انطلقوا كهذا الماء ! »**

— ٢٤ —

• **أوشكت** الليلة البيضاء على نهايتها . وكان كل شيء واضحا للابصار : الجبال ، والغابة ، والاخدود الذى شقه الماء .. ولكنها كلها كانت تبدو كأطياف مترددة ، وكأنها لا تؤمن بوجودها .. بل كأنها لا تقوم الا فى قصة خرافية !

وكانت الغابة — التى ضمت عددا من أشجار كريز العصافير نبتت براعمها — قد بدأت تكتسى بالاوراق ، وهى تنمو تحت هضبة مقوسة ، على لسان ضيق من الارض كان ينتهى ، بدوره ، بهاوية . ولم يكن المسقط المائى يبدو للعين الا من حافة الاخدود الممتد خلف الغابة ، على بعد غير كبير . وكان « فاسيا برايكين » — المجند الهارب — قد استبد به الفرح والخوف ، وهو يطيل النظر اليه ! .. لم يكن ثمة ما يضارع الشلال فى المنطقة المحيطة به . كان فريدا فى نوعه ، وهذا ما جعله رهيبا باعثا على الخوف ، وأحاله الى كائن اوتى نعمة الحياة والوعى .. كائن لعله التنين ، او الثعبان المجنح المعروف فى تلك البطاح ، والذى كان يفرض الجزية ، ويعيث فى تلك الأرض فسادا !

وكان المسقط المائى يرتطم بصخرة حادة ، فى منتصف مهبطه ، فينشطر الى فرعين . وكان الجزء الاعلى يبدو وكأنه عديم الحركة، أما الفرعان — اسفل الصخرة — فكانا يتأرجحان قليلا ، من جانب الى آخر ، وكأنما كان الماء المتساقط ينزلق فيسارع الى تدارك ذاته ، فهو يهتز ولكنه لاينى يحتفظ بتوازنه .

وكان « فاسيا » قد بسط معطفه المصنوع من فراء الغنم على الارض ، واستلقى فوقه على حافة الغابة . فلما ازداد ضوء النهار وضوحا ، حلق طائر ضخم ، هابطا من الجبل ، مرفرفا بجناحيه الثقيلين ، وحوم بسرعة فى دائرة احاطت بالغابة ، ثم استقر على شجرة من اشجار الصنوبر قريبة من المكان الذى استلقى فاسيا فيه . وتطلع الشاب مبهورا الى رقبة الطائر ، وكانت داكنة الزرقة،

والى صدره الازرق المغبر ، ثم همس مرددا الاسم الذى كان هذا الطائر معروفا به فى جبال اورال : « رونجا » . وما لبث ان نهض فالتقط معطفه وألقاه على كتفيه ، وعبر البقعة الفسيحة ، ليتحدث الى زميلته قائلا : « هيـا أيتهـا العمة بوليـا ! .. يالله ، ما ابرد جسمك ! .. اننى اكاد اسمع اسنانك تصطك من شـدة البرد . ما الذى تحملقين فيه ، ولماذا يبدو عليك كل هذا الذعر ؟ .. لقد آن لنا ان ننطلق . اتسمعين ؟ لابد لنا من ان نصـل الى احدى القرى . فكرى فى الامر ! .. انهم سيوفرون لنا مخبأ ، ولن يؤذوا بنى جلدتهم . اننا لم نتبلغ بزاد منذ يومين ، ولسوف نموت اذا مكثنا هنا . لابد ان العم فورونيوك قد أثار ضجة فظيعة ، ولعلهم يفتشون عنا الآن ! .. لابد لنا من مواصلة السير يا عمتاه ، بل — اذا شئت الصراحة — يجب علينا ان نجرى جريا . اننى لاأدرى ماذا افعل لك أيتها العمة، فقد مكثت يومين لاتنبسين بكلمة واحدة . انك تحملين نفسـك من الهم فوق ما ينبغى ، والله ! .. **ما الذى يشقيك الى هذا الحد ؟ .. انك لم تكونى تتعمدين ان تدفعى العمة كاتى فتلقى بها من القطار . لا ، انك لم تدفعى كاتى اوجربسكوفا ، وانما اصطدمت بها جنبا لجنب عفوا ، فحسب .. لقد رأيتكما ! .. ثم انها تمالكت نفسها فسقطت على العشب — وقد ابصرت بها بعينى هاتين — ونهضت ، وراحت تعدو .** ومن المؤكد انها لن تلبث ان تلحق بنا مع العم بريتوليف، فيلتئم شملنا جميعا ، مرة اخرى . ان اهم ما فى الامر هو ان تكفى عن الحزن والهم ، واذ ذاك سينطلق لسانك ثانية ! »

ونهضت تياجونوفا ، فأمسكت بيـد فاسـيا ، وقالت بصوت خافت : « هيا يا عزيزى ! »

— ٢٥ —

• **راحت** عربات القطار تصعد التل المنحـدر ، واخشـابها تئز وتئن . وكان ثمة دغل اسفل الخط الحديدى ، لا تكاد قمم اشجاره

ان تبلغ مستوى القضبان . وفى مستوى اكثر انخفاضا ، كانت ثمة حقول . وكانت السيول قد انحسرت لتوها ، مخلفة رمالا وقطعا من الخشب مبعثرة فى غير اعتناء . ولا بد ان الكتل الخشبية كانت قد اجترفت من مكان عال ، فوق التل ، حيث كانت قد اقتطعت من قبل .

أما الحرش ذو الاشجار الحديثة النمو ، تحت الخط الحديدى ، فكان لا يزال مجردا من الاوراق تقريبا ، وكأنه فى فصل الشتاء .. بل ان البراعم التى تناثرت على الاشجار كالشموع الصغيرة ، كانت تبدو غير متناسقة مع المنظر ، وكأنها زينة مصطنعة فى غير عناية .. او لعلها تورمات احدثتها الاوساخ او الالتهابات ! على ان كل هذه الزينة القذرة ، المصطنعة ، غير المتناسقة ، كانت من علامات الحياة التى سرت فى معظم الاشجار ، تضرمها بلهب من الاوراق الخضراء !!

وهنا وهناك ، كانت تقوم شجرة من اشجار الشربين ، مستشهدة وقد غرست فيها الاوراق الوليدة ، التى لم تتفتح تماما ، اسنانها وسهامها . وكنت تشم عبيرها بمجرد النظر اليها . كان يفوح منها عبير « القلفونية » التى تستخدم فى صنع الطلاء اللامع « اللاكيه » . وما لبث القطار ان بلغ المستوى الذى لابد ان الكتل الخشبية قد جرفت منه ، تحت وطأة السيل . وتجلى للبصر فراغ خلال الغابة ، عند انحناء طريق القطار ، وقد تناثرت فيه شظايا الخشب ، واستقرت فى وسطه كومة من الكتل الخشبية الكبيرة . وتوقفت القاطرة فجأة ، فارتجف القطار ثم وقف فى البقعة التى بلغها من السفح المقوس للتل ، منحنيا قليلا الى الخارج . وانبعثت من صافرة القاطرة بضع صرخات وعواءات ، ولكن المسافرين لم يكونوا بحاجة الى هذه الاشارات ليعرفوا أن القطار قد وقف ليتزود بوقود .

وانزلقت الابواب مفتوحة ، وتدفق خلالها جمع يكاد يعادل سكان بلدة صغيرة ، فلم يمكث فى عرباتهم غير الملاحين ، اذ كانوا معفون

من كل ما يتعب ! .. ولم يكن فى البقعة الفضاء من الاخشاب الصغيرة ما يكفى لملء مخزن الوقود ، مما دعا الى تقطيع بعض الكتل الخشبية الكبيرة الى الحجم المناسب . وكان لدى السائق ومساعده بعض المناشير بين معداتهما ، فقدماها الى المتطوعين ، منشارا لكل رجلين .. وكان « يورى » وحموه بين هؤلاء المتطوعين .

واطل الملاحون برؤوسهم خلال ابواب عربتهم ، وهم يبتسمون تشفيا . كان المتطوعون خليطا من عمال فى اوسط العمر فرغوا لتوهم من التدريب الذى اتيح لهم بحكم الظروف الطارئة ، وفتيان قد بارحوا الكلية البحرية لتوهم أيضا ، وقد بدوا وكأنهم دفعوا خطأ وسط الملاحين المتوسطى العمر ، الذين كانوا من آباء الاسرات وارباها ، والذين راحوا يتمازحون ويعرضون حماقاتهم على مرأى من الملاحين الذين يكبرونهم ، ليشغلوا انفسهم عن التفكير . اذ كانوا جميعا يدركون ان ساعة محنتهم قد دنت !

ولاحقت النكات والسخريات فرق العمال : « هاى ، ايها الجد ! .. لست احجم عن العمل ، ولكننى لا ازال صغير السن ، وان مربيتى لتأبى ان تدعنى اعمل ! » .. « هاى ، يا مارتا ! .. حذارى أن تشقى بالمنشار ثوبك ، والا أصبت ببرد ! » .. « هاى ، ايتها الفتاة .. لا تذهبى الى الغابة ، بل تعالى ولنتزوج ، بدلا من ذلك ! »

— ٢٦ —

• **وكانت** ثمة كتل خشبية عديدة فى البقعة الخلاء ، فذهب يورى والكسندر الكسندروفيتش الى احداها ، وشرعا ينشرانها ..

وكانت تلك هى الفترة من الربيع التى تتبدى فيها الارض للانظار ، على نفس الصورة التى كانت عليها قبل ان يسجنها الجليد ، منذ ستة اشهر . وكانت الغابة ترزح تحت رائحة الرطوبة ، وقد امتلأت بأكوام من أوراق العام الماضى ، وكأنها حجرة كان أهلها يمزقون فيها رسائل ، و « فواتير » وايصالات ، ظلت متراكمة على مر السنين !

وقال يورى وهو يدفع المنشار بحركة أبطأ - واكثر انتظاما - مما كان يصدر عن حميه : « لا تسرع بهذا الشكل ، والا انهكت قواك .. ما رأيك فى قسط من الراحة ؟ » . وكان الخشب يردد الرنين الاجش الصادر عن المناشير وهى تشقه . وفى مكان ما ، جد بعيد ، كان ثمة كروان يجرب صوته . وعلى فترات اطول ، كان ثمة عصفور يرسل صفيرا كأنه انفاس تطرد التراب من جوف مزمار .. بينما كانت القاطرة تنفث البخار فيتصاعد الى السماء فى موجات ، وكأنه لبن يغلى على موقد يشعل بالكحول ، فى غرفة رضيع !

وتساءل الكسندر الكسندروفيتش : « ما الذى كنت تبغى ان تحدثنى بصدده ؟ .. هل تتذكر قولك - عندما كنا نمر بالجزيرة التى طار البط عندها - انك كنت ترغب فى ان تتحدث الى فى فرصة قريبة ؟ »

- آه ، أجل .. الواقع اننى لا ادرى كيف اوجز الامر : **لقد كنت أفكر فى اننا نوغل باستمرار فى منطقة كلها قلاقل واضطرابات. ولسنا ندرى ما الذى سنجده اذا ما وصلنا الى مراكز الفليان .** ومن ثم ، فلعل من الجدير بنا ان نبحث الامر ، لنكون على استعداد اذا دعت الحاجة . لست ارمى بذلك الى معتقداتنا ، فليس بوسع المرء ان يقول الكثير بشأنها فى خمس دقائق ، فى غابة يدب فيها الربيع . ثم ان كلا منا يعرف الآخر تمام المعرفة ، من هذه الناحية . فأنت وانا وتونيا ، وكثير ممن على شاكلتنا ، نقيم لانفسنا عالما خاصا ننطوى فيه ، فى هذه الايام ، وكل ما بيننا من اختلاف يتمثل فى درجة شعورنا بهذا .. انما الذى ارمى اليه هو انه قد يكون جديرا بنا ان نتفق مقدما على المسلك الذى نتخذه ، حتى لانضطر الى ان يستحيى كل منا من الآخر ، او يتسبب فى اخجاله !

- اننى ادرك ما تعنى ، وأرتاح الى الطريقة التى صفته فيها . ولسوف انبئك بما ينبغى . هل تتذكر تلك الليلة من ليالى الشتاء ، التى أحضرت لى فيها الصحيفة التى نشرت اولى مراسيم الحكومة ،

وسط عاصفة ثلجية ؟ .. هل تتذكر كيف كانت تلك المراسيم صريحة ، ومحددة الى درجة لا يصدقها العقل ؟ .. تلك كانت العقلية الفردية الصريحة ، التى حاولت ان تتصل بنا . ولكن مثل هذه الامور لا تحتفظ بنقائها وطهرها الا فى عقول اولئك الذين فكروا فيها ، وفى اليوم الذى تنشر فيه ــ لاول مرة ــ فحسب . وما ان يحين اليوم التالى ، حتى تكون الفتاوى التى تمليها الاحوال السياسية قد قلبتها رأسا على عقب ! .. ما الذى أملك ان اقوله لك ؟ .. **ان نظام الحكم معاد لنا ، وان فلسفته لغريبة لنا ، غريبة علينا . فانا لم أسأل عما اذا كنت اقبل كل هذه الانقلابات . بيد اننى اؤتمنت على ثقة ، فاذا تصرفاتى ــ ولو لم تكن صادرة عن اختيار حر ــ تجعلنى مقيدا بالتزام معين ..** ان تونيا لا تكف عن السؤال عما اذا كنا سنصل فى وقت مناسب لكى نزرع الخضر . ولكننى لا ادرى ، فلست على معرفة بتربة الاورال ولا بجوها .. والصيف قصير الى درجة لا ارى معها كيف يتسنى لاى شىء ان ينضج فى الوقت المناسب !

« ولكننا ــ على اية حال ــ لا نقطع كل هذه المسافة الشاسعة لكى نزرع الخضر ونتسوقها . لا ، بل يجدر بنا ان نواجه الامور بصراحة ، وان نعترف بأن غايتنا تختلف عن هذا كل الاختلاف . اننا ذاهبون لكى نحاول ان نعيش وفقا للطريقة الحديثة ، فنأخذ نصيبنا من ثروة جدى الطائلة : ممتلكاته ، ومصانعه ، وآلاته .. اننا لا نذهب لكى نعيد بناء ثروته ، ولكننا سنفعل ما يفعله كل شخص آخر ــ وبعين الطريقة الفوضوية التى يأبى العقل ان يصدقها ــ فنساهم فى التبديد الجماعى لحطام تلك الثروة ، كى نكسب من القوت ما يعادل « كوبك » .. وليس معنى هذا اننى كنت ارجو ان استرد الضيعة ــ وفقا للاوضاع القديمة ــ كهبة .. لا ، ولو اعطيتنى وزنى ذهبا لكى أفعل . فان هذا خليق بأن يكون سفها لا يقل عن الشروع فى الجرى عاريا ، او محاولة ان تنسى الحروف الابجدية .. كلا ، لقد ولى عهد الثروة والملكية فى روسيا ،

فضلا عن اننا – آل جروميكو – قد فقدنا شغفنا بالتملك منذ جيل ، على اية حال ! »

— ٢٧ —

• كان جو العربة ساخنا ، ينضح بالانفاس والعرق ، بحيث يتعذر على المرء أن ينام . وكانت وسادة يورى مبللة كلها بالعرق ، فلم يلبث ان هبط عن سريره فى حذر – حتى لا يوقظ الآخرين – ودفع ابواب العربة ففتحها .

وهب فى وجهه هواء رطب ، ثقيل ، لزج ، وكأنه كان يسير فى قبو تعمره العناكب . فقال فى نفسه : « رطوبة ! .. لسوف يكون الغد شديد الحرارة . هذا هو السر فى ركود الهواء وثقله حتى ليكاد يخنق الانفاس ! »

وكانت المحطة التى وقف بها القطار كبيرة ، ولعلها كانت ملتقى خطوط حديدية . وكان ثمة شعوز من الخواء ، والنبذ ، والاهمال – الى جانب الرطوبة وركود الهواء – وكأن القطار قد ضاع وصار نسيا منسيا . ولا بد انه كان يقف فى اقصى ساحة مخزن القطارات ، بعيدا ، حتى ان أحدا من ركابه ما كان ليفطن الى شىء لو ان الارض انشقت وابتلعت مبنى المحطة !

وكان هناك صوتان يسمعان واهنين ، عن بعد .. ففى الخلف ، من الناحية التى جاء منها القطار ، كان ثمة صوت كذلك الذى يصدر عن الثياب وهى تخض أثناء الغسيل ، أو كأنه الريح تصفع علما مثقلا بالبلل ، فتضربه بالسارية التى شد اليها . ومن الامام ، كانت تتناهى أصوات هزيم جعلت « يورى » – بما له من خبرة بالحرب – يرهف اذنيه فى اصغاء ، ثم يقول فى نفسه بعد طول انصات للصوت الذى كان يتردد عميقا ، خفيضا ، مكتوما لبعد المسافة : « المدفعية ! »

وهز رأسه وهو يقفز من العربة ، قائلا فى نفسه : « هذه هى الحقيقة . اننا الآن فى الجبهة ذاتها ! » . وسار الى الامام بضع

خطوات . وبعد عربتين ، انتهى القطار . كانت بقية العربات قد فصلت واختفت مع القاطرة . وقال فى نفسه مرة اخرى : « اذن فهذا هو السر فى انهم كانوا محبوسين فى عرباتهم بالامس . كان لديهم شعور بأنهم سيلقون بهم فى المعمعة بمجرد وصولهم ! » .

ودار حول العربة الامامية معتزما ان يعبر الخط الحديدى ، ليبحث عن الجزء الرئيسى من المحطة . **ولكن حارسا اعترض طريقه مشهرا بندقية ، وقال بصوت خافت : « الى أين تذهب ؟ .. ألديك جواز مرور ؟ »** . فسأله بدوره : « ماهذه المحطة ؟ »

ـ لتكن هذه المحطة ما تكون ، فما شأنك ؟ .. من أنت ؟

ـ انا طبيب من موسكو . أننى واسرتى مسافرون فى هذا القطار . هاك اوراقى ..

ـ تستطيع ان تحشرها فى ... اننى لست من الغباء بحيث احاول القراءة فى الظلام . فهناك ضباب ، الا ترى ؟ .. ثم أننى لست بحاجة الى اية أوراق لاعرف اى نوع من الاطباء انت ! .. **كم من اطباء مثلك يطلقون علينا بنادق عيار ١٢ بوصة . ان بوسعى ان أمحو مخك ، ولكن الوقت لايزال مبكرا لمثل هذا الاجراء .. فارجع من حيث أتيت قبل ان اقضى عليك !**

وقال يورى فى نفسه : « انه يظننى شخصا آخر ! » . وبدا من الواضح ان لا جدوى من الجدال ، وان من الخير ان يأخذ بنصيحة الحارس قبل ان لا يعود ينفع الندم . ومن ثم فانه نكص على عقبيه ، وسار عائدا . وكانت طلقات المدفع ، المنبعثة من ورائه ، قد انقطعت . وكان الشرق وراءه .. ومن هناك ، كانت الشمس قد بزغت فى غلالة من الضباب ، وأخذت تطل فى وجوم خلال الاشباح الطافية ، كأنها رجل عار وسط سحائب من بخار الحمام !

* * *

وسار يورى بطول القطار ، ثم تجاوز العربة الاخيرة ، فأخذت قدماه تغوصان شيئا فشيئا فى رمل ناعم . وأصبح الصوت المنتظم

الذى يشبه صوت ارتطام الثياب بالماء أثناء غسلها ، اقرب من ذى قبل . واخذت الارض تشتد انحدارا . ووقف محاولا ان يتبين الاشكال التى كان من العسير تمييزها أمامه ، والتى جعلها الضباب تبدو أكبر مما هى . وتقدم خطوة اخرى ، فبرزت له من الظلام هياكل مراكب سودتها العتمة . كان ثمة نهر واسع امامه ، وقد راحت مياهه المتثاقلة ترتطم فى بطء واعياء بجوانب اكواخ الصيادين والواح المراسى المقامة على الشاطىء .

وانتصب أمامه جسم ، فاذا بحارس آخر يحمل بندقية ، ويسأله: « من الذى اذن لك فى ان تحوم حول هذا المكان ؟ » . فبادره يورى متسائلا ، رغم انه كان قد عقد العزم على ان لا يوجه أية اسئلة : « اى نهر هذا ؟ » . وكان جواب الحارس ان وضع صافرته فى فمه . بيد ان مقدم الحارس الآخر ، الذى كان يعتزم استدعاءه ، اعفاه من ذلك . فقد ظهر ان الرجل كان يقفو اثر « يورى » دون ان يحدث صوتا . ومن ثم فقد انضم الى زميله ، ووقفا يتحدثان :

— ما من شك فى الامر ، فبوسعك ان تعرف هذا الصنف من الناس لاول وهلة .. « ما هذه المحطة ؟ » .. « اى نهر هذا ؟ » .. انه يذر الرماد فى عينيك ! فما رأيك ؟ .. هل نأخذه الى حاجز المياه مباشرة ، أو الى القطار اولا ؟

— ارى ان نأخذه الى القطار ، لنرى ما يقوله الرئيس !

ثم صاح فى يورى : « اين أوراقك ؟ » . واطبق راحته على الاوراق ، ثم التفت خلفه مناديا شخصا ما ، وهو يقول : « انتبه له ! » . وسار مبتعدا — مع الحارس الاول — نحو المحطة . وكان الشخص الثالث ، الذى لم يكن يورى قد تبينه قبل ذلك ، من صيادى السمك ، وقد كان مستلقيا على الشاطىء الرملى ، ثم زمجر ، وتحرك ، وشرع يبصر يورى بموقفه : « من حسن حظك انهما سيحملان امرك الى الرئيس ، فلعل فى ذلك نجاتك . ولكن لاتلمهما، فانما هما يؤديان واجبهما ، فان السيادة اليوم للشعب ، ولعل هذا يكون أفضل ، على مر الزمن ، وان لم يكن ثمة مايوحى بذلك الآن .

لقد أخطأ هذان الحارسان ، كما تستطيع ان تتبين . ذلك لان القوم يبحثون ، ولا يكفون عن البحث طيلة الوقت ، عن شخص معين ، ومن ثم ظنك الحارسان اياه ، وقالا لنفسيهما : « ها هو ذا رجلنا .. ها هو ذا عدو دولة الطبقة العاملة ، لقد عثرنا عليه ! » . غلطة .. هذا كل مافى الامر ! .. والذى ينبغى عليك أن تفعله — اذا حدث شيء — هو ان تصر على رؤية الرئيس ، ولا تمكن هذين الحارسين من اية غاية ، فانهما على وعى سياسى . وياله من نحس ادعو الله ان يعيننا عليه ! .. انهما قد لا يريان فى القضاء عليك اية غضاضة . فاذا جاءاك وقالا : « هيا معنا ! » ، فاحرص على ان لا تذهب ، وقل انك تريد ان تقابل الرئيس ! »

وعلم يورى من صائد السمك ان ذاك النهر كان المجرى المائى المشهور (ريفنا) ، وان المحطة التى كانت الى جانب النهر هى المحطة التى يهبط فيها الذاهب الى (يورياتين) . كذلك علم منه ان من المحتمل ان (يورياتين) — التى كانت على بعد ميلين من المحطة ، فى اتجاه منبع النهر — قد وقعت ثانية فى أيدى البيض ، وان ثمة اضطرابات فى (رازفيليى) يبدو انها قد اخمدت هى الاخرى ، وان سر السكينة التى تحيط بالمحطة وما جاورها ، يرجع الى ان المنطقة كلها قد أخليت من المدنيين ، وحرم ارتيادها تحريما باتا . ثم علم يورى — فى النهاية — ان عربات بعض القطارات اخذت لتستخدم كمراكز لقيادة الجيش ، وان بين هذه العربات قطار قوميسار الجيش « ستريلنيكوف » ، الذى ذهب الحارسان ليرفعا أمر « يورى » اليه .

وما لبث أن اقبل حارس ثالث من الاتجاه الذى ذهب فيه الآخران ، وكان يمتاز عنهما بأنه راح يجر بندقيته وراءه — ومؤخرتها تحتك بالارض — او كان يدفعها أمامه وكأنها زميل يحبو على الارض فى وضع مقلوب ، مستندا اليه .. وقد اصطحب هذا الحارس « يورى » الى القوميسار .

— ٢٨ —

• **انبعثت** اصوات ضحك وحركة من احدى العربتين المتصلتين اللتين صحب الحارس « يورى » اليهما — بعد ان أعطى كلمة السر للحراس — بيد ان هذه الاصوات انقطعت عند ما اقبل الحارس ويورى على تلك العربة . واقتاد الاول الثانى خلال ردهة ضيقة الى مقصورة كبيرة واسعة فى وسط العربة . وكانت أشبه بحجرة نظيفة ، وثيرة ، يعمل فيها قوم نظيفو الثياب أنيقوها ، وقد سادهم صمت مطلق . وكانت الفكرة التى خامرت يورى عن «ستريلنيكوف» — الخبير العسكرى غير الحزبى ، ذى الصيت الواسع ، والذى كان فخر المنطقة ومصدر ذعرها — تختلف عما اوحى به ذلك الوسط .

على انه لم يكن ثمة شك فى ان المركز الحقيقى لنشاطه كان فى مكان آخر ، جد قريب من مركز قيادة أركان الحرب ، ومسرح العمليات الحربية . ومن ثم فلا بد ان المكان الذى ولجه يورى كان مكتبا خاصا ، ومقرا ينام فيه . وكان هذا هو السر فى السكون الذى زاد من شموله ان ارض العربتين كانت مكسوة بالفلين ، وكان العاملون فيها يرتدون نعالا خفيفة لا يصدر عنها صوت أثناء سيرهم .

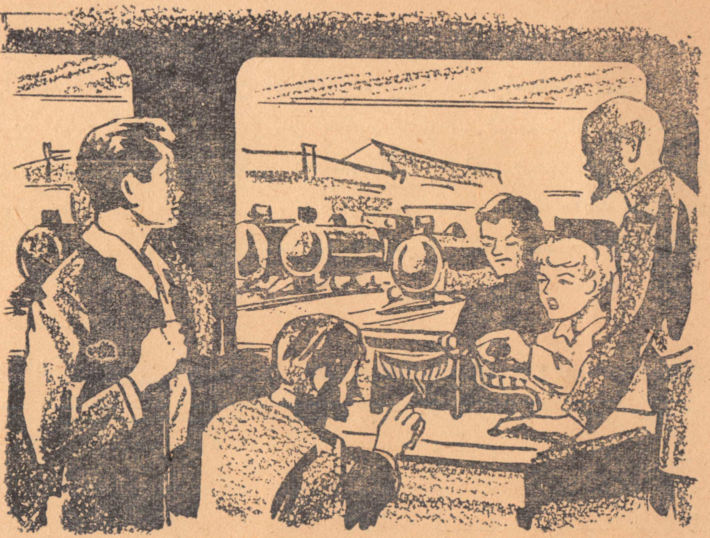
وكانت العربة التى جعلت ادارة ومكتبا ، عربة طعام فى أصلها ، وقد فرشت ببساط سميك ، وقامت فيها بضعة مكاتب . وقال ضابط شاب كان مكتبه بالقرب من الباب : « لحظة واحدة ! » . وأومأ برأسه يصرف الحارس ، وهو شارد الذهن ، فخرج هذا . وسمع صوت بندقية وهى ترتطم بالاشرطة المعدنية المثبتة على أرض الردهة الضيقة فى الخارج . وبعد ذلك ، أحس كل شخص بأن من حقه أن ينسى وجود يورى ، وان لا يعيره اى اهتمام . وابصر يورى ، من موقفه عند المدخل ، اوراقه ملقاة على مكتب فى الركن الاقصى من الحجرة .. وقد جلس الى المكتب رجل أكبر سنا من الباقين ، وقد بدا كأنه « كولونيل » من الطراز القديم . وكان من

خبراء الجيش بالاحصاءات ، وقد راح يغمغم لنفسه بكلمات غير مسموعة ، وهو يتفقد بعض المراجع ، ويدرس خرائط الميدان ، ويحصى ، ويقارن ، ويلصق بعض أشياء فى سجل خاص . وبعد ان تلفت حوله ملقيا بصره الى كل نافذة فى المكان ، قال بصوت يسمعه الآخرون : « ستشتد وطأة الحر ! » .. كأنما كان تأمله كل النوافذ هو الذى اوحى اليه بهذا الاستنتاج !

وكان ثمة كهربائى من رجال الجيش يزحف على الارض ، ليصلح بعض الاسلاك التى انفصلت ، حتى اذا بلغ المكتب المجاور للباب ، نهض الضابط الشاب ليفسح له مكانا . وعلى المائدة المجاورة ، كان ثمة موظف موكل بآلة كاتبة — وقد ارتدى سترة جلدية — منهمكا فى اصلاح آلة كاتبة انزلقت اسطوانتها الى أقصى أحد الجانبين ، ولم تعد تتحرك . فوقف الضابط الشاب عند الآلة ، وراح يفحص الخلل من عل ، دون ان يحنى ظهره ، بينما زحف الكهربائى الى ما تحت المائدة وأخذ يفحص الآلة من اسفل . ونهض «الكولونيل» القديم الطراز فانضم اليهم ، وشغل الاربعة جميعا بالآلة الكاتبة !

وبعث هذا المنظر فى نفس « يورى » شيئا من الاطمئنان ، فلا بد ان هؤلاء القوم كانوا ادرى منه بمصيره ، فما كان من المعقول ان يبدوا كل هذا الشغل بالتوافه ، فى حضور رجل يدركون انه مقضى عليه بالهلاك ! .. ثم قال فى نفسه : « ومع ذلك ، فمنذا الذى يدرى ؟ .. لماذا يغفلون الاهتمام ، الى هذا الحد ؟ .. ان المدافع تنطلق ، والناس تموت ، وهم هنا يتنبأون بالحرارة ، وهم مستريحو البال .. يتنبأون بحرارة الطقس وليس بحرارة المعركة ! .. لعلهم — على كل حال — قد رأوا من الاحداث مالم يبق على شىء من ارهاف المشاعر لديهم ! » .

ولكى يصرف عينيه عن النظر اليهم ، ارسل بصره عبر الحجرة ، وراح يحملق خلال النافذة المقابلة لمكانه .



— ٢٩ —

• وكان بوسعه ان يرى من مكانه حافة الخطوط الحديدية ، والمحطة التى قامت على التل ، على مستوى أكثر ارتفاعا .. وضاحية (رازفيليى) . وكانت ثمة درجات خشبية ثلاث ، خالية من الطلاء ، تفضى من الرصيف الى مبنى المحطة . وفى أقصى اطراف الخطوط الحديدية قامت مقبرة للقاطرات القديمة : قاطرات بدون خزانات للوقود ، ذات مداخن تشبه « التزلك » ، أو تشبه اكواب الماء ، وقد قامت مدخنة تلاصق مدخنة ، وسط أكوام من الفضلات الحديدية .

مقبرة القاطرات فى اسفل ، ومقبرة الآدميين فى اعلى .. وحديد القضبان الملتوى المتراكم ، وحديد السقوف ولافتات الحوانيت ، فى الضاحية ، وقد علاه الصدأ . كل هذا كان يؤلف صورة واحدة للاهمال ، والبلى ، تحت السماء البيضاء التى كأنما لعقت لونها حرارة الصباح الباكر !

وكان يورى ، أثناء اقامته فى موسكو ، قد نسى كم من لافتات الحوانيت مازالت فى المدن الاخرى ، وكم من واجهات للبنايات كانت تغطيها هذه اللافتات . وكان بعض تلك اللافتات التى لاحت له الآن ، على درجة من الكبر بحيث كان يقرأها بسهولة من مكانه ، وكانت تمتد الى أسفل ، على نوافذ منحرفة لبنايات مائلة ذات طابق واحد ، حتى ان البيوت المعوجة الصغيرة كانت تختفى تقريبا وراء تلك اللافتات ، وكأنها وجوه اطفال قرويين توارت خلف حواف قبعات آبائهم .

وكان الضباب قد تبدد من ناحية الغرب ، وما بقى منه فى ناحية الشرق قد راح يهتز ويتأرجح ، وينفرج كستار على مسرح .. وعلى تل يعلو فوق (رازفيليى) ، ويقوم على بعد ميل او اثنين خلفها ، قامت بلدة كبيرة ، بحجم عواصم الاقاليم . وكانت الشمس تعكس ألوانها ، وبعد المسافة يبسط خطوطها . وكانت المدينة تتدرج فوق المرتفع ، فى صفوف .. بيت بعد بيت ، وشارع تلو شارع .. وقد توسطت القمة كنيسة كبيرة بدت كدير صحراوى فى لوحة ملونة رخيصة .

وقال يورى فى نفسه منفعلا : **((هذه هى يورياتين .. البلدة التى اعتدت ان اسمع عنها كثيرا من ((آنا)) ومن الممرضة ((انتيبوفا)) ! .. ما أغرب ان أراها فى مثل هذه الظروف !))** .

وفى تلك اللحظة ، تحول اهتمام العسكريين عن الآلة الكاتبة ، الى شىء تبدى لهم خلال احدى النوافذ الاخرى ، فالتفت يورى بدوره نحوها .. واذا بفريق من الاسرى يقادون تحت الحراسة الى درجات المحطة . وكان بينهم غلام فى زى مدرسى ، وقد أصيب بجرح فى رأسه ، وأجريت له الاسعافات الاولية ، ولكن خيطا من دم كان ينساب خلال الضمادة ، والغلام لا يفتأ يمسحه بيده ، فوق وجهه المسود ، المجلل بالعرق .. ولقد اجتذب الانظار ــ وهو يسير بين اثنين من رجال الجيش الاحمر ، فى ذيل الجمع ــ لا بما كان يبدو عليه من رباطة جأش ، ولا بحسن طلعته ، ولا بما يثيره فى

النفس مأزق متمرد صغير فى مثل سنه ، فحسب .. وانما كان يستلفت الانتباه بما كان يصدر منه ومن مرافقيه من حركات غير معقولة اطلاقا ، فقد كانوا يفعلون نقيض ما ينبغى ان يفعلوا تماما !

وكان الغلام لايزال يرتدى قلنسوته المدرسية ، فلم تبرح تنزاح عن رأسه المعصوب بالضمادة . وبدلا من ان يخلعها ويحملها فى يده ، راح — فى كل مرة — يردها الى مكانها ويحكم وضعها ، فيزحزح الضمادة ويؤذى الجرح . وكان حارساه يساعدانه فى ذلك عن مبادرة وطيب خاطر . وكان فى هذا التصرف الاخرق شىء رمزى يناقض الادراك السليم ، حتى لقد تاق يورى — وقد تأثر بما كان لهذا الشىء الرمزى من معنى — الى ان يندفع الى الخارج ، فيخاطب الغلام بكلمات كانت تفور وتغلى فى صدره . كان يتحرق الى ان يصرخ فى الغلام ، وفى القوم الذين كانوا فى عربة السكة الحديدية ، بأن الخلاص والنجاة ليسا فى الولاء لصيغ وازياء ، وانما فى طرح الصيغ والازياء جانبا !

* * *

وتحول عن النظر الى النافذة ، واذا ستريلنيكوف يقبل فى خطى واسعة ، قوية ، فيقف فى وسط الحجرة . كيف تسنى له — وهو طبيب ، وله كل اولئك الآلاف من المعارف — ان لا يلتقى قبل اليوم بشخصية محددة المعالم تماما ، كهذا الرجل ؟ .. كيف لم تدفعهما الاقدار من قبل الى لقاء ، وكيف لم يقدر لطريقيهما فى الحياة ان يتقابلا ؟

ولسبب غير معروف ، تجلى — منذ الوهلة الاولى — ان هذا الرجل كان نتاجا مصقولا للارادة والعزيمة . كان كاملا فى نفسه ، النفس التى اختار ان يكونها ، حتى ان كل شىء فيه كان يبدو للمرء — فورا — كمثال نموذجى لنوعه : رأسه المليح الشكل ، المتناسب الاجزاء .. خطوته القوية الطافرة .. ساقاه الطويلتان .. حذاءاه اللذان وصل طماقاهما (التزلك) الى ركبتيه ، واللذان كانا يبدوان

نظيفين ، برغم انهما كانا خليقين بأن يكونا ملطخين بالوحل .. وزيه العسكرى الرمادى ، الذى بدا وكأنه مصنوع من أفضل أنواع التيل ، وكأن المكواة مرت عليه لفوره ، مع انه كان خليقا بأن يبدو مجعدا .

هكذا كان تأثيره الذى لا يقاوم .. تأثير مسلكه الخالى من كل افتعال وتكلف ، وشعوره بأنه فى مجاله الذى خلق له ، فى أى موقف فى الدنيا يمكن ان يخطر بالبال .. وقال يورى فى نفسه انه كان ـ ولا بد ـ ذا موهبة فذة ، ولكنها لم تكن بالضرورة موهبة الاصالة والتفرد . فان قوة الشخصية التى تبدت فى كل حركة من حركاته ، كان من الممكن ان تكون تقليدا ، كما كان من الممكن ان تكون طابعا أصيلا .. فلقد كان كل امرىء يشكل نفسه ـ فى تلك الايام ـ على نمط امرىء آخر ، فيقلد ابطال التاريخ ، او أولئك الذين استولوا على خيال الناس باكتساب السمعة الذائعة فى الميدان ، او فى القتال فى الشوارع .. او اولئك الذين اوتوا نفوذا ومكانة لدى الشعب ، أو هذا الرفيق او ذاك ممن امتازوا على سواهم .. أو كانوا يقلدون بعضهم بعضا !

وكتم ستريلنيكوف ـ فى تأدب ـ كل دهشة أو استياء ربما كان قد ساوره لوجود يورى ، وخاطب رجاله وكأنما كان يورى واحدا منهم : « أهنئكم .. لقد صددناهم ورددناهم على أعقابهم . لكأنى بالامر كله اشبه باللعب منه بحرب جدية ، لانهم لا يقلون عنا انتماء لروسيا وتعلقا بها ، ولكن رؤوسهم محشوة بسفاسف .. وهم يأبون أن ينزلوا عن هذه السفاسف ، ومن ثم فنحن مضطرون الى ان نطردها من رؤوسهم طردا . لقد كان قائدهم صديقا لى ، وانه لأكثر منى انتماء الى طبقة الدهماء ، فى الاصل ، فقد نشأنا فى بيت واحد . ولقد أدى لى خدمات كثيرة فى حياتى ، حتى انتى مدين له بفضل عظيم . ومع ذلك ، فها أنذا اغتبط اذ رددناهم الى ما وراء النهر ، وربما أبعد من ذلك .. اسرع فى أصلاح الاسلاك يا جوريان ، فنحن بحاجة الى التليفون ، وليس بوسعنا ان نكتفى بالرسائل

البرقية وبالسعاة .. الا ترون ان الحر يشتد ؟ .. ومع ذلك فقد استطعت ان اظفر بساعة من النوم . آه ، حقا ! »

والتفت الى « يورى » وقد تذكر انه اوقظ من نومه لينظر فى بعض العبث الذى نسب الى هذا الرجل .. وقال لنفسه وهو يحدجه بنظرة حادة : « هذا الرجل ؟ .. هراء ! انه لا يشبه ذلك فى شىء . ياللحمقى ! » . وضحك قائلا ليورى : « **اعتذاراتى ايها الرفيق . لقد ظنوك شخصا آخر ، فان حراسى يرتكبون الاغلاط . انك فى حل من ان تنصرف .. أين بطاقة العمل الخاصة بالرفيق ؟** .. آه ، ها هى ذى أوراقك . هل لى ان القى عليها نظرة .. جيفاجو .. جيفاجو .. دكتور جيفاجو ، من موسكو .. ومع ذلك، فهل ندلف الى غرفتى لنقضى لحظة معا ؟ .. هذا مقر السكرتيرية التابعة لى . اما أنا فأقيم فى العربة المجاورة . تفضل ، ولن استبقيك طويلا ! »

— ٣٠ —

• **ترى** من كان ستريلنيكوف هذا ؟

كان من العجب المذهل حقا ان يصل الى مركزه ذاك ويحتفظ به ، اذ انه لم يكن من رجال الحزب الشيوعى ، وكان ـ برغم انه ولد فى موسكو ـ غير معروف البتة ، اذ انه تولى بمجرد تخرجه فى الجامعة منصبا للتدريس فى الاقاليم . وقد وقع فى الاسر اثناء الحرب ، وأذيع انه مفقود ، ثم رجح الظن بأنه قتل .. ولم يقدر له ان يعود من الاسر فى ألمانيا الا مؤخرا . وما دفعه وشهد له بالجدارة سوى « تيفرزين » ، عامل السكك الحديدية ، ذى الآراء السياسية المتطرفة ، الذى أقام « يورى » بين اسرته فترة من الزمن وهو صغير !

.. ولقد بهر ستريلنيكوف اولئك الموكلين بالمناصب ، فى تلك الايام غير العادية التى كان لاجادة الخطابة والتطرف السياسى شأن كبير فيها .. فان حماسه الثورى الجامح كان يلائم روح الوقت ،

واستطاع ان يبرز بصدق حميته ، وبتهوسه فى التطرف ، وهما خلتان لم يقتبسهما عن أحد ، ولا جاءتاه عفوا ، وانما كانتا من وحى نفسه ، وقد اصطنعهما لنفسه متعمدا ، وأنمتهما ظروف حياته .

واستطاع أن يكون اهلا لثقة السلطات .. وكان بين ما تضمنته صفحته فى النضال ـ خلال الاشهر القلائل الاخيرة ـ حرق (كيلمس) السفلى ، التى عطل الجليد عندها قطار يورى .. وقمع تمرد فلاحى (جوباسوفو) الذين لجأوا الى المقاومة المسلحة ضد مافرض عليهم تقديمه من اغذية .. والقضاء على تمرد رجال الكتيبة الرابعة عشرة الذين اغتصبوا قافلة للمؤن . كذلك تولى أمر جنود « رازين » ـ الذين اشعلوا ثورة فى بلدة (تركاتوى) ، وانضموا الى صفوف البيض (١) ـ ومتمردى (تشيركين اوس) ، حيث لقى قائد موال للحمر مصرعه !

وكان توفيقه فى كل حالة باعثا على الدهشة والعجب .. فقد كان يتحرى ، ويجرى التحقيقات ، ويعقد المحاكمات ، ويصدر الاحكام ، وينفذ أحكامه بسرعة ، وقسوة ، وحزم . واستطاع ان يفرض سلطانه على وباء الفرار من الجيش ، واعاد تنظيم صفوف المجندين . وكان من نتائج ذلك ان اشتدت حركة التطوع ، وراحت مراكز استقبال المتطوعين فى الجيش الاحمر تعمل بنشاط محموم !

وأخيرا ، ما ان ازداد ضغط البيض من الشمال ، وأصبح الموقف خطيرا ، لا سبيل الى انكار خطورته ، حتى وكلت الى ستريلنيكوف مسئوليات جديدة حربية : تخطيطية ، وتنفيذية ، فاذا جهوده تؤتى ثمارا مباشرة سريعة .. **وكان « ستريلنيكوف » ـ ومعنى الاسم « السديد الرماية » ـ يعرف ان الشائعات قد أطلقت عليه اسم « رازستريلنيكوف » ـ أى « الجلاد » ، منفذ حكم الاعدام ـ ولكنه تلقى هذا اللقب فى هدوء ، فما كان لشىء ان يضايقه !**

---

(١) كان « ستينكا رازين » قائد ثورة شعبية فى القرن السابع عشر ، وقد أطلق اسمه على الثوار من أتباع مدرسته .

ولقد كان ابوه عاملا ، سجن لاشتراكه فى ثورة سنة ١٩٠٥ . ولم يكن « ستريلنيكوف » نفسه قد اشترك فى الحركة الثورية فى تلك السنين : لانه كان فى بدايتها صغير السن .. وفيما بعد ، لان الشبان الذين كانوا يصلون الى الجامعة ـ من ابناء الطبقات الفقيرة ـ كانوا أكثر تقديرا من سواهم لقيمة التعليم العالى ، وكانوا اكثر جدا واجتهادا من ابناء الاغنياء . وقد جمع قدرا هائلا من المعرفة ، حتى اذا ظفر بشهادة فى الآداب ، حرص ـ فيما بعد ـ على أن يثقف نفسه فى العلوم والرياضيات .

.. ثم تطوع يوما للانخراط فى الجيش ، فعين صف ضابط ، واوفد الى الجبهة ، حيث وقع فى الاسر .. حتى اذا سمع بنبأ الثورة فى روسيا ، هرب فى سنة ١٩١٧ ، وعاد الى وطنه .. وكان ذا مقدرة فذة على التفكير والجدل الواضحين ، المنطقيين ، كما اوتى نقاء خلقيا عظيما وشعورا بالعدالة والانصاف .. ثم انه كان الى جانب ذلك دؤوبا فى جده ، أمينا ، شريفا .

ولكن عقله كان يفشل فى تمكينه من ان يخترق الحجب ، فى المجال الذى يستطيع رجل العلم ان يفتح فيه آفاقا جديدة .. فلم يؤت المقدرة على احراز تلك المكتشفات غير المرتقبة .. ثم انه كان فى حاجة ـ لكى يفعل الخير للغير ـ الى قلب لا يخضع للمبادىء ، الى جانب عقله الزاخر بالمبادىء .. قلب من ذلك النوع الذى لا يعرف حالات عامة ، بل لا يعرف من الحالات سوى الخاصة .. قلب مفعم بعظمة الاعمال الصغيرة !!

وكان منذ طفولته مليئا بالآمال السامية والطموح الرفيع ، فاعتاد ان ينظر الى الدنيا كحلبة واسعة ، مترامية الاطراف ، يتنافس فيها كل انسان سعيا وراء الكمال ، وهو يلتزم قواعد التنافس بضمير حى . فلما الفى ان الحياة الحقيقية لم تكن على هذه الشاكلة ، لم يخطر له ان رأيه فى نظام الدنيا كان مبسطا اكثر مما ينبغى ، بل طوى جوانحه على أحزانه وحسراته ، ودفن معها الطموح الى أن يحكم بين الحياة وقوى الظلام التى تشوهها ، والى ان يكون بطلا

.. نصيرا للحياة ومدافعا عن مثلها العليا !

واذ كان ممرور النفس ـ لما منى به من خيبة الامل ـ فانه لم يلبث ان تسلح بالثورة !

— ٣١ —

• راح ستريلنيكوف يردد ، اذ استقر بهما المقام فى غرفته : « جيفاجو .. جيفاجو .. من أهل التجارة ، فيما اظن . ام تراك من علية القوم .. آه ، طبيب من موسكو ، حقا .. وذاهب الى (فاريكينو) ؟ .. هذا غريب ، فلماذا تهجر موسكو الى مثل هذا المعزل القصى ؟ »

ـ لنفس هذا الوصف . بحثا عن الهدوء ، والاعتزال ، والانضواء فى غمرة النسيان !

يا للعجب ! .. يالها من فكرة خيالية شاعرية ! .. (فاريكينو) ؟ .. اننى اعرف معظم بقاع هذه المنطقة . لقد كانت فاريكينو ضيعة لكروجر . ما أحسبك قريبا له ؟ .. ما أحسبك وريثه ؟ !

ـ فيم السخرية ؟ .. كونى « وريثا » لا شأن له بالموضوع . وان كانت زوجتى فى الواقع ...

ـ آه ، اذن فأنت تدرك الوضع ! .. ولكننى سأخيب آمالك اذا كنت تشعر بالحنين الى البيض ، اذ اننا طهرنا المنطقة منهم !

ـ اما زلت تسخر منى ؟

ـ ثم انك طبيب ، ضابط طبيب بالجيش ، ونحن فى حرب . ان هذا يدخل فى نطاق اختصاصى فى الواقع . فأنت هارب من الخدمة ! .. ان الخضر (١) ينشدون ـ هم الآخرون ـ ملاذا فى الغابات .. ما مبرراتك ؟

---

(١) كان لقب « الخضر » يطلق على الفوضويين الذين كانوا يقاتلون البيض والحمر على السواء .

— لقد جرحت مرتين،وسرحت كمريض فى حاجة الى النقاهة ..

— لعلك ستدفع الى بعد هذا بشهادة من قوميسارية الشعب للتربية والتعليم او للصحة ، لتثبت انك مواطن سوفييتى ، او « مناصر » ، او « موال ولاء تاما » للنظام السوفييتى ! .. هذه أوقات غامضة يا سيدى العزيز .. هذا هو وقت الحساب الاخير .. انها الاوقات التى تحتاج الى ملائكة ذوى سيوف ملتهبة ، والى وحوش مجنحة من الجحيم ، لا الى أطباء «مناصرين» أو « موالين » . **على اننى انبأتك بأنك حر ، فى حل من الانصراف ، ولن اسحب كلمتى ، ولكن تذكر انها لن تتكرر . ان ثمة شعورا يخالجنى بأننا سنلتقى ثانية ، وإذ ذاك فسوف يكون حديثنا مختلفا عن هذا . فخذ حذرك !**

ولم يهتز « يورى » بالوعيد ، ولا بالانذار ، بل قال : « اننى أعرف ماتظنه فى . وانك لعلى حق ، من وجهة نظرك .. ولكن النقطة التى تبغى ان أناقشك حولها نقطة طالما بحثتها مع شخصية وهمية كانت توجه الى الاتهام طيلة عمرى ، ومن المستغرب حقا ان لااكون قد وصلت فى الجدال الى نتائج .. فأنا قد وصلت فعلا ، ولكننى لا أستطيع ان اشرح هذه النتائج فى كلمتين . لذلك فاسمح لى — اذا كنت حرا كما ذكرت — بأن انصرف ، دون ان اسوى المسألة معك . أما اذا لم أكن حرا ، فعليك ان تقرر ما تفعله بى ، فليست لدى معاذير اقدمها اليك . »

وقطع عليهما الحديث رنين التليفون ، اذ كان الخط قد أصلح . ورفع ستريلنيكوف السماع ، وقال : « شكرا يا جوريان . والآن ، تكرم بارسال شخص يرافق الرفيق جيفاجو الى قطاره . ولست أريد مزيدا من الاحداث التى من هذا القبيل .. ثم صلنى بمصلحة النقل الخاصة برازفيليى ! »

* * *

وعندما انصرف جيفاجو ، اتصل ستريلنيكوف بمحطة السكة

الحديدية تليفونيا ، وقال : « هناك تلميذ أحضروه مع الاسرى ، ولا ينفك يجذب قلنسوته على أذنيه ، كما أن رأسه معصوب بضمادة .. شيء مشين حقا ! .. هذا صحيح .. يجب أن يحظى باسعاف طبى ، اذا كانت حالته تستدعى ذلك .. بكل تأكيد .. اجل ، كانسان عينك تماما ، وستكون مسئولا شخصيا أمامى . تريد مؤنا كذلك ، اذا استدعى الامر ؟ هذا حق ! .. والآن ، لنتكلم فى الامور الجدية .. مازلت اتكلم ، فلا تقطع الخط .. باللعنة ، هناك شخص آخر على الخط .. جوريان ! .. جوريان ! .. لقد قطعوا الاتصال !»

وعدل عن محاولة اتمام حديثه مؤقتا ، وراح يقول لنفسه : « **ربما كان الغلام من تلاميذى القدامى ، وقد رأى انه كبر ، فجاء يقاتلنا !** » .. وأحصى السنين التى انقضت مذ هجر التدريس ، ليتبين ماذا كان من المحتمل ان الغلام كان يوما من تلاميذه .. ثم اطل من النافذة ، وتطلع نحو الافق ، وراح يبحث عن الحى الذى كان يعيش فيه مع زوجته ، فى (يورياتين) .. هب ان زوجته وابنته مازالتا مقيمتين هناك !.. أليس بوسعه أن يذهب اليهما ؟.. ولم لا يذهب الآن ، فى هذه اللحظة بالذات ؟ .. ان بوسعه ان يذهب ، ولكن كيف ؟ .. لقد كانتا تمتان الى حياة أخرى . فعليه اولا ان يمضى فى هذه الحياة الجديدة الى نهايتها ، ثم يكون له ان يعود الى تلك الحياة التى قطع استرسالها .

لسوف يفعل ذلك يوما ما .. يوما ما .. ولكن متى..متى ؟

انتهى الفصل السابع ، وهو نهاية الجزء الاول ، ويليه الجزء الثانى والاخير ، الذى يبدأ بالفصل الثامن

٢٠/٨/١٩٥٩

من مطبوعات كتابى

.. الى قرائها « الجدد »

• يهم « مطبوعات كتابى » ، فى ختام اول عدد ضخم (مزدوج) تصدره منذ مولدها ، ان تتوجه بحديث قصير الى قرائها «الجدد» ، الذين قد يكون هذا أول عهدهم بلمس المجهود المتفانى الذى تبذله فى سبيل تأدية رسالتها ، كما تفهمها .. (أما قرائها القدامى ، الذين عاصروها منذ نشأتها ، بل الذين ولدت وترعرعت فى رعايتهم، فأغلب الظن انهم فى غنى عن تعريفهم برسالتها !)

فاذا كنت قد استمتعت بالكتاب الذى بين يديك ، سواء من حيث أسلوب الترجمة ، أو طريقة الاخراج والطباعة ، أو الذوق الفنى الذى يهيمن على كل صغيرة وكبيرة فيه .. فقد تحب ان تعرف شيئا عن ماضى هذه السلسلة ، وأوجه نشاطها فى السنوات القليلة السابقة من حياتها .

صدرت « مطبوعات كتابى » منذ أقل من اربع سنوات ، لتكون توأما مكملا لرسالة شقيقها « كتابى » . ولعلك تعرف ان رسالة « كتابى » هى نشر « ملخصات » وافية مشبعة لشوامخ الكتب العالمية . ملخصات تغنى القارىء المتعجل عن قراءة الكتب الاجنبية المطولة ، بلغاتها الاصلية ، وثمنها الفادح ، فتوفر له وقته .. ومجهوده .. وماله .. فى وقت واحد !

ولكن لم تمض على صدور « كتابى » أعوام ثلاثة ، حتى تكاثر عليه الحاح قرائه ، مطالبينه بأن يقدم لهم سلسلة مكملة له ، تسر لهم قراءة أعظم الشوامخ العالمية بنصها الكامل ، فى ترجمة سلسة الاسلوب ، أنيقة المظهر ، زهيدة الثمن ..

وأمام هذه الثقة ، وهذا الالحاح ، لم يكن فى وسع « كتابى » أن يتنصل من هذه المهمة .. فكان ان أصدر لقرائه هذه السلسلة التوأم « مطبوعات كتابى » ، متخذا لها شعارا لا تحيد عنه قيد أنملة ، هو أن تتضمن « الترجمة الكاملة ، الامينة ، لشوامخ الكتب العالمية » .. **وأنت تعلم ولا ريب أن هناك عشرات من السلاسل الدورية تقدم لك الروايات الاجنبية مترجمة باختصار ، وتصرف .. ولكن ليس فى العالم العربى الا سلسلة واحدة تكلف نفسها مشقة التزام مبدأ الترجمة الكاملة للكتب التى تقدمها ، وهذه**

السلسلة هى .. « مطبوعات كتابى » !

أقول انها « تكلف نفسها مشقه » التزام مبدأ الترجمة الكاملة ، وليس فى هذا القول أدنى مغالاة . فمن المسلم به ان الاختصار والتصرف فى أى كتاب أو قصة طويلة ، يكون ادعى الى رواجها واقبال عدد كبير من القراء السطحيين ، غير المثقفين ، على قراءتها ، لانها « تغربل » لهم القصة الاصلية من كل « دسم » او تحليل ، أو تعمق ، قد يضايقهم لانه يضطرهم الى امعان الفكر وبذل المجهود .. وتقدم لهم فى النهاية « هيكلا » خفيفا لطيفا لم يبق منه غير الحوادث المشوقة والحركة المستمرة التى تلهث وراءها أنفاسهم !

لكن ذلك ليس من الادب أو الثقافة فى شىء .. ومثله مثل الاستغناء « بالسندويتشات » عن الوجبات الكاملة الدسمة الغذاء ! .. ومن ثم فقد أبت مطبوعات كتابى ان تنساق فى تيار الاغراء بالرواج الشعبى والكسب الكثير ، السهل ، الميسور .. وأصرت — وما تزال تصر — على متابعة رسالتها التى أخذتها على عاتقها ، وهى تقديم « الترجمة الكاملة الامينة لشوامخ الكتب العالمية . »

واذا كان الكتاب الذى بين يديك أقوى شاهد على امانة السلسلة فى تأدية رسالتها ، فانه ليس أول شاهد على ذلك ، اذ سبقته قائمة حافلة ، بلغت حتى الآن خمسة واربعين كتابا ، قدمتها (مطبوعات كتابى) فى سنواتها الاربع الماضية .. وفيما يلى بيان كامل بهذه القائمة التى تعتز بها السلسلة ، مشفوعة بأسماء مؤلفيها :

قصة مدينتين

تشارلس ديكنز

ذات الثوب الابيض

ويلكى كولينز

الخالدون

ديل كارنيجى

الخاطئة

سومرست موم

حياة امرأة

جي دي موباسان

(جزءان)

الخطيئة الاولى وفتاة من الاقاليم

البرتو مورافيا

اوديب

سوفوكليس واندريه جيد

مدام بوفاري

جوستاف فلوبير

(جزءان)

عاشقات فى الخريف

ستيفان زفايج

قلوب ضالة

رابندرانات طاغور

ديكاميرون

جيوفاني بوكاشيو

الظمأ للحب

ميكا والتاري

جين اير

شارلوت برونتي

(٣ أجزاء)

فاتنات الرجال

مارجوري كورجين

رجال ونساء

مكسيم جوركي

الثأر للوطن
جون شتاينبك
فرنسا الجريحة على ضفاف النيل
ادوين جون ديفيز
الابن الضال
هنرى بوردو
أسرار الجاسوسية
برنارد نيومان
بيلا دونا
روبرت هتشنز
(٢ أجزاء)
بوشكين
نيديا لامبير
اعترافات روسو
جان جاك روسو
(٥ أجزاء)
قصص من الصين
اروع نماذج الادب الصينى القديم والحديث
ليالى بلزاك
اونوريه دى بلزاك
(الف ليلة وليلة الفرنسية)
الالياذة
هوميروس
(٣ أجزاء)
قصص من روما
البرتو مورافيا



لاتفرط فى هذا الكتاب الثمين بإعارته لغيرك ..

فمنذ كتب "تولستوى" روايته الكبرى: "الحرب والسلام"، لم يظفر الأدب العالمى بقصة أخرى فى مثل ضخامتها وروعتها.. حتى استوحى الأديب الروسى المعاصر "بوريس باسترناك" من أحداث بلاده قصته الكبرى هذه، التى تجرى وقائعها فى روسيا خلال مايقرب من خمسين عاما.. فزمان الرواية هو النصف الأول من هذا القرن .. ومكانها هو روسيا بأسرها: مدنها وقراها.. سهولها وجبالها.. صحاريها الجليدية، ومناطقها الوسطى، وشواطئها الجنوبية.. فبين موسكو، وليننجراد، وجبال الأورال، وسيبريا، وأوكرانيا.. الخ.. وفى روسيا القيصرية، وروسيا الثورة، وروسيا السوفيتية، يتحرك العشرات من أبطال هذه "الموسوعة" الخالدة، ويتمرسون بالحياة، ويسجلون تجاربهم الرهيبة على صفحات هذا العمل الأدبى الذى مجده العالم كله، وأحدث أكبر ضجة من نوعها فى القرن العشرين!





فلا تهمل فى اقتناء أجزاء هذا الكتاب..
واهدِ نسخة منه إلى صديقك المفضل.

يصدرها
حلمى مراد

مطبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

شركة فن الطباعة ٥٨١٤٩